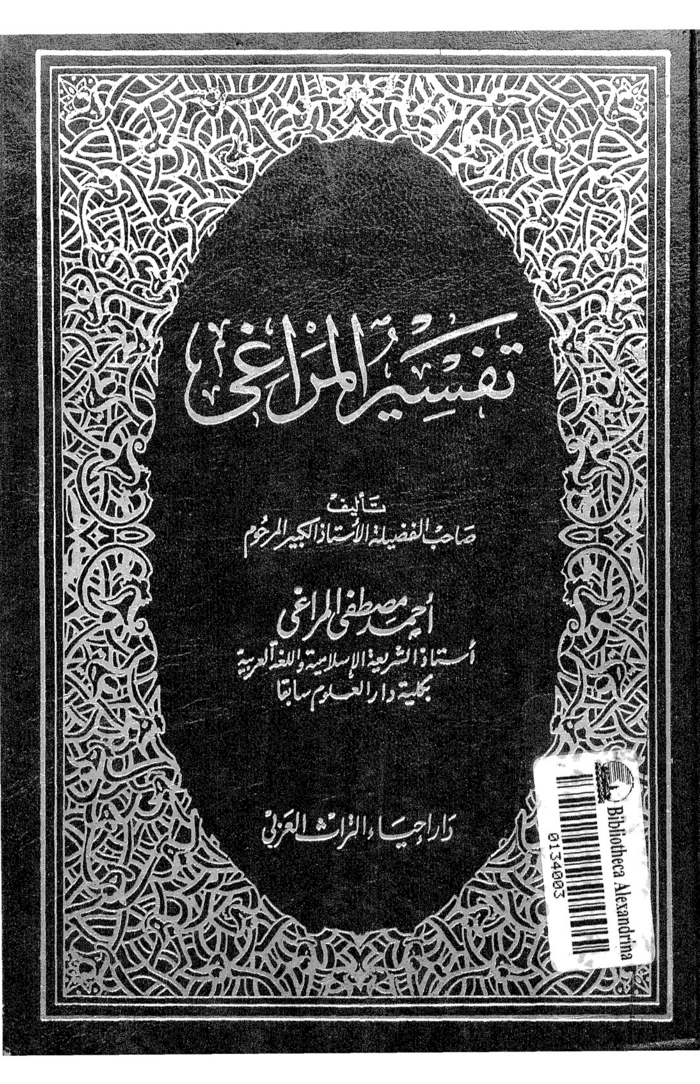


تفسير المراغي
تأليف
صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير المرحوم
أحمد مصطفى المراغي
أستاذ الشريعة الإسلامية واللغة العربية
بكلية دار العلوم سابقا
دار احياء التراث العربي

# تفسير المراغي

تأليف

صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير المرحوم

أحمد مصطفى المراغي

أستاذ الشريعة الاسلامية واللغة العربية
بكلية دار العلوم سابقا

الجزء التاسع عشر

دار إحياء التراث العربي
بيروت

الطبعة الثانية
١٩٨٥

# الجزء التاسع عشر

بسم الله الرحمن الرحيم

وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا (٢١) يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا (٢٢) وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا (٢٣) أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا (٢٤) .

## تفسير المفردات

لايرجون : أى لايخافون كما جاء فى قوله : « مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا » واللقاء : مقابلة الشيء ومصادفته ، ولقاءنا : أى لقاء جزائنا ، واستكبروا فى أنفسهم : أى أوقعوا الاستكبار فى شأن أنفسهم بعدّها كبيرة الشأن ، والعتوّ : تجاوز الحد فى الظلم تجاوزا بلغ أقصى الغاية حيث كذبوا الرسول الذى جاء بالوحى ولم يكترثوا بالمعجزات التى أتاهم بها ، حجرا محجورا : كلمة تقولها العرب حين لقاء عدو موتور أو هجوم نازلة

هائلة ، يقصدون بها الاستعاذة من وقوع ذلك الخطب الذى يلحقهم والمكروه الذى يُلِمّ بدارهم : أى نسأل الله أن يمنع ذلك منعا ويحجره حجرا ، وقدمنا : أى عمدنا وقصدنا ، والهباء كما قال الراغب : دقاق التراب وما انبثّ فى الهواء ولا يبدو إلا فى أثناء ضوء الشمس من كوّة ونحوها . والمستقر : المكان الذى يستقر فيه المرء فى أكثر الأوقات للجلوس والمحادثة ، والمقيل : المكان الذى يُؤْوَى إليه للاستمتاع بالأزواج والتمتع بحديثهن ، سمى بذلك لأن التمتع به يكون وقت القائلة غالبا .

## المعنى الجملى

بعد أن حكى سبحانه أباطيل المشركين السالفة بطعنهم فى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بقولهم « لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا » أردف ذلك بذكر سخافات أخرى لهم فى هذا الصدد فقالوا : هلا أنزل علينا الملائكة فيخبرونا بصدقه ، أو نرى ربنا فينبئنا بذلك ، ثم بين أن هذا عتو عظيم منهم ، ثم أعقب هذا ببيان أنهم سيرون الملائكة حين الهول يوم الجزاء والحساب حين يقولون لهم : لابشرى لكم اليوم بل فيه منعكم من كل خير ، فإن ما قدمتم من عمل صالح فى الدنيا صار هباء منثورا ، ثم أخبر بما يكون لأهل الجنة من خير المستقر ، وحسن المقيل ، فى ظل ظليل ، ونعم لامقطوعة ولا ممنوعة ، حين يقولون : « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ » ولعل فى ذكر هذا مايكون حافزا لهم على مراجعة أنفسهم وتخمير الرأى، ليُرْشَدوا إلى طريق السّداد ، ويُقْلِعوا عماهم فيه من هوى متّبَع ، وشيطان مطاع .

## الإيضاح

(وقال الذين لايرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا) أى وقال الذين ينكرون البعث والحشر ويطعنون فى صدق الرسول فيما أوحى به إليه : هلا أنزل علينا

الملائكة فيخبرونا بأن محمدا صادق فيما يدّعى، فإنا فى شك من أمره ، وفى ريب مما يخبر به. وإن لم يكن هذا فلنر ربنا ونعلم أنه هو حقا بأمارات لا يعتريها لبس ثم يقول لنا : إنى أرسلت إليكم محمدا من لدنى بشيرا ونذيرا ، فإن تم لنا ذلك صدّقناه وآمنا به ، ومامقصدهم من هذا وذاك إلا التمادى فى الإنكار والعناد والعتوّ ومن ثم قال :

( لقد استكبروا فى أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا ) أى والله لقد استكبروا فى شأن أنفسهم ، وتجاوزوا الحد فى الظلم والطغيان تجاوزا بلغ أقصى الغاية ، تكذيبا برسوله ، وشموخا بأنوفهم عن أن ينصاعوا إليه ويتبعوه ، ولم يأبهوا بباهر معجزاته ، ولا كثرة آياته ، وإنهم لقد بلغوا غاية القِحَة فى الطلب ، وفى الحق إن شأنهم لعجب ، وإن العقل ليحار فى أمرهم ، ويَدْهش لقصور عقولهم ، وسذاجة آرائهم ، وضعف أحلامهم ، أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ بِهَٰذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ » ولله در القائل :

ومن جهلت نفسُه قدرَهُ رأى غيرُه منه مالا يَرى

ونحو الآية قوله تعالى : « إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ » .

ثم بين أنهم سيلقَوْن الملائكة حين الهول يوم القيامة لا على الوجه الذى طلبوه ، ولا على الصورة التى اقترحوها ، بل على وجه آخر لم يمر ببالهم فقال :

( يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حجرا محجورا ) أى يوم يرى هؤلاء المجرمون الملائكة فلا بشرى لهم بخير ، إذ يقولون لهم : حجرا محجورا أى محرم عليكم البشرى بالغفران والجنة ، أى جعلهما الله حراما عليكم ، إذ هما لا يكونان إلا لمن اعترف بوحدانية الله وصدّق رسوله .

والخلاصة — لا بشرى يومئذ للكافرين وتقول لهم الملائكة : حرامٌ أن نبشركم بما نبشر به المتقين .

ثم بين السبب فى وبالهم وخسرانهم حينئذ فقال :

( وقدمنا إلى ماعملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا ) أى عَمَدْنا إلى محاسن

أعمالهم التى قاموا بها فى الدنيا كصلة رحم ، و إغاثة ملهوف ، ومن على أسير ونحو ذلك مما لو كانوا عملوها مع الإيمان لنالوا ثوابها ـ فجعلناه كالهباء المنثور لايجدى ولا يفيد .

وخلاصة ذلك ـ إنه تعالى جعل مثل هؤلاء الكفار ومثل أعمالهم التى عملوها حال كفرهم ـ مثل قوم خالفوا سلطانهم واستعصوْا عليه ، فقصد إلى مابين أيديهم فأفسده وجعله شَذَرَ مَذَرَ ، ولم يترك له أثرا ولا عينا .

و بعد أن بين حال الكافرين حينئذ ذكر حال أضدادهم المؤمنين فقال :

( أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا ) أى إن منازل أهل الجنة خير من منازل أولئك المشركين الذين يفتخرون بأموالهم وما أوتوا من الترف والنعيم فى الدنيا ، وأحسن فيها قرارا حين القائلة من مثلها لهم فى الدنيا ، لما يتزين به مقيلهم من حسن الصور وجمال التنوّق والأُبّهة والزُّخْرف وغيرها من المحاسن التى لايوجد مثلها فى الدنيا فى بيوت المترفين ، ولما فيه من نعيم لايشو به كدر ولا تنغيص بخلاف مقيل الدنيا .

---

وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلاً (٢٥) الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمٰنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا (٢٦) وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً (٢٧) يَاوَيْلَتَا لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلاً (٢٨) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولاً (٢٩) .

## المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه فى سابق الآيات أن المشركين طلبوا إنزال الملائكة ـ أردف هذا ببيان أنهم ينزلون حين ينتهى هذا العالم الدنيوى ، ويختلّ نظام الأفلاك ،

والأرض والسموات ، ويحشر الناس من قبورهم للعرض والحساب ، فيعَض الكافر على يديه نادما على مافات ويتمنى أن لوكان قد أطاع الرسول فيما أمر ونهى ولم يكن قد أطاع شياطين الإنس والجن الذين أضلوه السبيل وخذلوه عن الوصول إلى محجة الصواب .

## الايضاح

( ويوم تشقق السماء بالغمام ) أى واذكر أيها الرسول لقومك أهوال هذا اليوم حين تكون شمسنا وكواكبنا والشموس الأخرى وسياراتها أشبه بالغمام ، لأنها تصير هباء متفرقة فى الجو وترجع سيرتها الأولى أى تتحلل وترجع فى الجو كما كانت ويختل نظام هذا العالم المشاهد كما قال تعالى : « وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا . وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا » .

( ونزل الملائكة تنزيلا ) بصحائف أعمال العباد ، لتقدّم لدى العرض والحساب، وتكون شاهدة عليهم لدى فصل القضاء .

( الملك يومئذ الحق للرحمن ) أى الملك الحق فى هذا اليوم ملك الرحمن ، فله السلطان القاهر ، والاستيلاء العام ظاهرا وباطنا ، ولا ملك لغيره فى هذا اليوم وهو الذى يقضى بين عباده بالعدل، ولا شفيع ولا نصير : « يَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ » .

ثم ذكر الهول الذى ينال الكافرين حينئذ فقال :

( وكان يوما على الكافرين عسيرا ) أى وكان ذلك اليوم شديد الهول على الكافرين ، لأنه يوم عدل وفصل للقضاء ، وهو على المؤمنين يسير ، لما ينالهم فيه من الكرامة والبشرى، وفى الحديث «إنه يهون يومُ القيامة على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة صلاّها فى الدنيا » .

ونحو الآية قوله : « فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ . عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ » .

ثم بين شدة ندم المشركين وعظيم حسرتهم فى هذا اليوم :

( ويوم يعض الظالم على يديه يقول ياليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا ) أى وفى هذا اليوم يعَضّ المشرك بربه على يديه ندما وأسفا على مافرّط فى جنب الله ، وعلى ماأعرض عنه من الحق الواضح الذى جاء به رسوله ويقول : ليتنى اتخذت مع الرسول طريقا إلى النجاة ، ولم تتشعب بى طرق الضلالة .

( ياويلتا ليتنى لم أتخذ فلانا خليلا ) أى ياهلكتى احضُرى فهذا أوانُك ، ليتنى لم أتخذ فلانا الذى أضلنى وصرفنى عن طريق الهدى خليلا وصديقا .

ومن الأخلاء الشياطين ، ولا فارق بين شياطين الإنس وشياطين الجن ، ومن هؤلاء أبىّ بن خلف ، فقد روى أن عُقْبة بن أبى مُعَيط كان يكثر مجالسة النبى صلى الله عليه وسلم فدعاه إلى ضيافته فأبى أن يأكل من طعامه حتى ينطق بالشهادتين ففعل ، وكان أبىّ صديقه فعاتبه ، وقال له : صبأت ، فقال : لاوالله ولكن أبى أن يأكل من طعامى وهو فى بيتى فاستحييت منه فشهدت له ، فقال لاأرضى منك إلا أن تأتيه فتطأ قفاه وتبزق فى وجهه ، فوجده ساجدا فى دار النَّدْوَة ففعل ذلك ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : لاألقاك خارجا من مكة إلاّ علوت رأسك بالسيف فأُسِر يوم بدر فأمر عليا فقتله ، وقتل أبىّ بن خلف بيده الشريفة يوم أحد ، طعنه بحربة فوقعت فى ترقوته فلم يخرج منه دم كثير واحتقن الدم فى جوفه فجعل يخور كما يخور الثور ، فأتى أصحابه حتى احتملوه وهو يخور ، فما لبث إلا يوما أو نحوه حتى ذهب إلى النار فأنزل الله الآية .

وعن أبى هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يُحشَر المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالّ » أخرجه أبو داود والترمذى .

وعن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لاتصاحب إلا مؤمنا ولا يأكل طعامك إلا تقىّ » وروى الشيخان عن أبى موسى الأشعرى أن

النبى صلى الله عليه وسلم قال : « مثل الجليس الصالح وجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير فحامل المسك إما أن يحذيك، وإما أن تبتاع منه ، وإما أن تجد منه ريحا طيبة ، ونافخ الكير إماأن يحرق ثيابك ، وإما أن تجد منه ريحا خبيثة » .

ثم بين علة هذا التمنى بقوله :

( لقد أضلنى عن الذكر بعد إذ جاءنى ) أى لقد أضلنى عن الإيمان بالقرآن بعد إذ جاءنى من ربى .

ثم أخبر عن طبيعة الشيطان ودأبه فقال :

( وكان الشيطان للإنسان خذولا ) أى وكان من عادة الشيطان أن يخذل الإنسان فيصرفه عن الحق ويدعوه إلى الباطل ثم لاينقذه مما يحل به من البلاء ، ولا ينجيه منه .

---

وَقَالَ الرَّسُولُ يَارَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا (٣٠) وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا (٣١) .

## المعنى الجملى

بعد أن ذكر مقالاتهم الباطلة ، وتعنتهم الظالم فى الرسول من نحو قولهم : لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا ، وقولهم مالهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق، وقولهم فى القرآن : إن هو إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون ، وقولهم فيه : إن هو إلا أساطير الأولين اكتتبها ــ أعقب ذلك بشكاية الرسول إلى ربه بأن قومه قد هجروا كتابه ، ولم يلتفتوا إلى مافيه من هداية لهم ، ورعاية لمصالحهم فى دينهم ودنياهم، ثم سلاه سبحانه على ذلك بأن هذا ليس دأب قومك فحسبُ ، بل إن كثيرا من

الأمم قد فعلوا مع رسلهم مثل هذا ، فاقتدِ بأولئك الأنبياء ولا تجزع ، ثم وعده وعدا كريما بأن يهديه إلى مطلبه ، وينصره على عدوه ، وكفى به هاديا ونصيرا .

## الايضاح

( وقال الرسول يارب إن قومى اتخذوا هذا القرآن مهجورا ) أى وقال الرسول مشتكيا إلى ربه : رب إن قومى الذين بعثتنى إليهم لأدعوهم إلى توحيدك ، وأمرتنى بإبلاغه إليهم ، قد هجروا كتابك ، وتركوا الإيمان بك ، ولم يأبهوا بوعدك ووعيدك ، بل أعرضوا عن استماعه واتباعه .

وفى ذكره صلى الله عليه وسلم بلفظ (الرسول) تحقيق للحق ، ورد عليهم ، إذ كان ما أوردوه قدحا فى رسالته صلى الله عليه وسلم .

ثم سلى رسوله على مايلاقيه من الشدائد والأهوال ، بأن له فى سلفه من الأنبياء قبله أسوة بقوله :

( وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا من المجرمين ) أى كما جعلنا لك أعداء من المشركين يتقولون عليك مايتقولون من الترهات والأباطيل ويفعلون من السخف مايفعلون ـ جعلنا لكل نبى من الأنبياء الذين سلفوا وأوتوا من الشرائع مافيه هدى للبشر ـ أعداء لهم من شياطين الإنس والجن ، وكانوا لهم بالمرصاد ، وقاوموا دعوتهم، « وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ » .

فلا تجزع أيها الرسول فإن هذا دأب الأنبياء قبلك ، واصبر كما صبروا قال ابن عباس : كان عدو النبى صلى الله عليه وسلم أباجهل ، وعدو موسى قارون ، وكان قارون ابن عم موسى .

ونحو الآية قوله : « وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً » .

ثم وعده بالهداية والنصر والتأييد وغلبته لأعدائه فقال :

( وكفى بربك هاديا ونصيرا ) أى وكفاك ربك هاديا لك إلى مصالح الدين

والدنيا ، وسيبلغك أقصى ماتطلب من الكمال ، وسينصرك على أعدائك ، وستكون لك الغلبة عليهم آخرا ، فلا يهولنك كثرة عَددهم وعُددهم ، فإنى لا محالة جاعل كلمة الله هى العليا وكلمة أعدائه هى السفلى ، فاصبر لأمرى ، وامض لتبليغ رسالتى ، حتى يبلغ الكتاب أجله .

---

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً (٣٢) وَلاَ يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا (٣٣) الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلاً (٣٤) .

## تفسير المفردات

جملة واحدة : أى دفعة واحدة ، لنثبت به فؤادك : أى لنقوى به قلبك ، ورتلناه: أى أتينا ببعضه إثر بعض على تؤدة ومهل من قولهم ثغر مرتّل : أى متفلج الأسنان ، بمثَل : أى بنوع من الكلام جار مجرى المثل فى تنميقه وتحسينه ، ورشاقة لفظه وصدق معناه ، تفسيرا : أى إيضاحا ، يحشرون على وجوههم إلى جهنم : أى يسحبون على وجوههم ويُجرّون إليها .

## المعنى الجملى

بعد أن ذكر مطاعنهم فى الكتاب الكريم كقولهم إن هو إلا إفك مبين ، وقولهم هو أساطير الأولين ـ قفى على ذلك بذكر شبهة أخرى لهم وهى قولهم : لو كان القرآن من عند الله حقا لأنزله جملة واحدة كما أنزلت التوراة جملة على موسى والإنجيل جملة على عيسى والزبور على داود ، فرد الله عليهم مقالتهم ، و بين لهم فوائد إنزاله

منجّما ، فذكر منها تثبيت فؤاده صلى الله عليه وسلم بتيسير الحفظ ، وفهم المعنى ، وضبط الألفاظ ، إلى نحو أولئك ، ثم وعده بأنهم كلما جاءوا بشبهة دحضها بالجواب الحق ، والقول الفصل الذى يكشف عن وجه الصواب ، و بعدئذ ذكر حال المشركين وأنهم حين يحشرون يكونون فى غاية الذل والهوان و يجرّون على وجوههم إلى جهنم وهم مصَفّدُون بالسلاسل والأغلال .

## الايضاح

( وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة ) أى وقال اليهود : هلا أنزل القرآن على محمد دفعة واحدة كما أنزلت الكتب السالفة على الأنبياء كذلك ، وهذا زعم باطل ، ودعوى داحضة ، فإن هذه الكتب نزلت متفرقة ؛ فقد أنزلت التوراة منجمة فى ثمانى عشرة سنة كما تدل على ذلك نصوص التوراة ، وليس هناك دليل قاطع على خلاف ذلك من كتاب أو سنة كما نزل القرآن ، لكنهم معاندون أو جاهلون لايدرون كيف نزلت كتب الله على أنبيائه ، وهو اعتراض بما لاطائل تحته ، لأن الإعجاز لا يختلف بنزوله جملة أو متفرقا .

فرد الله عليهم ماقالوا وأشار إلى السبب الذى لأجله نزل منجما فقال :

( كذلك لنثبت به فؤادك ) أى أنزلناه كذلك لنقوّى قلبك به بإعادته وحفظه كما قال : « وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً » .

وخلاصة تلك الفوائد :

(١) إنه عليه الصلاة والسلام لما كان أميا لايقرأ ولا يكتب، فلو نزّل عليه القرآن جملة واحدة كان من الصعب عليه أن يضبطه ، وجاز عليه السهو والغلط .

(٢) إنه أنزل هكذا ليكون حفظه له أكمل ويكون أبعد عن المساهلة وقلة التحصيل .

(٣) إنه لو أنزل جملة على الخلق لنزلت الشرائع بأسرها دفعة واحدة عليهم ،

ولا يخفى ما فى ذلك من حرج عليهم بكثرة التكاليف مرة واحدة ، ولكن بإنزاله منجّما جاء التشريع رويدا رويدا فكان احتمالهم له أيسر ومرانهم عليه أسهل .

(٤) إنه عليه الصلاة والسلام إذا شاهد جبريل الفَيْنَة بعد الفَيْنَة قَوِى قلبه على أداء ما حُمّل به ، وعلى الصبر على أعباء النبوة ، وعلى احتمال أذى قومه ، وقدر على الجهاد الذى استمر عليه طوال حياته الشريفة .

(٥) إنه أنزل هكذا بحسب الأسئلة والوقائع ، فكان فى ذلك زيادة بصر لهم فى دينهم .

(٦) إنه لما نزل هكذا ، وتحداهم بنجومه وبما ينزل منه ، وعجزوا عن معارضته — كان عجزهم عن معارضته جملة أجدر وأحق فى نظر الرأى الحصيف .

(٧) إن بعض أحكام الشريعة جاء فى بدء التنزيل وَفْق حال القوم الذين أنزلت عليهم ، وبحسب العادات التى كانوا يألفونها ، فلما أضاء الله بصائرهم بهدى رسوله تغيرت بعض أحوالهم واستعدت أنفسهم لتشريع يزيدهم طهرا على طهر ، ويُذْهِب عنهم رجس الجاهلية الذى كانوا فيه ، فجاء ذلك التشريع الجديد الكامل المناسب لتلك الحال الجديدة ، ولو نزل القرآن جملة لم يتسنّ شىء من هذا .

( ورتلناه ترتيلا ) أى وأنزلناه عليك هكذا على مَهَل ، وقرأناه بلسان جبريل شيئا فشيئا فى ثلاث وعشرين سنة .

وبعد أن أبان فساد قولهم بالدليل الواضح أعقبه بما يقوّى قلبه إزاء المشركين ، وأنه قد كتب له الفَلَج عليهم ، فهم محجوجون فى كل آن ، وقولهم مدفوع على كل وجه فقال :

( ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا ) أى ولا يأتيك هؤلاء المشركون بصفة غريبة من الصفات التى يقترحونها ، ويريدون بها القدح فى نبوتك إلا دحضناها بالحق الذى يدفع قولهم ويقطع عروق أسئلتهم السخيفة ، ويكون أحسن بيانا مما يقولون .

ونحو الآية قوله : « بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ » .

والخلاصة — إنهم لايقترحون اقتراحا من فاسد مقترحاتهم ، إلا أتيناك بما يدفعه، ويوضح بطلانه .

وبعد أن وصفوا رسوله بتلك الأوصاف السالفة تحقيرا له ـ سلاه على ذلك ، وطلب إليه أن يقول لهم .

(الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم أولئك شر مكانا وأضل سبيلا) أى إنى لاأقول لكم كما تقولون ولا أصفكم بمثل ماتصفوننى به ، بل أقول لكم : إن الذين يُسْحَبون إلى جهنم ويُجَرّون بالسلاسل والأغلال هم شر مكانا وأضل سبيلا ، فانظروا بعين الإنصاف ، وفكّروا مَنْ أولى بهذه الأوصاف منا ومنكم ؟ لتعلموا أن مكانكم شر من مكاننا ، وسبيلكم أضل من سبيلنا .

وهذا على نسق قوله تعالى: «وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ » .

ويسمُّون هذا الأسلوب فى المناظرة بإرخاء العِنان للخصم ، ليسهل إفحامه وإلزامه ،

روى الترمذى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يحشر الناس يوم القيامة ثلاثة أصناف . صِنْفا مُشاة وصنفا رُكْبانا وصنفا على وجوههم ، قيل يارسول الله ، وكيف يمشون على وجوههم ؟ قال إن الذى أمشاهم على أقدامهم قادر أن يمشيهم على وجوههم ، أماإنهم يتقون بوجوههم كل حَدَب وشوك » والمراد أن الملائكة عليهم السلام تسحبهم وتجرُّهم على وجوههم إلى جهنم ، أو يكون الحشر على الوجوه عباوة عن الذلة والخزى والهوان ، أو هو من قول العرب مرّ فلان على وجهه إذا لم يدر أين يذهب .

---

## قصص بعض الأنبياء مع أممهم

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا (٣٥)
فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا (٣٦)

وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا (٣٧) وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا (٣٨) وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا (٣٩) وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا (٤٠) .

## تفسير المفردات

قال الزجاج : الوزير من يُرجع إليه للاستعانة برأيه ، والتدمير : كسر الشيء على وجه لا يمكن معه إصلاحه ، وأعتدنا هيأنا وأعددنا ، الرس : البئر غير المطوية ( غير المبنية ) والجمع : رساس . قال أبو عبيدة : والمراد بهم كما قال قتادة أهل قرية من اليمامة يقال لها الرس والفَلْج قتلوا نبيهم فهلكوا ، وهم بقية ثمود قوم صالح ، والتتبير: التفتيت والتكسير قال الزجاج : كل شيء كسرته وفتته فقد تبّرته ومنه التِّبْر لفتات الذهب والفضة ، والقرية : هى سذوم أعظم قرى قوم لوط ، لا يرجون : أى لا يتوقعون ، والنشور : البعث للحساب والجزاء .

## المعنى الجملى

بعد أن تكلم فى دلائل وحدانيته ونفى الأنداد ، وفى النبوة وأجاب عن شبهات المنكرين لها ، وفى أحوال يوم القيامة وأهوالها التى يلقاها الكافرون ، وفى النعيم الذى يتفضل به على عباده المتقين ، أردف ذلك بقصص بعض الأنبياء مع أممهم الذين كذبوهم فحل بهم النكال والوبال ، ليكون فى ذلك عبرة لقومه المشركين الذين كذبوا رسوله حتى لا يحل بهم من العذاب مثل ما حل بمن قبلهم إذا هم تمادَوْا فى تكذيبهم وأصرّوا على بغيهم وطغيانهم .

وقد ذكر من ذلك خمس قصص : قصة موسى مع فرعون وقومه . وقصة نوح وقومه . وقصة هود مع قومه عاد . وقصة صالح مع قومه ثمود . وقصة أصحاب الرس .

## قصة موسى وهارون عليهما السلام

( ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلنا معه أخاه هرون وزيرا ) أى ولقد أنزلنا على موسى التوراة كما أنزلنا عليك الفرقان ، وجعلنا معه أخاه هرون معينا وظهيرا له ، ولا تنافى بين هذه الآية وقوله : « وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَرُونَ نَبِيًّا » فإنه وإن كان نبيا فالشريعة لموسى عليه السلام وهو تابع له فيها ، كما أن الوزير متبع لسلطانه.

ثم ذكر ما أمرا به من تبليغ الرسالة مع بيان أن النصر لهما آخرا على أعدائهما .

( فقلنا اذهبا إلى القوم الذين كذبوا بآياتنا فدمرناهم تدميرا ) أى فقلنا لهما اذهبا إلى فرعون وقومه الذين كذبوا بدلائل التوحيد المودَعة فى الأنفس والآفاق ، فلما ذهبا إليهم كذبوهما فأهلكناهم أشد إهلاك .

ونحو الآية قوله : « دَمَّرَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا » .

وفى ذلك تسلية لرسوله وأنه ليس أول من كُذِّب من الرسل ، فله أسوة بمن سبقه منهم .

## قصة نوح عليه السلام

( وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم وجعلناهم للناس آية ) أى وكذلك فعلنا بقوم نوح حين كذبوا رسولنا نوحا عليه السلام ، وقد لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما يدعوهم إلى الله ويحذرهم نقمته « وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ » فأغرقناهم ولم نترك منهم أحدا إلا أصحاب السفينة وجعلناهم عبرة للناس كما قال : « إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ » أى أبقينا لكم

السفينة ، لتذكروا نعمة الله عليكم بإنجائكم من الغرق وجعلكم من ذرية من آمن به وصدّق بأمره .

وفى قوله : كذبوا الرسل وهم لم يكذبوا إلا رسولا واحدا وهو نوح ـ إيماء إلى أن من كذّب رسولا واحدا فقد كذب جميع الرسل ، إذ لافرق بين رسول وآخر ، إذ جميعهم يدعو إلى توحيد الله ونبذ الأصنام والأوثان قاله الزجاج .

ثم ذكر مآل المكذبين فقال :

( وأعتدنا للظالمين عذابا أليما ) أى وأعددنا لكل من كفر بالله ولم يؤمن برسله عذابا أليما فى الآخرة .

وفى ذلك رمز إلى أن قريشا سيحل بهم من العذاب فى الدنيا والآخرة مثل ماحل بأولئك المكذبين إذا لم يرعَوُوا عن غيّهم .

## قصص عاد وثمود وأصحاب الرس وغيرهم

( وعادا وثمود وأصحاب الرس ) أى ودمّرنا عادا قوم هود عليه السلام بالريح الصرصر العاتية ، وثمود قوم صالح بالصيحة، وأهلكنا أصحاب الرس الذين كانوا باليمامة وقتلوا نبيهم . واختار ابن جرير أنهم أصحاب الأخدود الذين ذُكِروا فى سورة البروج وسيأتى ذكر قصصهم .

( وقرونا بين ذلك كثيرا ) أى وأمما كثيرة أهلكناهم لما كذّبوا رسلنا .

ثم ذكر أنه أنذر أولئك المكذبين وحذرهم قبل أن أوقع بهم فقال :

(وكلا ضربنا له الأمثال وكلا تبرنا تتبيرا) أى وكل هؤلاء أوضحنا لهم حججنا، وبينا لهم أدلتنا ، وأزحنا عنهم الأعذار ، فتمادَوْا فى كفرهم وطغيانهم ، فأهلكناهم أفظع الإهلاك وأشده .

ثم ذكّر مشركى مكة بما يرونه من العِبَر فى حِلّهم وتَرْحالهم وما يشاهدونه مما حل بأولئك الأمم المكذبة من المَثُلات فقال :

( ولقد أتوا على القرية التى أمطرت مطر السوء ) أى وتالله لقد مرّ هؤلاء المكذبون فى رحلة الصيف على سذوم أعظم قرى قوم لوط وقد أهلكها الله بأن أمطر عليها حجارة من سجيل ، لأن قومها كانوا يعملون الخبائث ، وحذّرهم لوط ، فما أغنت عنهم الآيات والنذر .

ثم وبخهم على تركهم التذكر حين مشاهدة مايوجبه فقال :

( أفلم يكونوا يرونها ؟ ) أى أفلم يروا مانزل بتلك القرية من عذاب الله بتكذيب أهلها رسول ربهم فيعتبروا ويتذكروا ويراجعوا التوبة من كفرهم وتكذيبهم لرسوله .

ثم أبان أن عدم التذكر لم يكن سببه عدم الرؤية ، بل منشؤه إنكار البعث والنشور فقال :

( بل كانوا لايرجون نشوراً ) أى إنهم ما كذّبوا محمدا صلى الله عليه وسلم فيما جاءهم به من عند الله ، لأنهم لم يكونوا رأوا ماحل بالقرية التى وُصِفت ، بل كذبوه من قِبَل أنهم قوم لايخافون نشورا بعد الممات ، ولا يوقنون بعقاب ولاثواب فيردعهم ذلك عما يأتون من معاصى الله .

---

وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُواً أَهَٰذَا الَّذِى بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً (٤١) إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلاَ أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً (٤٢) أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً (٤٣) أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً (٤٤) .

## المعنى الجملى

بعد أن ذكر مطاعن المشركين فى النبى صلى الله عليه وسلم وأورد شبهاتهم فى ذلك ـ أردف هذا بيان أن ذلك ما كفاهم ، وليتهم اقتصروا عليه ، بل زادوا على

ذلك الاستهزاء به والحطّ من قدره حتى لقد قال بعضهم لبعض : أهذا الذى بعث الله رسولا ؟ بل لقد غالَوْا فى ذلك فسمَّوا دعوته إضلالا ، فرد الله عليهم مقالهم وأبان لهم أنه سيَظْهَر لهم حين مشاهدة العذاب مَن الضالّ ومن المضلّ ؟ ثم عَجَّب رسوله من شناعة أحوالهم بعد حكاية أقوالهم وأفعالهم القبيحة ، وأرشد إلى أن مثل هؤلاء يبعد أن يزدجروا عما هم فيه من الغىّ بنصحك و إرشادك، فإن أكثرهم لا يسمعون ولا يعقلون وماهم إلا كالأنعام أو أضل منها سبيلا .

روى أن الآية الأولى نزلت فى أبى جهل ومن معه فإنه كان إذا مر رسول الله صلى الله عليه وسلم مع صحبه قال مستهزئا ( أهذا الذى بعث الله رسولا ) .

## الإيضاح

( و إذا رأوك إن يتخذونك إلا هزوا أهذا الذى بعث الله رسولا ) أى و إذا رآك هؤلاء المشركون الذين قصصتُ عليك قصصهم ـ اتخذوك موضع هزؤ وسخرية وقالوا احتقارا لشأنك هذه المقالة .

ثم ذكر مازاد قبحه فى زعمهم فقال :

( إن كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها ) أى و يقولون إنه قد كاد يصدّنا عن عبادة آلهتنا لولا صبرنا على عبادتها وثباتنا على ديننا .

وفى هذا إيماء إلى وجوه من الفائدة :

(١) إنه صلى الله عليه وسلم قد بلغ من الاحتفال فى الدعوة إلى التوحيد و إظهار المعجزات ، و إقامة الحجج والبينات ، مبلغا شارفوا به أن يتركوا دينهم لولا فرط عنادهم وتناهى عتوهم ولجاجهم .

(٢) الدلالة على تناقضهم واضطرابهم ، فإن فى استفهامهم السابق مايدل على التحقير له ، وفى آخر كلامهم مايدل على قوة حجته ، ورجاحة عقله ، فذكره تحميق لهم وتجهيل لاستهزائهم بما استعظموه .

وبعد أن حكى مقالتهم سفّه آراءهم من وجوه ثلاثة :

(١) (وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا) أى إنهم حين يشاهدون العذاب الذى استوجبوه بكفرهم وعنادهم سيعلمون مَن الضال ومن المضل ؟ وفى هذا رد لقولهم إن كاد ليضلنا عن آلهتنا ، كما أن فيه وعيدا شديدا على التعامى والإعراض عن الاستدلال والنظر .

(ب) (أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا ؟) أى انظر فى حال هذا الذى جعل هواه إلهه ، بأن أطاعه وبنى عليه أمر دينه ، وأعرض عن استماع الحجة الباهرة ، والبرهان الجلى الواضح ، واعْجَبْ ولا تأْبَهْ به ، فإنك لن تكون حفيظا على مثل هذا تزجره عما هو عليه من الضلال وترشده إلى الصراط السوىّ .

وخلاصة ذلك — كأنه سبحانه يقول لرسوله : إن هذا الذى لا يرى معبودا له إلا هواه ، لا تستطيع أن تدعوه إلى الهدى ، وتمنعه من متابعة الهوى ، إنْ عليك إلا البلاغ .

ونحو الآية قوله : « لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ » وقوله : « وَما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّار » وقوله : « لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ » .

وفى هذا الأسلوب تعجيب لرسوله من سوء أحوالهم بعد أن حكى قبيح أقوالهم وأفعالهم ، وتنبيه له إلى سوء عاقبتهم .

قال ابن عباس : كان الرجل فى الجاهلية يعبد الحجر الأبيض زمانا ، فإذا رأى غيره أحسن منه عبد الثانى وترك الأول فأنزل الله الآية .

(حـ) (أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا) أى بل أتظن أن أكثرهم يسمعون حق السماع ماتتلو عليهم من الآيات ، أو يعقلون ماتتضمنه من المواعظ الداعية إلى الفضائل ومحاسن الأخلاق ، حتى تجتهد فى دعوتهم ، وتحتفِل بإرشادهم وتذكيرهم ، وتطمع فى إيمانهم ؛ فما حالهم إلا حال البهائم فى تركهم للتدبر فيما يشاهدون من البينات والحجج ، بل هم أضل منها سبيلا ،

إذ هى قد تنقاد لصاحبها الذى يتعهّدها ، وتعرف من يحسن إليها ومن يسىء ، وتطلب ماينفعها وتجتنب مايضرها ، وتهتدى لمراعيها ومشاربها ، وتأوى إلى معاطنها ومرابضها، لكن هؤلاء لاينقادون لخالقهم ورازقهم ، ولا يعرفون إحسانه إليهم وإساءة الشيطان لهم ، وهو الذى قد زين لهم اتباع الشهوات - إلى أنهم لايرجون ثوابا ، ولا يخافون عقابا ، إلى أن جهالة الأنعام مقصورة عليها ، وجهالة هؤلاء تؤدى إلى وقوع الفتنة والفساد ، وصدّ الناس عن سَنَن السّداد ، ووقوع الهرْج والمرْج بين العباد ، إلى أن البهائم إذ لم تعقل صحة التوحيد والنبوة لم تعتقد بطلان ذلك ، بخلاف هؤلاء فإنهم اعتقدوا البطلان عنادا ومكابرة وتعصبا وغمطا للحق ، إلى أنها لم تعطّل قوة من القوى المودعة فيها ، فلا تقصير مِن قِبلها عن الكمال ، أما هؤلاء فهم مبطلون لقواهم العقلية مضيعون للفطرة التى فطر الله الناس عليها ، وقد قالوا الملائكة روح وعقل ، والبهائم نفس وهوى، والبشر تجمع الكل للابتلاء والاختبار ، فإن غلبته النفس والهوى فضَلَته الأنعام ، وإن غلبته الروح والعقل فَضل الملائكة الكرام .

وتخصيص الأكثر بالذكر ، لأنه قد كان منهم من آمن ، ومنهم من عقل الحق وكابر ، استكبارا وخوفا على الرياسة .

---

أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً (٤٥) ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا (٤٦) وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا (٤٧) وَهُوَ الَّذِى أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا (٤٨) لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا (٤٩) وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ

كُفُورًا (٥٠) وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا (٥١) فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا (٥٢) وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا (٥٣) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا (٥٤) .

## تفسير المفردات

ألم تر : أى ألم تنظر ، إلى ربك : أى إلى صنعه ، مد : بسط ، الظل : مايحدث من مقابلة جسم كثيف كجبل أو بناء أو شجر للشمس من حين ابتداء طلوعها حتى غروبها ، ساكنا : أى ثابتا على حاله فى الطول والامتداد بحيث لايزول ولا تذهبه الشمس ، دليلا : أى علامة ، قبضناه : أى محوناه ، يسيرا : أى على مَهَل قليلا قليلا بحسب سير الشمس فى فلكها ، والسبات : الموت لما فى النوم من زوال الإحساس ، والنشور : البعث ، بشرا : ( تخفيف بشر بضمتين ) واحدها بشور كرسل ورسول : أى مبشرات ، والرحمة : المطر ، بين يديه : أى قدامه ، طهورا : أى يتطهر به ، والبلدة : الأرض ، والميت : التى لانبات فيها ، والأنعام : الإبل والبقر والغنم ، وخصها بالذكر لأنها ذخيرتنا . ومعاش أكثر أهل المدر منها ، وأناسىّ : واحدهم إنسان ( أصله أناسين أبدلت النون ياء وأدغمت فى الياء ) وصرفناه : أى حولناه فى أوقات مختلفة إلى بلدان متعددة ، ليذكروا : أى ليعتبروا ، كفورا : أى كفرانا للنعمة وإنكارا لها ، نذيرا: أى نبيا ينذر أهلها ، والمرج : من قولهم مرج فلان دابته إذا تركها وشأنها ، فرات : أى مُفرِط العذوبة ، أجاج : أى شديد الملوحة ، برزخا : أى حاجزا ، حجرا محجورا : أى تنافرا شديدا فلا يبغى أحدهما على الآخر ولا يفسد الملح العذب ، نسبا وصهرا : أى ذكورا ينسب إليهم ، وإناثا يصاهر بهن .

## المعنى الجملى

لما بين سبحانه جهالة المعرضين عن دلائل التوحيد ، وسخيف مذاهبهم وآرائهم أعاد الكرة مرة أخرى ، فذكر خمسة أدلة عليه نراها عيانا ، وتتوارد علينا ليلا ونهارا ، وتكون دليلا على وجود الإله القادر الحكيم .

## الإيضاح

(١) ( ألم تر إلى ربك كيف مدّ الظل ) أى انظر أيها الرسول إلى صنع ربك ، كيف أنشأ الظل لكل مُظِلٍّ من طلوع الشمس حتى غروبها ، فاستخدمه الإنسان للوقاية من لَفْح الشمس وشديد حرارتها .

( ولو شاء لجعله ساكنا ) أى ولو شاء لجعله ثابتا على حال واحدة لا يتغير ، لكنه جعله متغيرا فى ساعات النهار المختلفة ، وفى الفصول المتعاقبة ، ومن ثم اتُّخِذ مقياسا للزمن منذ القدم ، فاتخذ المصريون (المسلات) وقاسوا بها أوقات النهار على أوضاع مختلفة ، وطرق حكيمة منوّعة ، واتخذ العرب المزاول لمعرفة أوقات الصلاة فقالوا : يجب الظهر عند الزوال : أى إذا تحول الظل إلى جانب المشرق ، والعصر حين بلوغ ظل كل شىء مثله عند الأئمة عدا أبا حنيفة الذى قال : لا يجب إلا إذا بلغ ظل كل شىء مثليه .

( ثم جعلنا الشمس عليه دليلا ) أى ثم جعلنا طلوع الشمس دليلا على ظهور الظل ومشاهدته للحس والعيان ، والأشياء تستبين بأضدادها ، فلولا الشمس لما عُرِف الظل ، ولولا الظلمة ما عُرِف النور .

( ثم قبضناه إلينا قبضا يسيرا ) أى ثم أزلْناه بضوء الشمس يسيرا يسيرا ، ومحوناه على مَهَل جزءا لجزءا بحسب سير الشمس .

(٢) ( وهو الذى جعل الليل لباسا والنوم سباتا وجعل النهار نشورا ) أى ومن آثار قدرته ، وروائع رحمته الفائضة على خلقه ، أنْ جعَل لنفعكم الليل كاللباس يستركم بظلامه

كما يستركم اللباس ، وجعل النوم كالموت لتعطيله الحواس ووظائفها المختلفة كما قال : « وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ » وقال : « اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا » وجعل النهار زمان بعث من ذلك الموت .

وخلاصة ذلك — جعلنا موتكم بالنوم فى الليل ، وجعلنا نشوركم : أى انبعاثكم من النوم الذى يشبه الموت بالنهار ، إذ يُنْشَر الخلق للمعاش كما ينشرون بعد الموت للحساب . قال لقمان لابنه كما تنام فتوقظ ، كذلك تموت فتنْشَر .

ونحو الآية قوله : « وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ » الآية .

(٣) ( وهو الذى أرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته ) أى والله الذى أرسل الرياح مبشِّرات بقدوم الأمطار .

( وأنزلنا من السماء ماء طَهورا ) الطهور اسم لما يتطهر به كالوقود لما توقد به النار والوَضوء لما يتوضأ به ، أى وأنزلنا من السحاب ماء تتطهرون به فى غسل ملابسكم وأجسامكم ، وتنتفعون به فى طبخ مطاعمكم ، وتشربونه عذبا فراتا .

روى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال فى البحر « هو الطَّهور ماؤه ، الحل ميتته » أخرجه أبو داود والترمذى والنسائى .

( لنحيي به بلدة ميتا ) أى وأنزلناه لنحيي به أرضا طال انتظارها للغيث ، فهى هامدة لا نبات فيها ، و بذلك الماء تزدهر بالشجر والنبات والأزهار ، وذلك أشبه بالحياة للإنسان والحيوان .

ونحو الآية قوله : « فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ » وقوله : « فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا »

( ونسقيه مما خلقنا أنعاما وأناسيّ كثيرا ) أى وليشرب منه الحيوان والإنسان ،

وأخر ذكر الإنسان عن النبات والحيوان لحاجته إليهما فى حياته ، ولأنهم إذا ظفروا بماء يسقى أرضهم ومواشيهم لم يعدموا ما يكون منه سقيام .

( ولقد صرفناه بينهم ) أى ولقد صرفنا المطر بين الناس على أوضاع شتى ، فلا تمر ساعة فى ليل ولا نهار إلا كان فيه دليل على آثار قدرتنا ، فننزله على قوم ونحجبه عن آخرين ، فنحن صرفناه بينهم كما صرفنا الليل والنهار ، فالشمس تجرى من عند قوم وتذهب إلى آخرين : « صُنْعَ اللهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ » .

إلى أن الماء يكون جامدا يشبه الحجر ، وسائلا يشبه الزيت وسائر المائعات ، وحينا بخاريا يشبه الهواء ، وهو أيضا غاد ورائح فى الجوّ وفى الأنهار وفى الغدران وفى أجسام النبات والحيوان والإنسان .

( ليذكروا فأبى أكثر الناس إلا كفورا ) أى صرّفناه بينهم ، ليعتبروا ويعرفوا حق النعمة فيشكروا ، ولكن أكثر الناس أبَوْا إلا جحودا للنعمة ، وكفرانا بخالقها.

ثم بين منته على رسوله وأنه كلفه الأحمال الثقال من أعباء النبوة ليزداد شرفا ويعظم قدرا فقال :

( ولو شئنا لبعثنا فى كل قرية نذيرا ) أى ولو أردنا أن نرسل رسولا إلى أهل كل قرية لفعلنا وخففّت عنك أعباء النبوة ، ولكن بعثناك إلى القرى كلها وحملناك ثقل النذارة ، لتستوجب بصبرك ما أعددناه لك من الكرامة والمنزلة الرفيعة ، فقابلْ ذلك بشكر النعمة ، وبالثبات والاجتهاد فى الدعوة وإظهار الحق كما قال : « قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا » وجاء فى الصحيحين « بعثت إلى الأحمر والأسود » أى إلى العجم والعرب .

والخلاصة — إنّا عظّمناك بهذا الأمر ، وجعلناك مستقلا بأعبائه ، لتحوز ما اُدّخر لك من عظيم جزائه ، وكبير مثوبته فعليك بالمجاهدة والمثابرة ، ولا عليك من تلقّيهم الدعوة بالإعراض والمشاكسة .

( فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهادا كبيرا ) أى فلا تطع الكافرين فيما

يدعونك إليه من موافقتهم على مذاهبهم وآرائهم ، وجاهدهم بالشدة والعُنْف ، لا بالملاينة والمداراة لتكسب ودّهم ومحبتهم ، وعظهم بما جاء به القرآن من المواعظ والزواجر ، وذكّرهم بأحوال الأمم المكذبة لرسلها ، وذلك منتهى الجهاد الذى لايقادر قدره .

ونحو الآية قوله تعالى: «يٰأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ».

والخلاصة — إنك مبعوث إلى الناس كافة ، لتنذرهم ما بين أيديهم وما خلفهم ، فاجتهد فى دعوتك ، ولا تتوان فيها ، ولا تحفِل بوعيدهم ، فإن الله ناصرك عليهم ومظهر دينك على الدين كله ولو كره المشركون .

(٤) (وهو الذى مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج وجعل بينهما برزخا وحجرا محجورا) أى ومن آثار نعمته على خلقه أن خلى البحرين متجاورين متلاصقين وجعلهما لايمتزجان ، ومنع الملح من تغيير عذوبة العذب وإفساده إياه ، وحجزه عنه بقدرته ، فكأن بينهما حاجزا يمنع أحدهما من إفساد الآخر ، وكأن بينهما ساترا يجعله لايبغى عليه .

والخلاصة — إنه تعالى جعل البحرين مختلطين فى مرأى العين ، منفصلين فى التحقيق بقدرته تعالى بحيث لايختلط الملح بالعذب ولا العذب بالملح ، ولا يتغير طعم أحدهما بالآخر ولا يفسده .

ونحو الآية قوله فى سورة الرحمن : « مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ، بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ ، فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » .

(٥) (وهو الذى خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا وكان ربك قديرا) أى وهو الذى جعل الماء جزءا من مادة الإنسان ، ليقبل الأشكال المختلفة، والأوضاع المنوّعة وقسمه قسمين ذوى نسب ينسب إليهم وهم الذكور ، وذوات صهر يصاهَر بهن وهن

الإناث كما قال : « فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى » وكان الله قديرا ، إذ خلق من مادة واحدة بشرا عجيب الصنع ، بديع الخلق ، كبير العقل، عظيم التفكير، سخّر ما على ظاهر الأرض وباطنها لنفعه وفائدته « وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ » .

---

وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَالاَ يَنْفَعُهُمْ وَلاَ يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا (٥٥) وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٥٦) قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلاَّ مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً (٥٧) وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِى لاَ يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا (٥٨) الَّذِى خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمٰنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا (٥٩) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمٰنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا (٦٠) تَبَارَكَ الَّذِى جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا (٦١) وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا (٦٢)

## تفسير المفردات

الظهير والمظاهر : المعاون فهو يعاون الشيطان على ربه : أى على رسوله بالعداوة ، وسبح بحمده : أى ونزّهه وصفه بصفات الكمال ، ويقال كفى بالعلم جمالا : أى حسبُك ، فلا تحتاج معه إلى غيره ، والخبير بالشىء : العليم بظاهره وباطنه وبكل مايتصل به ، والبروج : منازل السيارات الاثنى عشر المعروفة التى جمعها بعضهم فى قوله :

حملَ الثورُ جوزةَ السرطان ورعى الليثُ سُنْبلَ الميزانِ
ورمى عقربٌ بقَوْس لجدْى نزح الدلو بِرْكة الحيتان

فهى الحمل والثور والجوزاء والسرطان والأسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدى والدلو والحوت ، وهى منازل الكواكب السيارة السبعة وهى : المريخ وله الحمل والعقرب ، والزهرة : ولها الثور والميزان ، وعطارد : وله الجوزاء والسنبلة ، والقمر : وله السرطان ، والشمس : ولها الأسد ، والمشترى : وله القوس والحوت ، وزحل : وله الجدى والدلو .

وهى فى الأصل القصور العالية ،فأطلقت عليها على طريق التشبيه، والسراج: الشمس، خلفة : أى يخلف أحدهما الآخر ويقوم مقامه فيما ينبغى أن يعمل فيه .

## المعنى الجملى

بعد أن بسط سبحانه أدلة التوحيد ، وأرشد إلى مافى الكون من باهر الآيات ، وعظيم المشاهدات ، التى تدل على بديع قدرته ، وجليل حكمته ــ أعاد الكرة مرة أخرى، و بين شناعة أقوالهم وقبيح أفعالهم ، إذ هم مع كل مايشاهدون لايرعَوُون عن غيّهم ، بل هم عن ذكر ربهم معرضون ، فلا يعظّمون إلا الأحجار والأوثان ومالا نفع فيه إن عُبد ، ومالا ضُرّ فيه إن تُرك ، إلى أنهم يظاهرون أولياء الشيطان ، ويناوئون أولياء الرحمن ؛ و إن تعجب لشىء فاعجب لأمرهم ، فقد بلغ من جهلهم أنهم يضارّون من جاء لنفعهم وهو الرسول الذى يبشرهم بالخير العميم إذا هم أطاعوا ربهم ، وينذرهم بالويل والثبور إذا هم عصَوْه ، ثم هو على ذلك لايبتغى أجرا .

ثم أمر رسوله بألا يَرْهب وعيدهم ، ولا يخشى بأسهم ، بل يتوكل على ربه ، ويسبح بحمده ، وينزهه عما لايليق به من صفات النقص كالشريك والولد ، وهو الخبير بأفعال عباده ، فيجازيهم بما يستحقون .

# الايضاح

(ويعبدون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم) أى ويعبد هؤلاء المشركون من دون الله آلهة لا تنفعهم إذا هم عبدوها، ولا تضرهم إن تركوا عبادتها، فهم عبدوها لمجرد التشهى والهوى، وتركوا عبادة من أنعم عليهم بهذه النعم التى لا كفاء لأدناها، ومن ذلك ما ذكره قبلُ بقوله: «أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ» إلى آخر الآيات.

ثم ذكر لهم جُرْما آخر فقال:

(وكان الكافر على ربه ظهيرا) أى وكانوا مظاهرين الشيطان، على معصية الرحمن، وذلك دأبهم ودَيْدَنُهم، فهم يعاونون المشركين، ويكونون أولياء لهم على رسوله وعلى المؤمنين، بمساعدتهم على الفجور وارتكاب الآثام، وخذلان المؤمنين إذا أرادوا منعها والتنفير منها كما قال: «وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الغَيِّ».

وقد يكون المعنى — وكان الكافر على ربه هينا ذليلا لا قدر له ولا وزن له عنده من قول العرب: ظهرتَ به، أى جعلتَه خلف ظهرك ولم تلتفت إليه، ومنه قوله تعالى: «وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا» أى هينا، وقول الفرزدق:

تميمَ بنَ قيس لا تكونن حاجتى     بظهرٍ فلا يعيا علىّ جوابُها

قال ابن عباس نزلت الآية فى أبى الحكم بن هشام الذى سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا جهل بن هشام.

ثم بين عظيم حمقهم ونفورهم ممن جاء لجلب الخير لهم ودفع الأذى عنهم فقال:

(وما أرسلناك إلا مبشرا ونذيرا) أى كيف تطلبون العون على الله ورسوله والله قد أرسل رسوله لنفعكم، إذ قد بعثه ليبشركم على فعل الطاعات، وينذركم على فعل المعاصى، فتستحقوا الثواب وتبتعدوا عن العقاب.

وخلاصة ذلك — لاجهلَ أعظمُ من جهل من استفرغ جهده فى إيذاء من يرجو نفعه فى دينه ودنياه .

وفى هذا تسلية لرسوله حتى لايحزن على عدم إيمانهم .

ثم أمر رسوله أن يبين لهم أنه مع كونه يريد نفعهم لايبغى لنفسه نفعا فقال :

( قل ما أسألكم عليه من أجر ) أى قل لمن أرسِلتَ إليهم : لا أسألكم على ما جئتُ به من عند ربى أجرا ، فتقولوا إنما يدعونا ليأخذ أموالنا ، ومن ثم لانتبعه حتى لايكون له فى أموالنا مَطمَعٌ .

( إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا ) أى لكن من شاء منكم أن يتقرب إلى الله بالإنفاق فى الجهاد وغيره ، ويتخذ ذلك سبيلا إلى رحمته ونيل ثوابه فليفعل .

وخلاصة ذلك — لا أسألكم عليه أجرا لنفسى ، وأسألكم أن تطلبوا الأجر لأنفسكم باتخاذ السبيل إلى ربكم لنيل مثوبته ومغفرته .

وبعد أن بين له أن الكافرين متظاهرون على إيذائه — أمره بالتوكل عليه فى دفع المضارّ وجلب المنافع فقال :

( وتوكل على الحىّ الذى لايموت وسبح بحمده ) أى وتوكل على ربك الدائم الباقى رب كل شىء ومليكه ، واجعله ملجأك وذخرك ، وفوّض إليه أمرك ، واستسلم له ، واصبر على مانابك فيه ، فإنه كافيك وناصرك ومُبلغك ماتريد ، ونزّهه عما يقوله هؤلاء المشركون من الصاحبة والولد ، فهو الواحد الأحد الذى لم يلد ولم يولد ، كما تنزهه عن الأنداد والشركاء من الأصنام والأوثان فهو لا كفء له ولا ند : « وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ » .

وقد علمت قبلُ أن التوكل اعتماد العبد على الله فى كل الأمور، والأسبابُ وسائط أُمِرْنا باتباعها من غير اعتماد عليها .

ونحو الآية قوله : « وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ » .

وفى قوله : ( الحى ) إيماء إلى أنه لاينبغى أن يتوكل على من لم يتصف بالحياة من صنم أو وثن ، ولا على من لا بقاء له ممن يموت ، لأنه إذا مات ضاع من توكل عليه.

وحكى عن بعض السلف أنه قرأ هذه الآية فقال : لاينبغى لذى لب أن يثق بعدها بمخلوق .

ثم أنذرهم وحذّرهم بأن ربهم مُحصٍ أعمالهم عليهم ، ومجازيهم عليها يوم القيامة فقال :

( وكفى به بذنوب عباده خبيرا ) أى وحسبك بالحى الذى لايموت خبيرا بذنوب خلقه ماظهر منها ومابطن ، فهو لايخفى عليه شىء منها ، وهو محصيها عليهم ومجازيهم عليها ، إن خيرا فخير وإن شرا فشر ، فلا عليك إن آمنوا أو كفروا .

وفى هذا سلوة لرسوله ، ووعيد لأولئك الكافرين على سوء أفعالهم ، وإعراضهم عن اتباع رسوله ومناصبته العداء ، وكأنه قيل : إذا أقدمتم على مخالفة أمره كفاكم علمه فى مجازاتكم بما تستحقون من العقوبة .

ثم وصف نفسه بذكر أفعاله التى تجعله حقيقا أن يُتَوَكّل عليه فقال :

(الذى خلق السموات والأرض ومابينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش) تقدم إيضاح هذا فى سور يونس وهود وطه ، ولكن يلاحظ هنا أنه تعالى وصف نفسه بالأبدية والعلم الشامل ، ثم بخلق السموات والأرض ليقرر وجوب التوكل عليه ويؤكده، فإن من أحدث هذه الأجرام العظيمة على ذلك النمط البديع وجعلها مرفوعة بغير عمد فى تلك الأيام ، وقد كان قديرا على إبداعها دفعة واحدة بقدرته التى لاتقف على كنهها العقول ـ جدير بأن يتَوّكل عليه ويفوّض أمره إليه .

( الرحمٰن ) أى عظيم الرحمة بكم ، والحدِب عليكم ، فلا تعبدوا إلا إياه ولاتتوكلوا إلا عليه .

وخلاصة ذلك — توكلوا على من لايموت وهو رب كل شىء وخالقه وخالق السموات السبع على ارتفاعها واتساعها وما فيها من عوالم لايعلم كنهها إلا هو ، وخالق

الأرضين السبع على ذلك الوضع البديع فى ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الأمر ويقضى بالحق .

( فاسأل به خبيرا ) أى فاسأل عن خلق ماذكر خبيرا به يخبرك بحقيقته وهو الله سبحانه ، لأنه لايعلم تفاصيل تلك المخلوقات إلا هو ، فالأيام التى تم فيها الخلق إنما هى أطوار ستة سار عليها طوراً بعد طور وحالا بعد أخرى كما يرشد إلى ذلك قوله : « وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ » والاستواء على العرش لايراد به الجلوس عليه بل تمام التصرف فيه .

فمن كان محدود الفكر فليقف عند ظاهر اللفظ ويترك البحث فيه ، ومن كان حَصيف الرأى طليق الفكر فليجدّ فى البحث والدرس وسؤال أهل الذكر من العلماء ليعلم المراد من ذلك على قدر ماتصل إليه طاقة البشر .

وبعد أن ذكر سبحانه إحسانه إليهم وإنعامه عليهم ذكر ماأبدوه من الكفر فى موضع الشكر فقال :

( وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وماالرحمن ؟ ) أى وإذا قيل لهؤلاء الذين يعبدون من دون الله مالا ينفعهم ولا يضرهم : اجعلوا خضوعكم وتعظيمكم للرحمن خالصا دون الآلهة والأوثان ، قالوا على طريق التجاهل : وماالرحمن ؟ أى نحن لانعرف الرحمن فنسجد له .

ونحو هذا قول فرعون : « وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ » حين قال له موسى عليه السلام : « إِنِّى رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ » وهو قد كان عالما به كما يؤذن بذلك قول موسى له: لَقَدْ عَلِمْتَ ما أَنْزَلَ هؤُلاءِ إِلاَّ رَبُّ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ » .

ثم عجبوا أن يأمرهم بذلك وأنكروه عليه بقولهم :

( أنسجد لما تأمرنا ؟ ) أى أنسجد للذى تأمرنا بالسجود له من غير أن نعرفه .

ثم بين أنه كلما أمرهم بعبادته ازدادوا عنادا واستكبارا فقال :

( وزادهم نفورا ) أى وزادهم هذا الأمر بالسجود نفورا و بعدا مما دعوا إليه ، وقد كان من حقه أن يكون باعثا لهم على القبول ثم الفعل .

وكان سفيان الثّورى يقول فى هذه الآية : إلٰهى زدنى لك خضوعا ، مازاد عِداك نفوراً .

روى الضحاك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه سجدوا ، فلما رآهم المشركون يسجدون تباعدوا فى ناحية المسجد مستهزئين .

و بعد أن حكى عنهم مزيد النفرة من السجود له ، ذكر مالو تفكروا فيه لعرفوا وجوب السجود لمن له تلك الخصائص فقال :

( تبارك الذى جعل فى السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا ) أى تقدس ربنا الذى جعل فى السماء نجوما كبارا عدها المتقدمون نحو ألف وعدها علماء العصر الحاضر بعد كشف آلات الرصد الحديثة (التلسكوبات) أكثر من مائتى ألف ألف ولا يزال البحث يكشف كل حين منها جديدا ، وجعل فيها شمسا متوقدة وقمرا مضيئا .

ثم ذكر آية أخرى من آيات قدرته وفيها الدليل على وحدانيته فقال :

( وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا ) أى وهو الذى جعل الليل والنهار متعاقبين يخلف أحدهما الآخر ، فيكون فى ذلك عظة لمن أراد أن يتعظ باختلافهما و يتذكر آلاء الله فيهما و يتفكر فى صنعه ، أو أراد أن يشكر نعمة ربه ليجنى ثمار كل منهما ، إذ لو جعل أحدهما دائما لفاتت فوائد الآخر ، ولحصلت السآمة والملل ، وفتر العزم الذى يثيره دخول وقت الآخر ؛ إلى نحو أولئك من الحكم التى أحكمها العلى الكبير .

وفى الحديث الصحيح : « إن الله عز وجل يبْسُط يده بالليل ليتوب مسىء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسىء الليل » .

وعن الحسن : من فاته عمل من التذكر والشكر بالنهار كان له فى الليل مستعْتَب ،

ومن فاته بالليل كان له فى النهار مستعتب . وروى أن عمر بن الخطاب أطال صلاة الضحى فقيل له : صنعت اليوم شيئا لم تكن تصنعه ! فقال : إنه بقى علىّ من وردى شىء فأحببت أن أتمه أو قال أقضيه وتلا هذه الآية : « وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ » الخ .

---

وَعِبَادُ الرَّحْمٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا (٦٣) وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (٦٤) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (٦٥) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٦٦) وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا (٦٧) وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩) إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ، وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٧٠) وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللهِ مَتَابًا (٧١) وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا (٧٢) وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا (٧٣) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا (٧٤) أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا (٧٥) خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٧٦) قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا (٧٧) .

## تفسير المفردات

الهون : الرفق واللين والمراد أنهم يمشون فى سكينة ووقار ، ولا يضربون بأقدامهم أشرا و بطرا ، الجاهلون : أى السفهاء ، سلاما : أى سلام توديع ومتاركة لا سلام تحية كقول إبراهيم لأبيه : « سَلَامٌ عَلَيْكَ » ويبيتون : أى يدركهم الليل ناموا أو لم يناموا كما يقال بات فلان قلقا ، غراما : أى هلاكا لازما ، قال الأعشى :

إن يعاقب يكن غراما وإن يعـــطِ جزيلا فإنه لايبالى

والإسراف : مجاوزة الحد فى النفقة بالنظر لنظرائه فى المال ، والتقتير : التضييق والشح ، قواما : أى وسطا وعدلا ، لايدعون : أى لايشركون ، والآثام : الإثم والمراد جزاؤه ، مهانا : أى ذليلا مستحقرا ، لايشهدون الزور : أى لا يقيمون الشهادة الكاذبة والمراد أنهم لا يساعدون أهل الباطل على باطلهم ، واللغو ماينبغى أن يلغى و يطرح مما لاخير فيه ، كراما : أى مكرمين أنفسهم عن الخوض فيه ، والخرور : السقوط على غير نظام وترتيب ، وقرة العين : يراد بها الفرح والسرور ، والإمام : يستعمل للمفرد والجمع والمراد الثانى أى أئمة يُقْتَدَى بهم فى إقامة مراسم الدين ، والغرفة : كل بناء عال مرتفع ويراد بها الدرجات الرفيعة ، مايعبأ بكم : أى لايعتدبكم ، دعاؤكم : أى عبادتكم ، لزاما : أى لازما يحيق بكم حتى يكبكم فى النار .

## المعنى الجملى

بعد أن وصف الكافرين بالإعراض عن عبادته ، والنفور من طاعته ، والسجود له عز اسمه ـ ذكر هنا أوصاف خلص عباده المؤمنين ، وبين مالهم من فاضل الصفات ، وكامل الأخلاق ، التى لأجلها استحقوا جزيل الثواب من ربهم ، وأكرم لأجلها مثواهم ؛ وقد عدّ من ذلك تسع صفات مما تشرئب إليها أعناق العاملين ، وتتطلع إليها نفوس الصالحين ، الذين يبتغون المثوبة ونيل النعيم كفاء مااتصفوا من كريم الخلال ، وأتوا به من جليل الأعمال

# الإيضاح

وصف الله سبحانه عباده المخلصين الذين استوجبوا المثوبة منه وجازاهم على ذلك الجزاء بصفات تسع :

(١) ( وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا ) أى وعباد الله الذين حق لهم الجزاء والمثوبة من ربهم هم الذين يمشون فى سكينة ووقار ، لايضربون بأقدامهم كبرا ، ولا يخفقون بنعالهم أشرا و بطرا .

روى أن عمر رضى الله عنه رأى غلاما يتبختر فى مشيته فقال : إن البخترة مِشْية تُكْرَه إلا فى سبيل الله ، وقد مدح الله أقواما فقال : ( وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا ) فاقصد فى مِشْيتك .

وقال ابن عباس : هم المؤمنون الذين يمشون علماء حلماء ذوى وقار وعفة .

وفى الحديث إن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « أيها الناس عليكم بالسكينة ، فإن البرّ ليس فى الإيضاع » ( السير السريع ) وفى صفته صلى الله عليه وسلم : إنه كان إذا زال زال تقلعا ، و يخطو تكفؤا ، و يمشى هونا ، ذريع المشية إذا مشى كأنما ينحط من صبب ( التقلع : رفع الرجل بقوة ، والتكفؤ : الميل إلى سنن القصد ، والهون : الرفق والوقار ، والذريع : الواسع الخطا ) أى إنه كان يرفع رجله بسرعة فى مشيه و يمد خطوه خلاف مشية المختال وكل ذلك برفق وتثبت دون عجلة ومن ثم قيل كأنما ينحط من صبب قاله القاضى عياض فى الشفاء .

وخلاصة هذا — إنهم لايتكبرون ولا يتجبرون ولا يريدون علوّا فى الأرض ولا فسادا .

(٢) ( وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ) أى وإذا سفه عليهم السفهاء بالقول السىء لم يقابلوهم بمثله ، بل يعفون و يصفحون ولا يقولون إلا خيرا ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم لاتزيده شدة الجاهل عليه إلا حلما .

وعن الحسن البصرى : هم حلماء لا يجهلون ، و إن جُهِل عليهم حلُمُوا ولم يسفَهوا ، هذا نهارهم فكيف ليلهم ؟ خيرُ ليل ، صفّوا أقدامهم ، وأجْرَوا دموعهم ، يطلبون إلى الله جل ثناؤه فكاكَ رقابهم .

قال ابن العربى : لم يؤمر المسلمون يومئذ أن يسلموا على المشركين ولا نهوا عن ذلك بل أمروا بالصفح والهجر الجميل ، وقد كان عليه الصلاة والسلام يقف على أندية المشركين ويحييهم ويدانيهم ولا يداهنهم .

ولما ذكر تعالى ما بينهم و بين الخلق ذكر ما بينهم و بينه فقال :

(٣) ( والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما ) أى والذين يبيتون ساجدين قائمين لربهم أى يحيون الليل كله أو بعضه بالصلاة ، وخص العبادة بالبيتوتة ، لأن العبادة بالليل أحمص وأبعد عن الرياء ، وقال ابن عباس : من صلى ركعتين أو أكثر بعد العشاء فقد بات لله ساجدا قائما : وقال الكلبى : من أقام ركعتين بعد المغرب وأربعا بعد العشاء فقد بات ساجدا قائما .

ونحو الآية قوله : « تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ » وقوله : « كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ . وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ » وقوله : « أَمْ مَنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ » .

(٤) ( والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم ) أى والذين يدعون ربهم أن يصرف عنهم عذاب جهنم وشديد آلامها .

وفى هذا مدح لهم ببيان أنهم مع حسن معاملتهم للخلق واجتهادهم فى عبادة الخالق وحده لا شريك له ، يخافون عذابه و يبتهلون إليه فى صرفه عنهم غير محتفلين بأعمالهم كما قال فى شأنهم : « وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ » .

ثم بين أن سبب سؤالهم ذلك لوجهين :

( ١ ) (إن عذابها كان غراما) أى إن عذابها كان هلاكا دائما ، وخسرانا ملازما.

(ب) ( إنها ساءت مستقرا ومقاما ) أى إنها بئس المنزل مستقرا و بئس المقيل مقاما : أى إنهم يقولون ذلك عن علم ، و إذاً فهم أعرف بعظم قدر ما يطلبون ، فيكون ذلك أقرب إلى النُّجْح .

قال الحسن : قد علموا أن كل غريم يفارق غريمه إلا غريم جهنم ، وقال محمد بن كعب : طالبهم الله تعالى بثمن النعيم فى الدنيا فلم يأتوا به ، فأخذ ثمنه بإدخالهم النار .

(٥) ( والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما ) أى والذين هم ليسوا بالمبذِّرين فى إنفاقهم ، فلا ينفقون فوق الحاجة ، ولا ببخلاء على أنفسهم وأهليهم فيقصِّرون فيما يجب نحوهم ، بل ينفقون عدلا وسطا ، وخير الأمور أوسطها ، وقد قيل :

ولا تَغْلُ فى شىء من الأمر واقتصد  كلا طرفَىْ قصد الأمور ذميم

وقيل :

إذا المرء أعطى نفسه كل مااشتهت  ولم ينهها تاقت إلى كل باطل

وساقت إليه الإثم والعار بالذى  دعته إليه من حلاوة عاجل

قال يزيد بن أبى حبيب : أولئك أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم كانوا لا يأكلون طعاما للتنعم واللذة ، ولا يلبسون ثيابا للجمال ، ولكن كانوا يريدون من الطعام مايسد عنهم الجوع ، ويقوّيهم على عبادة ربهم ، ومن اللباس مايستر عوراتهم ، ويكفهم من الحر والبرد ، وقال عبد الملك بن مَرْوان لعمر بن عبد العزيز حين زوّجه ابنته فاطمة : ما نفقتك ؟ قال عمر : الحسنة بين سيئتين ، ثم تلا هذه الآية ، وقال لابنه عاصم : يابنى كُلْ فى نصف بطنك ، ولا تطرح ثوبا حتى تستخلقه ، ولا تكن من قوم يجعلون ما رزقهم الله فى بطونهم وعلى ظهورهم .

(٦) ( والذين لايدعون مع الله إلها آخر ) أى والذين لايعبدون مع الله إلها آخر فيشركون فى عبادتهم إياه ، بل يخلصون له العبادة ويفردونه بالطاعة .

( ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ) أى ولايقتلونها بسبب من الأسباب إلا بسبب الحق المزيل لحرمتها وعصمتها ، كالكفر بعد الإيمان ، والزنا بعد الإحصان، وقتل النفس بغير حق .

( ولا يزنون ) فيأتون ماحرم الله عليهم إتيانه من الفروج .

روى البخارى ومسلم والترمذى عن ابن مسعود قال : « سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم : أىُّ الذنب أكبر ؟ قال : أن تجعل لله ندّا وهو خلقك ، قلت ثم أىّ ؟ قال : أن تقتل ولدك خشية أن يَطْعَم معك ، قلت ثم أىّ ؟ قال أن تزانى حليلة جارك » فأنزل الله تصديق ذلك : ( والذين لايدعون مع الله إلها آخر ) الآية .

وقد نفى عنهم هذه القبائح مع أنه وصفهم بالصفات السالفة من حسن معاملتهم للناس ومزيد خوفهم من الله وإحياء الليل يقتضى نفيها عنهم ، تعريضا بما كان عليه أعداؤهم من قريش وغيرهم ، وتنبيها إلى الفرق بين سيرة المؤمنين وسيرة المشركين ، فكأنه قيل : وعباد الرحمن الذين لايدعون مع الله إلها آخر وأنتم تدعون ، ولايقتلون وأنتم تقتلون الموءودة ، ولا يزنون وأنتم تزنون .

روى مسلم عن ابن عباس : أن ناسا من أهل الشرك قتلوا فأكثروا ، وزنوا فأكثروا ، فأتوا محمدا صلى الله عليه وسلم فقالوا ، إن الذى تقول وتدعو إليه لحسن ، لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة ، فنزلت : ( والذين لايدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاما ) ونزل : « قُلْ ياعِبادِيَ الذِينَ أسْرَفُوا » الآية . وقد قال ابن عباس وسعيد بن جبير إن هذه نزلت فى وحشى قاتل حمزة .

ثم توعد سبحانه من يفعل مثل هذه الأفعال بشديد العقاب فقال :

( ومن يفعل ذلك يلق أثاما . يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا ) أى ومن يفعل خصلة من خصال الفجور السالفة ، يلق فى الآخرة جزاء إثمه وذنبه

الذى ارتكبه ، بل سيضاعف له ربه العذاب يوم القيامة ويجعله خالدا أبدا فى النار مع المهانة والاحتقار ، فيجتمع له العذاب الجسمى والعذاب الروحى .

وبعد أن أتم تهديد الفجار على هذه الأوزار أتبعه بترغيب الأبرار فى التوبة والرجوع إلى حظيرة المتقين فيفوزون بجنات النعيم فقال :

( إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما ) أى لكن من رجع عن هذه الآثام مع إيمانه وعمله الصالحات فأولئك يمحو الله سوابق معاصيه بالتوبة ويثبت له لواحق طاعته .

قال الحسن : قال قوم هذا التبديل فى الآخرة وليس كذلك .

وقال الزجاج : ليس يجعل مكان السيئة الحسنة ، ولكن يجعل مكان السيئة التوبة ، والحسنة مع التوبة .

وروى أبو ذر عن النبى صلى الله عليه وسلم « إن السيئات تبدل بحسنات » ، وروى معاذ أنه صلى الله عليه وسلم قال : « أتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن » .

والخلاصة — إنه يعفو عن عقابه ، ويتفضل بثوابه ، والله واسع المغفرة لعباده ، فيثيب من أناب إليه بجزيل الثواب ، ويبعد عنه شديد العقاب.

( ومن تاب وعمل صالحا فإنه يتوب إلى الله متابا ) أى ومن تاب عن المعاصى التى فعلها ، وندم على مافرط منه ، وزكى نفسه بصالح الأعمال ، فإنه يتوب إلى الله توبة نصوحا ، مقبولة لديه ، ماحية للعقاب ، محصلة لجزيل الثواب ، إلى أنه ينير قلبه بنور من عنده يهديه إلى سواء السبيل ، ويوفقه للخير ، ويبعده عن الضير .

وفى هذا تعميم لقبول التوبة من جميع المعاصى بعد أن ذكر قبولها من أمهاتها .

(٧) ( والذين لايشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراما ) أى والذين لايؤدون الشهادات الكاذبة ، ولا يساعدون أهل الباطل على باطلهم ، ويكرمون أنفسهم عن سماع اللغو ومالا خير فيه كاللغو فى القرآن وشتم الرسول والخوض فيما

لاينبغى ، وكان عمر بن الخطاب يجلد شاهد الزور أربعين جلدة ، ويسخم وجهه ، ( يطليه بمادة سوداء ) ويحلق رأسه ويطوف به السوق .

ونحو الآية قوله : « وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ ، وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ، سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ » .

(٨) ( والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا ) أى والذين إذا ذُكّروا بها أكبوا عليها سامعين بآذان واعية ، مبصرين بعيون راعية .

وفى هذا تعريض بما عليه الكفار والمنافقون الذين إذا سمعوا كلام الله لم يتأثروا به ولم يتحولوا عما كانوا عليه ، بل يستمرون على كفرهم وعصيانهم ، وجهلهم وضلالهم ، فكأنهم صُمٌّ لايسمعون ، وعُمْىٌ لايبصرون .

(٩) (والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماما ) أى والذين يسألون الله أن يخرج من أصلابهم من يطيعه ويعبده وحده لاشريك له ــ وصادق الإيمان إذا رأى أهله قد شاركوه فى الطاعة قرت بهم عينه ، وسر قلبه ، وتوقّع نفعهم له فى الدنيا حيا وميتا ، وكانوا من اللاحقين به فى الآخرة ويسألون أيضا أن يجعلهم أئمة يُقْتَدَى بهم فى إقامة مراسم الدين بما يفيض عليهم من واسع العلم ، وبما يوفقهم إليه من صالح العمل .

روى مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : ولد صالح يدعو له ، وعلم ينتفع به من بعده ، وصدقة جارية » .

والخلاصة — إنهم طلبوا من ربهم أمرين ــ أن يكون لهم من أزواجهم وذرياتهم من يعبدونه فتقربهم أعينهم فى الدنيا والآخرة وأن يكونوا هداة مهتدين ، دعاة إلى الخير ، آمرين بالمعروف ، ناهين عن المنكر .

ولما بين سبحانه صفات المتقين المخلصين ذكر إحسانه إليهم بقوله :

( أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاما ) أى أولئك المتصفون بصفات الكمال، الموسومون بفضائل الأخلاق والآداب ، يجزون المنازل الرفيعة ، والدرجات العالية ، بصبرهم على فعل الطاعات ، واجتنابهم للمنكرات ، ويبتدرون فيها بالتحية والإكرام ، ويلقّون التوفير والاحترام ، فلهم السلام وعليهم السلام .

ونحو الآية قوله : «وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بابٍ ، سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ » .

ثم بين أن هذا النعيم دائم لهم لا ينقطع فقال :

( خالدين فيها حسنت مستقرا ومقاما ) أى مقيمين فيها لايظعنون ولا يموتون ، حسنت منظرا ، وطابت مقيلا ومنزلا .

ونحو الآية قوله : « وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ ما دَامَتِ السَّمٰوَاتُ وَالْأَرْضُ » .

ولما شرح صفات المتقين وأثنى عليهم أمر رسوله أن يقول لهم :

( قل مايَعْبَأ بكم ربى لولا دعاؤكم ) أى قل لهؤلاء الذين أرسلت إليهم : إن الفائزين بتلك النعم الجليلة التى يتنافس فيها المتنافسون ، إنما نالوها بما ذكر من تلك المحاسن ، ولولاها لم يعتد بهم ربهم ، ومن ثم لايعبأ بكم إذا لم تعبدوه ، فما خلق الإنسان إلا ليعبد ربه ويطيعه وحده لاشريك له كما قال : « وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ » .

( فقد كذبتم فسوف يكون لزاما ) أى أماوقد خالفتم حكمى ، وعصيتم أمرى ، ولم تعملوا عمل أولئك الذين ذكروا من قبل وكذبتم رسولى ، فسوف يلزمكم أثر تكذيبهم ، وهو العقاب الذى لامناص منه ، فاستعدوا له ، وتهيئوا لذلك اليوم ، فكل آت قريب .

وخلاصة ذلك — لا يعتد بكم ربى لولا عبادتكم إياه ، أما وقد قصر الكافرون منكم فى العبادة ، فسيكون تكذيبهم مفضيا لعذابهم وهلاكهم فى الدنيا والآخرة .

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، وصل ربنا على محمد وآله .

# خلاصة ما اشتملت عليه السورة الكريمة من الأحكام

اشتملت هذه السورة على عدة مقاصد :

(١) إثبات النبوة والوحدانية ، والنعى على عبدة الأصنام والأوثان ، و إثبات البعث والنشور وجزاء المكذبين بذلك مع ذكر شبهاتهم التى قالوها فى النبى صلى الله عليه وسلم وفى القرآن ثم تفنيدها .

(٢) قصص بعض الأنبياء السالفين وتكذيب أممهم لهم ثم أخذهم أخذ عزيز مقتدر .

(٣) العجائب الكونية من مدّ الظل وجعل الليل لباسا وجعل النهار معاشا و إرسال الرياح مبشرات بالأمطار ومروج البحرين : العذب الفرات ، والملح الأجاج ، وجعل البروج فى السماء ، وجعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يتذكر أو أراد شكورا .

(٤) الأخلاق والآداب من قوله : وعباد الرحمن إلى آخر السورة .

# سورة الشعراء

هى مكية نزلت بعد سورة الواقعة إلا آية ١٩٧ ومن ٢٢٤ إلى آخر السورة فمدنية وآيها ٢٢٧ .

وعن البَرَاء بن عازب أن النبى صلى الله عليـه وسلم قال : « إن الله أعطانى السبع الطوال مكان التوراة ، وأعطانى المئين مكان الإنجيل ، وأعطانى الطواسين مكان الزبور، وفضّلنى بالحواميم والمفَصّل ، ما قرأهن نبىّ قبلى » .

ومناسبتها ما قبلها من وجوه :

(ا) إن فيها بسطا وتفصيلا لبعض ما ذكر فى موضوعات سالفتها.

(ب) إن كلتيهما قد بدئت بمدح الكتاب الكريم .

(حـ) إن كلتيهما ختمت بإيعاد المكذبين .

---

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

طسٓمٓ (١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣) إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ (٤) وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمٰنِ مُحْدَثٍ إِلاَّ كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ (٥) فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (٦) أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (٧) إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٩) .

## تفسير المفردات

لعل : هنا للاستفهام الذى يراد به الإنكار ، وقال العسكرى : إنها للنهى ، و باخع نفسك : أى مهلكها من شدة الحزن ، قال ذو الرمة :

ألا أيها الباخع الوجدِ نفسه		لشىء نحته عن يديه المقادر

وأصل البَخْع : أن تبلغ بالذّبح البِخاع ( بكسر الباء ) وهو عرق مستبطن فقار الرقبة ، وذلك يكون من المبالغة فى الذبح ، والأعناق : الجماعات ، يقال جاءت عنق الناس : أى جماعة منهم ، وذكر : أى موعظة ، والمرادبالأنباء ماسيحل بهم من العذاب، وزوج : أى صِنْف ، والكريم من كل شىء : المرضىّ المحمود منه .

## الإيضاح

( طسم ) تقدم أن بينّا أن المراد بمثل هذه الحروف المقطعة فى أوائل السور التنبيه ، فهى أشبه بألا ونحوها من حروف التنبيه ، و يا التى للنداء ، وتقرأ بأسمائها فيقال طا ــ سين ــ ميم .

( تلك آيات الكتاب المبين ) أى هذه آيات القرآن البين الواضح الذى يفصل بين الحق والباطل ، والغىّ والرشاد .

( لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين ) أى أقاتل نفسك أسفا وحزنا على ما فاتك من إسلام قومك وخوفك ألا يؤمنوا ؟

وقد يكون المعنى — لاتبخع نفسك ولا تهلكها أسى وحسرة على إيمانهم .

ونحو الآية قوله : « فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ » وقوله : « فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا » .

ثم بين سبب النهى عن البَخْع بقوله :

( إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين ) أى لو شئنا

أن ننزل عليهم من السماء آية تُلْجئهم إلى الإيمان وتقسرهم عليه كما نتقنا الجبل فوق قوم موسى حتى صار كالظُلَّة فصار جماعاتهم خاضعين منقادين لما كرها - لفعلنا ، ولكن جرت سنتنا أن يكون الإيمان اختياريا لاقسريا كما قال : « وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً ، أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ » ومن ثم نفذ قدرنا ، ومضت حكمتنا ، وقامت حجتنا ، على الخلق بإرسال الرسل إليهم ، و إنزال الكتب عليهم .

والخلاصة — إن القرآن و إن بلغ فى البيان الغاية غير موصّل لهم إلى الإيمان ، فلا تبالغ فى الأسى والحزن ، فإنك إن فعلت ذلك كنت كمن يقتل نفسه ثم لاينتفع بذلك ، فكما أن الكتاب على وضوحه لم يفدهم شيئا ، فحزنك عليهم لايجدى نفعا ، وقد كان فى مقدورنا أن نلجئهم إلى الإيمان إلجاء ، ولكن جرت سنتنا أن يكون الإيمان طوعا لاكرها ، ومن جرّاء هذا أرسلنا رسلنا بالعظات والزواجر ، وأنزلنا الكتب لتهديهم إلى سواء السبيل ، لكنهم ضلوا وأضلوا ، وما ربك بظلام للعبيد .

ثم بين شدة شكيمتهم وعدم ارعوائهم عما هم عليه من الكفر والضلال بغير الآيات الملجئة تأكيد الصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الحرص على إسلامهم فقال :

( وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث إلا كانوا عنه معرضين ) أى وما يجىء هؤلاء المشركين الذين يكذبونك و يجحدون ماأتيتهم به - ذكر من عند ربك لتذكرهم به إلا أعرضوا عن استماعه وتركوا إعمال الفكر فيه ولم يوجهوا هممهم إلى تدبره وفهم أسراره ومغازيه ، وما كان أحراهم بذلك وهم أهل الذكن والفطنة ، ولكن طمس الله على قلوبهم فأكثرهم لايعقلون .

وخلاصة ذلك - إنه لايجدد لهم موعظة وتذكيرا إلا جددوا ماهو نقيض ذلك من إعراض وتكذيب واستهزاء .

ثم أكد إعراضهم بقوله :

( فقد كذبوا فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون ) أى فقد كذب هؤلاء المشركون بالذكر الذى أتاهم من عند الله ، ثم انتقلوا من التكذيب إلى الاستهزاء ، وسيحل بهم عاجل العذاب وآجله فى الدنيا والآخرة كما قال : « وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ » وقال : « وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ » .

ونحو الآية قوله : « يا حَسْرَةً عَلَى الْعِبادِ ما يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ » .

وقصارى ذلك — إنهم كذبوا بما جئتهم به من الحق ، وإنه سيأتيهم لا محالة صدق ما كانوا يستهزئون به من قبلُ بلا تدبر ولا تفكير فى العاقبة .

و بعد أن بين أنهم أعرضوا عن الآيات المنزلة من عند ربهم — ذكر أنهم أعرضوا عن الآيات التى يشاهدونها فى الآفاق فقال :

( أولم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم ؟ ) أى أهم أصروا على ما هم عليه من الكفر بالله وتكذيب رسوله ولم يتأملوا فى عجائب قدرته ولم ينظروا فى الأرض وكثرة ما فيها من أصناف النبات المختلفة الأشكال والألوان مما يدل على باهر القدرة وعظيم سلطان ذلك العلى الكبير ؟ .

والخلاصة — كيف اجترءوا على مخالفة الرسول وتكذيب كتابه ، وإلهُهُ هو الذى خلق الأرض وأنبت فيها الزرع والثمار والكروم على ضروب شتى وأشكال مختلفة تبهر الناظرين وتسترعى أنظار الغافلين .

ثم بين أنهم قوم فقدوا وسائل الفكر ، وعدموا التأمل والنظر فى الأكوان ، ومن ثَمَّ فهم جاحدون فقال :

( إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ) أى إن فى ذلك الإنبات على هذه الأوضاع البديعة لدلالات لأولى الألباب على قدرة خالقه على البعث والنشور ، فإن من أنبت الأرض بعد جدبها وجعل فيها الحدائق الغناء والأشجار الفيحاء لن يعجزه أن ينشر فيها الخلائق من قبورهم ، ويعيدهم سيرتهم الأولى ، ولكن أكثر الناس غفلوا

عن هذا ، فجحدوا بها وكذبوا بالله ورسله وكتبه ، وخالفوا أوامره ، واجترحوا معاصيَهُ ، ولله در القائل :

تأمل فى رياض الورد ونظر إلى آثار ما صنع المليكُ
عيونٌ من لُجَيْنٍ شاخصاتٌ على أهدابها ذهبٌ سبيكُ
على قُضُب الزبرجد شاهدات بأن الله ليس له شريك

والخلاصة — إن فى هذا وأمثاله لآية عظيمة ، وعبرة جليلة ، دالة على مايجب الإيمان به ، ولكن ما آمن أكثرهم مع موجبات الإيمان ، بل تمادَوْا فى الكفر والضلالة ، وانهمكوا فى الغى والجهالة .

وفى هذا مالا يخفى من تقبيح حالهم ، و بيان سوء مآلهم .

ثم بشره بنصره وتأييده وغلبته لأعدائه و إظهاره عليهم فقال :

( وإن ربك لهو العزيز الرحيم ) أى وإن ربك أيها الرسول الكريم لهو الغالب على أمره والقادر على كل مايريد ، وسينتقم لك من هؤلاء المكذبين على تكذيبهم بك و إشراكهم بى وعبادتهم للأوثان والأصنام ، وهو ذو الرحمة الواسعة بمن تاب من كفره ومعصيته ، فلا يعاقبه على ماسلف من جرمه بعد توبته بل يغفر له حَوْبته .

والخلاصة — إن ربك عزّ كل شىء وقهره ، ورحم خلقه ، فلا يعجل بعقاب من عصاه ، بل يؤجله و يُنْظِره لعله يرعوى عن غيه ، فإن تمادى أخذه أخذ عزيز مقتدر .

---

## قصص موسى عليه السلام

وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠) قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ (١١) قَالَ رَبِّ إِنِّى أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (١٢) وَيَضِيقُ صَدْرِى

وَلاَ يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ (١٣) وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (١٤) قَالَ كَلاَّ فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ (١٥) فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولاَ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦) أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٧) قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (١٨) وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (١٩) قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ (٢٠) فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٢١) وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (٢٢) .

## المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه سوء حال المشركين وشدة عنادهم وقبيح لجاجهم - سلى رسوله صلى الله عليه وسلم على ذلك بأن قومه ليسوا ببدع فى الأمم وأنه ليس بالأوحد فى الأنبياء المكذبين ، فقد كُذِّب موسى من قبلك على ما أتى به من باهر الآيات ، وعظيم المعجزات ، ولم تغن الآيات والنذر ؛ فحاق بالمكذبين ما كانوا به يستهزئون ، وأخذهم الله بذنوبهم وأغرقهم فى اليم جزاء اجتراحهم للسيئات ، وتكذيبهم بعد ظهور المعجزات ؛ وما ربك بظلام للعبيد .

## الإيضاح

( وإذ نادى ربك موسى أن ائت القوم الظالمين . قوم فرعون ) أى واذكر لقومك وقت ندائه تعالى موسى عليه السلام من جانب الطور الأيمن ، وأمره له بالذهاب إلى أولئك القوم الظالمين لأنفسهم بالكفر والمعاصى ، والظالمين لبنى إسرائيل باستعبادهم

وذبح أبنائهم - قوم فرعون ذى الجبروت والطغيان ، والعتوّ والبهتان ، ليكون لهم فى ذلك عبرة لو تذكروا ، فيرعووا عن غيهم ، ويثوبوا إلى رشدهم ، حتى لايحيق بهم ماحاق بأولئك المكذبين من قبلهم ، إذ ابتلعهم اليم وأغرقوا جميعا .

ولاشك أن الأمر بذكر الوقت إنما هوذكر لما جرى فيه كما أسلفنا من قبل.

ثم أتبع ذكر إرساله عليه السلام إنذارهم وتسجيل الظلم عليهم وتعجيب موسى من حالهم التى بلغت غاية الشناعة ومن أمنهم العواقب وقلة خوفهم وحذرهم من أيام الله فقال :

( ألا يتقون ؟ ) أى قال الله لموسى : ألا يتقى هؤلاء القوم ربهم ويحذرون عاقبة بغيهم وكفرهم به .

فأجاب موسى عن أمر ربه الإتيان إليهم متضرعا إليه :

( قال رب إنى أخاف أن يكذبون . ويضيق صدرى ولا ينطلق لسانى ) أى قال موسى : رب إنى أخاف تكذيبهم إياى ، فيضيق صدرى تأثرا منه ولا ينطلق لسانى بأداء الرسالة ، بل يتلجلج بسبب ذلك ، كما يرَى أن كثيرا من ذوى اللسن والبلاغة إذا اشتد بهم الغم وضاق منهم الصدر تلجلجت ألسنتهم حتى لاتكاد تُبين عن مقصدهم.

وفى هذا تمهيد العذر فى استدعاء عون له على الامتثال و إقامة الدعوة على أتم وجه ، فإن ماذكر ربما أوجب الإخلال بالدعوة ، وعدم إلزام الحجة ومن ثم قال :

( فأرسل إلى هٰرون ) أى فأرسل جبريل عليه السلام إلى هٰرون ، واجعله نبيا ، وآزرنى به واشدد به عضدى ، فبإرساله تحصل أغراض الرسالة على أتم وجه .

ثم ذكر سببا آخر فى الحاجة إلى طلب العون وهو خوفه أن يقتل قبل تبليغ الرسالة فقال :

( ولهم علىّ ذنب فأخاف أن يقتلون ) أى ولهم علىّ تبعة جرم بقتل القبطى خباز فرعون بالوكزة التى وُكِز بها ، فأخاف إن أنا جئتهم وحدى أن يقتلونى من جرّاء ذلك - وهذا اختصار لما بسط من القصة فى موضع آخر .

ومقصده عليه السلام بهذا طلب دفع بلوى قتله ، خوف فوت أداء الرسالة ونشرها بين الملأ كما هو دأب أولى العزم من الرسل ، فقد كان النبى صلى الله عليه وسلم يتوقع مثل هذا حتى نزل قوله تعالى : «وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ»

وفى هذا إيماء إلى أن الخوف قد يحصل من الأنبياء كما يحصل من غيرهم .

والخلاصة — إن موسى طلب من ربه أمرين : دفع الشر عنه ، وإرسال هرون معه ، فأجابه إليهما .

( قال كلا فاذهبا بآياتنا إنا معكم مستمعون ) أى قال له : لا تخف من شىء من ذلك ، فاذهب أنت وأخوك متعاضدين إلى ماأمرتكما به مؤيَّدَيْن بآياتنا الدالة على صدقكما ، وإنى ناصركما ومعينكما عليه ، وهذا كقوله : « إنى مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى » .

( فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين . أن أرسل معنا بنى إسرائيل ) أى فأتياه وقولا له : إن الله أرسلنا إليك لتطلق سبيل بنى إسرائيل وتخلّيهم وشأنهم ، ليذهبوا إلى الأرض المقدسة موطن الآباء والأجداد التى وعدنا الله بها على ألسنة رسله ، وكانوا قد استُعبِدوا أربعمائة سنة .

قال القرطبى : فانطلقا إلى فرعون فلم يأذن لهما سنة فى الدخول عليه اهـ .

ووحّد الرسول هنا ولم يثنه كما جاء فى قوله : « إنَّا رَسُولاَ رَبِّكَ » لأن رسولا يستعمل للمفرد وغيره كما قال الشاعر:

لقد كذب الواشون مابحْتُ عندهمْ بسرّ ولا أرسلتهم برسول

كما يستعمل كذلك عدوٌّ وصديق كما جاء فى قوله : « فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي » .

فأجابه فرعون على وجه التقريع والازدراء وذكر أمرين كما حكى سبحانه عنه:

(١) ( قال ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين ؟ ) أى أبعد أن ربيناك فى بيوتنا ولم نقتلك فى جملة من قتلنا ، وأنعمنا عليك بنعمنا رَدَحًا من الزمن تقابل الإحسان بكفران النعمة ، وتواجهنا بمثل تلك المقالة ؟ .

روى أنه لبث فيهم ثمانى عشرة سنة ، وقيل ثلاثين سنة .

(٢) ( وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين ) أى وقتلتَ ذلك القبطى الذى وكزته وهو من خواصى ، فكنت من الجاحدين لنعمتى عليك من التربية والإحسان إليك .

وخلاصة ماسلف — إنه عدد نعماءه عليه أولا من تربيته وإبلاغه مبلغ الرجال ثم بتوبيخه بما جرى على يديه من قتل خبازه وهو من خواصه ، وهو بهذا أيضا يكون قد كفر نعمته وجحد فضله .

فأجاب موسى عن الأمر الثانى ، وترك أمر التربية ، لأنها معلومة مشهورة ، ولادخل لها فى توجيه الرسالة ، فإن الرسول إذا كان معه حجة ظاهرة على رسالته تقدم بها إلى المرسل إليهم، سواء أكانوا أنعموا عليه أم لم يُنعِموا .

( قال فعلتها إذاً وأنا من الضالين ) أى قال موسى مجيبا فرعون : فعلتُ هذه الفعلة التى ذكرت وهى قتل القبطى وأنا إذ ذاك من الجاهلين بأن وَكْزَتى تأتى على نفسه ، فإنى إنما تعمدت الوكز للتأديب ، فأدى ذلك إلى القتل .

(ففررت منكم لما خفتكم فوهب لى ربى حكما وجعلنى من المرسلين ) أى فخرجت هاربا منكم حين توقعت مكروها يصيبنى حين قيل لى : « إنَّ المَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ » فوهب لى ربى علما بالأشياء على وجه الصواب ، وجعلنى من المرسلين من قبله لهداية عباده وإرشادهم إلى النجاة من العذاب .

وخلاصة ماقال — إن القتل الذى توبخنى به لم يكن مقصودا لى ، بل كنت أريد بوكزه التأديب فحسبُ ، فلا أستحق التخويف الذى أوجب فرارى ، وإن أنتم أسأتم إلىّ فقد أحسن إلىّ ربى فوهب لى فهم الأمور على حقائقها وجعلنى من زمرة عباده المخلصين .

ثم بين له أنه وإن أسدى النعمة إليه فقد أساء إلى شعبه عامة فقال :

( وتلك نعمة تمنها علىّ أن عبدت بنى إسرائيل ) يقال عبّدت الرجل وأعبدته إذا اتخذته عبدا، وتمنّ من المنة بمعنى الإنعام: أى وماأحسنت إلىّ ور بيتنى إلا وقد أسأت إلى بنى إسرائيل جملة، فجعلتهم عبيدا وخدما تصرفهم فى أعمالك وأعمال رعيتك الشاقة .

وخلاصة ذلك — أفيَفِي إحسانك إلى رجل منهم بما أسأت به إلى مجموعهم ؟ فهو ليس بشىء إذا قيس بما فعلته بالشعب أجمع ، وكأنه قال : إن هذا ليس بنعمة ، لأن الواجب عليك ألا تقتلهم ولا تستعبدهم فإنهم قومى ، فكيف تذكر إحسانك إلىّ على الخصوص ، وتنسى استعباد الشعب كله .

---

قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٣) قَالَ رَبُّ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (٢٤) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ (٢٥) قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (٢٦) قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (٢٧) قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (٢٨) قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (٢٩) قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُبِينٍ (٣٠) قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣١) .

## الايضاح

لما دخل موسى وهرون على فرعون وقالا له : إنا رسولا رب العالمين أرسلنا إليك لهدايتك إلى الحق وإرشادك إلى طريق الرشد ، وغلباه بالحجة رجع إلى معارضة موسى فى قوله : « رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ » .

( قال فرعون وما رب العالمين ؟ ) أى قال لموسى : إنك تدّعى أنك رسول من رب العالمين فما هو ؟ إذ كان قد قال لقومه : « ما عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرِي » .

فأجابه موسى عن سؤاله :

( قال رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين ) أى قال : رب العالمين هو خالق العالم العلوى وما فيه من الكواكب الثوابت والسيارات النيرات ، والعالم

السفلى وما فيه من بحار وقفار وجبال وأشجار وحيوان ونبات وما بين ذلك من هواء وطير ، إن كانت لكم قلوب موقنة ، وأبصار نافذة .

حينئذ عجب فرعون من كلام موسى والتفت إلى الملأ حوله معجّبا لهم من ذلك المقال .

( قال لمن حوله ألا تستمعون ؟ ) أى التفت فرعون إلى الملأ والرؤساء من حوله وقال لهم على سبيل التهكم والاستهزاء : ألا تعجبون من مقالته وزعمه أن لكم إلها غيرى ؟

ثم زاد موسى وصف إلٰهم إيضاحا و بيانا .

( قال ربكم ورب آبائكم الأولين ) أى قال : إنه هو خالقكم وخالق من قبلكم من آبائكم وأجدادكم .

وقد انتقل بهم موسى من النظر فى الآفاق وما فيها من باهر الأدلة إلى النظر فى الأنفس وما فيها من عجيب الصنع ، فإن التناسل المستمر فى النبات والحيوان والإنسان وما فيها من العجائب لأوضح دلالة من النظر فى الآفاق .

ولما لم يستطع ردا لما جاء به أورد مايشكّك قومه فى حسن تقديره للأمور وفهمه لما يقول :

(قال إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون) أى قال فرعون لقومه : إن رسولكم لاعقل له ، إذ يقول قولا لا نعرفه ولا نفهمه ، فهو يدّعى أن ثمّة إلها غيرى .

ثم وصف موسى الإله بأنه خالق الأكوان ، ورب الزمان والمكان .

( قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون ) أى قال موسى : إن ربكم هو الذى جعل المشرق مشرقا تطلع منه الكواكب ، والمغرب مغربا تغرب فيه الكواكب ، ثوابتها وسياراتها مع انتظام مداراتها ، وتغير المشارق والمغارب كل يوم ، إن كان لكم عقول تفقهون بها مايقال لكم، وتسمعون بها ماتسمعون ، إذ فى كل

ذلك أدلة على أن هناك إلها مصورًا صوّر هذه العوالم كلها وأبدعها وزيّنها ورتبها ونظّمها على أحسن النظم .

وقد لاينهم أوّلا وعاملهم بالرفق حيث قال لهم : إن كنتم موقنين ، ثم لما رأى شدة شكيمتهم خاشنهم وأغلظ لهم فى الرد وعارضهم بمثل مقالهم بقوله إن كنتم تعقلون، لأنه أوفق بما قبله من رد نسبة الجنون إليه .

ولما قامت الحجة على فرعون عدل إلى القهر واستعمال القوة ولبس لموسى جلد النمر كما حكى سبحانه عنه .

( قال لئن اتخذت إلها غيرى لأجعلنك من المسجونين ) أى قال له : لأجعلنّك فى زمرة الذين فى سجونى على ماتعلم من فظاعة أحوالها ، وشديد أهوالها ، وكانت سجونه أشد من القتل ، لأنه إذا سجن أحدا لم يخرجه حتى يموت ، وكان يطرحه فى هُوّة عميقة تحت الأرض وحده، وفى توعده بالسجن ضعف منه ، لما يروى أنه كان يفزع من موسى فزعا شديدا .

وحينئذ اضطر موسى أن يترك الأدلة العقلية وراءه ظِهْرِيًّا ، ويلجأ إلى المعجزات ، وخوارق العادات .

( قال أولو جئتك بشىء مبين ؟ ) أى أتفعل هذا ولو جئتك بحجة بينة على صدق دعواى ، وهى المعجزة الدالة على وجود الإله القادر وحكمته ، وعلى صدق دعوى من ظهرت على يديه .

وحين سمع فرعون هذا الكلام من موسى .

( قال فأت به إن كنت من الصادقين ) فى دعوى الرسالة ، فإن من يدّعى النبوة لابد له من حجة على صدق مايدعى ، وقد أمره بذلك ظنا منه أنه يقدر على معارضته .

فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ (٣٢) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (٣٣) قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (٣٤) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (٣٥) قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٣٦) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ (٣٧) .

## تفسير المفردات

مبين : أى ظاهر أنه ثعبان بلا تمويه ولا تخييل كما يفعل السحرة ، الملأ : أشراف القوم ، عليم : أى خبير بفن السحر حاذق فى تلك الصنعة ، فماذا تأمرون ؟ أى فبم تشيرون ، أرجه وأخاه : أى أخر أمرهما ولا تباغتهما بالقتل خيفة الفتنة ، حاشرين : أى اجعل رجال الشرطة يحشرون السحرة .

## الايضاح

( فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين ) أى فبعد أن قال له فرعون مقالته ألقى عصاه فإذا هى ثعبان واضح لالبس فيه ، ولا تخييل ولا تمويه ، وقد روى أنها لما صارت حية ارتفعت فى السماء قدر ميل ثم انحطت مقبلة إلى فرعون ، فقال : بالذى أرسلك إلا أخذتها ، فأخذها موسى فعادت عصا كما كانت .

وقد جاء فى آية أخرى « كَأَنَّهَا جَانٌّ » والجان الصغير من الحيات ، تشبيها لها به من جَراء الخفة والسرعة .

ولما أتى موسى بهذه الآية قال له فرعون : هل هنالك غيرها ؟ قال نعم .

( ونزع يده فإذا هى بَيْضَاءُ لِلناظرين ) أى وأدخل يده فى جيبه ثم أخرجها فإذا هى تضىء الوادى من شدة نورها ، وكأنها فَلْقَة قمر ، قال ابن عباس : أخرج موسى يده من جيبه فإذا هى بيضاء تلمع للناظرين ، لها شعاع كشعاع الشمس يكاد يَغْشَى الأبصار ويسدُّ الأفق .

ولما رأى فرعون هذه الحجج بادر بالتكذيب والعناد وذكر لأشراف قومه أمورا ثلاثة :

(١) ( قال للملأ حوله إن هذا لساحر عليم ) أى قال لرؤساء دولته وأشراف قومه الذين حوله ليروّج عليهم بطلان مايدّعيه موسى : إن هذا الرجل لبارع فى السحر حاذق فى الشعوذة ، ومراده من هذا أن ماظهر على يديه إنما هو من قبيل السحر لا من وادى المعجزات .

ثم هيّجهم وحرضهم على مخالفته والكفر به والتنفير منه بقوله :

(٢) ( يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره ) أى يريد أن يذهب بقلوب الناس معه بسبب هذا السحر ، فيكثر أعوانه وأتباعه ، ويغلبكم على دولتكم ، فيأخذ البلاد منكم .

(٣) ( فماذا تأمرون ) أى فأشيروا علىّ ماذا أصنع ؟ وبم أدافعه عما يريد ؟ ومثل هذا القول يوجب جذب القلوب والتضافر فى مكافحة العدو والتغلب عليه جهد المستطاع .

قال المفتى أبو السعود : بهره سلطان المعجزة وحيره حتى حطه من ذروة ادعاء الربوبية إلى حضيض الخضوع لعبيده فى زعمه ، والامتثال لأمرهم ، أو إلى مقام مؤامرتهم ومشاورتهم بعد ما كان مستقلا بالرأى والتدبير ، وأظهر استشعار الخوف من استيلائه على ملكه ، ونسبه إلى إخراجهم من الأرض لتنفيرهم منه .

( قالوا أرجه وأخاه وابعث فى المدائن حاشرين يأتوك بكل سحار عليم ) أى قالوا : أخّر البت فى أمرهما ، ولا تعاجلهما بالعقوبة ، حتى تجمع لهما من مدائن مملكتك، وأقاليم دولتك ، كل سحار عليم ، ثم تقابلهم به وجها لوجه ويأتون من ضروب السحر مايستطيعون به التغلب عليه ، فتكون قد قابلت الحجة بالحجة وقرعت الدليل بمثله ، ويكون لك النصر والتأييد عليه ، وتجتذب قلوب الشعب إليك .

وقد كان هذا من تسخير الله تعالى له ، ليجتمع الناس فى صعيد واحد وتظهر آيات الله وحججه للناس فى وضح النهار جهرة .

روى أن فرعون أراد قتله فقال له الملأ : لاتفعل . فإنك إن قتلته أدخلت على الناس شبهة فى أمره ، وأشاروا عليه بإنفاذ حاشرين يجمعون له كل سحار عليم ، ظنا منهم أنهم إذا كثروا غلبوه على أمره ، وتم لفرعون الغلب .

فأخذ بمشورتهم وأجابهم إلى طلبتهم .

فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (٣٨) وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ (٣٩) لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ (٤٠) فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (٤١) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٢) قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ (٤٣) فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ (٤٤) فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (٤٥) فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (٤٦) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٧) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ (٤٨) قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (٤٩) قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ (٥٠) إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ (٥١) .

## تفسير المفردات

الميقات : ماوقت به أى حدد من مكان وزمان ومنه مواقيت الإحرام ، واليوم المعلوم : هو يوم الزينة الذى حدده موسى فى قوله موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس

ضحى ، وعزة فرعون : أى قوته التى يمتنع بها من الضيم ، تلقف : أى تبتلع بسرعة ، يأفكون : أى يقلبونه عن وجهه وحقيقته بكيدهم وسحرهم ، من خلاف : أى بقطع الأيادى اليمنى والأرجل اليسرى ، لاضير : أى لاضرر علينا فيما ذكرت ، منقلبون : أى راجعون .

## المعنى الجملى

ذكر سبحانه هذه المناظرة بين موسى عليه السلام والقبط فى سورة الأعراف وسورة طه وفى هذه السورة .

وخلاصتها — إن فرعون وقومه أرادوا أن يطفئوا نور الله بأفواههم ، فأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون ، وذلك شأن الإيمان والكفر والحق والباطل ماتقابلا إلا غلب الإيمان الكفر : « بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ » ومن ثم لما جاء السحرة وقد جمعوهم من أقاليم مصر العليا وكانوا أبرع الناس فى فن السحر وأشدهم خداعا وتخيلا ، وكانوا جمعا كثيرا وجما غفيرا أُحْضِرُوا مجلس فرعون ، فطلبوا منه الأجر إن هم غَلبوا ، فأجابهم إلى ماطلبوا ، وزادهم عليه أن سيجعلهم من بطانته ومن المقربين إليه ، ولكن المناظرة انتهت بغلبة موسى لهم وهزيمة من استنصر بهم ، وإيمانهم بموسى ، وحينئذ عاد إلى المكابرة والعناد ، وشرع يتهدد السحرة ويتوعدهم ويقول : ( إنه لكبيركم الذى علمكم السحر ) ولكن ذلك لم يزدهم إلا إيمانا وتسليما ، لعلمهم ماجهله قومهم من أن هذا لايصدر عن بشر إلا إذا أيده الله وجعله حجة على صدق مايدّعى ، ومن ثمة قالوا له بعد أن توعدهم بقطع الأيدى والأرجل : إن ذلك لايضيرنا ، وإن المرجع إلى الله ، وهو لايضيع أجر من أحسن عملا ، وإنا لنرجو أن يغفر لنا خطايانا ، لأنا سبقنا قومنا من القبط إلى الإيمان ، ويروى أنه قتلهم جميعا .

# الايضاح

(فجمع السحرة لميقات يوم معلوم) أى إن الملأ بعد أن أشاروا على فرعون بتأخير البت فى أمر موسى ، وبان من الخير له أن يجمع السحرة ، ليظهر عند حضورهم فساد قوله ـ رضى بما أشاروا به واستقر عليه الرأى وأحب أن تقع المناظرة فى يوم عيد لهم ، لتكون بمحضر الجمّ الغفير من الناس ، ويتم الله نوره ويظهر الحق على الباطل بلطفه وفضله .

( وقيل للناس هل أنتم مجتمعون ) أى وقيل للناس حثا لهم على المبادرة إلى الاجتماع ومشاهدة مايكون من الجانبين : هل أنتم مجتمعون فى ذلك الميقات لتَرَوْا ماسيكون فى ذلك اليوم المشهود ، وكان ذلك ثقة من فرعون بالظهور ، وقد طلب أن يكون ذلك بمجمع من الناس لئلا يؤمن بموسى أحد منهم ، فوقع من موسى الموقع الذى يريده ، لأنه يعلم أن حجة الله هى الغالبة ، وحجة الـكافرين هى الداحضة ، وفى ظهور حجة الله بمجمع من الناس زيادة فى الاستظهار للمحقين ، وقهر للمبطلين .

( لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين ) أى إنا نرجو أن يكون لهم الغلبة فنتبعهم ونستمر على دينهم ولا نتبع دين موسى .

( فلما جاء السحرة قالوا لفرعون أئن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين ؟ قال نعم وإنكم إذا لمن المقربين ) أى فلما جاء السحرة مجلس فرعون طلبوا منه الإحسان ببذل المال والتقرب إليه إن هم غَلَبوا ، فأجابهم إلى ماطلبوا وزاد على هذا أن وعدهم بأنهم سيكونون من جلسائه وخاصة بطانته .

بعدئذ عادوا إلى مقام المناظرة وقالوا ياموسى إماأن تلقى وإماأن نكون نحن الملقين .

( قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون . فألقوا حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون ) أى قال لهم موسى ألقوا ماتريدون إلقاءه ، مما يكون حجة لـكم

على إبطال ما أدعيه من المعجزات ( فألقوا ما معهم من الحبال والعصى وقد كانت مطلية بالزئبق ، والعصىّ مجوّفة مملوءة به ، وقالوا بقوة فرعون وجبروته : إنا لنحن الغالبون ، فلما حميت حرارة الشمس اشتدت حركتها وصارت كأنها حيات تدبّ من كل جانب، وسحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم .

وجاء فى سورة طه : « فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى » .

وقد استفرغوا الوسع وقاموا بما ظنوا أن فيه الكفاية بل مافوقها وأن النصر قد كُتِبَ لهم .

( فألقى موسى عصاه فإذا هى تلقف ما يأفكون ) أى وحين ألقى موسى عصاه ابتلعت ما كانوا يقْلِبُون صورته وحاله الأولى بتمويههم وتخييل الحبال والعصى أنها حيات تسعى .

وجاء فى آية أخرى : « فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » .

وقد قامت الحجة لموسى عليهم واستبان لهم أن هذا ليس من متناول أيديهم كما أشار إلى ذلك سبحانه بقوله :

( فألقى السحرة ساجدين ) أى فخروا سجدا لله ، لأنهم قد علموا أن هذا الذى فعلوه هو منتهى التخييل السحرى ، فلما ابتلعت الحية ما زوّروه أيقنوا أن هذا من قدرة فوق ما عرفوا ، وما هو إلا من قوة آتية من السماء لتأييد موسى ، حينئذ خروا سجدا لله القوى القاهر فوق عباده .

وفى التعبير بالإلقاء إشارة إلى أنهم لم يتمالكوا أنفسهم من الدهَش حتى كأنهم أُخِذوا فطُرِحوا .

ثم فاهوا بما يجيش فى صدورهم ، وتنطوى عليه جوانحهم .

( قالوا آمنا برب العالمين . رب موسى وهٰرون ) أى قالوا : آمنا برب العالمين الذى دعا إليه موسى أول ما تكلم مع فرعون .

وفى هذا إيماء إلى عزل فرعون عن الربوبية ، وأن سبب إيمانهم ما أجراه الله على يدى موسى وهرون من المعجزات .

وبعد أن حصحص الحق ، ووضح الصبح لذى عينين ، لجأ فرعون إلى العناد والمكابرة وشرع يهدّد ويتوعد ، ولكن ذلك لم يُجْدِ فى السحرة شيئا ، ولم يزدهم إلا إيمانا وتسليما ، إذ كان حجاب الكفر قد انكشف ، واستبان لهم نور الحق ، وعلمهم ما جهل قومهم ، وأن القوة التى تؤيد موسى قوة غيبية قد أيده الله بها ، وجعلها دليلا على صدق ما يدّعى .

(قال آمنتم له قبل أن آذن لكم ؟) أى قال لهم : أتؤمنون به قبل أن تستأذنونى وقد كان ينبغى أن تفعلوا ذلك ، وألا تفتاتوا علىّ ، فإنى أنا الحاكم المطاع ؟ .

ثم التمس لإيمانهم عذرا آخر غير انبلاج الحق ، ليعمِّى على العامة ، ويصرفهم عن وجه الحق فقال :

(إنه لكبيركم الذى علمكم السحر) فأنتم فعلتم ذلك عن مواطأة بينكم وبينه .

ولا شك أن هذا تضليل لقومه ، ومكابرة ظاهرة البطلان ، فإنهم لم يجتمعوا بموسى قبل ذلك اليوم ، فكيف يكون هو كبيرهم الذى أفادهم صناعة السحر .

ثم توعدهم فقال :

(فلسوف تعلمون) وبال ما فعلتم ، وسوء عاقبة ما اجترحتم .

ثم بين ذلك بقوله :

(لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم أجمعين) أى لأقطعنّ اليد اليمنى من كل منكم والرجل اليسرى ، ثم لأصلبنكم أجمعين بعد ذلك .

فأجابوه غير مكترثين بقوله ، ولا عابئين بتهديده ، بأمرين فى كل منهما دليل على اطمئنان النفس وبرد اليقين :

(١) ( قالوا لاضير إنا إلى ربنا منقلبون ) أى قالوا لاضرر علينا فى تنفيذ وعيدك ، ولا نبالى به ، لأن كل حىّ لامحالة مائت .

ومن لم يمت بالسيف مات بغيره	تعددت الأسباب والموت واحد

ونحو ذلك قول على كرم الله وجهه : لا أبالى أوقعتُ على الموت أم وقع الموتُ علىّ؟

(٢) ( إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا أول المؤمنين؟ ) أى ولأنا نؤمل أن يغفر لنا ربنا ما فعلنا من السحر ، واعتقدناه من الكفر ، من أجل أن كنا أول من آمن من الجماعة الذين شهدوا الموقف ، انقيادا للحق ، وإعراضا عن زخرف الدنيا وزينتها.

---

وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ (٥٢) فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٥٣) إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (٥٤) وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ (٥٥) وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ (٥٦) فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٧) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٥٨) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (٥٩) فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ (٦٠) فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢) فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣) وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ (٦٤) وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ (٦٥) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ (٦٦) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (٦٧) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٦٨) .

## تفسير المفردات

أسرى : سار ليلا ، متبعون : أى يتبعكم فرعون وجنوده ، والشرذمة : الطائفة القليلة من الناس ، غائظون : أى فاعلون مايغيظنا ويغضبنا ، حاذرون : أى من دأبنا الحذر واستعمال الحزم فى الأمور ، كنوز : أى أموال كنزوها وخزنوها فى باطن الأرض ، ومقام كريم : أى قصور عالية ودور فخمة ، أورثناها : أى ملكناها لهم تمليك الميراث ، مشرقين : أى داخلين فى وقت الشروق ، تراءى الجمعان : أى تقاربا بحيث رأى كل منهما الآخر ، لمدركون : أي سيدركوننا ويلحقون بنا ، كلا : أى لن يدركوكم ، انفلق : انشق ، الفِرْق : الجزء المنفرق منه ، والطود : الجبل ، وأزلفنا : أى قرّبنا . وثَمَّ : أى هناك ، لآية : أى لعظة وعبرة توجب الإيمان بموسى .

## المعنى الجملى

أقام موسى بين ظهرانِي المصريين يدعوهم إلى الحق ويُظْهِر لهم الآيات، فلم يزدْهم ذلك إلا عتوا واستكبارا ، يرشد إلى ذلك قوله فى سورة الأعراف : «وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ» الآيات ، ثم أمره الله أن يُخْرِج بنى إسرائيل ليلا من مصر ، وأن يمضى بهم حيث يؤمر ، ففعل ماأُمِرَ به وخرج بهم بعد مااستعاروا من قوم فرعون حُلِيًّا كثيرة .

فلما وصل علم ذلك إلى فرعون أرسل فى المدائن حاشرين يجمعون له الجند ، ثم قوّى نفسه ونفس أصحابه ، بأن وصف بنى إسرائيل بالقلة ، وأن أفعالهم تضيق بها الصدور ، وتوجب الغيظ ، وهو مستعد أن يُبيدهم بما لديه من قوة وجند ، ثم تبعهم هو وجنوده وقت الشروق ، فلما تقارب الجمعان خاف أصحاب موسى وقالوا إن فرعون وقومه لاحقون بنا لا محالة . فقال لهم موسى لن يدركوكم وإن ربى سيهدينى إلى طريق النجاة ؛ وحينئذ أوحى الله إليه أن اضْرِب بعصاك البحر فضرب فانفلق حتى صار شكل الماء المتراكم كالجبل العظيم ، فسار هو وقومه فى اليَبَس حتى جاوزوا البحر

من الجانب الآخر ، ودخل فرعون وجنوده من الجانب الأول فانطبق البحر عليهم وأغرقوا أجمعون .

وهذه آية كان من حقها أن توجب الاعتبار والعظة فيؤمن به من بقى من المصريين لكنهم لم يفعلوا .

## الإيضاح

( وأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادى إنكم متبعون ) أى وأوحينا إليه أنْ سِرْ بعبادى ليلا حتى إذا اتبعوكم مصبحين كان لكم تقدم عليهم فلا يدركونكم قبل وصولكم إلى البحر ، بل يكونون على إثركم حين تلجونه ، فيدخلون مدْخلكم ؛ فأُطْبِقه عليهم فيغرقون .

وقد جاء فى سفر الخروج من التوراة فى الإصحاح الحادى عشر : إن الرب أمر أن يطلب كل رجل من صاحبه ، وكل امرأة من صاحبتها أمتعة ذهب وأمتعة فضة ، وأن الله سيميت كل بكر فى أرض مصر من الإنسان والحيوان ، وأمرهم أن يذبح أهل كل بيت شاة فى اليوم الرابع عشر من شهر الخروج ، وأن يلطخوا القائمتين والعتبة العليا من الدار ، وأن يأكلوا اللحم تلك الليلة مشويا بالنار مع فطير ، وأمرهم أن يأكلوا بعجلة ، ويأكلوا الرأس مع الأكارع والجوف ، وهذا هو ( فِصْح الرب ) وهذا الدم علامة على بيوت بنى إسرائيل حتى يحفظ كل بكر منهم ويتخطاهم الموت إلى أبكار المصريين ، ويكون أكل الفطير سبعة أيام ، ويكون هذا فريضة أبدية تذكارا بالخروج من مصر من يوم ١٤ من شهر أبيب إلى ٢١ من هذا الشهر كل سنة .

وهكذا أمر موسى قومه بذلك ، ففعلوا كل هذا ونجا أولادهم ، وصار ذلك سنة أبدية .

ولما مات الأبكار من الإنسان والحيوان فى جميع بلاد مصر فى نصف الليل اشتغل الناس بالأموات ، وأخذ بنو إسرائيل غنمهم و بقرهم وعجينهم قبل أن يختمر ، ومعاجنهم

مصرورة فى ثيابهم على أكتافهم ، وفعلوا ماأمرهم به الرب ، فارتحلوا من رَعَمْسيس إلى سكوت وكانوا ستمائة ألف ماش من الرجال ماعدا الأولاد ، وخبزوا العجين الذى أخرجوه من مصر خبزَ مَلّةٍ (فطيرا) اه .

وكانت إقامة بنى إسرائيل فى مصر ٤٣٠ سنة ، وليلة الخروج هى عيد الفصح عندهم إلى الأبد .

(فأرسل فرعون فى المدائن حاشرين) أى فلما أسرى بهم موسى وأُخْبِرَ فرعون بما صنعوا ، أرسل فى مدائن مصر رجالا من حرسه ، ليجمعوا الجند فيتبعوهم ويردّوهم إلى مصر ، ويعذبوهم أشد التعذيب على مافعلوا .

ثم قوّى فرعون جنده فى اقتفاء آثارهم بأمور :

(١) (إن هؤلاء لشرذمة قليلون) فيسهل اقتفاؤهم وإرجاعهم وكبح جماحهم فى الزمن الوجيز .

(ب) (وإنهم لنا لغائظون) أى وإنهم بين آونة وأخرى يصدر منهم مايخل بالأمن ، فيحدثون الشغب والاضطراب فى البلاد - إلى أنهم ذهبوا بأموالنا التى استعاروها .

(ج) (وإنا لجميع حاذرون) أى وإن لنا أن نحذر عاقبة أمرهم قبل أن يستفحل خطبهم ويصْعُب رَأب صدعهم ، ونحن قوم من دأبنا التيقظ والحذر ، واستعمال الحزم فى الأمور .

والخلاصة - إنه أشار أولا إلى عدم الموانع التى تمنع اتباعهم من قلة وجود الشَّوْكة لهم ، ثم إلى تحقق مايدعو إليه من فرط عداوتهم لهم ، ووجوب التيقظ فى شأنهم حثا منه عليه .

وهذه معاذير اعتذر بها إلى أهل المدائن ، لئلا يُظَنّ به مايكسر من قهره وسلطانه .

وخلاصة مقاله - إن هؤلاء عدد لايُعْبأ به ، وإن فى مقدورنا أن نبيدهم بأهون الوسائل ، ولا خوف منهم إذا نحن اتبعنا آثارهم ورددناهم على أعقابهم

خاسئين ، حتى لايعودوا كرة أخرى إلى الإخلال بالأمن والهرْج والمرْج والاضطراب فى البلاد ، وهذا مايقتضيه الحزم واليقظة فى الأمور .

والذى نجزم به أن بنى إسرائيل كانوا أقل من جند فرعون ، لكننا لانجزم بعدد معين، وما فى كتب التاريخ والتوراة مبالغات يصعب تصديقها ولا ينبغى التعويل عليها ، فخير لنا ألا نشغل أنفسنا باستقصاء تفاصيلها ، وقد فنّد ابن خلدون فى مقدمة تاريخه هذه الروايات وأبان مافيها من مغالاة لايقبلها العقل ولاتثبت أمام البحث العلمى الصحيح .

وقد جازى الله فرعون وجنوده بما أرادوا أن يجازوا به بنى إسرائيل فأهلكوا جميعا كما قال :

( فأخرجناهم من جنات وعيون . وكنوز ومقام كريم . كذلك ) أى فأخرجناهم من النعيم إلى الجحيم ، وتركوا المنازل العالية والبساتين والأنهار والأموال والملك والجاه العظيم الذى لم يسمع بمثله ، وقد كان الأمر حقا كما قلنا .

ثم بين ما آل إليه أمر بنى إسرائيل بعد خروجهم من مصر :

( وأورثناها بنى إسرائيل ) أى وملّكنا بنى إسرائيل جنات وعيونا مماثلة لها فى أرض الميعاد التى ساروا إليها ، وفى هذا بيان لأن حالهم تحوّل من الاستعباد والرقّ إلى الترف والنعيم فى الجنات والعيون والمقام الكريم .

ونحو الآية قوله : « وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا » .

( فأتبعوهم مشرقين ) أى فخرجوا من مصر فى حفل عظيم وجمع كثير من أولى الحل والعقد من الأمراء والوزراء والرؤساء والجند ، فوصلوا إليهم حين شروق الشمس .

ثم ذكر ماعرا بنى إسرائيل من الخوف حين رؤيتهم فرعون وقومه .

( فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون ) أى فلما رأى كل من

الفريقين صاحبه قال بنو إسرائيل: إن فرعون وجنوده سيلحقوننا ويقتلوننا ، وكانوا قد قالوا لموسى من قبل : إنا قد أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ماجئتنا ، فقد كانوا يذبحون أبناءنا من قبل أن تأتينا ، ومن بعد ماجئتنا يدركوننا ويقتلوننا .

والخلاصة ـــ إنا لمتابَعون وسنهلِك على أيديهم حتى لايبقى منا أحد؛ لأنا قد انتهى بنا السير إلى سِيف البحر ( ساحله ) وقد أدركنا فرعونُ وجنوده .

فأجابهم موسى وطمْأنهم وقوّى نفوسهم .

( قال كلا إن معى ربى سيهدين ) أى قال لهم موسى : إنه لن يصلكم شىء مما تحذرون ، فإن الله هو الذى أمرنى أن أسير بكم إلى هنا ، وهو سبحانه لايخلف وعده ، فهو :

(١) سيهدينى إلى طريق النجاح والخلاص .

(٢) سينصرنى عليهم ويتكفّل بمعونتى .

ثم ذكر سبحانه كيف هداه ونجّاه وأهلك أعداءه فقال :

( وأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم ) أى وأوحينا إليه أن اضرب بعصاك البحر فضرب فانفلق فكان كل قطعة من الماء كالجبل العالى وصار فيه اثنا عشر طريقا ، لكل سِبْط منهم طريق وصار فيه طاقات ينظر منها بعضهم إلى بعض ، وبعث الله الريح إلى قعر البحر فلفحته فصار يبسا كوجه الأرض كما قال فى آية أخرى : « فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى » .

( وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ ) أى وقربنا فرعون وجنوده من البحر وأدنيناهم منه .

( وأنجينا موسى ومن معه أجمعين . ثم أغرقنا الآخرين ) أى وأنجينا موسى وبنى إسرائيل ومن اتبعهم على دينهم ، فلم يهلك منهم أحد ، وأغرقنا : فرعون وجنوده ولم نبق منهم أحدا .

والخلاصة — إنه لما خرج أصحاب موسى وتتامّ أصحاب فرعون، انطبق عليهم البحر فأغرقهم جميعاً .

( ان فى ذلك لآية ) أى إن فى الذى حدث فى البحر لعبرة دالة على قدرته تعالى وعلى صدق موسى عليه السلام ، من حيث كان معجزة له ، وتحذيرا من الإقدام على مخالفة أمر الله وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم .

ثم بيّن أنهم لم تُجدهم الآيات والنذر شيئا .

( وما كان أكثرهم مؤمنين ) أى وإن أكثرهم لم يؤمنوا مع ما رأَوْا من الآيات العظام والمعجزات الباهرات .

وفى ذلك تسلية لرسوله صلى الله عليه وسلم فقد كان يغتم بتكذيب قومه مع ظهور المعجزات على يديه ، فنبهه بهذا الذكر إلى أن له أسوة بموسى عليه السلام ، فإن ما ظهر على يديه من المعجزات التى تبهر العقول لم يمنع من تكذيب أكثر القبط له وكفرهم به مع ما شاهدوه فى البحر وغيره ، وتكذيب بنى إسرائيل ، فإنهم بعد أن نجوا عبدوا العجل وقالوا : لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة .

ثم توعدهم وقال :

( وإن ربك لهو العزيز الرحيم ) أى وإن ربك لهو المنتقم من أعدائه ، الرحيم بأوليائه .

وفى هذا بشارة لنبيه بأن النصر سيكتب له ، والفوز سيكون حليفه كما قال : « وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ » .

---

## قصص إبراهيم عليه السلام

وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (٧١) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ

إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٧٤) قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (٨٢).

## المعنى الجملى

لما ذكر فى أول السورة شدة حزنه صلى الله عليه وسلم على كفر قومه وعدم استجابتهم دعوته ، ثم ذكر قصص موسى عليه السلام ليكون فى ذلك تسلية له ، وليعلم أنه ليس بيدع فى الرسل ، وأن قومه ليسوا بأول الأمم عنادا واستكبارا ، فقد أتى موسى بباهر المعجزات ، وعظيم الآيات ، ولم يؤمن به من قومه إلا القليل ، ولم يؤمن به من المصريين إلا النذر اليسير - أردف ذلك بقصص إبراهيم أبى الأنبياء ، وخليل الرحمن ، وكليم الله ، ليعلم أن حزنه لكفران قومه كان أشد ، وآلامه كانت أمض، فهو كان يرى أن أباه وقومه صائرون إلى النار ، وهو ليس بمستطيع إنقاذهم ، وقد أكثر حجاجهم حتى حجّهم ولم يُجْدَ ذلك فيهم شيئا ، بل ركنوا إلى التقليد بما ورثوه عن الآباء والأجداد ، وقد أبان لهم أثناء حجاجه أن أصنامهم لاتغنى عنهم شيئا ، فهى لا تسمع دعاءهم «وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاء» ولو سمعت لم تغن عنهم شيئا . ثم ذكر لهم صفات الرّب الذى ينبغى أن يعبد وفصلها أتم التفصيل .

## الإيضاح

( واتل عليهم نبأ إبراهيم إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون ؟ ) أى واتل على أمتك أخبار إبراهيم إمام الحنفاء ، ليقتدوا به فى الإخلاص والتوكل على الله وعبادته وحده

لاشريك له والتبرى من الشرك وأهله ، وقد أوتى الرشد من صغره ، فهو من حين نشأ وترعرع أنكر على قومه عبادة الأصنام فقال لأبيه وقومه ماذا تعبدون ؟ وهو مشاهد راء له ، ليُعْلمهم أن مايعبدونه لايستحق العبادة في شرع ولا عقل .

روى أنّ أصنامهم كانت من ذهب وفضة ونحاس وحديد وخُشُب .

فأجابوه إجابة المفتخر بما يفعل ، المزْهوّ بجميل مايصنع .

( قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين ) أى قالوا نعبد الأصنام ونقيم على عبادتها طوال ليلنا ونهارنا . و بعد أن أوضحوا له طريقتهم نبههم إلى فساد معتقدهم بسوق الدليل الذى يرشد إلى بطلانه .

( قال هل يسمعونكم إذ تدعون . أو ينفعونكم أو يضرون ؟ ) أى قال لهم : هل يسمعون دعاءكم حين تدعونهم فيستجيبوا لـكم ببذل معونة أو دفع مضرة ؟ .

ذلك أن الغالب من حال من يعبد غيره أن يلتجىء إليه فى المسألة ليعرف مراده إذا سمع دعاءه ثم يستجيب له ببذل المعونة من جلب نفع أو دفع ضر ، فإذا كان ماتعبدونه لايسمع دعاءكم حتى يعرف مقصودكم ، ولو عرف ما استطاع مَدّ يد المعونة ، فـكيف بكم تستسيغون لأنفسكم أن تعبدوا ماهذه صفته ؟ .

وحينئذ فلجت حجة إبراهيم ولم يجدوا مقالا يقولونه وكأنما ألقمهم حجرا ، فعدلوا عن الحجاج إلى اللجاج ، وتقليد الآباء والأجداد ، وتلك هى حجة العاجز المغلوب على أمره ، الذى أظلم وجه الحق أمامه ، ولم يهتد لحجة ولا دليل .

فزاد فى تقريعهم وتو بيخهم كما أشار إلى ذلك سبحانه بقوله :

( قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون . قال : أفرأيتم ماكنتم تعبدون . أنتم وآباؤكم الأقدمون ؟ فإنهم عدوّ لى إلا رب العالمين ) أى إن كانت هذه الأصنام شيئا ولها تأثير كما تدّعون ، وتستطيع أن تضر وتنفع فلتَخلُص إلىّ بالمساءة فإنى عدوّ لها ، لا أبالى بها ولا آبه بشأنها ، ولـكن رب العالمين هو وليى فى الدنيا والآخرة ، ولايزال متفضلا علىّ فيهما .

ونحو هذا قول نوح عليه السلام « فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ » وقول هود :

« إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لاَ تُنْظِرُونِ . إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ، إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » .

ثم وصف رب العالمين سبحانه بأوصاف استحق لأجلها أن يعبد :

(١) ( الذى خلقنى فهو يهدين ) أى هو الخالق الذى خلقنى وصورنى فأحسن صورتى ، وهو الذى يهدينى إلى كل مايهمنى من أمور المعاش والمعاد هداية تتجدد على جهة الدوام والاستمرار .

(٢) ( والذى هو يطعمنى ويسقين ) أى وهو رازقى بما يسرّ من الأسباب السماوية والأرضية ، فساق المزن ، وأنزل الماء فأحيا به الأرض ، وأخرج به من كل الثمرات رزقا للعباد ، وأنزل الماء عذبا زلالا يسقيه ماخلق من الأنعام والأناسى .

(٣) ( وإذا مرضت فهو يشفين ) أى وهو الذى ينعم علىّ بالشفاء إذا حصل لى مرض ، وأضاف المرض إلى نفسه وهو حادث بقدرة ربه أدبا منه مع ربه كما قالت الجن « وَأَنَّا لاَ نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا » .

والخلاصة — إنى إذا مرضت لايقدر على شفائى أحد غيره بما يقدّر من الأسباب الموصلة إلى ذلك .

(٤) ( والذى يميتنى ثم يحيين ) أى وهو الذى يحيينى ويميتنى ولا يقدر على ذلك أحد إلا هو ، فهو الذى يبدئ ويعيد ، وقد يكون المراد بالإحياء البعث بعد الموت ، ويؤيده عطفه بثم لاتساع الوقت بين الإماتة والإحياء .

(٥) ( والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين ) أى وهو الذى لايقدر على غفران الذنوب فى الآخرة إلا هو كما قال : « وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ » وسمى إبراهيم ماصدر منه من عمل — هو خلاف الأولى — خطيئة ، استعظاما له .

وخلاصة مقاله — إن جميع النعم التى يتمتع بها المرء من النشأة الأولى إلى آخر الدهر هى من الله وحده ، ولا قدرة لأصنامكم على شىء منها .

وفى صحيح مسلم عن عائشة « قلت يارسول الله : ابن جُدْعان كان فى الجاهلية يصل الرحم ، ويطعم المسكين ، فهل ذلك نافعه ؟ قال لاينفعه ، إنه لم يقل يوما : رب اغفر لى خطيئتى يوم الدين » .

---

رَبِّ هَبْ لِى حُكْماً وَأَلْحِقْنِى بِالصَّالِحِينَ (٨٣) وَاجْعَلْ لِى لِسَانَ صِدْقٍ فِى الْآخِرِينَ (٨٤) وَاجْعَلْنِى مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ (٨٥) وَاغْفِرْ لِأَبِى إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ (٨٦) وَلاَ تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ (٨٧) يَوْمَ لاَ يَنْفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ (٨٨) إِلاَّ مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩) .

## تفسير المفردات

الحكم : هو العلم بالخير والعمل به ، واللحوق بالصالحين يراد به التوفيق للأعمال التى توصل إلى الانتظام فى زمرة الكاملين المنزهين عن كبائر الذنوب وصغائرها ، لسان صدق : أى ذكرا جميلا بين الناس بتوفيقى إلى الطريق الحسنة حتى يقتدى بى الناس من بعدى ، وهذا هو الحياة الثانية كما قال : قد مات قوم وهم فى الناس أحياء ، من ورثة جنة النعيم : أى من الذين يتمتعون بالجنة وسعادتها فيكون ذلك غنيمة لهم كما يتمتع الناس بالميراث فى الدنيا ، والخزى : الهوان ، والقلب السليم : هو البعيد عن الكفر والنفاق وسائر الأخلاق الذميمة .

## المعنى الجملى

بعد أن أثنى إبراهيم على ربه بما أثنى عليه ـ ذكر مسألته ودعاءه إياه بما ذكره كما هو دأب من يشتغل بدعائه تعالى ، فإنه يجب عليه أن يتقدم بالثناء عليه وذكر عظمته وكبريائه ، ليستغرق فى معرفة ربه ومحبته ، ويصير أقرب شبها بالملائكة الذين

يعبدون الله بالليل والنهار لايفترون ، وبذا يستنير قلبه إلى ماهو أرفق به فى دينه ودنياه ، وتحصل له قوة إلهية تجعله يهتدى إلى مايريد ، ومن ثم جاء فى الأثر حكاية عن الله تعالى : «من شغله ذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ماأعطى السائلين » .

## الايضاح

دعا إبراهيم ربه أن يؤتيه من فضله أجمل الأخلاق وأكمل الآداب ، فطلب إليه أمورا هى :

(١) ( ربّ هب لى حكما ) أى ائتنى معرفة بك وبصفاتك ، ومعرفة للحق لأعمل به .

(٢) ( وألحقنى بالصالحين ) أى ووفقنى للعمل فى طاعتك ، لأنتظم فى سلك المقربين إليك ، المطيعين لك ، وقد أجاب الله دعاءه كما قال : « وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ » .

روى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال فى دعائه : « اللهم أحينا مسلمين ، وأمتنا مسلمين ، وألحقنا بالصالحين ، غير خزايا ولا مبدّلين » .

(٣) ( واجعل لى لسان صدق فى الآخرين ) أى وخلّد ذكرى الجميل فى الدنيا بتوفيقى لصالح العمل ، فأكون قدوة لمن بعدى إلى يوم القيامة ، وقد أجاب الله دعاءه كما قال : « وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ . سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ . كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ » .

ومن ثم لاترى أمة إلا محبة لإبراهيم وتدّعى أنها على ملته ، وقد جاء من ذريته كَمَلة الأنبياء وأولو العزم منهم .

وختم ذلك بمجدّد دينه ، وداعية الناس إلى التوحيد وهو محمد صلى الله عليه وسلم.

وبعد أن طلب سعادة الدنيا طلب ثواب الآخرة فقال :

(٤) (واجعلنى من ورثة جنة النعيم) أى واجعلني ممن يدخلون الجنة ويتمتعون بنعيمها كما يتمتع المالك بما يملكه ميراثا ويئول إليه أمره من شئون الدنيا.

وبعد أن طلب السعادة الدنيوية والأخروية لنفسه طلبها لأقرب الناس إليه وهو أبوه فقال:

(٥) (واغفر لأبى إنه كان من الضالين) أى واغفر له ذنوبه، إنه كان ضالا عن طريق الهدى، وهذه الدعوة وفاء بما وعده من قبل كما جاء فى آية أخرى: «وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلاَّ عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ».

ثم طلب من ربه عدم خزيه وهوانه يوم القيامة فقال:

(٦) (ولا تخزنى يوم يبعثون) أى ولا تخزنى بمعاتبتى على مافرطتُ، أو بنقص مرتبتى عن بعض الوارثين.

ثم بين حال هذا اليوم وما فيه من شديد الأهوال فقال:

(يوم لاينفع مال ولا بنون. إلا من أتى الله بقلب سليم) أى يوم لا يقى المرء من عذاب الله المال ولو افتدى بملء الأرض ذهبا، ولا البنون ولو افتدى بهم جميعا، ولكن ينفعه أن يجىء خالصا من الذنوب وأدرانها، وحب الدنيا وشهواتها، وخص الابن بالذكر لأنه أولى القرابة بالدفع والنفع، فإذا لم ينفع فغيره من القرابة أولى.

قال النسفى: وماأحسن ما رتب عليه السلام من كلامه مع المشركين، حيث سألهم أوّلا عما يعبدون سؤال مقرِّر لامستفهم، ثم أقبل على آلهتهم فأبطل أمرها بأنها لاتضر ولا تنفع ولا تسمع، وعلى تقليدهم آباءهم الأقدمين فأخرجه من أن يكون شبهة فضلا عن أن يكون حجة، ثم صور المسألة فى نفسه دونهم حتى تخلّص منها إلى ذكر الله تعالى، فعظم شأنه، وعدّد نعمه من حين إنشائه إلى وقت وفاته، مع مايرجى فى الآخرة من رحمته، ثم أتبع ذلك أن دعا بدعوات المخلصين، وابتهل إليه ابتهال الأدب، ثم وصله بذكر يوم القيامة وثواب الله وعذابه ومايفعل المشركون يومئذ من الند

والحسرة على ما كانوا فيه من الضلال وتمنى الكرّة إلى الدنيا ليؤمنوا ويطيعوا اهـ .

أخرج أحمد والترمذى وابن ماجه عن ثوبان قال : لما نزلت : « وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ » الآية. وقال بعض أصحاب رسول الله لو علمنا أىُّ المال خير اتخذناه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أفضله لسان ذاكر ، وقلب شاكر ،وزوجة صالحة تعين المؤمن على إيمانه » .

---

وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ (٩٠) وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ (٩١) وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (٩٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ (٩٣) فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ (٩٤) وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ (٩٥) قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ (٩٦) تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ(٩٧)إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٩٨) وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ (٩٩) فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ (١٠٠) وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ (١٠١) فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٢) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ، وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٠٣) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٠٤) .

## تفسير المفردات

أزلفت : أى قرّبت ، برزت : أى جعلت بارزة لهم بحيث يرون أهوالها ، والغاوين : الضالين عن طريق الحق ، فكبكبوا : أى ألقوا على وجوههم مرة بعد أخرى من قولهم كبّه على وجهه : أى ألقاه ، يختصمون : أى يخاصمون من معهم من الأصنام والشياطين ، نسويكم : أى نجعلكم مساوين له فى استحقاق العبادة ، والصديق : هو الصادق فى وده ، والحميم : هو الذى يهمه ماأهمك ، والكرة : الرجعة .

## المعنى الجملى

بعد أن ذكر أنه لا ينفع فى هذا اليوم مال ولا بنون ، وإنما ينفع البعد من الكفر والنفاق ـ ذكر هنا من وصف هذا اليوم أمورا تبين شديد أهواله ، وعظيم نكاله .

## الإيضاح

ذكر مايحدث فى هذا اليوم مما يبشر بثواب المتقين ونكال الكافرين ، ثم قرّعهم على ما اجترحوا من السيئات فقال :

(١) ( وأزلفت الجنة للمتقين ) أى إن الجنة تكون قريبة من موقف السعداء ، ينظرون إليها ، ويفرحون بأنهم سيحشرون إليها كما جاء فى آية أخرى : « وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ » .

وفى هذا تعجيل لمسرتهم كفاء ماعملوا لها ، ورغبوا عن الدنيا وزخرفها .

(٢) ( وبرزت الجحيم للغاوين ) أى وتكون النار بارزة مكشوفة للأشقياء ، بحيث تكون بمرأى منهم ، يسمعون زفراتها التى تبلغ منها القلوب الحناجر ، ويوقنون بأنهم مواقعوها ، لايجدون عنها مصرفا .

وفى هذا تعجيل للغم والحسرة ، إذ نسوا فى دنياهم هذا اليوم كما جاء فى قوله : « وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هٰذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ » .

ثم ذكر أنه يسأل أهل النار تقريعا لهم .

(٣) (وقيل لهم أين ما كنتم تعبدون. من دون الله هل ينصرونكم أو ينتصرون؟ )

أى أين آلهتكم التى كنتم تعبدونها ؟ هل ينفعونكم بنصرتهم لكم، أو هل ينفعون أنفسهم بانتصارهم لأنفسهم ؟ لا - إنهم وآلهتهم وقود النار .

والخلاصة - ليست الآلهة التى عبدتموها من دون الله من الأصنام والأوثان بمغنية عنكم اليوم شيئا ، ولا هى بدافعة عن نفسها شيئا ، فإنكم وإياها اليوم حصب جهنم أنتم لها واردون .

ثم ذكر مآلهم بعدئذ فقال :

(٤) ( فكبكبوا فيها هم والغاوون . وجنود إبليس أجمعون ) أى فألقى الآلهة والغاوون الذين عبدوها فى النار ، والشياطين والداعون إلى عبادتها - على رءوسهم أو ألقى بعضهم على بعض .

وتأخير الغاوين فى الكبكبة عن آلهتهم ؛ ليشاهدوا سوء حالهم ، فينقطع رجاؤهم منهم قبل دخول الجحيم .

ثم ذكر مايحدث من المخاصمة والمحاجة بين الآلهة والغاوين عبدتها والشياطين الذين دعوهم إلى تلك العبادة .

(٥) ( قالوا وهم فيها يختصمون . تالله إن كنا لفى ضلال مبين . إذ نسويكم برب العالمين . وما أضلنا إلا المجرمون ) أى قال الغاوون وهم يخاصمون من معهم من الأصنام والشياطين : تالله إننا كنا فى ضلال واضح لا لبس فيه حين سويناكم برب العالمين فى استحقاق العبادة وعظمناكم تعظيم المعبود الحق ، وما أضلّنا إلا المجرمون من الرؤساء والكبراء كما جاء فى آية : « رَبَّنَا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاَ » .

وخلاصة ذلك - إنهم حين رأوا صور تلك الآلهة اعترفوا بالخطأ العظيم الذى كان منهم وندموا على طاعتهم لأولئك الرؤساء والسادة الذين حملوهم على عبادتها وتعظيم شأنها .

ثم أكدوا ندمهم على مافرط منهم وحسرتهم على ماصنعوا .

( فما لنا من شافعين . ولاصديق حميم ) أى فليس لنا اليوم شفيع يشفع لنا مما

نحن فيه من ضيق أو ينقذنا من هلكة ، ولا صديق شفيق يعنيه أمرنا و يودنا ونوده .

ونحو الآية ماجاء فى آية أخرى حكاية عنهم : « فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاء فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ » .

وقد أرادوا بهذا الإخبار إظهار اللهفة والحسرة على فقد الشفيع والصديق النافع ، وقد نفَوْا أولا أن يكون لهم من ينفعهم فى تخليصهم من العذاب بشفاعته ، ثم ترقَّوْا ونفَوْا أن يكون لهم من يهمه أمرهم و يشفق عليهم ويتوجع لهم و إن لم يخلصهم.

والخلاصة — إن الأمر قد بلغ من الهول مالا يستطيع أحد أن ينفع فيه أدنى نفع .

ثم حكى الله عنهم تمنيهم الرجوع إلى الدنيا ليعملوا بطاعة ربهم فيما يزعمون ، والله يعلم إنهم لو ردوا لعادوا إلى ما نُهوا عنه و إنهم لـكاذبون فقال :

( فلو أن لنا كرة فنكون من المؤمنين ) أى ليت لنا رجعة إلى الدنيا فنعمل صالحا غير الذى كنا نعمل ، حتى إذا متنا و بعثنا مرة أخرى لاينالنا من العذاب مثل مانحن فيه .

( إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ) أى إن فى محاجة إبراهيم لقومه و إقامة الحجة عليهم فى التوحيد ـ لآية واضحة جلية على أنه تعالى لارب غيره ، ولا معبود سواه ، ومع كل هذا ماآمن به أكثرهم .

وفى هذا تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم على مايجده من تكذيب قومه له مع ظهور الآيات وعظيم المعجزات .

(و إن ربك لهو العزيز الرحيم) أى و إن ربك المحسن إليهم بإرسالك لهدايتهم ـ لهو القادر على الانتقام منهم ، الرحيم بهم إذ لم يهلكهم ، بل أخّر ذلك وأرسل إليهم الرسل ونصب لهم الشرائع ، ليؤمنوا بها هم أو ذريتهم .

---

## قصص نوح عليه السلام

كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ (١٠٥) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلاَ تَتَّقُونَ؟ (١٠٦) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٠٧) فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ (١٠٨) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٩) فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ (١١٠) قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ (١١١) قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٢) إِنْ حِسَابُهُمْ إِلاَّ عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ (١١٣) وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٤) إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُبِينٌ (١١٥) قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ (١١٦) قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ (١١٧) فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١١٨) فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١١٩) ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ (١٢٠) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٢١) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٢٢) .

## تفسير المفردات

القوم : اسم لا واحد له من لفظه كرهط ونفر يذكّر ويؤنث ، أخوهم : أى أخوّة نسب ، كما يقال يا أخا العرب ويا أخا تميم ، يريدون يامن هو واحد منهم ؛ قال الحماسى :

لا يسألون أخاهم حين يندبهم     فى النائبات على ماقال برهانا

الأرذلون : واحدهم أرذل ، والرذالة : الخسة والدناءة ، وقد استرذلوهم ؛ لاتضاع نسبهم وقلة حظوظهم من الدنيا ، من المرجومين : أى من المقتولين رميا بالحجارة ،

فانتح : أى احكم من الفتاحة بمعنى الحكومة ، والفلك : يستعمل واحدا وجمعا ، المشحون : أى المملوء

## المعنى الجملى

بعد أن قص على رسوله صلى الله عليه وسلم قصص أبيه إبراهيم وما لقيه من تكذيب قومه له مع ما أرشدهم إليه من أدلة التوحيد وما حجهم به من الآيات ـ أردف هذا بقصص الأب الثانى وهو نوح عليه السلام ، وفيه ما لاقاه من قومه من شديد التكذيب لدعوته وعكوفهم على عبادة الأصنام والأوثان وأنه مع طول الدعوة لهم لم يزدهم ذلك إلا عتوّا واستكبارا ، وقد كان من عاقبة أمرهم ما كان لغيرهم ممن كذبوا رسل ربهم بعد أن أملى لهم بطول الأمد : « وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ » فأغرقهم الطوفان ولم ينج منهم إلا من حملته السفينة .

وهذا القصص مجمل تقدم تفصيله فى سورتى الأعراف وهود ، وسيأتى بسطه أتم البسط فى سورة نوح .

## الإيضاح

(كذبت قوم نوح المرسلين . إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون ؟) أى كذبت قوم نوح رسل الله حين قال لهم أخوهم نوح : ألا تتقون الله فتحذروا عقابه على كفركم به وتكذيبكم رسله ؟ .

وجعل تكذيب نوح تكذيبا للرسل جميعا ، لأن تكذيبه يتضمن تكذيب غيره منهم إذ طريقتهم لا تختلف ؛ فهى فى كل مكان وزمان الدعوة إلى التوحيد وأصول الشرائع .

وقد حكى سبحانه عن نوح أنه خوفهم أوّلا بقوله : ألا تتقون ؟ لأن القوم إنما قبلوا تلك الأديان تقليدا ، والمقلد إذا خُوِّف خاف ، وما لم يستشعر بالخوف لا يشتغل بالاستدلال والنظر .

وقد وصف نوح نفسه بأمرين :

(١) ( إنى لكم رسول أمين ) أى إنى رسول من الله إليكم ، أمين فيما بعثنى به ، أبلغكم رسالاته ، لا أزيد فيها ، ولا أنقص منها .

( فاتقوا الله وأطيعون ) أى خافوا عقاب الله وأطيعونى فيما آمركم به من التوحيد ، وقدّم الأمر بتقوى الله على الأمر بطاعته ؛ لأن التقوى هى ملاك الأمر كله فى هذه الحياة وكرر الأمر بها لأنها العمدة فى جميع الأعمال ، فيجب على العامل ملاحظتها إذا أراد الإحسان وتجويد العمل .

(٢) ( وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين ) أى لا أطلب منكم جزاء على نصحى لكم ، بل أطلب ثواب ذلك من عند الله .

( فاتقوا الله وأطيعون ) فقد وضح الأمر لكم ، وبان نصحى وأمانتى فيما بعثنى الله به وائتمنى عليه ، وسبب التكرير ما علمته من قبل ، ونظير هذا مايقول الوالد لولده : ألا تتقى الله فى عقوقى وقد ربيتك صغيرا ؟ ألا تتقى الله فى عقوقى وقد علمتك كبيرا ؟ .

وبعد أن أقام الدليل على صدق رسالته وعظيم نصحه وأمانته لهم أرادوا أن يتنصلوا من اتباع دعوته بحجة هى أوهى من بيت العنكبوت .

(قالوا أنؤمن لك واتبعك الأرذلون؟ ) أى قالوا كيف نتبعك ونصدّقك ونؤمن بك ونأتسى بهؤلاء الأراذل الذين اتبعوك ؟ ومرادهم أن هذا لن يكون أبدا .

وهذه شبهة لاينبغى لعاقل أن يركن إليها ، لأن نوحا عليه السلام بعث إلى الخلق كافة، لافارق بين غنى وفقير، وصعلوك وأمير، ولا بين ذوى البيوتات والحسب ، وذوى الوضاعة والخسة فى النسب ، فليس له إلا اعتبار الظواهر ، دون التفتيش والبحث عن البواطن ، ومن ثم أجابهم :

( قال وما علمى بما كانوا يعملون ؟ ) أى وأىُّ شىء يُعْلِمنى ما كان يعمل أتباعى؟ إنما لى منهم ظاهر أمرهم دون باطنه ، فمن أظهر الحسَن ظننت به حسنا ، ومن أظهر

السوء ظننت به ذلك ، ولم أكلَّف العلم بأعمالهم ، وإنما كلِّفتُ أن أدعوهم إلى الإيمان والاعتبار به لا بالحِرَف والصناعات والفقر والغنى ، وهم كأنهم يقولون إن إيمان هؤلاء لم يكن عن نظر صحيح ، بل لتوقع مال ورفعة .

ثم أبان أن أمر جزائهم وحسابهم على ربهم لا عليه ، فلا يعنيه استقصاء أحوالهم فقال :

( إن حسابهم إلا على ربى لو تشعرون ) أى ماحسابهم على ماتحويه سرائرهم إلا على ربهم المطّلع عليها لو كنتم من ذوى الشعور والعقل .

ولما جعلوا من موانع إيمانهم اتباع هولاء الأراذل كانوا كأنهم طلبوا طردهم فقال:

( وما أنا بطارد المؤمنين ) أى وماأنا بطارد من آمن بالله واتبعنى وصدق بما جئت به من عند الله .

ثم بين وظيفة الرسول فقال :

( إن أنا إلا نذير مبين ) أي إنما بعثت منذرا ومخوّفا بأس الله وشديد عذابه ، فمن أطاعنى كان منى وأنا منه ، شريفا كان أو وضيعا ، جليلا كان أو حقيرا.

ولما أجابهم بهذا الجواب وأيسوا مما راموا لجئوا إلى التهديد .

( قالوا لئن لم تنته يانوح لتكونن من المرجومين ) أى قال قوم نوح له : لئن لم تنته عما تدعو إليه من الطعن فى آلهتنا لنرجمنك بالحجارة ولنقتلنك بها .

ولما طال مقامه بين ظهرانيهم ، يدعوهم إلى الله ليلا ونهارا ، سرا وإعلانا ، وكلما كرر عليهم الدعوة صمّوا آذانهم وصمموا على تكذيبه وتمادَوْا فى عتوِّهم واستكبارهم - استغاث بربه وطلب منه أن يحكم بينه وبينهم وأن يهلكهم كما أهلك المكذبين من قبلهم لرسلهم وينجيه والمؤمنين به .

( قال رب إن قومى كذبون . فافتح بينى وبينهم فتحا ونجنى ومن معى من المؤمنين ) أى إن قومى كذبونى فيما أتيتهم به من الحق من عندك ، فاحكم بينى وبينهم حكما تهلك به المبطل وتنتقم منه وتنصر به الحق وأهله .

وجاء فى آية أخرى « فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ »

وفى ذلك إيماء إلى طلب إنزال العذاب بهم كما يرشد إلى ذلك قوله : ( ونجنى ومن معى من المؤمنين ) .

فأجاب الله دعاءه كما قال :

( فأنجيناه ومن معه فى الفلك المشحون . ثم أغرقنا بعد الباقين ) أى فأنجينا نوحا ومن اتبعه على الإيمان بالله وطاعة رسوله ، وأغرقنا من كفر به وخالف أمره .

وفى قوله ـ المشحون ـ إيماء إلى كثرتهم وأن الفلك امتلأ بهم وبما صحبهم ، وقد روى أنهم كانوا ثمانين، أربعين رجلا وأربعين امرأة.

( إن فى ذلك لآية ) أى إن فى إنجاء المؤمنين و إنزال سطوتنا و بأسنا بالكافرين لعبرة وعظة لقومك المصدقين منهم والمكذبين ، على أن سنتنا إنجاء رسلنا وأتباعهم إذا نزلت نقمتنا بالمكذبين من قومهم ، وكذلك هى سنتى فيك وفى قومك

( وما كان أكثرهم مؤمنين ) أى ومع كل ما حذر به نوح وأنذر لم يؤمن به إلا القليل ، وفى هذا إيماء إلى أنه لو كان أكثرهم مؤمنين لما عوجلوا بالعقاب .

( و إن ربك لهو العزيز الرحيم ) أى و إن ربك لهو العزيز فى انتقامه ممن كفر به وخالف أمره ، الرحيم بالتائب منهم أن يعاقبه بعد توبته .

---

## قصص هود عليه السلام

كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٢٤) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٢٥) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٢٦) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢٧) أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩)

وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (١٣٠) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٣١) وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ (١٣٢) أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ (١٣٣) وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٣٤) إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣٥) قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ (١٣٦) إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ (١٣٧) وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (١٣٨) فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣٩) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٤٠) .

## تفسير المفردات

عاد : اسم أبى القبيلة الأكبر ، ويعبر عن القبيلة إذا كانت عظيمة باسم الأب أو ببنى فلان أو آل فلان ، والريع (بالفتح والكسر) المكان المرتفع ، ويقال كم ريع أرضك أى ارتفاعها ، آية : أى قصرا مشيدا عاليا ، تعبثون : أى تفعلون العبث ، ومالا فائدة فيه ، مصانع : أى قصورا مشيدة وحصونا منيعة ، ولعل هنا معناها التشبيه أى كأنكم تخلدون ، والبطش : الأخذ بالعنف ، والجبار : المتسلط العاتى بلا رأفة ولا شفقة ، أمدكم : أى سخر لكم ، والوعظ : كلام يلين القلب بذكر الوعد والوعيد ، خلق الأولين : أى عادتهم التى كانوا بها يدينون ، ونحن بهم مقتدون : نموت ونحيا بلا حساب ولا بعث .

## المعنى الجملى

بعد أن ذكر قصص نوح وقومه وأن نوحا دعاهم وحذرهم عقاب الله وطال عليه المطال ولم يزدهم ذلك إلا عتوّا ونفورا ، فدعا ربه فأخذهم الطوفان وهم ظالمون ــ أردف هذا قصص هود عليه السلام مع قومه عاد ، وكانوا بعد قوم نوح كما قال فى سورة

الأعراف « وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً » . يسكنون الأحقاف ، وهى جبال الرمل القريبة من حضرموت ببلاد اليمن وكانت لهم أرزاق دارّة وأموال ، وجنات وأنهار وزروع وثمار ، وكانوا يعبدون الأصنام والأوثان ، فبعث الله فيهم نبيًّا منهم يبشرهم وينذرهم ويدعوهم إلى عبادة الله وحده ويحذّرهم نقمته وعذابه ، فكذبوه فأهلكهم كما أهلك المكذبين لرسله .

## الايضاح

( كذبت عاد المرسلين . إذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون . إنى لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون . وماأسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين) جاءت هذه المقالة على لسان نوح وهود وصالح ولوط وشعيب للتنبيه إلى أن بعثة الأنبياء أسُّها الدعاء إلى معرفة الله وطاعته فيما يقرب المدعو إلى الثواب ويبعده من العقاب ، وأن الأنبياء مجمعون على ذلك وإن اختلفوا فى تفصيل الأحكام تبعا لاختلاف الأزمنة والعصور، وأن الأنبياء منزّهون عن المطامع الدنيوية لايأبهون بها، ولا يجعلونها قبلة أنظارهم ، ومحط رحالهم .

ولما فرغ من دعائهم إلى الإيمان أتبعه إنكار بعض ماهم عليه فقال :

( أتبنون بكل ريع آية تعبثون ؟ ) أى أتبنون فى كل مرتفع عال قصرا مشيدا للتفاخر والدلالة على الغنى .

( وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون ) أى وتتخذون الحصون والقلاع كأنكم مُخَلَّدون فى الدنيا .

روى ابن أبى حاتم أن أبا الدرداء رضى الله عنه لما رأى ما أحدث المسلمون فى غُوطة دِمَشق من البنيان ونصب الشجر ، قام فى مسجدهم فنادى : ياأهل دمشق ، فاجتمعوا إليه ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : ألا تستحيون ، ألا تستحيون ، تجمعون

مالا تأكلون ، وتبنون ما لا تسكنون ، وتأكلون مالا تدركون ، إنه قد كانت قبلكم قرون يجمعون فيوعون ، ويبنون فيوثّقون ، ويأمُلون فيطيلون ، فأصبح أملهم غرورا ، وأصبح جمعهم بُورا ، وأصبحت مساكنهم قبورا ، ألا إن عادا ملكت مابين عَدَن وعَمّان، خيلا وركابا ، فمن يشترى منى ميراث عاد بدرهمين ؟ .

( وإذا بطشتم بطشتم جبارين ) أى إنكم قوم قساة غلاظ الأكباد ذوو جبروت وعتوّ ، فإذا عاقبتم عاقبتم دون شفقة ولا رأفة .

وخلاصة ما قال — إن أعمالكم تدل على حب الدنيا وعلى الكبرياء والتسلط على الناس بجبروت وعَسْف .

ولما نهاهم عن حب الدنيا والاشتغال بالترف والجبروت ، دعاهم إلى العمل للآخرة زجرا لهم عما هم فيه فقال :

( فاتقوا الله وأطيعون ) أى فاحذروا عقاب الله ، واتركوا هذه الأفعال الذميمة ، وأطيعونى فيما أدعوكم إليه من عبادة الله وحده لا شريك له ، فإن ذلك أجدى لكم وأنفع.

ثم وصل العظة بما يوجب قبولها بالتنبيه إلى نعم الله التى غمرتهم ، وفواضله التى عمّتهم ، وذكرها أوّلا مجملة ثم فصلها ليكون ذلك أوقع فى نفوسهم فيحتفظوا بها ويعرفوا عظيم قدرها فقال :

( واتقوا الذى أمدكم بما تعلمون . أمدكم بأنعام وبنين . وجنات وعيون ) أى واتقوا عقاب الله بطاعتكم إياه فيما أمركم به ونهاكم عنه ، فابتعدوا عن اللعب واللهو وظلم الناس والفساد فى الأرض ، واحذروا سخط من أعطاكم من عنده ما تعلمون من الأنعام والبنين والبساتين والأنهار تتمتعون بها كما شئتم ، حتى صرتم مضرب الأمثال فى الغنى والثروة والزخرف والزينة ، فاجعلوا كِفاء هذا عبادة من أنعم بها وتعظيمه وحده .

ثم بين السبب فى أمرهم بالتقوى فقال :

( إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ) أى إنى أخاف عليكم إن أصررتم على كفركم

ولم تشكروا هذه النعم ، عذاب يوم شديد الهول تذهل فيه المرضعة عما أرضعت ، وترى الناس فيه سكارى حيارى وماهم بسكارى ، ولكن عذاب الله شديد .

وبعد أن بلغ الغاية فى إنذارهم وتخويفهم ، وترغيبهم وترهيبهم كانت خاتمة مطافه أن قابلوه بالاستخفاف وقلة الاكتراث والاستهانة بما سمعوا ، كما أشار إلى ذلك بقوله :

( قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين ) أى هوّن عليك وأرح نفسك ، فكل هذا تعب ضائع ، وجهاد فى غير عدوّ ، وضرب فى حديد بارد ، فإنا لن نرجع عما نحن عليه ، وقد حكى سبحانه قولهم فى سورة هود: «وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِى آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ » .

ثم ذكروا السبب فى أن الوعظ وعدمه سواء بقولهم :

( إن هذا إلا خلق الأولين . وما نحن بمعذبين ) أى ماهذا الدين الذى نحن عليه إلا دين الأولين من الآباء والأجداد ، فنحن سالكون سبيلهم ، نعيش كما عاشوا ونموت كما ماتوا ، ولا بعث ولا معاد ، ولا ثواب ولا عقاب ، ولا جنة ولا نار .

(فكذبوه فأهلكناهم) أى فاستمروا فى تكذيبهم ومخالفة أمر رسوله ، فأهلكناهم بريح صرصر عاتية : ( ريح عظيمة ذات برد شديد ) كما جاء فى قوله : « أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ » وقوله : « وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى » :

( إن فى ذلك لآية ) أى إن فى إهلاكنا عادا بتكذيبها رسولها ــ لعبرة لقومك المكذبين بك فيما أتيتهم به من عند ربك .

( وما كان أكثرهم مؤمنين ) أى وما كان أكثر من أهلكنا بالذين يؤمنون فى سابق علمنا .

(وإن ربك لهو العزيز الرحيم) أى وإن ربك لهو الشديد فى انتقامه من أعدائه ، الرحيم بأوليائه المؤمنين إن تابوا وأصلحوا .

## قصص صالح عليه السلام

كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ (١٤١) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٤٢) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٤٣) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٤٤) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٤٥) أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ (١٤٦) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٤٧) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ (١٤٨) وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ (١٤٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٥٠) وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (١٥١) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (١٥٢) قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (١٥٣) مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٥٤) قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (١٥٥) وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥٦) فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ (١٥٧) فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٥٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٥٩) .

## تفسير المفردات

الطلع : أول مايطلع من الثمر و بعده يسمى خلالا ثم بلحا ثم بُسْراً ثم رُطَبا ثم تمرا ، والهضيم : هو النضيج الرَّخص اللين اللطيف ، والنحت : النجر والبرى ،

والنُّحاتة : البُراية ، والمَنْحَت : ماينحت به ، والفَرَه : النشاط وشدة الفرح ، من المسحَّرين : أى الذين سُحِروا حتى ذهبت عقولهم ، الشرب : ( بالكسر ) النصيب والحظ ، فعقروها : أى رمَوْها بسهم ثم قتلوها .

## المعنى الجملى

بعد أن قص سبحانه على رسوله قصص عاد وهود ــ قص قصص ثمود وصالح وقد كانوا عربا مثلهم يسكنون مدينة الحِجْر التى بين وادى القُرى والشام ، ومساكنهم معروفة تتردد عليها قريش فى رحلة الصيف وهم ذاهبون إلى بلاد الشام .

دعاهم صالح إلى عبادة الله وحده وأن يطيعوه فيما بلغهم من رسالة ربهم فأبوا وكذبوا بعد أن أتى لهم بالآيات المصدِّقة لرسالته ، فأخذهم العذاب وزلزلت بهم الأرض ولم تبقِ منهم ديّارا ولا نافخ نار .

## الإيضاح

( كذبت ثمود المرسلين . إذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون ؟ إنى لكم رسول أمين ، فاتقوا الله وأطيعون، وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين ) أى كذبت ثمود أخاهم صالحا حين قال لهم: ألا تتقون عقاب الله على معصيتكم إياه ، وخلافكم أمره ، بطاعتكم أمر المفسدين فى الأرض ؟ إنى لكم رسول من عند الله أرسلنى إليكم بتحذيركم عقوبته ، أمين على رسالته التى أرسلها معى إليكم ، فاتقوه وأطيعونى ، وما أسألكم على نصحى وإنذارى جزاء ولا ثوابا ، ماجزائى إلا على رب السموات والأرض ومابينهما .

ثم خاطب قومه واعظا لهم ومحذرا نقم الله أن تحل بهم ومذكّرا بأنعمه عليهم فيما آتاهم من الأرزاق الدارّة والجنات والعيون والزروع والثمرات ، والأمن من المحذورات فقال :

(١) (أتتركون فيما هاهنا آمنين . فى جنات وعيون . وزروع ونخل طلعها هضيم؟) أى لاتظنوا أنكم تتركون فى دياركم آمنين متمتعين بالجنات والعيون والزروع والثمار اليانعة ، وأن لادار للجزاء على العمل . بل عليكم أن تتذكروا أن ماأنتم فيه من نعيم ، وأمن من عدوّ ، لن يدوم وأنكم عائدون إلى ربكم ، مجازَوْن علىٰ أعمالكم خيرها وشرها .

(٢) ( وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين ، فاتقوا الله وأطيعون ) أى وتتخذون تلك البيوت المنحوتة فى الجبال أشَراً وبَطَرا من غير حاجة إلى سكناها مع الجِدّ والاهتمام فى بنائها ، فاتقوا الله وأقبلوا على مايعود عليكم نفعه فى الدنيا والآخرة من عبادة ربكم الذى خلقكم ورزقكم ، وتسبيحه بكرة وأصيلا .

(٣) ( ولا تطيعوا أمر المسرفين . الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون ) أى ولاتطيعوا أمر رؤسائكم الذين تمادَوْا فى معصية ربكم واجترءوا على سخطه ، وهم الرهط التسعة الذين كانوا يفسدون فى الأرض ولا يصلحون وهم المذكورون فى قوله : « وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلاَ يُصْلِحُونَ » أى يسعَوْن فى أرض الله بمعاصيه ، ولا يصلحون أنفسهم بالعمل بطاعته .

وخلاصة هذا — لاتطيعوا رؤساءكم وكبراءكم الدعاة إلى الشرك والكفر ومخالفة الحق .

ولما عجزوا عن الطعن فى شىء مما دعاهم إليه عدلوا إلى التخييل إلى عقول الضعفاء والعامة .

(١) ( قالوا إنما أنت من المسحَّرين ) أى أنت ممن سُحِر كثيرا حتى غُلِبَ على عقله ، فلا يقبل لك قول ، ولا يسمع لك نصح .

(٢) ( ما أنت إلا بشر مثلنا فأت بآية إن كنت من الصادقين ) أى إنك بشر مثلنا ، فكيف أوحى إليك دوننا ؟ كما حكى عنهم فى آية أخرى : «أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا ؟ بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ. سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ؟»

فأجابهم إلى ما اقترحوا من الآيات الدالة على صدقه فيما جاء به من عند ربه.

( قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم ) أى قال صالح لثمود لما سألوه آية يعلمون بها صدقه : ياقوم هذه ناقة الله آية لكم ، ترد ماءكم يوما وتَرِدُونه أنتم يوما ، فلها حظ من الماء يوما ولكم مثله يوما آخر .

قال قتادة: إذا كان يوم شربها شربت ماءهم كله ، ولا تشرب فى يومهم ماء .

روى أنهم اقترحوا عليه عُشَراء ( الحامل فى عشرة أشهر ) تخرج من صخرة عينوها ، ثم تلد سَقْبًا ، فقعد عليه الصلاة والسلام يتذكر ، فقال له جبريل عليه السلام: صلّ ركعتين وسل ربك ، ففعل فخرجت الناقة وبركت بين أيديهم ونُتِجَت سقبا مثلها فى العظم . وإن أمثال هذه الروايات لايجب علينا التصديق بها إلا إذا ثبتت بصحيح الأخبار .

( ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم ) أى ولا تمسوها بسوء كضرب أو عقْر فيحل بكم عذاب لا قِبَل لكم به .

ثم حكى عنهم أنهم خالفوا أمر نبيهم فقال :

( فعقروها فأصبحوا نادمين . فأخذهم العذاب ) أى فعقروا الناقة بعد أن مكثت بين أظهرهم حينا من الدهر ترد الماء وتأكل المرعى ، ثم ندموا على ما فعلوا حين علموا أن العذاب نازل بهم ، إذ أنظرهم ثلاثة أيام وفى كل يوم منها تظهر مقدمات نزوله فندموا حيث لاينفع الندم ، فأخذهم العذاب وزُلزِلت أرضهم زلزالا شديدا وجاءتهم صيحة عظيمة اقتلعت منها قلوبهم ، ونزل بهم من الله مالم يكونوا يحتسبون ، فأصبحوا فى ديارهم جاثمين .

(إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك لهو العزيز الرحيم) تقدم تفسيرها

## قصص لوط عليه السلام

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ (١٦٠) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلاَ تَتَّقُونَ (١٦١) إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٦٢) فَاتَّقُوا اللّهَ وَأَطِيعُونِ (١٦٣) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٤) أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (١٦٥) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ (١٦٦) قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَالُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ (١٦٧) قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ (١٦٨) رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ (١٦٩) فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٧٠) إِلاَّ عَجُوزًا فِى الْغَابِرِينَ (١٧١) ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ (١٧٢) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ (١٧٣) إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧٤) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٧٥) .

## تفسير المفردات

أخوهم : أى فى البلد والسكنى ، لا فى الدين ولا فى النسب ، لأنه ابن أخى إبراهيم وهما من أرض بابل ، والذكران : واحدهم ذكر ضد الأنثى من كل حيوان ، عادون : أى متعدون الحدود التى رسمها العقل والشرع ، من المخرجين : أى ممن نخرجهم من أرضنا وننفيهم من قريتنا ، من القالين : أى المبغضين لفعلكم ، والقِلى : البغض

الشديد كأنه يقلى الفؤاد ، يقال قليته أقليه قلى وقلاء ، الغابرين : أى الباقين فهى لم تخرج مع لوط ومن مضى معه .

## المعنى الجملى

قص الله علينا فى هذه الآيات قصص لوط بن هاران بن آزر بن أخى إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، بعثه الله فى حياته إلى أمة عظيمة تسكن سذوم وما حولها من المدائن من بلاد الغَوْر بالقرب من بيت المقدس ، فدعاهم إلى عبادة الله وحده وطاعة رسوله ، ونهاهم عن معصيته وارتكاب ما كانوا ابتدعوا من الفواحش مما لم يسبقهم إليه أحد من العالمين ، فكذّبوه فأهلكهم الله ، فأرسل عليهم كِبْريتا ونارا من السماء فاحترقت قريتهم وأحدث بها زلزالا جعل عاليها سافلها كما جاء فى قوله : « فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ » .

## الإيضاح

(كذبت قوم لوط المرسلين إذ قال لهم أخوهم لوط ألا تتقون؟ إنى لكم رسول أمين، فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين) تقدم تفسير هذا فى سالف القصص .

وبعد أن نصحهم بما سلف ذكره وبخهم على قبيح ما ابتدعوه بقوله :

(أتأتون الذكران من العالمين . وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم) أى أأنتم دون الناس جميعا تفعلون هذه الفعلة الشنعاء ، تغشَوْن الذكور وتتركون النساء اللاتى جعلهن الله حلالا لكم تستمتعون بهن ويستمتعن بكم .

(بل أنتم قوم عادون) أى بل أنتم قوم أحقاء بأن توصفوا بالعدوان وتجاوز الحدود التى تسيغها العقول وتبيحها الشرائع ، بارتكابكم هذا الجُرْم الذى لم يخطر ببال أحد ممن قبلكم .

ولما اتضح لهم وجه الحق وانقطعت حجتهم لجئوا إلى التهديد واستعمال القوة :

( قالوا لئن لم تنته يالوط لتكونن من المخرجين ) أى لئن لم تنته عما أنت فيه من إنكارك ماتنكره من أمرنا لننفينّك من قريتنا ، وليكونن شأننا معك شأن من أخرجناهم من قبلك بالعُنْف والعسف واحتباس الأموال: (كما هو شأن الظلمة إذا أجْلَوْا بعض من يبغضونهم صادروا أملاكهم ) .

حينئذ أجابهم بأن إبعاده لا يقف به عن الإنكار عليهم .

( قال إنى لعملكم من القالين ) أى إنى برىء مما تعملون ، مبغض له ، لاأحبه ولا أرضاه ، ولا يضيرنّى تهديدكم ولا وعيدكم ، وإنى لراغب فى الخلاص من سوء جواركم .

وقال ( من القالين ) دون ( قال ) إيماء إلى أنه من القوم الذين لو سمعوا بما تفعلون لأبغضوه ، كما يقال فلان من العلماء فإنه أشد مدحا من قولك فلان عالم، إذ الأولى تدل على أنه فى عداد زمرة العلماء المعروفين بمساهمته لهم فى العلم .

ثم أعرض عنهم وتوجه إلى الله أن ينجيه من أعمال السوء هو وأهله قال:

( رب نجنى وأهلى مما يعملون ) أى رب نجّنى من شؤم أعمالهم وأبعدنى من عذابك الدنيوى والأخروى .

فأجاب الله دعاءه وأغاثه بعد أن استغاثه قال :

( فنجيناه وأهله أجمعين . إلا عجوزا فى الغابرين ) أى فنجيناه وأهله جميعا مما حل بأهل القرية من العذاب ، فأمرناه بالخروج منها قبل أن ينزل بهم ما نزل ، إلا عجوزا قد بقيت ولم تخرج معه وهى امرأته كما جاء فى سورة هود : «إِلاَّ امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ » وكانت عجوزَ سَوْءٍ لم تتْبع لوطا فى الدين ولم تخرج معه .

والخلاصة — فنجيناه وأهله من العذاب بإخراجهم من بينهم ليلا عند حلول العذاب بهم إلا عجوزا قدر الله بقاءها لسوء أفعالها وقبح طويّتها ، ولما لها من ضَلْع فى استحسان أفعالهم .

( ثم دمرنا الآخرين . وأمطرنا عليهم مطرا فساء مطر المنذرين ) أى ثم أهلكنا المؤخرين عن لوط فأمطرنا عليهم حجارة من السماء . قال وهب بن منبه : أنزل الله عليهم الكبريت والنار .

وبئس المطر هذا وماأشد وطأته ، وماأقسى وقعه ، فقد أحدث بأرضهم زلزالا جعل عاليها سافلها .

( إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين : وإن ربك لهو العزيز الرحيم ) سبق تفسير ذلك .

## إيضاح لهذه القصة بما كتبه الباحثون

كتبت مجلة السياسة الأسبوعية فصلا قالت فيه : روت الكتب المنزلة أن الله أهلك مدينتى سذوم وعمورة وثلاث مدن أخرى بجوارها بأن أمطر عليهم نارا وكبريتا من السماء ، فلم ينج من سكانها سوى إبراهيم الخليل وأهل بيته ولوط وابنتيه ولم يكن إبراهيم من أهل تلك المدن ، بل نزح إليها من الشمال طلبا للكلأ والمرعى بحسب عادة القبائل الرحّل فى ذلك الزمن .

وكان كثير من المؤرخين يرى أن هذه قصة خرافية ، وبعضهم يقول إنها قصة واقعية كما تشهد بذلك آثار البلاد المجاورة للبحر الميت ( بحيرة لوط ) .

وقد قام الدكتور ( أولبرابط ) بمباحث واسعة فى وادى نهر الأرْدُن وعلى سواحل البحر الميت حيث يظن أن سذوم وعمورة والثلاثة المدن الأخرى كانت فيها ، فاستبان له أن هذه القصة حقيقية بجميع تفاصيلها ، وعلم أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام انحدر حوالى القرن التاسع عشر قبل الميلاد من بلاد مابين النهرين إلى فلسطين ومعه أهل بيته وابن أخيه لوط وأهله ومعهما أنعام كثيرة ، فحدث نزاع وشجار بين الرعاة فرأى لوط حفظا للسلام أن يفترق عن إبراهيم واختار منطقة وادى الأردن التى كانت فيها

سذوم وعمورة وأقام بسذوم ، واختار إبراهيم المرتفعات التى فى الشمال وضرب خيامه هنالك .

وكشف الدكتور آثارا تدل على صدق هذه القصة ، إذ وجد هناك آثار حصن قديم يعلو سطح البحر بنحو خمسمائة قدم وبجواره ( المذبح ) هو حجارة منصوبة على شكل أعمدة يرجح أن الوثنيين فى ذلك الزمن كانوا يقدّمون عليها قرابينهم ، ويرجح أن البحر الميت طغا على المدن الخمس التى كانت فى منطقة الأردن اه .

وبعض علماء الجيولجيا ( طبقات الأرض ) يؤكدون أن هذا البحر يغمر اليوم بلادا كانت آهلة بالسكان .

وفى التوراة : إن إبراهيم كان ذات يوم جالسا بباب خيمته فى حرّ النهار إذ أقبل إليه ثلاثة ملائكة فاستقبلهم بترحاب عظيم وصنع لهم وليمة واحتفى بهم ، وفى أثناء الطعام علم أنهم ذاهبون إلى سذوم ، وكان أهل هذه المدينة مشهورين بشرورهم وانغماسهم فى شهواتهم البهيمية ولا سيما المحرمة منها ، فلما وصلوا إلى سذوم ساروا توّا إلى منزل لوط ابن أخى إبراهيم ليبيتوا عنده ، وعلم أهل سذوم بقدومهم فأرادوا أن يرتكبوا بهم موبقا ، ولكن لوطا دافع عنهم وعرّض أن يضحى بشرف ابنتيه لينقذهم ، فأبى أهل سذوم إلا أن يرتكبوا بهم الفحشاء ، وقد تمكن الضيوف من الفرار ، وأقنعوا لوطا وأهل بيته بالفرار ، وحين أشرقت الشمس على الأرض دخل لوط ( صوعر ) فأمطر الرب على سذوم وعمورة كبريتا ونارا من السماء وقلب تلك المدن وجميع سكانها ونظرت امرأة لوط إلى الوراء فصارت عمود ملح : ( اختنقت بالغازات الكثيرة التى التهبت إما بحدوث زلزلة أو بسقوط صاعقة من الجو ) .

وفى التاريخ مايدل على حدوث انقلابات هيولوجية شبيهة بحادثة (سذوم وعمورية) فقد يثور بركان ويتدفق حممه على البلاد المجاورة فيغمرها ويهلك أهلها ، وقد تغور بلاد واسعة فيطمو عليها البحر وتزول هى ومافوقها من نبات وحيوان وإنسان ، وقد تنشقّ الأرض فتبتلع مدنا بأسرها :

والخلاصة — إن هذه المدن كانت قاعدة للوك جبارين وكانت ذات رياض غناء وغياض غنية بوفرة مائها وخيراتها وشمل أهلها الفساد ورتعوا فى شهواتهم البهيمية ولم يبق فيها بَرٌّ إلا لوط وأهله ، فانتقم الله منهم فأمطر عليهم نارا وكبريتا من السماء ، فألهب البراكين النارية التى فيها ، فعجلت دمارهم ، وخسفت الأرض بهم ، وظهرت البحيرة على ما نراه الآن .

## قصص شعيب عليه السلام

كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ (١٧٦) إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلاَ تَتَّقُونَ (١٧٧) إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٧٨) فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ (١٧٩) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٠) أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلاَ تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ (١٨١) وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ (١٨٢) وَلاَ تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلاَ تَعْثَوْا فِى الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (١٨٣) وَاتَّقُوا الَّذِى خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ (١٨٤) قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (١٨٥) وَمَا أَنْتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (١٨٦) فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٨٧) قَالَ رَبِّى أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨٨) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٨٩) إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٩٠) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٩١) .

## تفسير المفردات

الأيكة: غيضة كثيرة الشجر قرب مدين بعث الله إلى أهلها شعيبا كما بعثه إلى أهل مدين ولم يكن منهم نسبا ، من المخسرين : أى المطففين الآخذين من الناس أكثر مما لكم ، والقسطاس : الميزان ، والمستقيم : أى العدل ، ولا تعثوا : أى لا تفسدوا ، والجبلة : بكسر الجيم والباء وتشديد اللام ، و بضمهما وتشديد اللام : الخلقة والطبيعة ، و يقال جُبل فلان على كذا : أى خُلِق ، والمراد أنهم كانوا على خلقة عظيمة ، كسفا : واحدها كسفة كقطعة (وزنا ومعنى) والظلة : السحابة التى استظلوا بها .

## المعنى الجملى

قص الله تعالى علينا فى هذه الآيات قصص شعيب مع قومه أهل مدين ، وقد بعثه إليهم فنصحهم بإيفاء الكيل والميزان وألا يعثوا فى الأرض فسادا فكذبوه ، فسلط الله عليهم الحر الشديد فكانوا يدخلون الأسراب فيجدونها أحرّ من غيرها فيخرجون، ثم أظلتهم سحابة فاجتمعوا تحتها فأمطرت عليهم نارا فاحترقوا جميعا .

## الإيضاح

(كذب أصحاب الأيكة المرسلين . إذ قال لهم شعيب ألا تتقون . إنى لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين ) سبق تفسير هذا .

و بعد أن نصحهم بتلك النصائح وعظهم بعظة أخرى ، فنهاهم عن نقيصة كانت شائعة بينهم وهى التطفيف فى الكيل والميزان فقال :

(أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين ) أى إذا بعتم للناس فكيلوا لهم الكيل كاملا ولا تبخسوهم حقهم فتعطوه ناقصا ، وإذا اشتريتم فخذوا كما لو كان البيع لكم .

وخلاصة ذلك — خذوا كما تعطون ، وأعطوا كما تأخذون.

( وزنوا بالقسطاس المستقيم ) أى وزنوا بالميزان السوى العدل ، وقد جاء فى سورة المطففين مثل هذا مع التحذير منه فقال : « وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ ، الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ، وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ، أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ » .

ثم عمم النهى عن البخس فى كل حق فقال :

( ولا تبخسوا الناس أشياءهم ) أى ولا تنقصوا الناس حقهم فى كيل أو وزن أو غيرهما كالمذروعات والمعدودات كأخذ بيض كبير وإعطاء بيض صغير ، وإعطاء رغيف صغير وأخذ رغيف كبير وهكذا .

ثم نهاهم عن جُرْم أعظم شأنا وأشد خطرا ، وهو الفساد فى الأرض بجميع ضروبه وأشكاله فقال :

( ولا تعثوا فى الأرض مفسدين ) أى ولا تكثروا فيها الفساد بالقتل والغارة وقطع الطريق والسلب والنهب ونحوها .

وبعد أن نهاهم عن ذلك خوّفهم سطوة الجبار الذى خلقهم وخلق مَن قبلهم ممن كانوا أشد منهم بطشا وعتوًّا فقال :

( واتقوا الذى خلقكم والجبلة الأولين ) أى وخافوا بأس الله الذى خلقكم من العدم للإصلاح فى الأرض ، وخلق مَن قبلكم ممن كانوا أشد منكم قوة وأكثر مالا ، كقوم هود الذين قالوا من أشد منا قوة ، فأخذهم أخذ عزيز مقتدر ، وقد تمخض هذا النصح عن شيئين : القدح فى رسالته أولا ، واستصغار الوعيد ثانيا .

(١) ( قالوا إنما أنت من المسحرين ) أى ما أنت إلا ممن سُحِر عقله مرة بعد أخرى ، فصار كلامه جُزافا لا يُعبِّر عن حقيقة ، ولا يصيب هدف الحق .

( وما أنت إلا بشر مثلنا ) فما وجه تفضيلك علينا وإرسالك رسولا إلينا .

ثم أكدوا هذا الإنكار بقولهم :

( وإن نظنك لمن الكاذبين ) أى وإنا لنعتقد أنك ممن يتعمد الكذب فيما يقول ، ولم يرسلك الله نبيًّا إلينا .

(٢) ( فأسقط علينا كسفا من السماء إن كنت من الصادقين ) أى فإن كنت صادقا فى دعواك الرسالة فأنزل علينا من السحاب قطعا يكون فيها العذاب لنا .

وهذا شبيه بما قالته قريش لنبيهم فيما حكى الله عنهم بقوله : « وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا - إلى أن قالوا - أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلاً » وقوله : « وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ » .

فأجابهم شعيب :

( قال ربى أعلم بما تعملون ) فيجازيكم به ، فإن شاء عجل لكم العذاب ، وإن شاء أخره إلى أجل معلوم ، وما علىّ إلا البلاغ ، وأنا مأمور به ، فلم أنذركم من تلقاء نفسى ، ولا أدّعى القدرة على عذابكم .

( فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم ) أى وهكذا دأبوا على التكذيب فجازاهم بجنس ما طلبوا من إسقاط الكسف من السماء ، فجعل عقوبتهم أن أصابهم حرّ عظيم أخذ بأنفاسهم ، لم ينفعهم فيه ظل ولا ماء ولا شراب ، فاضطروا أن يخرجوا إلى البرية فأظلتهم سحابة وجدوا لها بردا ونسيما فاجتمعوا كلهم تحتها ، فأمطرتهم شُواظا من نار فاحترقوا .

( إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ) أى إن فى ذلك الإنجاء لكل رسول ومن أطاعه ، والعذاب لكل من عصاه فى كل العصور - لدلالة واضحة على صدق الرسل، وما كان أكثر قومك بمؤمنين، مع أنك قد أتيتهم بما لا يكون معه شك، لما يصحبه من الدليل والبرهان .

( وإن ربك لهو العزيز الرحيم ) أى وإن ربك لهو العزيز فى انتقامه من الكافرين الرحيم بعباده المؤمنين التائبين .

(تنبيه) جاءت هذه القصص السبع مختصرة هنا وفيها البرهان الساطع على أن القرآن جاء من عالم الغيب ، فإن النتائج التى حصل عليها الأنبياء مع أقوامهم هى مثل النتائج التى حصل عليها النبى صلى الله عليه وسلم ولم يكن حين نزولها ذا شوكة ولا ذا قوة وأن ما أصيب به من التكذيب والأذى وكانت عاقبته الفتح والنصر المبين ــ نموذج لما حدث للأنبياء السالفين قبله .

---

وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ (١٩٥) وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ (١٩٦) أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٩٧) وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ (١٩٨) فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ (١٩٩) كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (٢٠٠) لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٢٠١) فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٢٠٢) فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ (٢٠٣) أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (٢٠٤) أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ (٢٠٥) ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ (٢٠٦) مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ (٢٠٧) وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ (٢٠٨) ذِكْرَى وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ (٢٠٩) وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ (٢١٠) وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ (٢١١) إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ (٢١٢) .

## تفسير المفردات

الروح الأمين : هو جبريل عليه السلام ، ووصف بالأمين ، لأنه أمين وحيه تعالى وموصله إلى من شاء من عباده ، على قلبك : أى على روحك ، لأنه المدرك والمكلف دون الجسد ، والزبر : الكتب ، واحدها زَبْرَةٌ كصحف وصفحة ، والآية : الدليل والبرهان ، والأعجمين : واحدهم أعجمى ، وهو من لايقدر على التكلم بالعربية ، سلكناه : أى أدخلناه ، والمجرمين : مشركى قريش ، بغتة : فجأة ، منظرون : أى مؤخرون ، ذكرى : أى تذكرة وعبرة لغيرهم ، وما ينبغى لهم : أى ما يتيسر ولا يتسنى لهم ، وما يستطيعون : أى ما يقدرون على ذلك ، لمعزولون : أى لممنوعون بالشهب بعد أن كانوا ممكّنين .

## المعنى الجملى

بعد أن اختتم سبحانه هذا القصص ، وبين ما دار بين الأنبياء وأقوامهم من الحجاج والجدل ، وذكر أنه قد أهلك المكذبين ، وكان النصر فى العاقبة لرسله المتقين فإن سنته فى كل صراع بين الحق والباطل أن تدول دولة الباطل وينتصر الحق وإن طال الزمن : « بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ » .

وفى ذلك سلوة لرسوله ، وعِدَة له بأنه مهما أوذى من قومه ولقى منهم من الشدائد، فإن الفَلَج والفوز له : « سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً »

أردف هذا بيان أن هذا القرآن الذى جاء بذلك القصص وحى من الله أنزله على عبده ورسوله جبريل عليه السلام بلسان عربىّ مبين ، لينذر به العصاة ويبشر به عباده المتقين ، وأن ذكره فى الكتب المتقدمة المأثورة عن الأنبياء الذين بشّروا به حتى قام آخرهم خطيبا فى ملئه يبشر به كما قال : « وَإِذْ قَالَ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي

مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ » وأن العلماء من بنى إسرائيل يجدون ذكره فى كتبهم كما قال : « الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ » وكما أن الأعجمين إذا قرئ عليهم لم يدروا منه شيئا ولم يؤمنوا به ، كذلك هؤلاء المجرمون من قريش لايؤمنون به كفرا وعنادا حتى يأتيهم عذاب الله بغتة وهم لايشعرون، فيتمنون إذ ذاك النَّظِرة ليطيعوا الله و يتبعوا أوامره ، وأنى لهم ذلك ؟ وهل يجديهم التمنى ساعتئذ ؟ « فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا » .

وقد جرت سنتنا ألا نهلك قوما إلا بعد أن نبعث إليهم الرسل مبشرين ومنذرين.

ثم رد على مشركى قريش الذين قالوا : إن لمحمد صلى الله عليه وسلم تابعا من الجن يخبره كما تُخْبَرَ الكهنة ـ بأن الشياطين من سجاياهم الفساد ، و إضلال العباد ، والقرآن فيه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، و بأنهم ممنوعون عن سماع ما تتكلم به الملائكة فى السماء ، لأن السماء ملئت حرسا شديدا وشهبا مدة إنزال القرآن على رسوله صلى الله عليه وسلم فلم يخلص أحد من الشياطين إلى استراق السمع كما قال : « وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ، وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا » .

# الايضاح

( و إنه لتنزيل رب العالمين . نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربى مبين ) أى و إن هذا القرآن الذى تقدم ذكره فى قوله « وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَٰنِ » أنزله الله إليك ، وجاء به جبريل عليه السلام فتلاه عليك حتى وعيته بقلبك ، لتنذر به قومك بلسان عربىّ بيّن ليكون قاطعا للعذر، مقيما للحجة ، دليلا إلى المحجة ، هاديا إلى الرشاد ، مصلحا لأحوال العباد .

وفى قوله : على قلبك إيماء إلى أن ذلك المنزّل محفوظ ، وأن الرسول متمكن منه ، إلى أن القلب هو المخاطب فى الحقيقة لأنه موضع التمييز ، والعقل والاختيار وسائر الأعضاء مسخرة له ، يرشد إلى ذلك قوله تعالى : « إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ » وقوله صلى الله عليه وسلم : « ألا وإن فى الجسد مُضْغة إذا صلَحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب » أخرجاه فى الصحيحين ولأن القلب إذا غُشِّى عليه وقطع سائر الأعضاء لم يحصل له شعور ، وإذا أفاق القلب شعر بجميع ماينزل بالأعضاء من الآفات .

وفى قوله : بلسان عربى مبين ، تقريع لمشركى قريش بأن الذى حملهم على التكذيب هو الاستكبار والعناد ، لاعدم الفهم ، لأنه نزل بلغتهم ، فلا عذر لهم فى الإعراض عنه .

( وإنه لفى زبر الأولين ) أى وإن ذكر هذا القرآن والتنويه بشأنه لفى كتب الأولين المأثورة عن أنبيائهم الذين بشروا به فى قديم الدهر وحديثه ، وقد أخذ عليهم الميثاق بذلك وبه بشر عيسى بقوله : « وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ » .

( أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بنى إسرائيل ؟ ) أى أوليس بكاف لهم شهادة على صدقه أن العلماء من بنى إسرائيل نصوا على أن مواضع من التوراة والإنجيل فيها ذكر الرسول صلى الله عليه وسلم بصفته ونعته ، وقد كان مشركو قريش يذهبون إليهم ويتعرفون منهم هذا الخبر .

ذكر الثعلبى عن ابن عباس أن أهل مكة بعثوا إلى أحبار يثرب يسألونهم عن النبى صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : هذا أوانه وذكروا نعته .

وبعد أن أثبت بالدليلين السالفين نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، ذكر أن هؤلاء المشركين لاتنفعهم الدلائل ، ولا تجديهم البراهين فقال :

( ولو نزلناه على بعض الأعجمين . فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين ) أى إنا أنزلنا

هذا القرآن على رجل عربى بلسان عربى مبين فسمعوه وفهموه وعرفوا فصاحته وأنه معجز لايعارض بكلام مثله و بشرت به الكتب السالفة ومع هذا لم يؤمنوا به ، بل جحدوه وسمّوه تارة شعرا وأخرى كهانة ، فلو أنا نزّلناه على بعض الأعجمين الذى لايحسن العربية فقرأه عليهم لكفروا به أيضا ، ولتمحلوا لجحودهم عذرا وقالوا له : لانفقه مايقول كما قال فى آية أخرى : « وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ » .

وفى هذا تسلية من الله لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم على ماحصل من قومه لئلا يشتد حزنه بإدبارهم عنه وإعراضهم عن الاستماع له .

والخلاصة — إنا لو نزلناه على بعض الأعجمين : « لاعليك فإنك رجل منهم ويقولون لك ماأنت إلا بشر مثلنا وهلا نزل به ملك » فقرأه ذلك الأعجم عليهم ولم يكن لهم علة يدفعون بها أنه حق وأنه منزل من عندنا ما كانوا به مصدقين ، فخفض من حرصك على إيمانهم به ، فإنهم لايؤمنون به على كل حال .

ثم وكّد هذا الإنكار أفضل توكيد فقال :

(كذلك سلكناه فى قلوب المجرمين) أى كما أدخلنا التكذيب به بقراءة الأعجم، أدخلنا التكذيب به فى قلوب المجرمين كفار قريش .

وفى ذلك إيماء إلى أن ذلك التكذيب صار متمكنا فى قلوبهم أشد التمكن وصار كالشىء الجبلىّ الذى لايمكن تغييره .

ثم زاد ذلك توكيدا فقال :

(لايؤمنون به حتى يروا العذاب الأليم) أى إنهم لايتأثرون بالأمور الداعية إلى الإيمان ، بل يستمرون على ماهم عليه حتى يعاينوا العذاب ، حين لاينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار .

وإجمال ماتقدم — هكذا مكنا التكذيب وقررناه فى قلوبهم ، فكيفما فُعل بهم ، وعلى أى وجه دُبر أمرهم ، فلا سبيل إلى أن يتغيروا عما هم عليه من جحوده

وإنكاره كما قال : « وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ » .

( فيأتيهم بغتة وهم لا يشعرون ) أى فيأتى هؤلاء المكذبين بهذا القرآن العذابُ الأليم وهم لا يشعرون قبل ذلك بمجيئه حتى يفجأهم .

ثم بين أنهم يتمنَّوْن التأخير حينئذ ليتداركوا ما فات .

( فيقولوا هل نحن منظرون ) أى فيقولوا على وجه الحسرة والأسف والتمنى للإمهال ليتداركوا ما فرّطوا فيه : هل نؤخر إلى حين ؟ كما يستغيث المرء حين تعذر الخلاص ، وهم يعلمون إذ ذاك أنه لا رجعة لهم ، لكنهم يذكرون ذلك استرواحا .

ولما أوعدهم النبى صلى الله عليه وسلم بالعذاب قالوا إلى متى توعدنا به ، ومتى هذا كما قال :

( أفبعذابنا يستعجلون؟ ) أى كيف يستعجلون عذابنا بنحو قولهم : « أَمْطِرْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ » وقولهم : « ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا » .

وقد تبين لهم كيف أخذنا للأمم الماضية ، والقرون الخالية ، والأقوام العاتية ؟

ثم أبان أن طول العمر لا يغنى عنهم شيئا وأن العذاب آت لا محالة فقال :

(أفرأيت إن متعناهم سنين. ثم جاءهم ما كانوا يوعدون. ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون) أى هل الأمر كما يعتقدون من طول عيشهم فى النعيم ، فأخبرنى إن متعناهم فى الدنيا رغد العيش وصافى الحياة ، ثم جاءهم بعد تلك السنين المتطاولة ما كانوا يوعدون به من العذاب ، فهل ما كانوا فيه من النعيم يدفع عنهم شيئا منه أو يخففه عنهم؟ .

والخلاصة — إن طول التمتع ليس بدافع شيئا من عذاب الله ، وكأنهم لم يُمَتَّعوا بنعيم قط كما قال : « كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا » وقال : « يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ » وقال « وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى » .

وعن ميمون بن مهران أنه لقى الحسن البصرى فى الطواف بالكعبة وكان يتمنى لقاءه فقال: عظنى فلم يزد أن تلا هذه الآية فقال ميمون : لقد وعظتَ فأبلغتَ .

ثم بين سبحانه أنه لايهلك قرية إلا بعد الإنذار و إقامة الحجة عليها فقال :

( وما أهلكنا من قرية إلا لها منذرون . ذكرى وما كنا ظالمين ) أى وما أهلكنا قرية من القرى إلا بعد إرسالنا إليهم رسلا ينذرونهم بأسنا على كفرهم ، تذكرة لهم وتنبيها إلى ما فيه النجاة من عذابنا، وما كنا ظالمين فى إهلاكهم ، لأنهم جحدوا نعمتنا، وعبدوا غيرنا ، بعد الإعذار إليهم ، ومتابعة الحجج ، ومواصلة الوعيد .

ونحو الآية قوله : « وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً » وقوله : « وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا » .

ولما كان المشركون يقولون : إن محمدا كاهن وما يتنزل عليه من نوع ما تتنزل به الشياطين أكذبهم سبحانه بقوله :

( وما تنزلت به الشياطين. وما ينبغى لهم وما يستطيعون إنهم عن السمع لمعزولون ) أى وما نزلت الشياطين بالقرآن ليكون كهانة أو شعرا أو سحرا ، وما ينبغى لهم أن ينزلوا به ، وما يستطيعون ذلك و إن عالجوه بكل وسيلة ، و إنهم عن سمع الملائكة لمحجوبون بالشهب .

والخلاصة — إن الشياطين لاتنزل به لوجوه ثلاثة :

(١) إنه ليس من مبتغاهم ، إذ من سجاياهم الإضلال والإفساد ، والقرآن فيه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وهو هدى ونور و برهان متين ، فبينه و بين مقاصد الشياطين منافاة عظيمة .

(٢) إنه لو انبغى لهم ما استطاعوا حمله وتأديته كما قال « لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللهِ » .

(٣) إنهم لو انبغى واستطاعوا حمله وتأديته لما وصلوا إلى ذلك، لأنهم بمعزل عن استماع القرآن حال نزوله.

---

فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ (٢١٣) وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (٢١٤) وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢١٥) فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ (٢١٦) وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٢١٧) الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ (٢١٩) إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٢٢٠).

## المعنى الجملى

بعد أن بالغ سبحانه فى تسلية رسوله صلى الله عليه وسلم وأقام الحجة على نبوته، ثم أورد سؤال المنكرين وأجاب عنه - أردف ذلك أمره بعبادته وحده وإنذار العشيرة الأقربين ومعاملة المؤمنين بالرفق، ثم ختم هذه الأوامر بالتوكل عليه تعالى وحده، فإنه هو العليم بكل شئونه وأحواله.

روى البخارى ومسلم عن ابن عباس رضى الله عنه قال: لما أنزل الله: « وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ » أتى النبى صلى الله عليه وسلم الصفا فصَعِد عليه ثم نادى ياصباحاه، فاجتمع الناس إليه، بين رجل يجىء إليه ورجل يبعث رسوله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « يابنى عبد المطلب، يابنى فهرْ، يابنى لُؤى، أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بسفح هذا الجبل تريد أن تُغير عليكم صدقتمونى؟ قالوا نعم، قال: فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد، فقال أبو لهب: تبًّا لك سائر اليوم، أمادعوتنا إلا لهذا؟ » وأنزل الله تعالى: « تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ».

# الايضاح

أمر سبحانه نبيه بأربعة أوامر ونواه :

(١) ( فلا تدع مع الله إلها آخر فتكون من المعذبين ) أى أخلص العبادة لله وحده ، ولا تشرك به سواه ، فإن من أشرك به فقد عصاه ، ومن عصاه فقد استحق عقابه .

وفى هذا حث لرسوله على ازدياد الإخلاص ، و بيان أن الإشراك قبيح بحيث يُنْهَى عنه من لايمكن صدوره منه ، فيكون الوعيد لغيره أزجر ، وله أقبل .

و بعد أن بدأ بالرسول وتوعده إن دعا مع الله إلها آخر أمره بدعوة الأقرب فالأقرب ، لأنه إذا تشدد على نفسه أولا ، ثم ثنّى بالأقرب فالأقرب كان قوله لسواهم أنفع ، وتأثيره أنجع فقال :

(٢) ( وأنذر عشيرتك الأقربين ) أى وخوّف الأقربين من عشيرتك بأس الله ، وشديد عقابه لمن كفر به وأشرك به سواه .

وهذه النذارة الخاصة جزء من النذارة العامة التى بعث بها صلى الله عليه وسلم كما قال : « لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا » وقال : « لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا » .

روى البخارى ومسلم وغيرهما عن أبى هريرة قال : « لما نزلت هذه الآية دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشا وعم وخص ، فقال : « يامعشر قريش أنقذوا أنفسكم من النار فإنى لاأملك لكم ضرا ولا نفعا ، يامعشر بنى كعب بن لؤى أنقذوا أنفسكم من النار ، فإنى لا أملك لكم ضرا ولا نفعا ، يامعشر بنى قُصَىّ أنقذوا أنفسكم من النار ، فإنى لاأملك لكم ضرا ولا نفعا ، يامعشر بنى عبد مناف ، أنقذوا أنفسكم من النار ، فإنى لاأملك لكم ضرا ولا نفعا ، يامعشر بنى عبد المطلب ، أنقذوا أنفسكم من النار ، فإنى لاأملك لكم ضرا ولا نفعا ، يافاطمة بنت محمد أنقذى نفسك من النار،

فإني لاأملك لك ضرا ولا نفعا ، ألا إن لكم رَحِما وسأبُلُّها ببِلالها - يريد : أَصِلُكم في الدنيا ولا أغني عنكم من الله شيئا » .

وفي الحديث والآية دليل على أن القرب في الأنساب ، لاينفع مع البعد في الأسباب ، وعلى جواز صلة المؤمن والكافر وإرشاده ونصحه بدليل قوله : إن لكم رحما سأبلها ببلالها .

وروى مسلم قوله صلى الله عليه وسلم : « والذي نفسي بيده ، لايسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم لايؤمن بي إلا دخل النار » .

وبعد أن أمره بإنذار المشركين من قومه أمره بالرفق بالمؤمنين فقال :

(٣) ( واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين ) أي ألِنْ جانبك ، وترفَّقْ بمن اتبعك من المؤمنين ، فإن ذلك أجدى لك ، وأجلب لقلوبهم ، وأكسب لمحبتهم ، وأفضى إلى معونتك ، والإخلاص لك .

( فإن عصوك فقل إني بريء مما تعملون ) أي فإن عصاك من أنذرتهم من العشيرة فلا ضير عليك ، وقد أديت ماأُمِرْتَ به ، ولا عليك إثم مما يعملون ، وقل لهم إني بريء منكم ومن دعائكم مع الله إلها آخر ، وإنكم ستُجْزَوْن بجُرْمكم يوم لاينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

(٤) (وتوكل على العزيز الرحيم . الذي يراك حين تقوم . وتقلبك في الساجدين) أي وفوِّضْ جميع أمورك إلى القادر على دفع الضُّرِّ عنك ، والانتقام من أعدائك الذين يريدون السوء بك ، الرحيم بك إذ نصرك عليهم برحمته وهو الذي يراك حين تقوم للصلاة بالناس ، ويرى تغيرك من حال كالجلوس إلى حال كالقيام فيما بين المصلين إذا كنت لهم إماما ، وفي الخبر « اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

وعبر عن المصلين بالساجدين ، لأن العبد أقرب مايكون من ربه وهو ساجد .

ثم أكد ماسلف بقوله :

( إنه هو السميع العليم ) أي إنه هو السميع لأقوال عباده ، العليم بحركاتهم

وسكناتهم ، بسرهم ونجواهم كما قال : «وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إذْ تُفِيضُونَ فِيهِ » .

وقصارى ذلك - إنه هو القادر على نفعكم وضركم ، فهو الذى يجب أن تتوكلوا عليه ، وهو الذى يكفيكم ما أهمكم .

---

هلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (٢٢١) تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٢٢٢) يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ (٢٢٣) وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَالاَ يَفْعَلُونَ (٢٢٦) إلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا ، وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ (٢٢٨) .

## تفسير المفردات

أنبئكم : أى أخبركم : والأفاك : كثير الإفك والكذب ، والأثيم : كثير الذنوب والفجور ، يلقون السمع: أى يصغون أشد الإصغاء إلى الشياطين فيتلقون منهم مايتلقون مما أكثره الكذب ، والغاوون : الضالون المائلون عن السنن القويم .

والوادى : الشّعب، يهيمون : أى يسيرون سير البهائم حائرين لايهتدون إلى شىء، والمنقلب : المرجع .

## المعنى الجملى

بعد أن أبان سبحانه امتناع تنزل الشياطين بالقرآن ، وأثبت أنه تنزيل من رب العالمين - أعقب هذا ببيان استحالة تنزلهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإنها

لاتنزل إلا على كل كذاب فاجر ، ورسول الله صادق أمين . ثم ذكر أن الكذابين يلقون السمع إلى الشياطين ، فيتلقّون وحيهم وهو تخيلات لاتطابق الحق والواقع . وبعدئذ ذكر أن محمدا صلى الله عليه وسلم ليس بشاعر ، لأن الشعراء يهيمون فى كل وادٍ من أودية القول من مدح وهجو وتشبيب ومجون بحسب الهوى والمنفعة ، فأقوالهم لاتترجم عن حقيقة ، وليس بينها و بين الصدق نسب ، ومحمد صلى الله عليه وسلم لايقول إلا الصدق ، فأنّى له أن يكون شاعرا ؟ .

## الإيضاح

( هل أنبئكم على من تنزل الشياطين ) أى هل أخبركم خبرا جليا نافعا فى الدين ، عظيم الجدوى فى الدنيا ، تعلمون به الفارق بين أولياء الشيطان وأولياء الرحمن ــ على من تنزل الشياطين حين تسترق السمع ؟ .

وهذا ردّ على من زعم من المشركين أن ماجاء به الرسول ليس بحق ، وأنه شىء أتاه به رِئِىٌّ من الجن ، فنزّه الله رسوله عن قولهم وافترائهم ، ونبّه إلى أن ماجاء به إنما هو من عند الله ، وأنه تنزيله ووحيه ، نزل به ملَك كريم ، وأنه ليس من قِبل الشياطين .

ثم أشار إلى الجواب عن هذا السؤال بوجهين :

(١) ( تنزل على كل أفاك أثيم ) أى هى تنزل على كل كذاب فاجر من الكهنة نحو شِقّ بن رُهْم ، وسَطيح بن ربيعة .

(٢) (يلقون السمع وأكثرهم كاذبون) أى يُلْقِى الأفاكون سمعهم إلى الشياطين، ويصغون إليهم أشد إصغاء، فيتلقون منهم مايتلقون ، وهؤلاء قلما يصدقون فى أقوالهم ، بل هم فى أكثرها كاذبون .

والخلاصة ــ إن هناك فارقا بين محمد صلى الله عليه وسلم والكهنة ، فمحمد

لا يكذب فيما يخبر عن ربه ، وما عرف عنه إلا الصدق، والكهنة كذابون فيما يقولون ، وقلما عُرِف عنهم الصدق في أخبارهم .

وبعد أن ذكر الفارق بين محمد صلى الله عليه وسلم والكهنة ـ أردف ذلك ذكر الفارق بينه وبين الشعراء فقال :

( والشعراء يتبعهم الغاوون ) أى إن الشعراء يتبعهم الضالون الحائدون عن السنن القويم ، المائلون إلى الفساد الذى يجر إلى الهلاك ، وأتباع محمد صلى الله عليه وسلم ليسوا كذلك ، بل هم الساجدون الباكون الزاهدون .

وقد سبق أن قلنا : إن من الشعر مايجوز إنشاده ، ومنه مايُكره أو يحرم ، روى مسلم من حديث عمرو بن الشَّرِيد عن أبيه قال : « رَدِفت رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما فقال : هل معك من شعر أمية بن أبى الصلت شىء ؟ قلت نعم ، قال هِيِهِ فأنشدته بيتا ، فقال هيه ، ثم أنشدته بيتا ، فقال هيه ، حتى أنشدته مائة بيت».

وفى هذا دليل على العناية بحفظ الأشعار إذا تضمنت الحكم والمعانى المستحسنة شرعا وطبعا ، وإنما استكثر النبى صلى الله عليه وسلم من شعر أمية ؛ لأنه كان حكيما ، ألا ترى قوله عليه الصلاة والسلام « كاد أمية بن أبى الصلت أن يُسْلِم » .

ثم بين تلك الغواية بأمرين :

(١) ( ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون ) أى ألم تعلم أن الشعراء يسلكون الطرق المختلفة من الكلام ، فقد يمدحون الشىء حينا بعد أن ذموه ، أو يعظّمونه بعد أن احتقروه ، والعكس بالعكس ، وذلك دليل على أنهم لا يقصدون إظهار الحق، ولا تحرّى الصدق ، لكنّ محمدا جِبِلّته الصدق ، ولا يقول إلا الحق ، وقد بقى على طريق واحد، وهو الدعوة إلى الله ، والترغيب فى الآخرة ، والإعراض عن الدنيا .

(٢) ( وأنهم يقولون مالا يفعلون ) فهم يرغّبون فى الجود ويرْغبون عنه ، وينفّرون عن البخل ويصُرّون عليه ، ويقدحون فى الأعراض لأدنى الأسباب ،

ولا يأتون إلا الفواحش ، ومحمد صلى الله عليه وسلم على خلاف ذلك . فقد بدأ بنفسه إذ قال له ربه : ( فلا تدع مع الله إلها آخر فتكون من المعذبين ) ثم بالأقرب فالأقرب فقال : ( وأنذر عشيرتك الأقربين ) فليست حاله حال الشعراء .

ولما وصف الشعراء بهذه الأوصاف الذميمة استثنى منهم من اتصف بأمور أربعة[1] : الإيمان[2] والعمل الصالح[3] وكثرة قول الشعر فى توحيد الله والنبوة ودعوة الخلق إلى الحق[4] وألا يهجو أحدا إلا انتصارا ممن يهجوه اتباعا لقوله : « لَا يُحِبُّ اللهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ » كما كان يفعل عبد الله بن رَواحة وحسان بن ثابت وكعب بن مالك وكعب بن زهير حين كانوا يهجون المشركين منافحة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لكعب بن مالك : « اهجُهُمْ ، فوالذى نفسى بيده لهو أشد عليهم من رَشْق النَّبْل » وكان يقول لحسان بن ثابت : « قل وروح القدس معك » ، وفى رواية « اهجهم وجبريل معك » .

وإلى هذا أشار بقوله :

(إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا ).
وروى ابن جرير عن محمد بن إسحق « أنه لما نزلت هذه الآية جاء حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم يبكون ، قالوا قد علم الله حين أنزل هذه الآية أنّا شعراء فتلا النبى صلى الله عليه وسلم : ( إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ) قال أنتم (وذكروا الله كثيرا) قال : أنتم (وانتصروا من بعد ما ظلموا ) قال : أنتم ( أى بالرد على المشركين) ثم قال النبى صلى الله عليه وسلم: انتَصِرُوا ولا تقولوا إلا حقا ، ولا تذكروا الآباء والأمهات » ، فقال حسان لأبى سفيان:

هجوتَ محمدا فأجبتُ عنه … وعند الله فى ذاك الجزاء
وإن أبى ووالده وعرضى … لعِرْض محمد منكم وِقاء

أتشتُمه ولستَ له بكفء فشركما لخيركما الفـداء

لسانى صارم لاعيب فيه وبحرى لاتكدّره الدّلاء

وقال كعب : يا رسول الله . إن الله قد أنزل فى الشعر ماقد علمت ، فكيف ترى فيه ؟ فقال النبى صلى الله عليه وسلم ، « إن المؤمن يجاهد بنفسه وسيفه ولسانه ، والذى نفسى بيده لكأنّ ما ترمونهم به نضح النَّبْل » وقال كعب :

جاءت سَخينة كى تغالب ربها وليُغلَبَنّ مُغالِبُ الغلّاب

فقال النبى صلى الله عليه وسلم : لقد مدحك الله يا كعب فى قولك هذا :

وبعد أن ذكر سبحانه من الدلائل العقلية وأخبار الأنبياء المتقدمين ما يزيل الحزن عن قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم بين الدلائل على صدق نبوته ، ثم أرشد إلى الفارق بينه وبين الكهنة وبينه وبين الشعراء ــ ختم السورة بالتهديد العظيم ، والوعيد الشديد للكافرين فقال :

( وسيعلم الذين ظلموا أىّ منقلب ينقلبون ) أى وسيعلم الذين ظلموا أنفسهم ، وأعرضوا عن تدبر هذه الآيات كفرا بها وعنادا ــ أىّ مرجع يرجعون إلى الله بعد الموت ، وأىّ معاد يعودون إليه ؟ إنهم ليصيرُنّ إلى نار لايُطفأ سعيرها ، ولا يسكن لهيبها .

اللهم أبعدنا عن تلك النار وأدخلنا جنتك برحمتك يا أرحم الراحمين .

---

# خلاصة ما حوته هذه السورة الكريمة

(١) مقدمة فى تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم على إعراض قومه عن الدين ، و بيان أنهم ليسوا ببدع فى الأمم ، وأنه صلى الله عليه وسلم ليس بأول الرسل الذين كُذِّبوا ، وأن الله قادر على إنزال القوارع التى تلجئهم إلى الإيمان ، ولكن جرت سنته أن يجعل الإيمان فى القلوب اختياريا لا اضطراريا .

(٢) الاستدلال بخلق النبات وأطواره المختلفة وأشكاله المنوّعة ـ على وجود الإله ووحدانيته .

(٣) قصص الأنبياء مع أممهم لما فيه من العبرة لأولئك المكذبين .

(٤) إثبات أن القرآن وحى من رب العالمين ، لا كلام تتنزل به الشياطين .

(٥) بيان أن محمدا صلى الله عليه وسلم ليس بكاهن ولا شاعر .

(٦) التهديد والوعيد لمن يعبد مع الله سواه من الأصنام والأوثان ، ويكذب بالرسول والنور الذى أنزل معه .

# سورة النمل

مكية نزلت بعد الشعراء ، وآيها ثلاث وتسعون .

ومناسبتها ما قبلها من وجوه :

(١) إنها كالتتمة لها ، إذ جاء فيها زيادة على ما تقدم من قصص الأنبياء قصص داود وسليمن .

(٢) إن فيها تفصيلا وبسطا لبعض القصص السالفة كقصص لوط وموسى عليهما السلام .

(٣) إن كلتيهما قد اشتمل على نعت القرآن وأنه منزل من عند الله .

(٤) تسلية رسوله صلى الله عليه وسلم على مايلقاه من أذى قومه وعنتهم، وإصرارهم على الكفر به ، والإعراض عنه .

---

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

طسٓ تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ (١) هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٣) .

## الايضاح

( طسٓ ) تقدم القول فى المراد من فواتح السور ، وأن الأصح أنها حروف مقطعة جاءت للتنبيه نحو ألا ويا التى للنداء ، وينطق بأسمائها فيقال : ( طا ـ سين ) .

( تلك آيات القرآن وكتاب مبين ) أى إن هذه الآيات التى أنزلتها إليك أيها الرسول لآيات القرآن ، وآيات كتاب بيّن لمن تدبره وفكر فيه أنه من عند الله

أنزله إليك ، لم تتقوّله أنت ولا أحد من خلقه ، إذ لا يستطيع ذلك مخلوق ولو تظاهر معه الجن والإنس .

والمراد بالكتاب المبين : القرآن ، وعطفه عليه كعطف إحدى الصفتين على الأخرى كما يقال هذا فعل السخى والجواد الكريم .

( هدى وبشرى للمؤمنين ) أى هى تزيد المؤمنين هدى على هداهم كما قال : « فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ » وهى تبشرهم برحمة من الله ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم .

ولما كان وصف الإيمان خفيا ذكر مايلزمه من الأمور الظاهرة فقال :

( الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون ) أى إن المؤمنين حق الإيمان هم الذين يعملون الصالحات ، فيقيمون الصلاة المفروضة على أكمل وجوهها ، ويؤدون الزكاة التى تطهّر أموالهم وأنفسهم من الأرجاس ، ويوقنون بالمعاد إلى ربهم ، وأن هناك يوما يحاسبون فيه على أعمالهم خيرها وشرّها ، فيُذلّون أنفسهم فى طاعته ، رجاء ثوابه وخوف عقابه .

وليسوا كأولئك المكذبين به الذين لايبالون . أحسنوا أم أساءوا ، أطاعوا أم عصَوْا ، لأنهم إن أحسنوا لا يرجون ثوابا ، وإن أساءوا لم يخافوا عقابا .

---

إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ (٤) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ (٥) .

## تفسير المفردات

يعمهون : أى يتحيرون ويترددون فى أودية الضلال ، الأخسرون : أى أشد الناس خسرانا ، لحرمانهم الثواب ، واستمرارهم فى العذاب .

## المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أن المؤمنين يزيدهم القرآن هدى وبشرى ، إذ هم به يستمسكون ويؤدون ماشرع من الأحكام على أتم الوجوه ـ أردف هذا ببيان أن من لايؤمن بالآخرة يركب رأسه ، ويتمادى فى غيه ، ويُعرِض عن القرآن أشد الإعراض، ومن ثم تراه حائرا مترددا فى ضلاله ، فهو فى عذاب شديد فى دنياه لتبلبله ، وقلقه واضطراب نفسه، وفى الآخرة له أشد الخسران ، لما يلحقه من النكال والوبال والحرمان من الثواب والنعيم الذى يتمتع به المؤمنون .

## الإيضاح

( إن الذين لايؤمنون بالآخرة زينا لهم أعمالهم فهم يعمهون ) أى إن الذين لايصدقون بالآخرة وقيام الساعة والمعاد إلى الله بعد الموت ، وبالثواب والعقاب ـ حبّبنا إليهم قبيح أعمالهم ، ومددنا لهم فى غيهم ، فهم فى ضلالهم حيارى تائهون ، يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، لايفكرون فى عقبى أمرهم ، ولا ينظرون إلى مايئول إليه سلوكهم .

قال الزجاج:أى جعلنا جزاءهم على كفرهم أن زينا لهم ماهم فيه بأن جعلناه مشتَهًى بالطبع ، محبوبا إلى النفس .

( أولئك الذين لهم سوء العذاب ) فى الدنيا بقتلهم وأسرهم حين قتال المؤمنين كما حدث يوم بدر .

( وهم فى الآخرة هم الأخسرون ) أى وهم فى الآخرة أعظم خسرانا مما هم فيه فى الدنيا ، لأن عذابهم فيها مستمر لاينقطع ، وعذابهم فى الدنيا ليس بدائم بل هو زائل لابقاء له .

## قصص موسى عليه السلام

وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ (٦) إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٧) فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٨) يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٩) وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ، يَامُوسَى لَا تَخَفْ ، إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ (١٠) إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (١١) وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ ، إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (١٢) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (١٣) وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٤) .

## تفسير المفردات

لتلقى : أى لتلقّن وتعطى ، آنست : أى أبصرت إبصارا حصل لى به أنس ، بخبر : أى عن الطريق وحاله ، بشهاب : أى بشعلة نار ، قبس : أى قطعة من النار مقبوسة ومأخوذة من أصلها ، تصطلون : أى تستدفئون بها ، قال الشاعر :

النار فاكهة الشتاء فمن يرد		أكل الفواكه شاتيا فليصطل

جان : أى حية صغيرة سريعة الحركة ، ولّى مدبرا : أى التفت هاربا ، ولم يعقب: أى لم يرجع على عقبه ولم يلتفت إلى ماوراءه من قولهم : عقّب المقاتل إذا كرّ بعد الفرّ ،

من غير سوء : أى من غير برص ولا نحوه من الآفات ، آيات : أى معجزات دالة على صدقك ، مبصرة : أى بينة واضحة ، جحدوا بها : أى كذبوا ، واستيقنتها أنفسهم : أى علمت علما يقينيا أنها من عند الله ، وعلوا : أى ترفعا واستكبارا .

## المعنى الجملى

بعد أن وصف عز اسمه القرآن بأنه هدى وبشرى للمؤمنين ، وأن من أعرض عنه كان له الخسران المبين ـ أردفه بذكر حال المنزل عليه وهو الرسول صلى الله عليه وسلم مخاطبا له .

## الإيضاح

(وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم) أى وإنك أيها الرسول لتحفظ القرآن وتَعَلّمُهُ من عند حكيم بتدبير خلقه ، عليم بأخبارهم ومافيه الخير لهم ، فخبره هو الصدق ، وحكمه هو العدل كما قال : « وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً » .

ثم خوطب صلى الله عليه وسلم وأمر بتلاوة بعض ماتلقاه من لدنه عز اسمه تقريرا لما قبله وتحقيقا له بقوله :

( إذ قال موسى لأهله إنى آنست نارا سآتيكم منها بخبر أوآتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون ) أى واذكر أيها الرسول لقومك حين قول موسى لأهله وقد سار بهم فضلّ الطريق فى ليل دامس وظلام حالك ، فرأى نارا تأجج وتضطرب ، إنى أبصرت نارا سآتيكم منها إما بخبر عن الطريق أو آتيكم بشعلة من النار تستدفئون بها ، وكان كما قال : فإنه رجع منها بخبر عظيم ، واقتبس نورا جليلا .

وقد كان هذا حين مسيره من مَدْيَنَ إلى مصر ولم يكن معه سوى امرأته ، وكانا يسيران ليلا فاشتبه عليهما الطريق والبرد شديد .

وفى مثل هذه الحال يستبشر الناس بمشاهدة النار من بُعْدٍ لما يرجى فيها من زوال الحيرة وأمن الطريق ومن الانتفاع بها للاصطلاء ، ومن ثم قال لها هذه المقالة .

( فلما جاءها نودى أن بورك من فى النار ومن حولها وسبحان الله رب العالمين ) أى فلما وصل إلى النار نودى بأن بورك من فى مكان النار ومن حول مكانها ، ومكانها هى البقعة المباركة المذكورة فى قوله : « نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ » ومن حولها من فى ذلك الوادى وحواليه من أرض الشام الموسومة بالبركات ومهْبِط الخيرات ، لكونها مبعث الأنبياء وكفاتهم أحياء وأمواتا .

وقوله سبحان الله تنزيه لنفسه عما لايليق به فى ذاته وحكمته وإيذان بأن مدبر ذلك الأمر هو رب العالمين .

أخرج عبد بن حميد وابن ماجه وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى عن أبى موسى الأشعرى قال : قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « إن الله لاينام ، ولا ينبغى له أن ينام ، يخفِض القِسْط ويرفعه ، ويُرفَع إليه عمل الليل قبل النهار ، وعمل النهار قبل الليل ، حجابه النور ، لوكشفه لأحرقت سُبُحاتُ ( أنوار ) وجهه كل شىء أدركه بصره» ثم قرأ أبو عبيدة « أن بورك من فى النار ومن حولها وسبحان الله رب العالمين » .

وفى التوراة: جاء الله من سيناء ، وأشرف من ساعير ، واستعلى من جبل فاران ، فمجيئه من سيناء بعثه موسى منها ، وإشرافه من ساعير بعثه المسيح منها ، واستعلاؤه من فاران بعثه محمدا صلى الله عليه وسلم ( وفاران مكة ) .

ولما تشوقت النفس إلى تحقيق مايراد بالتصريح قال تعالى تمهيدا لما أراد إظهاره على يد موسى من المعجزات الباهرة :

( ياموسى إنه أنا الله العزيز الحكيم ) أى ياموسى إن الذى يخاطبك ويناجيك هو ربك الذى عزّ كل شىء وقهره، وهو الحكيم فى أقواله وأفعاله .

ثم أرى موسى آية تدل على قدرته ، ليعلم ذلك علم شهود فقال :

( وألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جانّ ولّى مدبرا ولم يعقب ) أى وألق عصاك ، فلما ألقاها انقلبت حية سريعة الحركة ، فلما رآها كذلك ولّى هاربا خوفا منها ولم يلتفت وراءه من شدة فَرَقه .

وحينئذ تاقت النفس إلى معرفة ماقيل إذ ذاك فقال :

( ياموسى لاتخف إنى لايخاف لدىّ المرسلون ) أى لاتخف مما ترى ، فإنى لايخاف عندى رسلى وأنبيائى الذين أختصهم وأصطفيهم بالنبوة .

( إلا من ظلم ثم بدل حسنا بعد سوء فإنى غفور رحيم ) أى لكن من ظلم من سائر العباد ، فإنه يخاف إلا إذا تاب ، فبدل بتوبته حسنا بعد سوء ، فإنى أغفر له وأمحو ذنوبه وجميع آثارها كما فعل السحرة الذين آمنوا بموسى ، وفى هذا بشارة عظيمة لسائر البشر ، فإن من عمل ذنبا ثم أقلع عنه وتاب وأناب ، فإن الله يتوب عليه كما قال : « وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى » وقال : « وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا » .

ثم أراه جلت قدرته آية أخرى ذكرها بقوله :

( وأدخل يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء ) أى وأدخل يدك فى جيب « مدخل الرأس منه المفتوح إلى الصدر » قميصك تخرج بيضاء بياضا عظيما ، ولها شعاع كشعاع الشمس بلا آفة بها من برص أو غيره .

والآية الأولى كانت بتغيير ما فى يده وقلبها من جماد إلى حيوان ، والثانية بتغيير يده نفسها وقلب أوصافها إلى أوصاف أخرى نورانية .

( فى تسع آيات إلى فرعون وقومه ) أى هاتان آيتان من تسع آيات أؤيدك بهن ، وأجعلهن برهانا لك إلى فرعون وقومه كما قال : « وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ » .

ثم علل إرساله إليهم بالخوارق بقوله :

( إنهم كانوا قوما فاسقين ) أى لأنهم قوم خرجوا عما تقتضيه الفطرة ويوجبه العقل بادعاء فرعون الألوهية وتصديقهم له فى ذلك .

وبعدئذ ذكر ما حدث لهم حين أتاهم بالبراهين من ربه فقال :

( فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين ) أى فلما جاءت فرعون وقومه أدلتنا الواضحة المنيرة الدالة على صدق الداعى ـ أنكروها وقالوا هذا سحر بين لائح يدل على مهارة فاعله وحذق صانعه .

ثم بين أن هذا التكذيب إنما كان باللسان فحسب لا بالقلب فقال :

( وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوّا ) أى وكذبوا بها بألسنتهم وأنكروا دلالتها على صدقه وأنه رسول من ربه ، لكنهم علموا فى قرارة نفوسهم أنها حق من عنده ، فخالفت ألسنتُهم قلوبَهم ، ظلما للآيات ، إذ حطوها عن مرتبتها العالية وسمّوها سحرا ، ترفعا عن الإيمان بها كما قال فى آية أخرى : « فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوماً عَالِينَ » .

والخلاصة ـــ إنهم تكبروا عن أن يؤمنوا بها وهم يعلمون أنها من عند الله .

( فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ) أى فانظر أيها الرسول ما آل إليه أمر فرعون وقومه من الإغراق على الوجه الذى فيه العبرة للظالمين ، ومن إخراجهم من الجنات والعيون والزروع والمقام الكريم .

وفى هذا تحذير للمكذبين بمحمد صلى الله عليه وسلم الجاحدين لما جاء به من عند ربه ، أن يصيبهم مثل ما أصاب أولئك ، لعلهم يُقْلِعُونَ عن عنادهم واستكبارهم حتى لاتنزل بهم القوارع ويأخذهم العذاب من حيث لايشعرون .

---

## قصص داود وسليمان عليهما السلام

وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْماً وَقَالاَ : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ (١٥) وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ، وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ

عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ، إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ (١٦) وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٧) حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ ، لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٨) فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ (١٩)

## تفسير المفردات

ورث سليمان داود : أى قام مقامه فى النبوة والملك ، منطق الطير: أى فهم مايريده كل طائر إذا صوّت ، حشر : أى جمع ، يوزعون : أى يحبس أولهم ليلحق آخرهم فيكونون مجتمعين لا يتخلف منهم أحد ، وادى النمل : واد بأرض الشام لا يحطمنكم : أى لايكسرنكم ويهشمنكم ، أوزعنى : أى يسر لى.

## المعنى الجملى

بعد أن ذكر قصص موسى صلى الله عليه وسلم تقريرا لما قبله ببيان أنه تلقاه من لدن حكيم عليم - أردفه قصص داود وسليمان ، وذكر أنه آتى كلا منهما طائفة من علوم الدين والدنيا ، فعلّم داود صنعة الدروع ولبوس الحرب ، وعلّم سليمان منطق الطير ، ثم بين أن سليمان طلب من ربه أن يوفقه إلى شكر نعمه عليه وعلى والديه ، وأن يمكنه من العمل الصالح وأن يدخله جنات النعيم .

## الإيضاح

( ولقد آتينا داود وسليمان علما ، وقالا الحمد لله الذى فضلنا على كثير من عباده المؤمنين ) أى ولقد أعطينا داود وسليمان ابنه عليهما السلام طائفة عظيمة من العلم ، فعلمنا داود صنعة الدروع ولبوس الحرب ، وعلمنا سليمان منطق الطير والدواب وتسبيح الجبال ونحو ذلك مما لم نؤته أحدا ممن قبلهما ، فشكرا الله على ما أولاهما من مننه ، وقالا الحمد لله الذى فضلنا بما آتانا من النبوة والكتاب وتسخير الشياطين والجن ، على كثير من المؤمنين من عباده الذين لم يؤتهم مثل ما آتانا .

وفى الآية إيماء إلى فضل العلم وشرف أهله من حيث شكرا عليه وجعلاه أساس الفضل ولم يعتبرا شيئا دونه مما أوتياه من الملك العظيم : « يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ » وفيها تحريض للعلماء على أن يحمدوا الله على ما آتاهم من فضله ، وأن يتواضعوا ويعتقدوا أن عباد الله من يفْضُلهم فيه .

( وورث سليمان داود ) أى قام مقامه فى النبوة والملك بعد موته ، وسُخِّرت له الريح والشياطين .

قال قتادة فى الآية : ورث نبوته وملكه وعلمه ، وأُعْطِى ما أعطى داود ، وزيد له تسخير الريح والشياطين ، وكان أعظم ملكا منه وأقضى منه ، وكان داود أشد تعبدا من سليمان، شاكرا لنعم الله تعالى اه .

ثم ذكر بعض نعم الله عليه :

(وقال يٰأيها الناس علمنا منطق الطير ) أى وقال متحدثا بنعمة ربه ، ومنبها إلى ماشرّفه به ، ليكون أجدر بالقول : يأيها الناس إن ربى يسرّ لى فهم مايريده الطائر إذا صوّت ، فأعطانى قوة أستطيع بها أن أتبين مقاصده التى يومئ إليها فضلا منه ونعمة .

وقد اجتهد كثير من الباحثين فى العصر الحاضر فعرفوا كثيرا من لغات الطيور

أى تنوع أصواتها لأداء أغراضها المختلفة من حزن وفرح وحاجة إلى طعام وشراب واستغاثة من عدوّ ، إلى نحو ذلك من الأغراض القليلة التى جعلها الله للطير .

وفى هذا معجزة لـكتابه الـكريم لقوله فى آخر السورة : « وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا » .

وإنك لتعجب إذ ترى اليوم أن كثيرا من الأمم تبحث فى لغات الطيور والحيوان والحشرات كالنمل والنحل ، وتبحث فى تنوع أصواتها لتنوع أغراضها ، فـكأنه تعالى يقول : إنكم لاتعرفون لغات الطيور الآن وعلّمتُها سليمان ، وسيأتى يوم ينتشر فيه علم أحوال مخلوقاتى ، ويطلع الناس على عجائب صنعى فيها .

( وأوتينا من كل شىء ) مما نحتاج إليه فى تدبير الملك ، ويعيننا فى ديننا ودنيانا .

وهذا أسلوب يراد به الـكثرة من أى شىء ، كما يقال فلان يقصده كل أحد ، ويعلم كل شىء ، وسيأتى فى مقال الهدهد عن بلقيس . « وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ » .

( إن هذا لهو الفضل المبين ) أى إن هذا الذى أوتيناه من الخيرات لهو الفضل المبين الذى لايخفى على أحد .

ثم ذكر بعض ما أوتيه سليمان بقوله :

( وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون ) أي وجمع له عساكره من مختلف النواحى ليحارب بهم من لم يدخل فى طاعته فهو يحبس أولهم على آخرهم ليتلاحقوا ، وقال ابن عباس لـكل صنف وزَعة ترُد أولاها على أخراها ، لئلا تتقدمها فى السير كما يصنع الملوك . وقال الحسن : لابد للناس من وازع : أى سلطان يكفُلهم . وقال عثمان بن عفان : مايزع السلطانُ أكثر مما يزع القرآن .

( حتى إذا أتوا على واد النمل قالت نملة : يٰأيها النمل ادخلوا مساكنكم لايحطمنكم سليمان وجنوده وهم لايشعرون ) أى حتى إذا أشرفوا على وادى النمل صاحت نملة بما فهم منه سليمان أنها تأمرهم بأن يدخلوا مساكنهم خوفا من تحطيم سليمٰن وجنوده لهم وهم لايشعرون بذلك .

( فتبسم ضاحكا من قولها وقال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت علىّ وعلى والدىّ وأن أعمل صالحا ترضاه وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين ) أى فضحك متعجبا من حذرها وتحذيرها والهداية التى غرسها الله فيها ، مسرورا بما خصه الله من فهم مقاصدها ، وقال رب ألهمنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت بها علىّ وعلى والدىّ ، وأن أعمل عملا تحبه وترضاه ، وتوفنى مسلما وألحقنى بالصالحين من عبادك .

وخلاصة ذلك — كأنه قال : العلم غاية مطلبى وقد حصلت عليه ، ولم يبق بعد ذلك إلا أن أطلب التوفيق للشكر عليه بالعمل الصالح الذى ترضاه ، وأن أدخل فى عداد الصالحين من آبائى الأنبياء وغيرهم .

## تذكرة وعبرة بالآية

قد دلّ بحث الباحثين فى معيشة النمل على مالها من عجائب فى معيشتها وتدبير شئونها ، فإنها لتتخذ القُرى فى باطن الأرض ، وتبنى بيوتها أروقة ودهاليز وغرفات ذوات طبقات ، وتملؤها حبوبا وقوتا للشتاء ، وتخفى ذلك فى بيوت من مساكنها منعطفات إلى فوق ، حذرا من ماء المطر .

وفى هذه الآية تنبيه إلى هذا لإيقاظ العقول إلى ما أُعْطِيته من الدقة وحسن النظم والسياسة ، فإن نداءها لمن تحت أمرها وجمعها لهم ليشير إلى كيفية سياستها ، وحكمتها وتدبيرها لأمورها ، وأنها تفعل ما يفعل الملوك ، وتدبّر وتسوس كما يسوس الحكام .

ولم يذكره الكتاب الكريم إلا ليكون أمثالا تضرب للعقلاء ، فيفهموا حال هذه الكائنات ، وكيف أن النمل أجمعت أمرها على الفرار خوفا من الهلاك كما تجتمع على طلب المنافع ، وإن أمة لاتصل فى تدبيرها إلى مثل ما يفعل هذا الحيوان الأعجم تكون أمة حمقاء تائهة فى أودية الضلال ، وهى أدنى حالا من الحشرات والديدان : « وَيَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ واللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » .

وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ (٢٠) لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٢١) فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (٢٢) إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ (٢٤) أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (٢٥) اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٢٦).

## تفسير المفردات

التفقد : طلب ما فُقِد ، بسلطان مبين ، أى بحجة واضحة ، والإحاطة بالشيء علما علمه من جميع جهاته ، وسبأ : هو سبأ بن يشْجُب بن يعرُبَ بن قحطان أبو قبيلة باليمن ، ونبأ : أى خبر عظيم ، والعرش : سرير الملك ، عن السبيل : عن سبيل الحق والصواب والخبء : هو المخبوء من كل شيء كالمطر وغيره من شئون الغيب .

## المعنى الجملى

بعد أن ذكر فى سابق الآيات أنه سخر لسليمان الجن والإنس والطير وجعلهم جنودا له ـ ذكر هنا أنه احتاج إلى جندى من جنوده وهو الهدهد ، فبحث عنه فلم يجده فتوعده بالعذاب أو القتل إلا إذا أبدى له عذرا يبرئه ، فحضر بعد قليل وقص عليه خبر مملكة باليمن من أغنى الممالك وأقواها تحكمها امرأة هى بلقيس ملكة سبأ ، ووصف له مالها من جلال الملك وأبهته وأنها وقومها يعبدون الشمس لاخالق الشمس

العليم بكل شىء فى السموات والأرض ، والعليم بما تخفى وما نعلن ، والعليم بالسر والنجوى ، وهو رب العرش العظيم .

## الايضاح

( وتفقد الطير فقال مالِىَ لاأرى الهدهد أم كان من الغائبين ) أى وطلب مافقد من الطير بحسب ما تقتضيه العناية بأمر الملك من الاهتمام بالرعايا ولا سيما الجند فقال : ألهدهد حاضر ومنع مانع من رؤيته كساتر ونحوه ؟ ثم لاح له أنه غائب فقال أم كان قد غاب قبل ذلك ولم أشعر به ؟ .

وخلاصة ذلك — أغاب عنى الهدهد الآن فلم أره حين تفقده ، أم كان قد غاب من قبل ولم أشعر بغيبته .

ثم توعده بالعذاب إذا لم يجد سببا يبرر به غيبته فقال :

( لأعذبنه عذابا شديدا أو لأذبحنه أو ليأتينى بسلطان مبين ) أى لأعذبنه بحبسه مع ضده فى قفص ، ومن ثم قيل : أضيق السجون معاشرة الأضداد ، أو بإبعاده من خدمتى ، أو بإلزامه بخدمة أقرانه أو نحو ذلك ، أو لأذبحنه ليعتبر به سواه أو ليأتينى بحجة تبين عذره .

والخلاصة — إنه ليعذبنه بأحد الأمرين الأولين إن لم يكن الأمر الثالث .

ثم ذكر أنه جاء بعد قليل و بين أن غيابه كان لأمر هامّ لدى سليمان .

( فمكث غير بعيد فقال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين ) أى فغاب مدة قصيرة بعد سؤال سليمان عنه ثم جاء فسأله : ماالذى أبطأ بك عنى ؟ فقال : اطلعت على مالم تطلع أنت ولا جنودك عليه ، على سعة علمك واتساع أطراف مملكتك .

وقد بدأ كلامه بهذا التمهيد ، لترغيبه فى الإصغاء إلى العذر ، واستمالة قلبه إلى قبوله ، ولبيان خطر ماشغله ، وأنه أمر جليل الشأن يجب أن يتدبر فيه ، ليكون فيه

الخير له ولمملكته ، فهو ما كان إلا لكشف مملكة سبأ ، ومعرفة أحوالها ، ومعرفة من يسوس أمورها ، ويدبر شئونها .

قال صاحب الكشاف : ألهم الله الهدهد فكافح سليمان بهذا الكلام على ماأوتى من فضل النبوة والحكمة والعلوم الجمة والإحاطة بالمعلومات الكثيرة ، ابتلاء له فى علمه ، وتنبيها على أن فى أدنى خلقه وأضعفه من أحاط بما لم يحط به ، لتتحاقر إليه نفسه ، ويتصاغر إليه علمه ، ويكون لطفا له فى ترك الإعجاب الذى هو فتنة العلماء ، وأعْظِمْ بها فتنةً اهـ .

ثم فصل هذا النبأ وبينه بقوله :

( إنى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شىء ولها عرش عظيم ) بين فى هذا الكلام شئونهم الدنيوية وذكر منها ثلاثة أمور :

(١) إن ملكتهم امرأة وهى بلقيس بنت شراحيل ، وكان أبوها من قبلها ملكا جليل القدر واسع الملك .

(٢) إنها أوتيت من الثراء وأبهة الملك ومايلزم ذلك من عتاد الحرب والسلاح وآلات القتال ، الشىء الكثير الذى لايوجد مثله إلا فى الممالك العظمى .

(٣) إن لها سريرا عظيما تجلس عليه ، مرصّعًا بالذهب وأنواع اللآلىء والجواهر فى قصر كبير رفيع الشأن ، وفى هذا أكبر الأدلة على عظمة الملك وسعة رقعته ورفعة شأنه بين الممالك .

وبعد أن بين شئونهم الدنيوية ذكر معتقداتهم الدينية فقال :

( وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله ، وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لايهتدون ) أى وجدتها وقومها فى ضلال مبين ، فهم يعبدون الشمس لاربّ الشمس وخالق الكون المحيط بكل شىء علما ، وزين لهم الشيطان قبيح أعمالهم ، فظنوا حسنا ماليس بالحسن ، وصدهم عن الطريق القويم الذى بُعِث به الأنبياء والرسل وهو إخلاص السجود والعبادة لله وحده .

(ألا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون) أى فصدهم عن السبيل حتى لا يهتدوا ويسجدوا لله الذى يظهر المخبوء فى السموات والأرض كالمطر والنبات والمعادن المخبوءة فى الأرض ، ويعلم ما يخفيه العباد وما يعلنونه من الأقوال والأفعال كما قال : « سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ ، وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ » .

ولما بين أن كل العوالم مفتقرة إليه ومحتاجة إلى تدبيره ، ذكر ماهو كالدليل على ذلك ، فأبان أن أعظمها قدرا، وهو العرش الذى هو مركز تدبير شئون العالم هو الخالق له وهو محتاج إليه فقال :

(الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم) أى هو الله الذى لا تصلح العبادة إلا له وهو رب العرش العظيم ، فكل عرش وإن عظم فهودونه ، فأفردوه بالطاعة ولا تشركوا به شيئا .

---

قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٧) اذْهَبْ بِكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ (٢٨) قَالَتْ يَأَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (٢٩) إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ (٣٠) أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣١) .

## تفسير المفردات

تولّ عنهم : أى تنح عنهم إلى مكان قريب تتوارى فيه ، ليكون ما يقولونه بمسمع منك ، فانظر : أى تأمل وفكّر ، يرجعون : أى يرجع بعضهم إلى بعض من القول ويدور بينهم بشأنه ، والملأ : أشراف القوم وخاصة الملك ، ألا تعلوا علىّ : أى ألا تتكبروا ولا تنقادوا للنفس والهوى ، مسلمين : أى منقادين خاضعين .

## المعنى الجملى

بعد أن ذكر أن الهدهد أبدى المعاذير لتبرئة نفسه ـ أردف ذلك إجابة سليمٰن عن مقالة الهدهد ، ثم أمره بتبليغ كتاب منه إلى ملكة سبأ ، والتنحى جانبا ليستمع ما يدور من الحديث بينها و بين خاصتها بشأنه .

## الإيضاح

( قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين ؟ ) أى قال سنختبر مقالك ، ونتعرف حقيقته بالامتحان ، أصادق أنت فيما تقول ، أم كاذب فيه لتتخلص من الوعيد؟

وفى التعبير بقوله : كنت من الكاذبين ، دون أن يقول أم كذبت ، إيذان بأن تلفيق الأقوال المنمَّقة ، واختيار الأسلوب الذى يستهوى السامع إلى قبولها مِن غير أن يكون لها حقيقة تعبر عنها ـ لايصدر إلا مِمَّنْ مَرَّنَ على الكذب وصار سَجِيَّةً له حتى لايجد وسيلة للبعد عنه ، وهذا يفيد أنه كاذب على أتم وجه ، ومن كان كذلك لايوثق به .

ثم شرع يفعل ما يختبره به فكتب له كتابا موجزا وأمره بتبليغه إلى ملكة سبأ فقال :

(أذهب بكتابى هذا فألقه إليهم ثم تولّ عنهم فانظر ماذا يرجعون ) أى اذهب بهذا الكتاب فألقه إليهم ، ثم تنح عنهم وكن قريبا منهم ، واستمع مراجعة الملكة أهل مملكتها ، وما بعد ذلك من مراجعة بعضهم بعضا ونِقاشهم فيه .

ثم فصل ما دار بينهم بشأنه فقال :

( قالت يأيها الملأ إنى أُلقى إلىّ كتاب كريم ) أى و بعد أن ذهب الهدهد بالكتاب ألقاه إلى الملكة ففضّت خاتمه وقرأته ، وجمعت أشراف قومها ومستشاريها

وقالت تلك المقالة للمشورة ، وطلبت أخذ الرأى فى ذلك الخطب الذى نزل بها كما هو دأب الدول الديمقراطية .

وفى الآية إيماء إلى أمور :

(١) سرعة الهدهد فى إيصال الكتاب إليهم .

(٢) إنه أوتى قوة المعرفة فاستطاع أن يفهم بالسمع كلامهم .

(٣) إنها ترجمت ذلك الكتاب فورا بواسطة تراجمتها .

(٤) إن من آداب رسل الملوك أن يتنحّوا قليلا عن المرسل إليهم بعد أداء الرسالة ، ليتشاور المرسل إليهم فيها .

ثم بينت مصدر الكتاب وما فيه لخاصتها وذوى الرأى فى مملكتها فقالت .

( إنه من سليمان و إنه بسم الله الرحمن الرحيم . ألا تعلوا علىّ وائتونى مسلمين )

ونص هذا الكتاب على وجازته يدل على أمور :

(١) إنه مشتمل على إثبات الإله ووحدانيته وقدرته وكونه رحمانا رحيما .

(٢) نهيهم عن اتباع أهوائهم ، ووجوب اتباعهم للحق .

(٣) أمرهم بالمجىء إليه منقادين خاضعين .

وبهذا يكون الكتاب قد جمع كل ما لابد منه فى الدين والدنيا .

---

قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي ، مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ (٣٢) قَالُوا نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ (٣٣) قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٣٤) وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ (٣٥) .

## تفسير المفردات

أفتونى : أى أشيروا علىّ بما عندكم من الرأى والتدبير فيما حدث ، قاطعة أمرا : أىّ باتّة فيه منفذته ، تشهدون : أى تحضرونى ، والمراد بالقوة : القوة الحسية وكثرة الآلات ، والمراد بالبأس : النجدة والثبات فى الحرب .

## المعنى الجملى

ذكر فيما سلف أن الهدهد حينما ألقى الكتاب أحضرت بطانتها وأولى الرأى لديها وقرأت عليهم نصّ الكتاب ، وهنا بين أنها طلبت إليهم إبداء آرائهم فيما عُرِض عليهم من هذا الخطب المدْلهِمّ والحادث الجلَل حتى ينجلى لهم صواب الرأى فيما تعمل ويعملون ، لأنها لا تريد أن تستبدّ بالأمر وحدها ، فقلّبوا وجوه الرأى واشتد الحِوار بينهم وكانت خاتمةُ المطاف أن قالوا : الرأى لدينا القتال ، فإنا قوم أولو بأس ونجدة ، والأمر مفوّض إليك فافعلى مابدا لك ، وإن قالت : إنى أرى أن عاقبة الحرب والدمار والخراب وصيرورة العزيز ذليلا ، وإنى أرى أن نهادنه ونرسل إليه بهدية ثم ننظر ماذا يكون رده ، علّه يقبل ذلك منا ، ويكفّ عنا ، أو يضرب علينا خراجا نحمله إليه كل عام ونلتزم ذلك له ، وبذا يترك قتالنا وحربنا :

## الإيضاح

( قالت يأيها الملأُ أفتونى فى أمرى ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون ) أى قالت بلقيس لأشراف قومها : أيها الملأُ أشيروا علىّ فى أمر هذا الكتاب الذى ألقى إلىّ فإنى لا أقضى فيه برأى حتى تشهدونى فأشاوركم فيه .

وفى قولها هذا دلالة على إجلالهم وتكريمهم ليمحضوها النصح ، ويشيروا عليها بالصواب ، ولتختبر عزمهم على مقاومة عدوهم ، وحزمهم فيما يقيم أمرهم ، وإمضاءهم على الطاعة لها ، علما منها أنهم إن لم يبذلوا أنفسهم وأموالهم ودماءهم دونها لم يكن

لها طاقة بمقاومة عدوها ، و إن لم يجتمع أمرهم وحزمهم وجدهم كان ذلك عونا لعدوهم عليهم ، و إن لم تختبر ماعندهم وتعلم قدر عزمهم لم تكن على بصيرة من أمرهم ، ور بما كان فى استبدادها برأيها وَهْن فى طاعتها ، وتعمية فى تقدير أمرهم ، وكان فى مشاورتهم وأخذ رأيهم عونٌ على ماتريد من قوة شوكتهم وشدة مدافعتهم ، ألا ترى إلى قولهم فى جوابهم : ( نحن أولو قوة وأولو بأس شديد ) على مالها من عقل راجح وأدب جمّ فى التخاطب .

وعلى هذا النهج سار الإسلام ، فقد قال سبحانه لنبيه « وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ » وقد مدح سبحانه صحابة رسوله بقوله : « وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ » .

فأجابوا عن مقالها :

( قالوا نحو أولو قوة وأولو بأس شديد ، والأمر إليك فانظرى ماذا تأمرين ) أى قال الملأ من قومها حين شاورتهم فى أمرها وأمر سليمان : نحن ذوو بأس ونجدة فى القتال ، إلى مالنا من وافر العُدّة وعظيم العتاد وكثير الكُرَاع والسلاح ، و إن أمر القتال والسلم مفوّض إليك ، فانظرى وقلّبى الرأى على وجوهه ، ثم مرينا نأتمر بذلك .

ولما أحست منهم الميل إلى القتال شرعت تبين لهم وجه الصواب ، وأنهم فى غفلة عن قدرة سليمان وعظيم شأنه ، إذ من سُخر له الطير على الوجه الذى يريده ليس من السهل مجالدته والتغلب عليه .

( قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون ) أى قالت لهم حين عرضوا عليها أنفسهم لقتال سليمان : إن الملوك إذا دخلوا قرية فاتحين أفسدوها بتخريب عمائرها و إتلاف أموالها ، وأذلوا أهلها بالأسر والإجلاء عن موطنهم أو قتلوهم تقتيلا ، ليتم لهم الملك والغلبة ، وتتقرر لهم فى النفوس المهابة ، وهكذا يفعلون معنا .

وفى هذا تحذير شديد لقومها من مسير سليمان إليهم ، ودخوله بلادهم .

وبعد أن أبانت ما فى الحرب والمجالدة من الخطر أتبعته بما عزمت عليه من المسالمة بقولها :

( وإنى مرسلة إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون ؟ ) أى وإنى سأرسل إليه هدية من نفائس الأموال لأتعرف حاله وأختبر أمره ، أنبى هو أم ملك ؟ فإن كان نبيا لم يقبلها ولم يرض منا إلا أن نتبعه على دينه ، وإن كان ملكا قبل الهدية وانصرف إلى حين ، فإن الهدايا مما تورث المودة ، وتذهب العداوة ، وفى الحديث : « تصافحوا يذهب الغل ، وتهادوْا تحابُوا وتذهب الشحْنَاء » ولقد أحسن من قال :

هدايا الناس بعضهمُ لبعض  تُوَلِّد فى قلوبهم الوصالا
وتزرع فى الضمير هوى ووُدًّا  وتُكْسِبهم إذا حضروا جمالا

---

فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ ؟ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ (٣٦) ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ (٣٧) .

## تفسير المفردات

لاقبل لهم بها : أى لاطاقة لهم بمقاومتها ، صاغرون : أى مهانون محتقرون .

## الإيضاح

لما وصلت الهدية مع الرسول إلى سليمان وكانت من ذهب وجواهر ولآلئ وغيرها مما تقدمه الملوك العظام ، قال سليمان للرسول : أتصانعوننى بالمال لأترككم على شرككم وكفركم ؟ لن يكون ذلك أبدا ، إن الذى أعطانيه الله من النبوة والملك الواسع الأرجاء والمال الوفير ـ خير مما أنتم فيه ، فلا حاجة لى بهديتكم ، وليس رأيى فى المال كما ترون ، فأنتم تفرحون به دونى ، فارجع بما جئت به إلى من أرسلك ،

ولنأتينكم بجنود لاطاقة لـكم بدفعها ولا الانتصار عليها ، ولنخرجنكم من أرضكم أذلة مأسورين مستعبدين ، إن لم تأتونى مستسلمين منقادين .

---

قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣٨) قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (٣٩) قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ (٤٠) .

## تفسير المفردات

العرش : سرير الملك ، مسلمين أى خاضعين منقادين ، العفريت من البشر : الخبيث الماكر الذى يعفر أقرانه ، ومن الشياطين : المارد ، مقامك : أى مجلسك الذى تجلس فيه للحكم ، قوى : أى قادر على حمله لاأعجز عنه ، أمين : أى على مافيه من لآلئ وجواهر وغيرها ، والـكتاب : هو علم الوحى والشرائع ، والذى عنده علم هو سليمان عليه السلام كما اختاره الرازى وقال إنه أقرب الآراء ، يرتد : أى يرجع ، والطرف : تحريك الأجفان والمراد بذلك السرعة العظيمة ، مستقرا : أى ساكنا قارا على حاله التى كان عليها ، الفضل : التفضل والإحسان ، ليبلونى : أى ليعاملنى معاملة المختبر ، أم أكفر أى أقصر فى أداء واجب الشكر ، كفر أى لم يشكر .

## المعنى الجملى

استبان مما سلف أن سليمان رفض قبول الهدايا وتهدد الرسول بأن قومه وملـكتهم إن لم يأتوا إليه طائعين خاضعين فسيوجه إليهم جيشا جرارا ينكل بهم أشد التنكيل ،

يقتل من يقتل ويأتى بالباقين أسارى وهم صاغرون ، ويُجْليهم جميعا عن الديار والأوطان ، ويأخذ أموالهم غنائم له ـ وهنا ذكر أنهم خافوا تهديده واستجابوا لدعوته ، فتوجهت الملكة وأشراف قومها إليه ، لكن سليمان رأى حين قربت من الوصول إليه أن يحضر سرير ملكها قبل مَقْدَمها ، ليكون فى ذلك دلالة على قدرة الله وإثبات نبوته وتتظاهر عليها الأدلة من كل أوب ، فسأل أعوانه : أيكم يستطيع أن يحضره قبل وصولها إلينا ، فأجابه عفريت من الجن بأن فى استطاعته أن يحضره قبل قيامه من مجلس الحكم والقضاء ، فقال هو : بل أنا آتيكم به كلمح البصر ، وقد كان كما قال : فرأى العرش حاضرا أمامه فشكر ربه على ماآتاه من النعم العظام الذى لا يستطيع إيفاء حقها من الشكر .

وعلينا أن نؤمن بما جاء فى الكتاب الكريم على أنه معجزة لسليمان ، إذ هو لا ينطبق على السنن العادية التى وضعها ربنا لخلقه ، فعِلْم البشر إلى الآن لم يصل إلى تحقيق ذلك عمليا مع تقدم سبل الانتقال ، فالطائرات على سرعتها التى أدهشت العقول لاتستطيع أن تسافر من جنوب اليمن إلى أطراف الشام فى مثل تلك اللحظات الوجيزة .

## الايضاح

لما رجعت الرسل إلى بلقيس وأخبرتها بما قال سليمان قالت : قد والله عرفت ماهذا بملك ، ومالنا به طاقة ، وما نصنع بمكاثرته شيئا ، وبعثت إليه إنى قادمة إليك بأشراف قومى ، لأنظر ماأمرك وماتدعونا إليه ، من دينك ، ثم شخصت إليه ، فجعل يبعث الجن يأتونه بأخبارها ويعلمونه غاية سيرها كل يوم حتى إذا دنت منه جمع جنده من الجن والإنس وتكلم فيهم .

(قال يأيها الملأ أيكم يأتينى بعرشها قبل أن يأتونى مسلمين) أى قال أيها الأعوان من منكم فى مكنته أن يأتينى بسرير ملكها قبل قدومها علينا ، لنطلعها

على بعض ما أنعم الله به علينا من العجائب النبوية ، والآيات الإلهية ، لتعرف صدق نبوتنا ، ولتعلم أن مُلْكَهَا فى جانب عجائب الله و بدائع قدرته يسير ، وحينئذ تَقَدَّمَ إليه بعض جنده بمقترحات .

( قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك و إنى عليه لقوى أمين ) أى قال شيطان قوى أنا أحضره إليك قبل أن تقوم من مجلس قضائك وكان إلى منتصف النهار ، ثم زاد الأمر توكيدا فقال : و إنى على الإتيان به لقادر لا أعجز عنه ، و إنى لأمين لا أمسه بسوء ، ولا أقتطع منه شيئا لنفسى ــ حينئذ .

( قال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك) أى قال سليمان للعفريت متحدثا بنعمة الله وعظيم فضله عليه : أنا أفعل ما لا تستطيع أنت ، أنا أحضره فى أقصر ما يكون مدة ، أنا أحضره قبل ارتداد طرفك إليك ، وقد كان كما قال :

( فلما رآه مستقرا عنده قال هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر ؟ ) أى فلما رآه سليمان ساكنا ثابتا على حاله لم يتبدل منه شىء ولم يتغير وضعه الذى كان عليه قال هذا تفضل من الله ومنّة ليختبرنى : أأشكر بأن أراه فضلا منه بلا قوة منى أم أجحد فلا أشكر بل أنسب العمل إلى نفسى ؟

و إن النعم الجسمية والروحية والعقلية كلها مواهب يمتحن الله بها عباده ، فمن ضل بها هوى ، ومن شكرها ارتقى ، وهذا ما عناه سبحانه بقوله :

( ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربى غنى كريم ) أى ومن شكر ففائدة الشكر إليه ، لأنه يجلب دوام النعمة ، ومن جحد ولم يشكر فإن الله غنى عن العباد وعبادتهم ، كريم بالإنعام عليهم و إن لم يعبدوه ، كما قال : « مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا »وقال : «وقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ » وروى مسلم قوله صلى الله عليه وسلم حكاية عن ربه

« ياعبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل منكم ما زاد ذلك فى ملكى شيئا ، ياعبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئا ، ياعبادى إنما هى أعمالكم أحصيها لكم، ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيرا فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنّ إلا نفسه » .

---

قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ (٤١) فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ؟ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ (٤٢) وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ (٤٣) قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا ، قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ، وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٤) .

## تفسير المفردات

نكروا لها عرشها : أى غيروا هيئته وشكله بحيث لا يعرف بسهولة ، مسلمين : أى خاضعين منقادين ، صدها : أى منعها ، والصرح : القصر وكل بناء عال ، واللجة الماء الكثير ، ممرد : أى ذو سطح أملس ومنه الأمرد للشاب الذى لا شعر فى وجهه ، القوارير : الزجاج واحدها قارورة ، أسلمت : أى خضعت .

## المعنى الجملى

علمنا مما سلف أن بلقيس تجهزت للسفر مقبلة إلى سليمان ، وأن الجن كانت تترسم خطاها من يوم إلى آخر حتى إذا دنت منه سأل سليمان جنده : من يستطيع

إحضار عرشها ؟ فقال عفريت من الجن : أنا أفعل ذلك قبل أن تقوم من مجلس القضاء ، فقال سليمان : بل أستطيع أن أحضره فى لمح البصر وكان كما قال : فلما رآه أمامه شكر ربه على جزيل نعمه .

وهنا ذكر ما فعل سليمان من تغيير معالم العرش وتبديل أوضاعه ، ثم سؤالها عنه ليختبر مقدار عقلها ، ولتعلم صدق سليمان فى دعواه النبوة ، وتتظاهر لديها الأدلة على قدرة المولى سبحانه .

وقد كان مما أعده لنزولها قصر عظيم مبنى من الزجاج الشفاف ، فرشت أرضه بالزجاج أيضا ، وفى أسفله ماء جار فيه صنوف السمك ، فلما دخلت فى بهوه خالته لجة من الماء فكشفت عن ساقيها لتخوض فيه ، فأنبأها سليمان بأن هذا زجاج يجرى تحته الماء ، حينئذ أيقنت بأن دين سليمان هو الحق وأنها قد ظلمت نفسها بكفرها بالله ربها خالق السموات والأرض وصاحت تقول : أسلمت مع سليمان لله رب العالمين.

# الايضاح

( قال نكروا لها عرشها ننظر أتهتدى أم تكون من الذين لايهتدون ) أى قال سليمان لجنده لما جاء عرش بلقيس : غيروا لها معالم السرير و بدّلوا أوضاعه ، لنختبر حالها إذا نظرت إليه ونرى : أتهتدى إليه وتعلم أنه هو أم لاتستبين لها حقيقة حاله ؟ .

ثم أشار إلى سرعة مجيئها وخضوعها بقوله :

( فلما جاءت قيل أهكذا عرشك ؟ قالت كأنه هو ) أى فحين قدمت واطلعت على عرشها سئلت عنه ، أعرشك مثل هذا ؟ أجابت بما دل على رجاحة عقلها إذ قالت كأنه هو ، ولم تجزم بأنه هو ، إذ ربما كان مثله .

قال مجاهد : جعلت تعرِّف وتنكر ، وتعجب من حضوره عند سليمان فقالت :

كأنه هو : وقال مقاتل : عرفته ولـكنها شبّهت عليهم كما شبهوا عليها ، ولو قيل لها أهذا عرشك لقالت نعم .

ولما ظنت أن سليمان أراد بذلك اختبار عقلها و إظهار المعجزة لها قالت :

( وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين ) أى وأوتينا العلم بكمال قدرة الله وصدق نبوتك من قبل هذه المعجزة بما شاهدناه من أمر الهدهد ، و بما سمعناه من رسلنا إليك من الآيات الدالة على ذلك ، وكنا منقادين لك من ذلك الحين ، فلا حاجة بى إلى إظهار معجزات أخرى .

ثم ذكر سبحانه ما منعها عن إظهار ما ادعت من الإسلام إلى ذلك الحين فقال :

( وصدّها ما كانت تعبد من دون الله ، إنها كانت من قوم كافرين ) أى ومنعها ما كانت تعبده من دون الله وهو الشمس عن إظهار الإسلام والاعتراف بوحدانيته تعالى ، من قِبَل أنها من قوم كانوا يعبدونها ونشأت بين أظهرهم ولم تكن قادرة على إظهار إسلامها إلى أن مَثَلتْ بين يدى سليمان فاستطاعت أن تنطق بما كانت تعتقده فى قرارة نفسها و يجول فى خاطرها .

روى أن سليمان أمر قبل مَقْدَمها ببناء قصر عظيم جعل صحنه من زجاج أبيض شفاف يجرى من تحته الماء وألقى فيه دواب البحر من سمك وغيره ، فلما قدمت إليه استقبلها فيه وجلس فى صدره ، فحين أرادت الوصول إليه حسبته ماء فكشفت عن ساقيها ، لئلا تبتل أذيالها كما هى عادة من يخوض الماء ، فقال لها سليمان : إن ما تظنينه ماء ليس بالماء ، بل هو صرح قد صنع من الزجاج فسترت ساقيها وعجبت من ذلك ، وعلمت أن هذا ملك أعزّ من ملـكها ، وسلطان أعز من سلطانها ، ودعاها سليمان إلى عبادة الله وعابها على عبادة الشمس دون الله ، فأجابته إلى ماطلب وقالت : رب إنى ظلمت نفسى بالثبات على ما كنت عليه من الـكفر ، وأسلمت مع سليمان لله رب كل شىء وأخلصت له العبادة و إلى ماتقدم أشار سبحانه بقوله :

(قيل لها ادخلي الصرح فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها قال إنه صرح ممرّد من قوارير ، قالت : رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين) .

أخرج البخارى فى تاريخه والعَقيلى عن أبى موسى الأشعرى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أول من صُنعت له الحمامات سليمان » .

---

## قصص صالح

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ (٤٥) قَالَ يَاقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٤٩) قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ (٤٧) وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (٤٨) قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٤٩) وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٠) فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ (٥١) فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥٢) وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٥٣) .

## تفسير المفردات

فريقان : أى طائفتان طائفة مؤمنة وأخرى كافرة ، يختصمون : أى يجادل بعضهم بعضا ويحاجه ، السيئة : العقوبة التى تسوء صاحبها ، الحسنة : التوبة ، لولا : أى هلاّ ، وهى كلمة تفيد الحث على حصول مابعدها ، اطيرنا : أى تطايرنا وتشاءمنا بك ،

طائركم : أى مايصيبكم من الخير والشر ، وسمى طائرا لأنه لاشىء أسرع من نزول القضاء المحتوم ، تفتنون : أى تختبرون بتعاقب السراء والضراء ، والمراد بالمدينة : الحِجْر ، والرهط والنفر : من الثلاثة إلى التسعة ، تقاسموا : أى احلفوا ، والبيات : مباغتة العدو ومفاجأته بالإيقاع به ليلا ، وليه : أى من له حق القصاص من ذوى قرابته إذا قتل ، والمهلك : الهلاك ، والمكر : التدبير الخفى لعمل الشر ، والتدمير : الإهلاك ، خاوية : أى خالية ، لآية : أى لعبرة وموعظة .

# الايضاح

( ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحا أن اعبدوا الله فإذا هم فريقان يختصمون ) أى ولقد بعثنا إلى ثمود أخاهم صالحا وقلنا لهم : اعبدوا الله وحده لاشريك له ، ولا تجعلوا معه إلها غيره .

وحين دعاهم إلى ذلك افترقوا فرقتين :

(١) فريق صدّق صالحا وآمن بما جاء به من عند ربه .

(٢) فريق كذّبه وكفر بما جاء به .

وصارا يتجادلان ويتخاصمان ، وكل منهما يقول أنا على الحق وخصمى على الباطل .

ثم ذكر أن صالحا استعطف المكذّبين وكانوا أكثر عددا وأشد عُتُوًّا وعنادا حتى قالوا : « يا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ » .

( قال ياقوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة ؟ ) أى لم تستعجلون بالعقوبة التى يسوءكم نزولها بكم قبل حصول الخيرات التى بشّرتكم بها فى الدنيا والآخرة إن آمنتم بى .

ثم نصحهم وطلب إليهم أن يستغفروا ربهم لعلهم يُرْحَمون فقال:

( لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون ) أى هلاّ تتوبون إلى الله من كفركم ، فيغفر لكم عظيم جُرْمكم ويصفح عن عقوبتكم على ما أتيتم به من الخطايا ، لعلكم ترحمون بقبولها ، إذ قد جرت سنته ألا تقبل التوبة بعد نزول العقوبة .

ولما قال لهم صالح ماقال ، وأبان لهم سبيل الرشاد أجابوه بفظاظة وغلظة .

( قالوا اطيرنا بك وبمن معك ) أى قالوا : إنا تشاءمنا بك وبمن آمن معك ، إذ زجرنا الطير فعلمنا أن سيصيبنا بك وبهم من المكاره مالا قِبَل لنا به ، ولم نزل فى اختلاف وافتراق منذ اخترعتم دينكم وأصابنا القحط والجدب بسببكم .

وسمى التشاؤم تطيرا من قِبَل أنه كان من دأبهم أنهم إذا خرجوا مسافرين فمروا بطائر زجروه : أى رموه بحجر ونحوه ، فإن مرّ سانحا بأن مر من ميامن الشخص إلى مياسره تيمنوا به ، وإن مر بارحا بأن مر من المياسر إلى الميامن تشاءموا منه .

فأجابهم صالح عليه السلام :

( قال طائركم عند الله ) أى قال إن مايصيبكم من خير أو شر مكتوب عند الله وهو بقضائه وقدره ،وليس شىء منه بيد غيره ، فهو إن شاء رزقكم ، وإن شاء حرمكم :

وسمى ذلك القضاء طائرا لسرعة نزوله بالإنسان ، فلا شى أسرع منه نزولا .

ثم أبان لهم سبب نزول ماينزل من الشر بقوله :

( بل أنتم قوم تفتنون ) أى بل أنتم قوم يختبركم ربكم حين أرسلنى إليكم أتطيعونه فتعملوا بما أمركم به فيجزيكم الجزيل من ثوابه ، أم تعصونه فتعملوا بخلافه فيحل بكم عقابه ؟

ثم ذكر أن قريته كانت كثيرة الفساد فقال :

( وكان فى المدينة تسعة رهط يفسدون فى الأرض ولا يصلحون ) أى وكان فى مدينة صالح وهى الحِجْر تسعة أنفس يعيثون فى الأرض فسادا لايعملون فيها صلاحا .

ثم بين بعض ماعملوا من الفساد :

(قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله ثم لنقولن لوليه ماشهدنا مهلك أهله و إنا لصادقون) أى قال بعضهم لبعض فى أثناء المشاورة فى أمر صالح عليه السلام بعد أن عقروا الناقة وتوعّدهم بقوله : « تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ » احلفوا لنباغتنه وأهله بالهلاك ليلا ثم لنقولن لأولياء الدم ، ماحضرنا هلاكهم ، ولا ندرى من قتله ولا قتل أهله . ونحلف إنا لصادقون فى قولنا .

و إذا كانوا لم يشهدوا هلاكهم فهم لم يقتلوهم بالأولى ، وأيضا فهم إذا لم يقتلوا الأتباع فأحربهم ألا يقتلوا صالحا .

قال الزجاج : كان هؤلاء النفر تحالفوا أن يبيّتوا صالحا وأهله ثم ينكروا عند أوليائه أنهم مافعلوا ذلك ولا رأوْه ، وكان هذا مكرا منهم ، ومن ثم قال سبحانه محذّرا لهم ولأمثالهم .

( ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لايشعرون ) أى وغدر هؤلاء التسعة الرهط الذين يفسدون فى الأرض بصالح ، إذ صاروا إليه ليلا ليقتلوه وأهله وهو لايشعر بذلك، فأخذناهم بعقوبتنا ، وعجلنا لهم العذاب من حيث لايشعرون بمكر الله بهم .

ثم بين ما ترتب على ماباشروه من المكر بقوله :

( فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين ) أى ففكر كيف آل أمرهم ، وكيف كانت عاقبة مكرهم ، فقد أهلكناهم وقومهم الذين لم يؤمنوا على وجه يقتضى النظر ، و يسترعى الاعتبار ، ويكون عظة لمن غدر كغدرهم فى جميع الأزمان .

روى أنه كان لصالح فى الحِجْر مسجد فى شِعْبٍ يصلى فيه ، فقالوا زعم صالح أنه يفرُغ منا إلى ثلاث ، فنحن نفرغ منه ومن أهله قبل الثلاث ، فذهبوا إلى الشعب ليقتلوه ، فوقعت عليهم صخرة من جبالهم طبّقت عليهم الشعب فهلكوا وهلك الباقون فى أماكنهم بالصيحة ، ونجّى الله صالحا ومن آمن معه .

ثم أكد ما تقدم وقرره بقوله :

( فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا ) أى فتلك مساكنهم أصبحت خالية منهم ، إذ قد أهلكهم الله بظلمهم أنفسهم بشركهم به وتكذيبهم برسوله .

( إن فى ذلك لآية لقوم يعلمون ) أى إن فى فعلنا بثمود ماقصصناه عليك لعظة لمن كان من أولى المعرفة والعلم ، فيعلم ارتباط الأسباب بمسبباتها ، والنتائج بمقدماتها ، بحسب السنن التى وضعت فى الكون .

وبعد أن ذكر من هلكوا أردفهم بمن أنجاهم فقال :

( وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون ) أى وأنجينا من نقمتنا وعذابنا الذى أحللناه بثمود ـ رسولنا صالحا ومن آمن به ، لأنهم كانوا يتقون سخط الله ويخافون شديد عقابه ، بتصديقهم رسوله الذى أرسله إليهم .

وفى هذا إيماء إلى أن الله ينجى محمدا وأتباعه عند حلول العذاب بمشركى قريش حين يخرج من بين ظهرانَيْهم كما أحلّ بقوم صالح ماأحل حين خرج هو والمؤمنون إلى أطراف الشام ونزل رَمْلة وفِلَسْطين .

## قصص لوط

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (٥٤) أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (٥٥) .

## الايضاح

( ولوطا إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون ؟ ) أى واذكر لقومك حديث لوط لقومه إذ قال لهم منذرا ومحذّرا : إنكم لتفعلون فاحشة لم يسبقكم بها أحد من بنى آدم ، مع علمكم بقبحها لدى العقول والشرائع ( واقتراف القبيح ممن يعلم قبحه أشنع ) .

ثم بين ماياتون من الفاحشة بطريق التصريح بعد الإبهام ليكون أوقع في النفس فقال :

( أئنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء ؟ بل أنتم قوم تجهلون ) أى أينبغى أن تأتوا الرجال وتقودكم الشهوة إلى ذلك وتذروا النساء اللاتى فيهن محاسن الجمال ، وفيهن مباهج الرجال ، إنكم لقوم جاهلون سفهاء حمقى ماجنون .

ونحو الآية قوله : « أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ » .

وقد أشار سبحانه إلى قبيح فعلهم وعظيم شناعته من وجوه :

(١) قوله : ( الرجال ) وفيه الإشارة إلى أن الحيوان الأعجم لايرضى بمثل هذا .

(٢) قوله : ( من دون النساء ) وفى ذلك إيماء إلى أن تركهن واستبدال الرجال بهن خطأ شنيع وفعل قبيح .

(٣) قوله : ( بل أنتم قوم تجهلون ) وفى هذا إيماء إلى أنهم يفعلون فعل الجهلاء الذين لاعقول لهم ، ولايدرون عظيم قبح مايفعلون .

هذا آخر ماسطرناه تفسيرا لهذا الجزء من كلام ربنا العليم القدير ، فلله الحمد والمنة .

وكان ذلك بمدينة حلوان من أرباض القاهرة فى الثالث والعشرين من شهر ربيع الأول من سنة أربع وستين وثلثمائة بعد الألف من الهجرة النبوية ، والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

# فهرست

## أهم المباحث العامة التى فى هذا الجزء


| الصفحة | المبحث |
|---|---|
| ٣ | ما شرطه المشركون للتصديق بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم |
| ٥ | ما تقوله الملائكة للمشركين يوم القيامة |
| ٨ | ندمهم فى الآخرة على ما فعلوا فى الدنيا |
| ٩ | مثل الجليس الصالح وجليس السوء |
| ١٠ | شكاية الرسول إلى ربه بأن قومه هجروا كتابه |
| ١٠ | كان لكل نبى أعداء من شياطين الإنس والجن |
| ١٢ | فوائد إنزال القرآن منجمًا |
| ١٣ | وعد الله رسوله بتأييده بإزالة ما يقولون من الشبه |
| ١٤ | قصص بعض الأنبياء مع أممهم |
| ١٧ | قصص عاد وثمود وأصحاب الرس وغيرهم |
| ١٩ | استهزاء المشركين بالرسول صلى الله عليه وسلم وقولهم « أهذا الذى بعث الله رسولا » |
| ١٩ | احتفال النبى صلى الله عليه وسلم بالدعوة والإلحاف فى البلاغ |
| ٢٠ | تسفيه آراء المشركين من وجوه ثلاثة : |
| ٢٣ | الأدلة على التوحيد |
| ٢٥ | بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الناس كافة كما جاء فى الحديث : بعثت إلى الأحمر والأسود |
| ٢٧ | النعى على المشركين فى عبادة الأصنام |
| ٢٧ | المشركون يظاهرون أولياء الشيطان ويعادون أولياء الرحمن |

| الصفحة | المبحث |
| --- | --- |
| ٢٧ | أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بالتوكل على الله وحده ألا يرهب الوعيد ولا التهديد |
| ٣١ | خلق السموات والأرض فى ستة أيام |
| ٣٣ | جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يتذكر |
| ٣٤ | أوصاف خُلّص عباده المؤمنين |
| ٣٦ | صفة مشى النبى صلى الله عليه وسلم |
| ٣٧ | سؤالهم صرف العذاب عنهم |
| ٣٨ | كل غريم يفارق غريمه إلا غريم جهنم |
| ٣٩ | سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أىّ الذنب أكبر ؟ |
| ٤٠ | ترغيب الأبرار فى التوبة |
| ٤١ | كان عمر بن الخطاب يجلد شاهد الزور أربعين جلدة |
| ٤١ | « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث » |
| ٤٢ | إحسان الله إلى عباده المتقين |
| ٤٢ | لولا عبادتكم ربكم لم يعبأ بكم |
| ٤٥ | الحروف المقطعة فى أوائل السور |
| ٤٦ | جرت سنة الله أن يكون الإيمان طوعا لا كرها |
| ٤٦ | إعراض المشركين عن النظر فى الآيات |
| ٤٨ | بشارة النبى صلى الله عليه وسلم بتأييده ونصره |
| ٤٨ | قصص موسى عليه السلام |
| ٤٩ | تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم بأن قومه ليسوا ببدع فى الأمم |
| ٥٠ | الأسباب التى جعلت موسى يطلب معونة هارون |
| ٥١ | تقريع فرعون لموسى على حسن صنيعه له |
| ٥٢ | قال موسى لفرعون إن أحسنتَ إلىّ فقد أسأتَ إلى شعبى |

الصفحة المبحث

٥٣ تعريف موسى لإلهه أمام فرعون
٥٤ بعد أن عجز فرعون عن دَحْض حجج موسى وصفه بالجنون
٥٥ تهديد فرعون لموسى بالسجن
٥٦ الأدلة التى أدلى بها موسى على صحة نبوته
٥٧ ما يروّيه فرعون . موقفه من موسى أمام شعبه
٥٨ المناظرة بين موسى والسحرة وفَلَج موسى عليهم
٦١ إيمان السحرة بموسى
٦٢ تهديد فرعون للسحرة على إيمانهم
٦٣ رد السحرة على تهديد فرعون
٦٥ أمر الله لموسى بالهجرة مع قومه من مصر
٦٥ ما جاء فى سفر الخروج من التوراة عن هذه الهجرة
٦٦ ماقوّى به فرعون جنده فى تعقبهم
٦٧ ما جازى الله به فرعون وقومه
٦٨ ما طمأن به موسى قومه حين خافوا من تعقبهم
٦٨ كيف نجى الله موسى وقومه
٦٩ قصص إبراهيم عليه السلام مع قومه
٧١ محاجة إبراهيم لقومه
٧٢ ما وصف به إبراهيم رب العالمين
٧٤ ما طلبه إبراهيم من ربه
٧٦ تقريب الجنة من المتقين والنار من الغاوين
٧٧ سؤال أهل النار سؤال تقريع

| الصفحة | المبحث |
|---|---|
| ٧٨ | ندم المشركين على ما كان قد فرط منهم |
| ٨٠ | قصص نوح عليه السلام مع قومه |
| ٨٢ | الحجة التى تذرعوا بها لعدم إجابتهم دعوته |
| ٨٣ | تهديدهم لنوح عليه السلام |
| ٨٤ | قصص هود عليه السلام مع قومه |
| ٨٦ | ما أنكره هود على قومه |
| ٨٧ | عظته لقومه على ما آتاهم من النعم |
| ٨٨ | بعد أن أنذرهم ووبخهم قابلوه بالإنكار |
| ٨٩ | قصص صالح عليه السلام مع قومه |
| ٩١ | ما خاطب به قومه محذرا لهم |
| ٩٢ | إجابتهم له على ما اقترحوه من الآيات |
| ٩٣ | قصص لوط عليه السلام مع قومه |
| ٩٤ | توبيخ لوط لقومه على قبيح أفعالهم |
| ٩٥ | إغاثة الله له بعد أن استغاثه |
| ٩٦ | ما كتبه الباحثون حديثا عن قرى قوم لوط |
| ٩٧ | رواية التوراة لقصة قوم لوط |
| ٩٨ | قصص شعيب عليه السلام مع قومه |
| ١٠٠ | نهيهم عن بخس الحقوق |
| ١٠٠ | قدحهم فى نبوة الرسول لأمرين |
| ١٠١ | ما نزل بهم من العذاب |

الصفحة المبحث

١٠٢ إخبار القرآن عن الغيب
١٠٣ القرآن ذكر فى الكتب السالفة
١٠٤ الرد على المشركين بأن لمحمد تابعا من الجن
١٠٥ بعث المشركون إلى أهل يثرب يسألونهم عن الرسول صلى الله عليه وسلم
١٠٦ تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم عن عدم إيمان قومه
١٠٧ طول العمر لا يدفع عنهم العذاب المنتظر
١٠٨ لا يهلك الله قرية إلا بعد إنذارها
١٠٩ إنذار النبى صلى الله عليه وسلم لقريش
١١١ أمر النبى صلى الله عليه وسلم بلين الجانب
١١٣ تنزل الشياطين على كل أفاك أثيم
١١٤ الشعراء يتبعهم الغاوون وذكر سبب ذلك
١١٥ كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحض على قول الشعر انتصارا للدين
١١٦ تحذير المشركين من سوء العاقبة
١١٧ خلاصة ما حوته سورة الشعراء
١١٨ أصح الأقوال فى فواتح السور
١١٩ لوازم الإيمان الصحيح
١٢٠ يحبب الله إلى من لا يؤمن بالآخرة سوء عمله
١٢٢ قصص موسى عليه السلام حين عودته من مدين
١٢٣ ما جاء فى التوراة عن ذلك
١٢٤ ما أراه ربه من الآيات الدالة على قدرته
١٥٣ قصص داود وسليمان عليهما السلام

| الصفحة | المبحث |
|---|---|
| ١٢٨ | كثير من العلماء الآن يهتمون بالبحث عن لغات الطيور والحشرات كالنمل والنحل |
| ١٢٩ | تذكرة وعبرة بالآية |
| ١٣٠ | تفقد سليمان للهدهد |
| ١٣٢ | وصف مملكة سبأ |
| ١٣٢ | كتاب سليمان لملكة سبأ وردها عليه |
| ١٣٥ | ما يدل عليه الكتاب على وجازته |
| ١٣٦ | طلبت بلقيس من أشراف قومها إبداء الرأى فى كتاب سليمان |
| ١٣٧ | تحذيرها قومها من حرب سليمان |
| ١٣٨ | لم يقبل سليمان عليه السلام هدية بلقيس |
| ١٤٠ | مجىء سليمان بعرش بلقيس |
| ١٤١ | من الذى عنده علم من الكتاب ؟ |
| ١٤٣ | ما فعلته بلقيس حين دخولها الصرح |
| ١٤٤ | ما أعده سليمان لنزول بلقيس |
| ١٤٥ | قصص ثمود مع صالح عليه السلام |
| ١٤٨ | توعدوا صالحا عليه السلام بعد أن توعدهم |
| ١٤٩ | ما قاله لوط لقومه ناصحا لهم |
| ١٥٠ | تأنيب قوم لوط على قبيح فعلهم |

# تفسير المراغي

تأليف

صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير المرحوم

أحمد مصطفى المراغي

أستاذ الشريعة الإسلامية واللغة العربية
بكلية دار العلوم سابقا

---

الجزء العشرون

---

دار احياء التراث العربي
بيروت

# الجزء العشرون

بسم الله الرحمن الرحيم

فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٥٦) فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ (٥٧) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ (٥٨).

## تفسير المفردات

يتطهرون : أى ينزهون أنفسهم ، ويتباعدون عما نفعله ، ويزعمون أنه من القاذورات ، قدّرنا : أى قضينا وحكمنا ، الغابرين : أى الباقين فى العذاب .

## المعنى الجملى

سبق أن بيّنا أن الذين قسموا القرآن إلى أجزائه الثلاثين لاحظوا العدّ اللفظى للحروف والكلمات والآيات ، ولم ينظروا إلى ارتباط المعانى بعضها ببعض ، ومن ثم نرى هنا أن الجزء قد انتهى قبل تمام قصة لوط وبدئ الجزء العشرون بتمام هذه القصة ، وقد بين فيها أن النصح لم يجدهم شيئا وعقدوا العزم على استعمال القوة فى إخراجه من

بين ظهرانيّهم ، ولم يكن لهم حجة على المعارضة إلا أن لوطا وقومه لا يريدون أن يشاركوهم فيما يفعلون تباعدا من الأرجاس ، وتلك مقالة قالوها على سبيل الاستهزاء بهم ، وقد نسوا أن هناك قوة أشد من قوتهم هى لهم بالمرصاد ، وأنها تمهلهم ولا تهملهم ، فلما حان حينهم جاءهم العذاب من حيث لا يشعرون ، وأهلك الله القوم الظالمين ، ونصر الحق وأزهق الباطل ، إن الباطل كان زهوقا .

## الإيضاح

( فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم ) أى فلم يكن جوابهم للوط إذ نهاهم عما أمره الله بنهيهم عنه من إتيان الذكور إلا قيل بعضهم لبعض: أخرجوا لوطا وأهله من قريتنا ، وقد عدّوا سكناه بينهم مِنّة ومكرُمة عليه إذ قالوا : من قريتكم .

ثم عللوا هذا الإخراج بقولهم استهزاء بهم :

( إنهم أناس يتطهرون ) أى إنهم يتحرّجون من فعل ما تفعلون ، ومن إقراركم على صنيعكم ، فأخْرِجوهم من بين أظهركم ، فإنهم لا يصلحون لجواركم فى بلدكم .

ولما وصلوا إلى هذا الحد من قبح الأفعال والأقوال دمّر الله عليهم وللكافرين أمثالها ، وإلى هذا أشار بقوله :

( فأنجيناه وأهله إلا امرأته قدرناها من الغابرين ) أى فأهلكناهم وأنجينا لوطا وأهله إلا امرأته جعلناها بتقديرنا وحكمتنا من الباقين فى العذاب ، لأنها كانت على طريقتهم راضية بقبيح أفعالهم وكانت ترشد قومها إلى ضيفان لوط ليأتوا إليهم ، لا أنها كانت تفعل الفواحش تكرمة لنبى الله صلى الله عليه وسلم ، لا كرامة لها .

ثم بين ما أُهْلِكُوا به فقال :

( وأمطرنا عليهم مطرا فساء مطر المنذرين ) أى وأمطرنا عليهم مطرا غير ما عهد

من نوعه ، فقد كان حجارة من سجيل ، فبئس ذلك المطر مطر الذين أنذرهم الله عقابا لهم على معصيتهم إياه ، وخوّفهم بأسه بإرسال الرسول إليهم .

---

قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (٥٩) أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (٦٠) أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٦١) أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٣) أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٦٤) .

## تفسير المفردات

العباد المصطفون : هم الأنبياء عليهم السلام ، الحدائق : البساتين واحدها حديقة ، والبهجة: الحسن والرونق ، يعدلون: من العدول وهو الانحراف ، قرارا : أى مستقرا ، الخلال : واحدها خَلل وهو الوسط ، رواسى : أى ثوابت أى جبالا ثوابت ، الحاجز : الفاصل بين الشيئين ، والمضطر : الذى أحوجته الشدة وألجأته الضراعة إلى الله ،

ويكشف : أي يرفع ، خلفاء : من الخلافة وهي الملك والتسلط ، يهديكم : أي يرشدكم ، بين يدى رحمته : أي أمام المطر .

## المعنى الجملى

بعد أن قص سبحانه على رسوله قصص أولئك الأنبياء السالفين ، وذكر أخبارهم الدالة على كمال قدرته وعظيم شأنه ، وعلى ما خصهم به من المعجزات الباهرة الناطقة بجلال أقدارهم ، وصدق أخبارهم ، وفيها بيان صحة الإسلام والتوحيد وبطلان الشرك والكفر، وأن من اقتدى بهم فقد اهتدى، ومن أعرض عنهم فقد تردّى فى مهاوى الردى ، ثم شرح صدره عليه الصلاة والسلام بما فى تضاعيف تلك القصص من العلوم الإلهية ، والمعارف الربانية ، الفائضة من عالم القدس مقررا بذلك قوله : « وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ » أردف هذا أمره عليه الصلاة والسلام بأن يحمده تعالى على تلك النعم، ويسلم على الأنبياء كافة عرفانا لفضلهم ، وأداء لحق تقدمهم واجتهادهم فى الدين ، وتبليغ رسالات ربهم على أكمل الوجوه وأمثل السبل ، ثم ذكر الأدلة على تفرده بالخلق والتقدير ووجوب عبادته وحده ، وأنه لا ينبغى عبادة شىء سواه من الأصنام والأوثان .

## الايضاح

( قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى ) أمر الله رسوله أن يحمده شكرا له على نعمه التى لا تُعَدّ ولا تحصى ، وأن يسلّم على عباده الذين اصطفاهم لرسالته ، وهم أنبياؤه الكرام ورسله الأخيار .

ومن تلك النعم النجاة والنصر والتأييد لأوليائه، وحلول الخزى والنكال بأعدائه .

ونحو الآية قوله : « سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ . وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » .

وفى هذا تعليم حسن ، وأدب جميل ، و بعث على التيمن بالذِّكْرَيْن والتبرك بهما ، والاستظهار بمكانهما ، على قبول مايلقَى إلى السامعين ، والإصغاء إليه ، و إنزاله من قلوبهم المنزلة التى يبغيها المستمع ، ولقد توارث العلماء والخطباء والوعاظ كابرا عن كابر : هذا الأدب ، فحمِدوا الله وصلّوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم أمام كل علم مفاد ، وقبل كل عظة ، وفى مُفْتَتَح كل خطبة ، وتبعهم المترسّلون فأجرَوْا عليه أوائل كتبهم فى الفتوح والتهانى وغير ذلك من الحوادث التى لها شأن .

ثم شرع يوبخ المشركين و يتهكم بهم و ينبههم إلى ضلالهم وجهلهم ، إذ آثروا عبادة الأصنام على عبادة الواحد القهار فقال :

( آلله خير أمّا يشركون ؟ ) أى آلله الذى ذكرت لكم شئونه العظيمة خير أم الذى تشركون به من الأصنام ؟ وفى ذلك مالا يخفى من تسفيه آرائهم ، وتقبيح معتقداتهم ، و إلزامهم الحجة ، إذ من البين أنه ليس فيما أشركوه به سبحانه شائبة خير حتى يوازن بينها و بين ماهو محض الخير ، فهو من وادى ماحكاه سيبو يه : تقول العرب : السعادة أحب إليك أم الشقاء ؟ وكما قال حسان يهجو أبا سفيان بن حرب و يمدح النبى صلى الله عليه وسلم :

أتهجوه ولستَ له بكفء　　فشركما لخيركما الفداء

وجاء فى بعض الآثار « أن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا قرأ هذه الآية قال : بل الله خير وأبقى ، وأجلّ وأكرم » .

ثم انتقل من التوبيخ تعريضا إلى التبكيت تصريحا فقال :

( أم من خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها ) أى أعبادة ماتعبدون أيها المشركون من أوثانكم التى لاتضر ولا تنفع خير ، أم عبادة من خلق السموات على ارتفاعها وصفائها وجعل فيها كواكب نيِّرة ونجوما زاهرة ، وأفلاكا دائرة ؟ وخلق الأرض وجعل فيها جبالا وأنهارا وسهولا وأوعارا ، وفيافى وقفارا ، وزروعا وأشجارا ، وحيوانات مختلفة

الأصناف والأشكال والألوان ، وأنزل لكم من السماء مطرا جعله رزقا للعباد ، فأنبت به بساتين مونقة تسر الناظرين؟ ولولاه ما نبت الشجر، ولا ظهر الثمر

ونحو الآية قوله : « وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ » وقوله : « وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللهُ » .

ثم زاد فى التوبيخ فنفى الألوهية عما يشركون بعد تبكيتهم على نفى الخيرية عنها فقال :

(أإله مع الله ؟) أى أإله غيره يقرّون به ، ويجعلونه شريكا له فى العبادة ، مع تفرده جل شأنه بالخلق والتكوين؟ ونحو الآية قوله : « وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ » .

ثم انتقل من تبكيتهم إلى بيان سوء حالهم فقال :

(بل هم قوم يعدلون) أى بل هؤلاء المشركون قوم دأبهم العدول عن طريق الحق ، والانحراف عن جادّة الاستقامة فى جميع شئونهم ، ومن ثمّ يفعلون ما يفعلون من العدول عن الحق الواضح وهو التوحيد ، ويعكفون على الضلال المبين وهو الإشراك.

وفى معنى الآية قوله : « أَمْ مَنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ » وقوله : « أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللهِ ، أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ » وقوله : « وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ » .

ثم أعاد التوبيخ بوجه آخر فقال :

(أم من جعل الأرض قرارا وجعل خلالها أنهارا وجعل لها رواسى وجعل بين البحرين حاجزا) أى أعبادة ما تشركون أيها الناس بربكم مع أنه لا يضر ولا ينفع خير ، أم عبادة الذى جعل الأرض مستقرا للإنسان والدواب ، وجعل فى أوسطها أنهارا تنتفعون بها فى شربكم وسقى أنعامكم ومزارعكم ، وجعل فيها ثوابت الجبال حتى لا تميد بكم ،

وحتى تنتفعوا بما فيها من المعادن المختلفة ، وقد أنزل الماء على شواهقها وجعل بين المياه العذبة والملحة حاجزا يمنعهما من الاختلاط حتى لا يفسد هذا بذاك ، والحكمة تقضى ببقاء كل منهما على حاله ، فالعذبة : لسقى الناس والحيوان والنبات والثمار ، والملحة: تكون مصادر للأمطار التى تجرى منها ، وكذلك هى وسيلة لإصلاح الهواء .

(أءله مع الله ؟) فى إبداع هذه الكائنات وإيجاد هذه الموجودات .

(بل أكثرهم لا يعلمون) أى بل أكثر هؤلاء المشركين لا يعلمون قدر عظمة الله وما عليهم من ضرّ فى إشراكهم غيره به ، وما لهم من نفع فى إفرادهم إياه بالألوهة ، وإخلاصهم العبادة له ، وبراءتهم من كل معبود سواه .

ثم زادهم توبيخا من وجه ثالث فقال :

(أم من يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض؟) أى أمن تشركون بالله خير أم من يجيب المكروب الذى يحوجه المرض أو الفقر أو النازلة من نوازل الدهر إلى اللَّجَأ والتضرع إليه إذا دعاه وقت اضطراره ، ويرفع عن الإنسان ما يسوءه من فقر أو مرض ، ويجعلكم خلفاء مَن قبلكم من الأمم فى الأرض فيورثكم إياها بالسكنى والتصرف فيها ؟ .

وجاء رجل إلى مالك بن دينار فقال : أسألك بالله أن تدعو لى فأنا مضطر قال : إذاً فاسأله فإنه يجيب المضطر إذا دعاه ، وقال الشاعر :

وإنى لأدعو اللهَ والأمر ضيّق ... علىّ فما ينفك أن يتفرّجا
ورب أخ سُدَّت عليه وجوهه ... أصاب لها لمَّا دعا الله مخرجا

وعن أبى بكرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى دعاء المضطر : « اللهم رحمَتَكَ أرجو ، فلا تَكِلْنى إلى نفسى طرفة عين ، وأصلِحْ لى شأنى كله ، لا إله إلا أنت » .

وجاء فى الخبر : « ثلاث دعوات مستجابات لا شك فيهن ، دعوة المظلوم ، ودعوة المسافر ودعوة الوالد على ولده » .

وفى صحيح مسلم أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لمعاذ لما وجهه إلى أرض اليمن : « واتق دعوة المظلوم فليس بينها و بين الله حجاب » .

( أءله مع الله ؟ ) الذى هذه شئونه ، وتلك نعمه ؟ .

ثم بين أن من طبيعة الإنسان ألا يتذكر نعم الله عليه إلا قليلا ، و إلى ذلك أشار بقوله :

( قليلا ماتذكرون ) أى قليلا ماتتذكرون نعم الله عليكم ، وأياديه عندكم ، ومن ثَمّ أشركتم به غيره فى العبادة .

ثم زادهم تأنيبا وتهكما من ناحية أخرى فقال :

( أم من يهديكم فى ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته ) أى أمن تشركون بالله خير ، أم من يرشدكم فى ظلمات البر والبحر إذا أظلمت عليكم السبل فضلَلْتم الطريق ـ بماخلق من الدلائل السماوية كما قال : « وَعَلاَمَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ » وقال : «وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ » ومن يرسل الرياح أمام الغيث الذى يحيى موات الأرض .

ولما اتضحت الأدلة ولم يبق لأحد فى ذلك عذر ولاعلة قال :

( أءله مع الله ؟ ) فعل هذا ؟ .

ثم أكد هذا النفى وقرره بقوله :

(تعالى الله عما يشركون) أى تنزه ربنا المنفرد بالألوهية ، ومن له صفات الكمال والجلال ، ومن تخضع له جميع المخلوقات ، وتذِلّ لقهره وجبروته ـ عن شرككم الذى تشركونه به وعبادتكم معه ماتعبدون .

ثم أضاف إلى ذلك برهانا آخر لعلهم يرتدعون عن غيهم فقال :

(أم من يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض) أى أما تشركون به خير أم الذى ينشىء الخلق بادىء بدء ويبتدعه من غير أصل سلف ، ثم يفنيه إذا

شاء ، ثم يعيده إذا أراد كهيئته قبل أن يفنيه ، وهو الذى يرزقكم من السماء والأرض فينزل من الأولى غيثا و ينبت من الثانية نباتا لأقواتكم وأقوات أنعامكم .

وهم و إن كانوا ينكرون الإعادة والبعث لم يلتفت إلى ذلك الإنكار لظهور أدلته فلم يبق لهم عذر فيه .

و بعد أن وضح الدليل على نفى الشريك بكّتهم وقال :

( أءله مع الله ؟)يفعل هذا حتى يُجْعل شريكا له ؟

و بعد أن ذكر البرهان تلو البرهان وأوضح الحق حتى صار كفلَق الصبح زاد فى التهكم بهم والإنكار عليهم والتسفيه لعقولهم ، فأمر رسوله أن يطلب منهم البرهان على صدق ما يدّعون . فقال :

( قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ) أى قل لهم أيها الرسول : هاتوا الدليل على وجود ما تزعمون من الشركاء إن كان ما تقولونه حقا وصدقا .

---

قُلْ لاَ يَعْلَمُ مَنْ فِى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللهُ ، وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (٦٥) بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِى الآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ (٦٦) .

## تفسير المفردات

أيان : أى متى ، يبعثون : أى يقومون من القبور للحساب والجزاء ، أدّارك : أى تدارك وتتابع والمراد التتابع فى الاضمحلال والفناء ، فى شك : أى فى حيرة عظيمة ، عمون : واحدهم عم وهو أعمى القلب والبصيرة .

## المعنى الجملى

بعد أن أثبت تفرده بالألوهية ، لاختصاصه بالقدرة التامة ، والرحمة العامة ــ أعقب هذا بذكر لوازمها وهواختصاصه بعلم الغيب ، تكميلا لما قبله وتمهيدا لما بعده من أمر البعث

( قل لايعلم من فى السموات والأرض الغيب إلا الله ) يقول سبحانه آمرا رسوله صلى الله عليه وسلم أن يُعْلِم جميع خلقه أنه لايعلم الغيب أحد من أهل السموات والأرض، بل الله وحده هو الذى يعلم ذلك كما قال : « وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إلاَّ هُوَ » الآية . وقال : « إنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ » الآية .

والمراد بالغيب الشئون التى تتعلق بأمور الآخرة وأحوالها ، وشئون الدنيا التى لاتقع تحت حِسِّنا وليست فى مقدورنا .

وعن مسروق عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : من زعم أن النبى صلى الله عليه وسلم يعلم مايكون فى غد فقد أعظم الفرية على الله ، لأن الله يقول : « قل لايعلم من فى السموات والأرض الغيب إلا الله » .

ثم ذكر بعض ذلك الغيب فقال :

( وما يشعرون أيان يبعثون ) أى ومايدرى من فى السموات والأرض من خلقه متى هم مبعوثون من قبورهم لقيام الساعة كما قال : « ثَقُلَتْ فى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ لاَ تَأْتِيكُمْ إلاَّ بَغْتَةً » أى ثقل علمها على أهل السموات والأرض فلا يشعرون بها، بل تأتيهم فجأة .

ثم أكد جهلهم بهذا اليوم بقوله :

( بل ادّارك علمهم فى الآخرة ) أى بل انتهى علمهم وعجزهم عن معرفة وقتها فلم يكن لهم علم بشىء مما سيكون فيها قطعا مع توافر أسباب العلم ، وليس المراد أنه كان لهم علم بوقتها على الحقيقة فانتفى شيئا فشيئا ، بل المراد أن أسباب العلم ومبادئه من الدلائل العقلية والنقلية ضعفت فى اعتبارهم شيئا فشيئا كلما تأملوا فيها حتى لم يعد لها قيمة وكأن لم تكن .

ثم انتقل من وصفهم بالجهل بميقاتها إلى الحيرة فى الآخرة نفسها ، أتكون أو لا تكون ؟ فقال :

( بل هم فى شك منها ) أى بل هم فى حيرة عظيمة من تحققها ووجودها ، أ كائنة هى أم غير كائنة ؟ كمن يحار فى الأمر لا يجد عليه دليلا ، فضلا عن تصديق ما سيحدث فيها من شئون أخبرت عنها الكتب السماوية كالثواب والعقاب ، والنعيم والعذاب والأهوال التى لا يدرك كنهها العقل .

ثم ارتقى من وصفهم بالشك فى أمرها إلى وصفهم بالعمى واختلال البصيرة بحيث لا يدركون الدلائل التى تدل على أنها كائنة لا محالة فقال:

( بل هم منها عمون ) أى بل هم فى عماية وجهل عظيم من أمرها ، وعن كل ما يوصلهم إلى الحق فى شأنها ، والنظر فى دلائلها .

---

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ (٦٧) لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٦٨) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (٦٩) وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ (٧٠) وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٧١) قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ (٧٢) وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَشْكُرُونَ (٧٣) وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٤) وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٧٥) .

## المعنى الجملى

بعد أن ذكر عزّ اسمه فيما سلف جهلهم بالآخرة وعماهم عنها — أردف ذلك بيان ذلك وإيضاحه بأنهم ينكرون الإخراج من القبور بعد أن صاروا ترابا ، وأنهم قالوا

تلك مقالة سمعناها من قبل ، وما هى إلا أسطورة من أساطير الأولين وخرافاتهم ، ثم أمر الله رسوله أن يرشدهم إلى صدق هذا بالسير فى الأرض حتى يروا عاقبة المجرمين، بسبب تكذيبهم للرسل فيما دعوهم إليه من الإيمان بالله واليوم الآخر ، ثم صبّر سبحانه رسوله على ما يناله من أذى المشركين ، ووعده بالنصر عليهم، ثم ذكر أنهم مكذبون بالساعة وغيرها من العذاب والجزاء الموعود، وأنهم يسألون عن ذلك سخرية واستهزاء، وأجابهم بأن العذاب سينزل بهم قريبا ، ثم ذكر فضله على عباده بأنه لا يعجّل لهم العذاب مع استحقاقهم له ، إذ هم لا يشكرونه على ذلك ، ثم بين أنه تعالى عليم بالسر والنجوى ، وأنه مطلع على ما تكنّه القلوب ، وأنه ما من شىء مهما خفى فالله عليم به وهو مثبت عنده فى كتاب مبين .

## الإيضاح

( وقال الذين كفروا أئذا كنا ترابا وآباؤنا أئنا لمخرجون ) أى وقال الكافرون بالله المكذبون لرسله ، أئنا لمخرجون من قبورنا أحياء كهيئتنا من بعد مماتنا وبعد أن بلينا وكنا فيها ترابا ؟

وهذا منهم استبعاد لإعادة الأجسام بعد صيرورتها عظاما ورفاتا .

ثم ذكروا شبهتهم على استبعاده فى زعمهم فقال :

( لقد وعدنا هذا نحن وآباؤنا من قبل ) أى إنا مازلنا نسمع بهذا نحن وآباؤنا ولا نرى تحقق ذلك ولا وقوعه .

ثم أكدوا هذا الاستبعاد بقولهم :

( إن هذا إلا أساطير الأولين ) أى ما هذا الوعد إلا أسطورة مما سطّره الأولون من الأكاذيب فى كتبهم من غير أن يكون لهم بينة على إمكان تحققه ووجوده .

ثم أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يرشدهم إلى وجه الصواب مع التهديد والوعيد فقال :

( قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين ) أى قل لهؤلاء المكذبين بما جئتهم به من الأنباء من عند ربك : سيروا فى الأرض فانظروا إلى ديار من كان قبلكم من المكذبين ، كيف هى ؟ ألم يخرّبها الله ويهلك أهلها بتكذيبهم رسلهم ، وردّهم عليهم نصائحهم، فخلت منهم الديار ، وعفت منها الرسوم والآثار، وكان ذلك عاقبة إجرامهم ، وتلك سنة الله فى كل من سلك سبيلهم فى تكذيب رسله ، وسيفعل ذلك بكم إن أنتم لم تبادروا إلى الإنابة من كفركم وتكذيبكم رسوله .

ثم سلّى رسوله صلى الله عليه وسلم على ماينالَه من عماهم عن السبيل ، الذى هدى إليه الدليل فقال :

( ولا تحزن عليهم ولا تكن فى ضيق مما يمكرون ) أى ولا تحزن على إدبار هؤلاء المشركين عنك وتكذيبهم لك ، ولا يضق صدرك من مكرهم ، فإن الله ناصرك عليهم ، ومظهر دينك على من خالفه فى المشارق والمغارب .

ثم أشار إلى أنهم لم يَقْصُروا إنكارهم على الساعة ، بل كان إنكارهم لغيرها من عذاب الله أشد بقوله :

( ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ) أى ويقول مشركو قريش المكذبون بما أتيتهم به من عند ربك : متى يكون هذا العذاب الذى تعدنا به ؟ إن كنتم صادقين فيما تدّعون ؟ .

ثم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجيبهم فقال :

( قل عسى أن يكون ردف لكم بعض الذى تستعجلون ) أى قل لهم: عسى أن يلحقكم ويصل إليكم بعض ماتستعجلون حلوله من العذاب ، والمراد به ماحل بهم يوم بدر من النكال والوبال .

قال صاحب الكشاف : عسى ولعل وسوف ، فى وعد الملوك ووعيدهم تدل على صدق الأمر وجدِّه ، ومالا مجال للشك بعده ، وإنما يعنون بذلك إظهار وقارهم ،

وأنهم لايعجّلون بالانتقام لإدلالهم بقهرهم وغلبتهم وتوقعهم أن عدوهم لايفوتهم وأن الرمزة إلى الأغراض كافية من جهتهم ، وعلى ذلك جرى وعد الله ووعيده اهـ .

ثم بين سبحانه السبب فى ترك تعجيل العذاب فقال :

( وإن ربك لذو فضل على الناس، ولكن أكثرهم لايشكرون ) أى وإن ربك لهو المنعم المتفضل على الناس جميعا بتركه المعاجلة بالعقوبة على المعصية والكفر؛ ولكن أكثرهم لايعرفون حق فضله عليهم . فلا يشكره إلا القليل منهم .

ثم أبان سبحانه أنه مطَّلع على مافى قلوبهم فقال :

( وإن ربك ليعلم ماتكنّ صدورهم ومايعلنون ) يقال كننت الشيء وأكننته : إذا سترته وأخفيته ، أى إن ربك يعلم الضمائر والسرائر كما يعلم الظواهر كما قال : « سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ » وقال « وَيَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى » .

وقصارى ذلك — إنه يعلم مايخفون من عداوة الرسول ومكايدهم له ومايعلنون ، وهو محصيها عليهم ومجازيهم بذلك .

ثم ذكر أن كل مايحصل فى الوجود فهو محفوظ فى اللوح المحفوظ فقال :

( ومامن غائبة فى السماء والأرض إلا فى كتاب مبين ) أى ومامن أمر مكتوم وسر خفى يغيب عن الناظرين فى السماء أو فى الأرض إلا وهو فى أم الكتاب الذى أثبت ربنا فيه كل ماهو كائن من ابتداء الخلق إلى يوم القيامة ، وهو بيِّن لمن نظر إليه وقرأ مافيه ، مما أثبته ربنا جلت قدرته .

ونحوه : « أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ ، إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ » .

---

إِنَّ هَـٰذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٧٦) وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (٧٧) إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي

بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (٧٨) فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ (٧٩) إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (٨٠) وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ (٨١) .

## المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه ما يتعلق بالنشأة الأولى وأنه خلق الإنسان من صلصال من حمأ مسنون ، وما يتصل بالبعث والنشور وأقام على ذلك الدليل يتلو الدليل بما لم يبق بعده مستزاد لمستزيد ــ أردف ذلك الكلام فى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وأقام الأدلة على صحتها وصدق دعواه فيما يدَّعِى ، وكان من أعظم ذلك القرآن الكريم ، لاجرم بين الله تعالى إعجازه من وجوه :

(١) إن ما فيه من القصص موافق لما فى التوراة والإنجيل مع أنه صلى الله عليه وسلم كان أميا ولم يخالط أحدا من العلماء للاستفادة والتعلم ، فلا يكون ذلك إذاً إلا من وحى إلٰهى من لدن حكيم خبير .

(٢) إن ما فيه من دلائل عقلية على التوحيد والبعث والنبوة والتشريع العادل المطابق لحاجة البشر فى دنياهم وآخرتهم ــ لا يوجد له نظير فى كتاب آخر ، فلا بد أن يكون ذلك من عند الله .

(٣) إنه قد بلغ الغاية فى الفصاحة والبلاغة حتى لم يستطع أحد أن يتصدى لمعارضته مع حرصهم عليها أشد الحرص ، فدل ذلك على أنه خارج عن قوى البشر ، وأنه من من الملإ الأعلى ومن لدن خالق القوى والقُدَر .

ثم ذكر بعد ذلك أنه جاء حكما على بنى إسرائيل فيما اختلفوا فيه ، فأبان لهم الحق فى هذا كاختلافهم فى أمر المسيح ، فمن قائل هو الله ، ومن قائل هو ابن الله ، ومن قائل

إنه ثالث ثلاثة ، وقوم يقولون إنه كاذب فى دعواه النبوة ، كما نسبوا مريم إلى ماهى منزهة عنه، وقالوا إن النبى المبشّر به فى التوراة هو يوشع عليه السلام أوهو نبى آخر يأتى آخر الدهر . إلى نحو ذلك مما اختلفوا فيه ، وأنه لايحكم إلا بالعدل ، فقوله الحق وقضاؤه الفصل .

ثم أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يتوكل عليه فإنه حافظه وناصره ، وأن يعرض عن أولئك الذين لايستمعون لدعوته ، لأنهم صم بكم لايعقلون ، والذكرى لاتنفع إلامن له قلب يعى، وآذان تسمع دعوة الداعى إلى الحق فتستجيب لها .

## الايضاح

( إن هذا القرآن يقص على بنى إسرائيل أكثر الذى هم فيه يختلفون ) أى إن هذا القرآن الذى أنزلته إليك أيها الرسول يقص على بنى إسرائيل الحق فى كثير مما اختلفوا فيه ، وكان عليهم لو أنصفوا أن يتبعوه ، لكنهم لم يفعلوا وكابروا مع وضوح الحق وظهور دليله كما تفعلون أنتم أيها المشركون .

ثم وصف القرآن بقوله :

( وإنه لهدى ورحمة للمؤمنين ) أى وإنه لهاد للمؤمنين إلى سبيل الرشاد ، ورحمة لمن صدّق به وعمل بما فيه .

وبعد أن ذكر فضله وشرفه أتبعه دليل عدله فقال :

( إن ربك يقضى بينهم بحكمه وهو العزيز العليم) أى إن ربك يقضى بين المختلفين من بنى إسرائيل بحكمه العادل ، فينتقم من المبطل منهم ، ويجازى المحسن بما يستحق من الجزاء ، وهو العزيز الذى لايُردّ حكمه وقضاؤه ، العليم بأفعال العباد وأقوالهم ، فقضاؤه موافق لواسع علمه .

وبعد أن أثبت لنفسه العلم والحكمة والجبروت والقدرة أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يتوكل عليه وحده فقال :

( فتوكل على الله ) أى ففوض إلى الله جميع أمورك وثق به فيها ، فإنه كافيك كل ماأهمك ، وناصرك على أعدائك ، حتى يبلغ الكتاب أجله .

ثم علل هذا بقوله :

( إنك على الحق المبين ) أى أنت على الحق المبين،و إن خالفك فيه من خالفك ممن كُتب عليه الشقاء : «إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ » .

ثم أيأسه من إيمان قومه وأنه لاأمل فى استجابتهم لدعوته فقال:

( إنك لاتسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين ) أى إنك لاتقدر أن تُفْهِمَ الحق من طبع الله على قلوبهم فأماتها ، ولا أن تسمعه من أصمهم عن سماعه ، ولا سيما أنهم مع ذلك معرضون عن الداعى ، مولّون على أدبارهم ، وإنما شبههم بالموتى لعدم تأثرهم بما يتلى عليهم ، وشبههم بالصم البكم ليبين أنه لاأمل فى استجابتهم للدعوة ، لأن الأصم الأبكم لايسمع الداعى بحال .

وظاهر نفى سماع الموتى العموم ، فلا يُخص منه إلا ماورد بدليل .

كما ثبت فى الصحيح «أنه صلى الله عليه وسلم خاطب القتلى فى قَليب (بئر) بدر فقيل له : يارسول الله إنما تكلم أجسادا لا أرواح لها ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : والذى نفس محمد بيده ماأنتم بأسمع لما أقول منهم » . أخرجه مسلم .

وكما ثبت أن الميت يسمع قرع نعال المشيعين له إذا انصرفوا عنه .

وقصارى ماسلف — إنه تعالى أمره بالتوكل عليه والإعراض عما سواه ، لأنه على الحق المبين ومن سواه على الباطل ، ولأنه تعالى مؤيده وناصره ، ولأنه لامطمع فى مشايعة المشركين ومعاضدتهم ، لأنهم كالموتى وكالصم البكم ، فلا أمل فى استجابتهم للدعوة ، ولا فى قبولهم للحق .

ثم أكد ماسلف وقطع أطماعه فى إيمانهم على أتم وجه فقال :

(وما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم) أى أنت أيها الرسول لاتستطيع أن تصرف العُمْىَ عن ضلالتهم وتهديهم إلى الطريق السوىّ ، والمراد أنك لاتهدى من أعماهم الله عن الهدى والرشاد ، فجعل على أبصارهم غشاوة تمنعهم عن النظر فيما جئت به نظرا يوصلهم إلى معرفة الحق وسلوك سبيله .

ثم زاد ذلك توكيدا فقال :

(إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون) أى إنما يستجيب لك من هو نافذ البصيرة ، خاضع لربه ، متبتل إليه ، مجيب لدعوة رسله .

الخلاصة — إنك لاتقدر أن تفهم الحق وتسمعه إلا من يصدقون بآياتنا وحججنا ، فإنهم هم الذين يسمعون منك ماتقول ، ويتدبرونه ويعملون به ، إذ هم ينقادون للحق فى كل حين .

---

وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ (٨٢) وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ (٨٣) حَتَّى إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِى وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّا ذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٨٤) وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ (٨٥) أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ، إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٨٦) وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِى الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِى السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِى الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ (٨٧) وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ، صُنْعَ اللَّهِ الَّذِى أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ، إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ (٨٨)

مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْها وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ (٨٩) وَمَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٠) .

## تفسير المفردات

وقع : حدث وحصل ، والمراد من القول : مادل من الآيات على مجىء الساعة ، تكلمهم : أى تنبئهم وتخبرهم ، نحشر : أى نجمع ، فوجا : أى جماعة من الرؤساء ، يوزعون : أى يحبس أولهم على آخرهم حتى يتلاحقوا ويجتمعوا فى موقف التوبيخ والمناقشة، ولم تحيطوا بها علما : أى ولم تدركوا حقيقة كنهها ، ألم يروا : أى ألم يعلموا ، ليسكنوا فيه : أى ليستريحوا فيه ويهدءوا ، مبصرا : أى ليبصروا بما فيه من الإضاءة طرق التقلب فى أمور معاشهم ، الصور : البوق ، داخرين : أى أذلاء صاغرين ، جامدة : أى ثابتة فى أماكنها ، أتقن : أى أحكم ، يقال رجل تقن (بكسر التاء وسكون القاف ) أى حاذق بالأشياء ، الحسنة: الإيمان وعمل الصالحات ، والسيئة : الإشراك بالله والمعاصى ، كبت : أى ألقيت منكوسة .

## المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه مايدل على كمال علمه وقدرته ، وأبان بعدئذ إمكان البعث والحشر والنشر ، ثم فصل القول فى إعجاز القرآن ، ونبه بذلك إلى إثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ـ أردف ذلك ذكر مقدمات القيامة وما يحدث من الأهوال حين قيامها ، فذكر خروج دابة من الأرض تكلم الناس أنهم كانوا لايؤمنون بآيات ربهم ، وأنه حينئذ ينفخ فى الصور ، فيفزع من فى السموت ومن فى الأرض إلا من شاء الله ، وأن الجبال تجرى وتمر مر السحاب ؛ ثم بين أحوال المكلفين بعد ذلك وجعلهم

قسمين : مطيعين يعملون الحسنات فيثابون عليها بما هو خير منها ويأمنون الفزع والخوف ساعتئذ ، وعاصين يُكَبُّون فى النار على وجوههم ويقال لهم حينئذ هذا جزاء ما كنتم تعملون .

## الايضاح

( و إذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون ) يخبر سبحانه بأنه حين فساد الناس وتركهم أوامره وتبديلهم الدين الحق قرب مجىء الساعة ــ تخرج دابة من الأرض تحدّث الناس بأنهم كانوا لا يوقنون بآياته الدالة على مجىء الساعة ومقدّماتها.

والمقصود من هذا التحديث : التشنيع عليهم بهذه المقالة ، وفى التعبير بكلمة ( الناس ) الإشارة إلى كثرتهم وأنهم جَمٌّ غفير منهم .

وماجاء فى وصف الدابة والمبالغة فى طولها وعرضها ، وزمان خروجها ومكانه ــ مما لا يركن إليه ، فإن أمور الغيب لا يجب التصديق بها إلا إذا ثبتت بالدليل القاطع عن الرسول المعصوم .

ثم بين سبحانه حال المكذبين حين مجىء الساعة بعد بيان بعض مباديها وأشراطها فقال :

( ويوم نحشر من كل أمة فوجا ممن يكذب بآياتنا فهم يوزعون ، حتى إذا جاءوا قال أكذبتم بآياتى ولم تحيطوا بها علما أم ماذا كنتم تعملون ؟ ) أى ويوم نجمع من كل أهل قرن جماعة كثيرة ممن كذبوا بآياتنا ودلائلنا ، ونحبس أولهم على آخرهم ، ليجتمعوا فى موقف التوبيخ والإهانة ، حتى إذا جاءوا ووقفوا بين يدى الله فى مقام السؤال والجواب ، ومناقشة الحساب ، قال لهم ربهم مؤنبا وموبخا لهم على تكذيبهم : أكذبتم بآياتى الناطقة بلقاء يومكم هذا بادى الرأى غير ناظرين فيها نظرا يوصلكم إلى العلم بحقيقتها ، أم ماذا كنتم تعملون فيها من تصديق وتكذيب ؟ .

( ووقع القول عليهم بما ظلموا فهم لاينطقون ) أى وحلّ بأولئك المكذبين بآيات الله — السخط والغضب بتكذيبهم بها . فهم لاينطقون بحجة يدفعون بها عن أنفسهم عظيم ما حل بهم من العذاب الأليم .

ونحو الآية قوله : « هَذَا يَوْمُ لاَ يَنْطِقُونَ ، وَلاَ يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ » .

و بعد أن خوّفهم من أهوال يوم القيامة ذكر الدليل على التوحيد والحشر والنبوة فقال :

( ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصرا ) أى ألم ير هؤلاء المكذبون بآياتنا تصريفنا الليل والنهار ومخالفتنا بينهما بجعل ذاك سكنا لهم يسكنون فيه ، و يهدءون راحة لأبدانهم من تعب التصرف والتقلب نهارا ، وجعل هذا مضيئا يبصرون فيه الأشياء و يعاينونها ، فيتقلبون فيه لمعايشهم — فيتفكرون فى ذلك ويتدبرون ويعلمون أن مصرّف ذلك كذلك ، هو الإله الذى لايعجزه شىء ، ولا يتعذر عليه إماتة الأحياء ، و إحياء الأموات بعد الممات .

وفى ذلك أيضا دليل على النبوة ، لأنه كما يقلب الليل والنهار لمنافع المكلفين ففى بعثة الأنبياء منافع عظيمة للناس فى دنياهم ودينهم ، فما المانع إذاً من بعثهم إليهم ؟ بل الحاجة إلى ذلك مُلِحَّة .

( إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون ) أى إن فيما ذكر لدلالة على قدرته على البعث بعد الموت ، وعلى توحيده لمن آمن به وصدّق برسله ، فإن من تأمل فى تعاقبهما واختلافهما على وجوه بديعة مبنية على حكم تحار فى فهمها العقول ، ولايحيط بعلمها إلا الله وشاهَد فى الآفاق تبدل ظلمة الليل الحالكة المشابهة للموت، بضياء النهار المضاهى للحياة، وعاين فى نفسه تبدل النوم الذى هو أخو الموت بالانتباه الذى هو مثل الحياة — قضى بأن الساعة آتية لاريب فيها ، وأن الله يبعث من فى القبور ، وجزم بأن الله جعل هذا دليلا على تحققه ، وأن الآيات الناطقة به حق ، وأنها من عند الله .

و بعد أن ذكر الحشر الخاصّ وأقام الدليل عليه — ذكر الحشر العام فقال :

( و يوم ينفخ فى الصور ففزع من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ) أى واذكر أيها الرسول لهم هول يوم النفخ فى الصور ، إذ يفزع من فى السموات ومن في الأرض ، لما يعتريهم من الرعب حين البعث والنشور ، بمشاهدة الأهوال الخارقة للعادة فى الأنفس والآفاق ، إلا من ثبّت الله قلبه .

و يرى أكثر أهل العلم أن هنالك نفختين ، نفخة الفزع المذكورة فى هذه الآية وهى نفخة الصعق المذكورة فى قوله تعالى : « وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ » لأن كلا الأمرين الفزع والخوف ، والصعق وهو الموت يحصلان بها ، ونفخة البعث المذكورة فى قوله تعالى : « وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ » .

( وكل أتوه داخرين ) أى وكل هؤلاء الفزعين المبعوثين ، حين النفخة يحضرون الموقف بين يدى رب العزة للسؤال والجواب ، والمناقشة والحساب ، أذلاء صاغرين ، لا يتخلف أحد عن أمره كما قال : « يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ » .

وقال : « ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ » وقال : « يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ » .

ولما ذكر دخورهم أتبعه بدخور ما هو أعظم منهم فقال :

( وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب ) أى وترى الجبال كأنها ثابتة باقية على ما كانت عليه وهى تزول عن أماكنها وتسير حثيثا كمر السحاب ، لأن الأجرام الكبار إذا تحركت فى سمت واحد لا تكاد تبين حركتها .

ونحو الآية قوله : « يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا . وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا » وقوله : « وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً » وقوله : « وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا » وهذا يقع بعد النفخة الثانية عند حشر الخلق ، فيبدل الله الأرض غير الأرض ويغير هيئتها ويسيّر الجبال عن مقارّها ليشاهدها أهل المحشر ، وهى وإن

دكت عند النفخة الأولى ، فتسييرها إنما يكون لدى النفخة الثانية كما نطق به قوله : « فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا » وقوله : « يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ » .

ثم علل إمكان ذلك وسرعة حصوله بقوله :

( صنع الله الذى أتقن كل شىء ) أى ذلك الصنع العظيم صنع الله الذى أحكم كل شىء وأودع فيه من الحكمة ماأودع .

ثم علل ماتقدم من النفخ فى الصور والقيام للحساب ومجازاة العباد على أعمالهم بقوله :

( إنه خبير بما تعملون ) أى إنه تعالى ذو علم وخبرة بما يفعل عباده من خير وشر ، وطاعة ومعصية ، وهو مجازيهم على ذلك أتم الجزاء .

ثم بين حال السعداء والأشقياء يومئذ فقال :

( من جاء بالحسنة فله خير منها ) أى من آمن بالله وعمل صالحا فله على ذلك جزيل الثواب من عند ربه فى جنات النعيم ، يأمن من الفزع الأكبر يوم القيامة كما جاء فى الآية : « لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ » وقال : « أَفَمَنْ يُلْقَى فِى النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِى آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؟ » وقال : « وَهُمْ فِى الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ » وقد صح تفسير الحسنة هنا بشهادة أن لاإله إلا الله ، على مارواه ابن عباس وابن مسعود ومجاهد والحسن .

( ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم فى النار ) أى ومن أشركوا بالله وعملوا السيئات يُكَبُّون على وجوههم فى جهنم ويطرحون فيها .

ونحو الآية قوله : « فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ » .

ثم ذكر مايقال لهم حينئذ فقال :

( هل تجزون إلا ما كنتم تعملون ؟ ) أى ويقال لهم : هل هذا إلا جزاء ما كنتم تعملون فى الدنيا ، مما يسخط ربكم ويغضبه منكم من شرك به ومعصية له .

إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩١) وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ، وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ (٩٢) وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ٩٣

## تفسير المفردات

البلد: هى مكة ، أتلو القرآن : أى أواظب على تلاوته ، من المنذرين : أى المخوفين قومهم من عذاب الله .

## المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه أحوال المبدإ والمعاد ، وفصّل أحوال القيامة — أمر رسوله أن يقول لهؤلاء المشركين هذه المقالة تنبيها لهم إلى أنه قد تمّ أمر الدعوة بما لامزيد عليه ، ولم يبق له بعد ذلك شأن سوى الاشتغال بعبادة الله والاستغراق فى مراقبته ، غير مبال بهم ضلُّوا أو رشدوا ، صلَحوا أو فسدوا ، إثارة لهممهم بألطف وجه إلى تدارك أحوالهم وتحصيل ماينفعهم ، والتدبر فيما يقرع أسماعهم من باهر الآيات التى تكفى فى إرشادهم ، وتشفى عللهم وأمراضهم .

## الإيضاح

( إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذى حرمها ) أى قل لهم أيها الرسول إنما أمرت أن أعبد رب مكة التى حرم على خلقه أن يسفكوا فيها دما حراما أو يظلموا فيها أحدا . وخصها بالذكر لأن أول بيت للعبادة كان فيها — دون الأوثان التى تعبدونها كما قال : « فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ . الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ . وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ » .

وفى هذا تأنيب لهم على ما يفعلون من أنواع الفجور وفظيع المنكرات ، فإنهم قد تركوا عبادة رب مكة ، ونصبوا الأوثان فيها ، وعكفوا على عبادتها .

( وله كل شىء ) خلقا وملكا وتصرفا دون أن يشركه فى ذلك أحد .

( وأمرت أن أكون من المسلمين ) أى وأمرنى ربى أن أسلم وجهى له ، فأكون من الموحدين المخلصين المنقادين لأمره المخبتين له فى الطاعة .

ونحو الآية قوله : « قُلْ إِنَّنِى هَدَانِى رَبِّى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ » .

( وأن أتلو القرآن ) آناء الليل وأطراف النهار ، لتنكشف لى أسراره المخزونة فى تضاعيفه ، وأستطلع أدلة الكون المتفرقة فى آيه ، فأعرف حقائق الحياة ، وسر الوجود ، ويفاض علىّ من فيوضاته الإلهية ، وأسراره القدسية ما شاء الله أن يفيض .

وقد روى «أنه صلى الله عليه وسلم قام ليلة يصلى فقرأ قوله تعالى « إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ » فما زال يكررها ويظهر له من أسرارها ما يظهر ، ويتجلى له من مقاصدها ما تسمو به نفسه إلى الملإ الأعلى حتى طلع الفجر » .

ونحو الآية : « ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ » .

( فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ) أى فمن اتبعنى واهتدى بهديى وآمن بى وبما جئت به فقد سلك سبيل الرشاد ، وأمن نقمة ربه فى الدنيا وعذابه فى الآخرة .

( ومن ضل فقل إنما أنا من المنذرين ) أى ومن جار عن قصد السبيل بتكذيبه بى وبما جئت به من عند الله ، فقل إنما أنا من المنذرين فحسب ، وقد خرجت من عهدة الإنذار ، وليس علىّ من وبال ضلالكم من شىء ، فإن قبلتم وانتهيتم عما يكرهه ربكم من الشرك ، فحظوظَ أنفسكم تصيبون ، وإن كذبتم وأعرضتم عما أدعوكم إليه فعلى أنفسكم تجنون ، وقد بلّغتكم ما أُمرت بإبلاغه إياكم .

ونحو الآية قوله : « فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ » وقوله : « إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ ، وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ » .

ثم أمره سبحانه بترغيب قومه وترهيبهم فقال :

( وقل الحمد لله ) أى وقل الحمد لله على ما أفاض علىّ من نعمائه التى من أجلّها نعمة النبوة المستتبعة لضروب من النعم الدينية والدنيوية ، ووفقنى لتحمل أعبائها وتبليغ أحكامها ، بالآيات البينة، والبراهين الساطعة، ووفقنى لاتباع الحق الذى أنتم عنه عَمُون .

( سيريكم آياته فتعرفونها ) أى سيريكم ربكم آيات عذابه وسخطه فتعرفون بها حقيقة نصحى ، ويستبين لكم صدق ما دعوتكم إليه من الرشاد حين لا تجدى المعرفة ، ولا تفيد التبصرة شيئا .

ونحو الآية قوله : « سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ » .

ثم ذيل هذا بتقرير ما قبله من الوعد والوعيد بقوله :

( وما ربك بغافل عما تعملون ) أى وما ربك بغافل عما يعمله هؤلاء المشركون ولكنه مؤخر عذابهم إلى أجل هم بالغوه ، لا يستأخرون عنه ساعة ولا يستقدمون ، فلا يحزنك تكذيبهم فإنى لهم بالمرصاد ، وأيقن بأنى ناصرك وخاذل عدوك ، ومذيقهم الذلّ والهوان .

روى أن عمر بن عبد العزيز قال : فلو كان الله مُغفِلاً شيئا لأغفل ما تُعْفِى الرياح من أثر قدمى ابن آدم وكان الإمام أحمد كثيرا ما ينشد هذين البيتين :

إذا ما خلوتَ الدهر يوما فلا تقل خلوتُ ولكن قلْ علىّ رقيب
ولا تحسبَنّ اللهَ يغفُل ساعة ولا أنّ ما يخفى عليه يغيب

والحمد لله وصلاته على النبى الأمى وعلى آله وصحبه أجمعين .

# خلاصة ما حوته هذه السورة الكريمة

## من حكم وأحكام وقصص

(١) وصف القرآن الكريم بأنه هدى ورحمة للمؤمنين .

(٢) قصص موسى عليه السلام .

(٣) قصص سليمان عليه السلام .

(٤) قصص ثمود وقصص قوم لوط .

(٥) النعى على المشركين فى عبادة الأصنام والأوثان ، وإقامة الأدلة على وحدانية الله تعالى .

(٦) إنكار المشركين للبعث والنشور وقولهم : إن هذا إلا أساطير الأولين .

(٧) علم الله بما فى الصدور .

(٨) حكم القرآن على ما اختلف فيه بنو إسرائيل .

(٩) قطع الأطماع فى إيمان المشركين وتشبيههم بالعمى الصم .

(١٠) أشراط الساعة كخروج الدابة من الأرض ، وحشر فوج من كل أمة ، وتسيير الجبال .

(١١) الجزاء على العمل خيرا كان أو شرا .

(١٢) أمر الرسول صلى الله عليه وسلم أن يقول للمشركين : إنه إنما أمر بعبادة رب مكة ، لا بعبادة الأصنام والأوثان .

(١٣) أمره بحمد الله والثناء عليه وطلبه تلاوة القرآن .

(١٤) إنه سبحانه سيُرِى المشركين آياته فيعرفونها حق المعرفة حين لا يفيدهم ذلك شيئا .

# سورة القصص

هى مكية كلها على ماروى الحسن وعطاء وطاوس وعِكْرمة ، وقال مقاتل: إلا من آية ٥٢ إلى ٥٥ فمدنية ، و إلا آية ٨٥ فقد نزلت بالُجحْفَة أثناء الهجرة إلى المدينة .

وآيها ثمان وثمانون ، نزلت بعد النمل .

ووجه مناسبتها لما قبلها أمور :

(١) إنه سبحانه بسط فى هذه السورة ما أوجز فى السورتين قبلها من قصص موسى عليه السلام وفصّل ما أجمله هناك ، فشرح تربية فرعون لموسى وذبح أبناء بنى إسرائيل الذى أوجب إلقاء موسى حين ولادته فى اليمّ خوفا عليه من الذبح ، ثم ذكر قتله القبطى ، ثم فراره إلى مدين وما وقع له مع شعيب من زواجه بينته ، ثم مناجاته لربه .

(٢) إنه أجمل فى السورة السالفة توبيخ المشركين بالسؤال عن يوم القيامة، و بسطه هنا أتم البسط .

(٣) إنه فصل هناك أحوال بعض المهلكين من قوم صالح وقوم لوط ، وأجمله هنا فى قوله : « وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ » الآيات .

(٤) بسط هناك حال من جاء بالحسنة وحال من جاء بالسيئة ، وأوجز ذلك هنا ، وهكذا من المناسبات التى تظهر بالتأمل حين قراءة السورتين .

---

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طسم (١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣) إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي

نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٤) وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (٥) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ (٦).

## تفسير المفردات

نتلو عليك : أى ننزل عليك ، والنبأ : الخبر العجيب ، علا : تجبر واستكبر ، شيعا : أى فرقا يستخدم كل صِنْف فى عمل من بناء وحفر وحرث إلى نحو ذلك من الأعمال الشاقة ، ويغرى بينهم العداوة والبغضاء حتى لايتفقوا ، يستضعف : أى يجعلهم ضعفاء مقهورين ، والطائفة هنا هم بنو إسرائيل ، ونمن : أى نتفضل ، والأئمة : واحدهم إمام وهو من يُقتدى به فى الدين أو فى الدنيا ، ويقال مكّن له إذا جعل له مكانا موطّأ ممهدا يجلس عليه ، والمراد به هنا التسلط على أرض مصر والتصرف فيها ، وهامان وزير فرعون ، يحذرون : أى يتوقعونه من ذهاب ملكهم وهُلْكهم على يد مولود من بنى إسرائيل .

## الايضاح

( طسم ) تقدم أن قلنا إن أحق الآراء وأجدرها بالقبول فى معنى هذه الحروف المقطعة أنها حروف يراد بها التنبيه، كما يراد مثل ذلك من معنى ( يا ) فى النداء و ( ألا ) ونحوهما ، وينطق بها بأسمائها هكذا ( طاسين ميم ) .

( تلك آيات الكتاب المبين ) أى هذه آيات الكتاب الكريم ، الذى أنزلته إليك أيها الرسول واضحا جليا كاشفا لأمور الدين وأخبار الأولين، لم تتقوله ولم تتخرّصه كما زعم المشركون المنكرون له ولرسالة من أوحى إليه .

ثم ذكر ماهو كالدليل على أنه وحى يوحَى وليس هو من وضع البشر فقال :

( نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون ) أى نتلو عليك بعض أخبار موسى ومحاجته لفرعون وغلبته إياه بالحجة ، وإخبار فرعون وجبروته وطغيانه ، وكيف قابل الحق بالباطل ، ولم تُجْدِ معه البراهين الساطعة ، والمعجزات الواضحة ، فأخذناه أخذ عزيز مقتدر ، فكانت عاقبته الدمار والوبال ، وأغْرِق ومن معه من جنده أجمعون ، نتلوها عليك تلاوة على وجه الحق كأنك شاهدٌ حوادثها ، مبصر وقائعها ، تصف ماترى وتبصر عيانا ، لقوم يصدقون بك وبكتابك ، لتطمئن به قلوبهم وتُثْلَج به صدورهم ، ويعلموا أنه الحق من ربهم ، وأن سنته فيمن خالفك وعاداك من المشركين هى سنته فيمن عادى موسى ومن آمن معه من بنى إسرائيل ، وأن النصر دائما للمتقين ويخزى الله المكذبين : « فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ » .

وإنما جعل التلاوة للمؤمنين وهو يُتْلى على الناس أجمعين ، لبيان أنه لا يعتبر بها إلا من كان له قلب واع وأذن سامعة تذّكر وتتعظ بآياته ، أما من أعرض عنه ، وأبى واستكبر ، وقال إن هذا إلا سحر يؤثر ، فلا تفيده الآيات والنذر ، ولا يُلْقِى له بالا ، ولا يعى مافيه من حكمة ، ولا مايسوقه من عبرة ، فهو على نحو ماحكى الله عنهم : « وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ » .

ثم فصل هذا المجمل ووضحه بقوله :

( إن فرعون علا فى الأرض ) أى إن فرعون تجبر فى مصر وقهر أهلها وجاوز الغاية فى الظلم والعدوان وساس البلاد سياسة غاشمة .

ومما مكّن له فى ذلك مابينه الله سبحانه بقوله :

( وجعل أهلها شيعا ) أى وفرقهم فرقا مختلفة ، وأحزابا متعددة ، وأغرى بينهم العداوة والبغضاء ، كيلا يتفقوا على أمر ولا يُجْمِعوا على رأى ، ويشتغل بعضهم بالكيد لبعض ، وبذا يلين له قيادهم ، ولا يصعب عليه خضوعهم واستسلامهم ، وتلك هى سياسة الدول الكبرى فى العصر الحاضر ، وذلك هو دستورها فى حكمها

لمستعمراتها ، وقد نقش حكامها فى صدورهم ذلك الدستور الذى ساروا عليه « فَرِّقْ تَسُدْ » وطالما أجدى عليهم فى سياسة تلك البلاد ، التى يعمُّها الجهل ويطغى على أهلها حب الظهور ، ويرضون بالنُّفَاية والقشور .

رُحْمَاكَ ، اللهم رحماك ، بسطت لعبادك سنتك فى الأكوان ، وأبنت لهم طبيعة الإنسان ، وأنه محب للظلم والعدوان .

والظلم من شيم النفوس فإن تجد ذا عفة فلعلة لا يظلم

( يستضعف طائفة منهم ) أى يجعل جماعة منهم أذلاء مقهورين ، يسومهم الخسف، ويعاملهم بالعسف ، وهم بنو إسرائيل .

ثم فسر هذا الاستضعاف بقوله :

( يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم ) أى يذبح أبناءهم حين الولادة ، وقد وكل بذلك عيونا تتجسس ، فكلما ولدت امرأة منهم ذكرا ذبحوه ، ويستبقى إناثهم ، لأنه كان يتوجس خيفة من الذكران الذين يتمرسون الصناعات ، وبأيديهم زمام المال ، فإذا طال بهم الأمد استوْلَوْا على المرافق العامة ، وغلبوا المصريين عليها والغلَبُ الاقتصادى فى بلدٍ مّا أشدُّ وقعا وأعظم أثرا فى أهلها من الغلَبَ الاستعمارى ، ومن ثمّ لم يشأ أن يقتل النساء .

روى السُّدّى أن فرعون رأى فى منامه أن نارا أقبلت من بيت المقدس حتى اشتعلت على بيوت مصر فأحرقت القِبط وتركت بنى إسرائيل ، فسأل علماء قومه ، فأخبره الكهنة أنه سيخرج من هذا البلد رجل يكون هلاك مصر على يديه ، فأخذ يعمل ماقص علينا الكتاب الكريم .

قال الزجاج : والعجب من حمق فرعون ، فإن الكاهن الذى أخبره بذلك إن كان صادقا عنده فما ينفع القتل ، وإن كان كاذبا فلا داعى للقتل اه .

ولا يعنينا من أمر هذه الرواية شىء فسواء صحت أو لم تصح ، فإن السرّ المعقول ماقصصناه عليك أوّلا .

ثم علل اجتراحه لتلك الجرائم ، و إزهاقه للأرواح البريئة بقوله :

( إنه كان من المفسدين ) ومن ثم سولت له نفسه أن يفعل مافعل من تلك الفظائع ، وقتل سلائل الأنبياء بلا جريمة ارتكبوها ، ولا ذنب جَنَوْه ، وقد كانت هناك وسائل عديدة ليصل بها إلى اتقاء شرور اليهود بحسب مايزعم ، وكان له فيها غُنْيَة عن سفك الدماء ، ولكن قساة القلوب غلاظ الأكباد تتوق نفوسهم إلى الوُلوغ فى الدم ، و يجعلونه الترياق الشافى لحزازات نفوسهم ، وسخائم أفئدتهم .

ثم ذكر سبحانه ماأكرم به هذه الأمة وما أتاح لها من السلطان الدينى والدنيوى ، فتأسست لهم دولة عظيمة فى بلاد الشام ، وصاروا يتصرفون فى أرض مصر كما شاءوا فقال :

( ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ) أى ونريد أن نتفضل بإحساننا على من استضعفهم فرعون وأذلهم ، وننجيهم من بأسه ، ونريهم فى أنفسهم وفى أعدائهم فوق مايحبون ، وأكثر مما يؤملون .

( ونجعلهم أئمة ) مقتدى بهم فى الدين والدنيا .

( ونجعلهم الوارثين ) لملك الشام لاينازعهم فيه منازع ، وقد جاء فى آية أخرى : « وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا » وفى ثالثة « كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ » .

( ونمكن لهم فى الأرض ) أى ونسلطهم على أرض مصر يتصرفون فيها كيفما شاءوا بتأييدهم بكليم الله ثم بالأنبياء من بعده .

ثم بين مانال عدوهم من النكال والوبال فقال :

( ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون ) أى ونرى أولئك الأقوياء والأعداء الألداء على أيدى بنى إسرائيل من المذلة والهوان وما كانوا يتوقعونه من زوال الملك والسلطان على يد مولود منهم ، ولكن لايُنْجِى حذرٌ من قدر ، فنفذ حكم الله الذى جرى به القلم من القِدم على يد هذا الغلام الذى احترز من وجوده وقتل بسببه ألوفا من الولدان ، وكان منشؤه ومرباه على فراشه وفى داره ، وغذاؤه

من طعامه ، وكان يدلّله و يتبناه ، وحتفه وهلاكه وهلاك جنوده على يديه ، ليعلم أن رب السموات والأرض هو الغالب على أمره ، الشديد المِحَال الذى ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن .

وخلاصة ما سلف :

(١) إن فرعون علا فى الأرض . (٢) استضعف حزبا من أحزاب مصر .

(٣) قتل الأبناء . (٤) استحيا النساء . (٥) إنه كان من المفسدين .

وقد قابل سبحانه هذه الخمسة بخمسة مثلها تكرمة لبنى إسرائيل :

(١) إنه منّ عليهم بإنقاذهم من بطش فرعون وجبروته .

(٢) إنه جعلهم أئمة مقدَّمين فى الدارين .

(٣) إنه ورّثهم أرض الشام .

(٤) إنه مكن لهم فى أرض الشام ومصر .

(٥) إنه أرى فرعون وهامان وجنودهما ما كانوا يحذرون من ذهاب ملكهم على أيديهم .

هذان عظمة وضعف يعقب أحدهما الآخر كما يعقب الليل النهار ، سنة الله فى خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا : « وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ » .

انظر إلى الدولتين الفارسية والرومية ، وما كان لهما من مجد باذخ ، وملك واسع ، كيف دالت دولتهما ، وذهب ريحهما بظلم أهلهما ، وتقسّم ملكهما ، ثم قامت بعدهما الدولة العربية وعاشت ما شاء الله أن تعيش ، ثم قام بعدها بنو عثمان وملكوا أكثر مما كان بيد الأمة العربية ، ثم هَرِمت دولتهم وشاخت واستولت عليها ممالك أوروبا .

« قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » .

وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧) فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ (٨) وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٩) وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠) وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١١) وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ (١٢) فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣).

## تفسير المفردات

الوحى : الإلهام كما جاء فى قوله : « وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ » والخوف : غم يحصل بسبب توقع مكروه يحدث فى المستقبل ، والحزن : ( بفتحتين و بضم فسكون كالرُّشْد والرَّشَد والسُّقْم والسَّقَم ) غم يحدث بسبب مكروه قد حصل ، واليم : البحر ، والمراد هنا نهر النيل ، والالتقاط : أخذ الشىء فجأة من غير طلب له ، والمراد من الخطأ هنا : الخطأ فى الرأى وهو ضد الصواب والمراد به الشرك والعصيان لله ، وقرت به العين : فرحت به وسُرّت ، فارغا : أى خاليا من العقل لما دهمها من الخوف والحيرة حين سمعت بوقوعه فى يد عدوه نحو ما جاء فى قوله : « وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ » أى خلاء

لاعقول بها ، والإبداء : إظهار الشيء ، والربط على القلب : شده والمراد هنا تثبيته ، وقصيه : أي اقتفى أثرة وتتبعى خبره ، فبصرت به : أي أبصرته ، عن جنب : أي عن بعد ، لايشعرون : أي لايدرون أنها أخته ، حرمنا : أي منعنا ، يكفلون : أي يضمنون رضاعه والقيام بشئونه ، والنصح : إخلاص العمل والمراد أنهم يعملون ماينفعه فى غذائه وتربيته ، ولا يقصرون فى خدمته .

## الإيضاح

بعد أن ذكر سبحانه أنه سيمنّ على بنى إسرائيل الذين استُضْعِفوا فى الأرض ، أردف ذلك تفصيل بعض نعمه عليهم فقال :

( وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه ) أى وألهمناها وقذفنا فى قلبها أن أرضعيه ماأمكنك إخفاؤه عن عدوه وعدوك .

( فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى ) أى فإذا خفت عليه من جواسيس فرعون ونقبائه الذين يقتلون أولاد بنى إسرائيل اتباعا لأمره ، أو من الجيران أن ينمُّوا عليه إذا سمعوا صوته ، فألقيه فى النيل ولا تخافى هلاكه ، ولا تحزنى لفراقه ، وقد تقدم فى سورة طه بيان الكيفية التى ألقته بها فى اليم .

روى أن دارها كانت على الشاطئ فاتخذت تابوتا ومهدت فيه مهدا وألقته فى النيل، وليس هناك من دليل على الزمن الذى قضته بين الولادة والإلقاء فى اليم .

ثم وعدها سبحانه بما يسليّها و يطمئن قلبها و يملؤه غبطة وسرورا ، وهو رده إليها وجعله رسولا نبيا فقال :

( إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين ) أى إنا رادو ولدك إليك للرضاع وتكونين أنت مرضعه ، وباعثوه رسولا إلى هذا الطاغية وجاعلو هلاكه ونجاة بنى إسرائيل مما هم فيه من البلاء على يديه .

وهذه الآية اشتملت على أمرين : أرضعيه وألقيه ، ونهيين : ولاتخافى ولا تحزنى ،

وخبرين : إنا رادوه إليك وجاعلوه . وبشارتين فى ضمن الخبرين : وهما الرد والجعل من المرسلين ، حكى عن الأصمعى قال : سمعت أعرابية تنشد :

أستغفر الله لذنبى كلـه قبّلت إنسانا بغير حـله
مثل الغزال ناعما فى دَلّه فانتصف الليل ولم أصلّه

فقلت : قاتلك الله ماأفصحك! قالت أو يعد هذا فصاحة مع قوله تعالى : (وأوحينا إلى أم موسى) الآية ؟ لجمع فى آية واحدة بين أمرين ونهيين وخبرين وبشارتين .

ثم ذكر صدق وعده ومقدمات نجاته فقال :

( فالتقطه آل فرعون ) أى فأخذه أهل فرعون أخذ اللقطة التى يُعْنَى بها وتصان عن الضياع صبيحة الليل الذى ألقى فيه التابوت .

روى أن الموج أقبل به يرفعه مرة ويخفضه أخرى حتى أدخله بين الأشجار عند بيت فرعون ، فخرج جوارى امرأته إلى الشط فوجدن التابوت فأدخلنه إليها وظنن أن فيه مالا ، فلما فتحنه وجدن فيه غلاما فوقعت عليها رحمته فأحبته .

ولما أخبرت فرعون به أراد أن يذبحه إذ قال إنى أخاف أن يكون هذا من بنى إسرائيل وأن يكون هلاكنا على يديه ، فلم تزل تكلمه حتى تركه لها .

ثم ذكر سبحانه أن العاقبة كانت ضد ماقصدت فقال :

( ليكون لهم عدوا وحزنا ) أى لتكون عاقبة أمره كذلك إذ أراد الله هذا ، وهذا كما تقول لآخر تؤنبه على فعلٍ كان قد فعله وهو يظن نفسه محسنا فيه وأدى الأمر إلى مساءة وضرّ قد لحقه : فعلت هذا لضر نفسك ، وهو قد كان حين الفعل راجيا نفعه غير أن العاقبة جاءت بخلاف ما كان يرجو ، وهذا جار على سنن العرب فى كلامهم ، فيذكرون الحال بالمآل ، قال شاعرهم :

وللمنايا تُرَبِّى كل مُرْضِعةٍ ودُورُنا لخراب الدهر نَبْنيها

وقال آخر :

فللموت تغذو الوالدات سِخَالَهَا كما لخراب الدهر تُبْنَى المساكن

فعاقبة البناء الخراب وإن كان فى الحال مفروحا به ، وعاقبة تغذية السخال الذبح وإن كانت الآن تُغَذَّى لتسمن .

والخلاصة — إن الله قيَّضهم لالتقاطه : ليجعله لهم عدوا وحزنا ، ويستبين لهم بطلان حذرهم منه .

وعداوته إياهم مخالفته لهم فى دينهم وحملهم على الحق ، وحزنهم بزوال ملكهم على يديه بالغرق بعد أن يُظْهِرَ فيهم الآيات ولا يستجيبوا لدعوته ، فتحل بهم القوارع كما هى سنة الله فى خلقه المكذبين .

ثم بين أن القتل الذى يفعله فرعون وهامان وجنوده لبنى إسرائيل حمق وطيش فقال :

( إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين ) أى إن هؤلاء كان من دأبهم الخطأ وعدم التدبر فى العواقب ، ومن ثم قتلوا لأجله ألوفا ، ثم أخذوه يربونه ليكبر ويفعل بهم ما كانوا يحذرون .

ثم حكى سبحانه قول امرأة فرعون حين رآه فرعون وهمَّ بقتله .

( وقالت امرأة فرعون قرّة عين لى ولك لاتقتلوه ) أى قالت تخاصم عنه وتحببه إلى فرعون : إنه مما تقرّ به العيون ، وتفرح لرؤيته القلوب ، فلا تقتلوه .

ثم ذكرت العلة التى قالت لأجلها ما قالت .

( عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا ) أى لعلنا نصيب منه خيرا ، لأنى أرى فيه مخايل اليُمْن ، ودلائل النجابة ، كما قال الشاعر :

فى المهد ينطق عن سعادة جَدِّه		أثرُ النجابة ساطعُ البرهانِ

أو نتخذه ولدا لما فيه من الوسامة وجمال المنظر التى تجعله أهلا لتبنى الملوك له ، وكانت لاتلد فاستوهبته من فرعون فوهبه لها .

ثم بين سبحانه أنهم لايدرون خطأهم فيما صنعوا فقال :

( وهم لايشعرون ) أى وهم لاشعور لهم بما خبّأه لهم القدر ، وبما يئول إليه أمرهم

معه من عظائم الأمور التى تؤدى إلى هلاكهم ، وإنما عِلْم ذلك لدى علام الغيوب ، فهو الذى يدرى ما أراد بالتقاطهم إياه من الحكم البالغة، والحجج القاطعة .

وبعد أن أخبر سبحانه عن حال من لقيه موسى عليه السلام خبّر عن حال من فارقه بقوله :

( وأصبح فؤاد أم موسى فارغا إن كادت لتبدى به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين ) أى إنها حين سمعت بوقوعه فى يد فرعون طار عقلها شَعاعا لما دهمها من الجزع والحزن وتوقع الهلاك الذى لامندوحة منه جريا على عادته مع أنداده ولداته ، ولولا أن عصمناها وثبتنا قلبها لأعلنت أمرها ، وأظهرت أنه ابنها وقالت من شدة الوجد « وا ولداه » وقد فعلنا ذلك لتكون من المصدِّقين بوعدنا: «إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ » .

ثم أخبر عن فعلها فى تعرف خبره بعد أن أخبر عن كتمها إياه بقوله :

( وقالت لأخته قصيه فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون ) أى وقالت لابنتها وكانت كبيرة تعى ما يقال لها : تتبّعى أثره ، وتَسَمَّعى خبره ، فأبصرته عن بعد ، وهم لا يشعرون أنها تقصه ، وتتعرف حاله ، وأنها أخته .

ثم شرع سبحانه يذكر أسباب رده إليها فقال :

( وحرمنا عليه المراضع من قبل فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون ) أى ومنعنا موسى المراضع من أول أمره ، فقالت أخته حين رأت اهتمامهم برضاعه : أتحبون أن أرشدكم إلى أهل بيت يأخذونه ويتولون تربيته ويقومون بجميع شئونه ولا يقَصِّرون فى خدمته والعناية بأمره ؟

روى عن ابن عباس أنها لما قالت ذلك أخذوها وشكُّوا فى أمرها وقالوا لها : ما يدريكِ بنصحهم له وشفقتهم عليه ؟ فقالت هم يفعلون ذلك رغبة منهم فى سرور الملك ورجاء عطائه ، وبذا خلصت من أذاهم ، وذهبوا معها إلى منزلهم ودخلوا به على أمه فأعطته ثديها فالتقمه ، ففرحوا بذلك فرحا شديدا وذهب البشير إلى امرأة الملك

فاستدعت أم موسى وأحسنت إليها وأعطتها العطاء الجزيل ، ثم سألتها أن تقيم عندها وترضعه فأبت ذلك عليها وقالت إن لى بعلا وأولادا ولا أستطيع المقام عندك ، ولكن إن أحببت أن أرضعه فى بيتى فعلت ، فأجابتها إلى ماطلبت ، وأجرت عليها النفقة والصلات والكُسا وجزيل العطايا ورجعت بولدها إلى بيتها راضية مرضية قد أبدلها الله بعد خوفها أمنا وهى موفورة العز والجاه والرزق الواسع ، وقد جاء فى الأثر « مثل الذى يعمل الخير ويحتسب كمثل أم ترضع ولدها وتأخذ أجرها » .

وإلى هذا أشار سبحانه بقوله :

( فرددناه إلى أمه كى تقر عينها ولاتحزن ) أى فرددناه إلى أمه بعد أن التقطه آل فرعون ، لتقرّ عينها بابنها إذ رجع إليها سليما ، ولا تحزن على فراقه إياها .

( ولتعلم أن وعد الله حق ) أى ولتعلم أنّ وعد الله الذى وعدها حين قال لها :

( إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين ) حق لامرية فيه ولا خلف ، وقد شاهدت بعضه ، وقاست الباقى عليه .

وبرده إليها تحققت أنه سيكون رسولا ، فربّته على ماينبغى لمثله من كامل الأخلاق وفاضل الآداب .

( ولكن أكثرهم لايعلمون ) حكم الله فى أفعاله وعواقبها المحمودة فى الدنيا والآخرة ، إذ قد يكون الشيء بغيضا إلى النفوس ظاهرا ، محمود العاقبة آخرا كما قال : « فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا » .

وقد حدث هذا فى أمر موسى ، فقد ألقى فى اليم ثم رد إلى أمه مكرّما ثم كان له من الوجاهة فى الدنيا والآخرة ما كان .

---

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ (١٤) وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ

يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ (١٥) قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٦) قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ (١٧) فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ (١٨) فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَامُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ (١٩) .

## تفسير المفردات

واحدة الأشد : شدة كأنعم ونعمة ، والشدة : القوة والجلادة ، وبلوغ الأشد : استكمال القوة الجسمانية وانتهاء النمو المعتدّ به ، والاستواء : اعتدال العقل وكماله ، ويختلف ذلك باختلاف الأقاليم والأزمان والأحوال ، والحكم : الحكمة ، والمدينة : هى مصر ، على حين غفلة : أى فى وقت لايتوقعون دخولها فيه ، من شيعته : أى ممن شايعه وتابعه فى الدين وهم بنو إسرائيل ، من عدوه : أى من مخالفيه فى الدين وهم القبط ، فاستغاثه أى طلب غوثه ونصره ، فوكزه أى فضربه بجُمْع يده ، أى بيده مجموعة الأصابع ، فقضى عليه : أى فقتله وأنهى حياته ، من عمل الشيطان : أى من تزيينه ، مبين : أى ظاهر العداوة والإضلال ، فاغفر لى : أى فاستر ذنوبى ، بما أنعمت علىّ : أى أقسم بنعمك علىّ ، ظهيرا : أى معينا ، يترقب : أى ينتظر ماينالهُ من أذى ، استنصره : أى طلب نصره ومعونته ، يستصرخه : أى يطلب الاستغاثة برفع الصوت ، غوىٌّ :

أى ضال ، يبطش : أى يأخذ بصولة وسطوة ، والجبار : هو الذى يفعل مايفعل دون نظر فى العواقب، من المصلحين : أى ممن يبغون الإصلاح بين الناس، و يدفعون التخاصم بالحسنى.

## المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه ماأفاض به على موسى من نعمه فى الصغر من إنجائه من الهلاك بعد وضعه فى التابوت و إلقائه فى النيل ، و إنجائه من الذبح الذى عم أبناء بنى إسرائيل ـ أردفه ذكر ماأنعم به عليه فى كبره من إيتائه العلم والحكمة ثم إرساله رسولا ونبيا إلى بنى إسرائيل والمصريين ، ثم ذكر ما حصل منه من قتل المصرى الذى اختصم مع اليهودى بوكزه بِجُمْع يده وكان ذلك سببا فى موته ، ثم طلبه المغفرة من ربه على مافعل ، ثم تصميمه وعزمه ألا يناصر غويا مجرما ، ثم أعقب ذلك بذكر خصام آخر بين ذلك اليهودى وقبطى آخر وقدم موسى بإغاثته أيضا ، فقال له المصرى: أتريد الإصلاح فى الأرض أم تريد أن تكون من الجبارين المفسدين ؟ .

## الايضاح

( ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزى المحسنين ) أى ولما قوى جسمه واعتدل عقله آتيناه فقها فى الدين وعلما بالشريعة كما قال تعالى : «وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللهِ وَالْحِكْمَةِ » وكما جزينا موسى على طاعته إيانا وإحسانه بصبره على أمرنا ـ نجزى كل من أحسن من عبادنا ، وأطاع أمرنا ، وانتهى عما نهيناه عنه .

و بعد أن أخبر بتهيئته للنبوة ذكر ما كان السبب فى هجرته إلى مدين وتوالى الأحداث الجسام عليه فقال :

( ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها ) أى ودخل مصر آتيا من عين شمس فى وقت ليس من المعتاد الدخول فيه وهو وقت القائلة .

روى أنه دخلها مستخفيا من فرعون وقومه ، لأنه كان قد خالفهم فى دينهم وعاب ما كانوا عليه .

ثم أبان ماحدث منه حينئذ فقال :

( فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه فاستغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه ، قال هذا من عمل الشيطان ) أى فوجد فى مصر رجلين أحدهما من بنى إسرائيل وثانيهما من القبط وهو طباخ فرعون وكان قد طلب منه أن يحمل حطبا للمطبخ فأبى ، فطلب الإسرائيلى من موسى غوثه ونصره على عدوه القبطى ، فضرب به موسى بجمع يده فى صدره وحنكه فقتله فقال : إن هذا الذى حدث من القتل هو من تزيين الشيطان ووسوسته .

ثم أخبر عن حال الشيطان ليُحْذَر منه فقال :

( إنه عدو مضل مبين ) أى إنه عدو فينبغى الحذر منه ، مضل ، فلا يقود إلى خير بيّن العداوة والإضلال .

ثم أخبر بندم موسى على قتله نفسا لم يؤمر بقتلها بقوله :

( قال رب إنى ظلمت نفسى فاغفر لى ) أى قال رب إنى ظلمت نفسى بقتل نفس لايحل قتلها ، فاغفر لى ذنبى واستره ولا تؤاخذنى بما فعلت ، قال قتادة : عرف والله المخرج فاستغفر اه . ثم لم يزل صلى الله عليه وسلم يعدد ذلك على نفسه مع علمه بأنه قد غفر له ، حتى إنه يوم القيامة يقول عند طلب الناس الشفاعة منه : إنى قتلت نفسا لم أومر بقتلها ، و إنما عده ذنبا وقال : ( إنى ظلمت نفسى فاغفر لى ) من أجل أنه لاينبغى لنبى أن يقتل حتى يؤمر بالقتل .

روى مسلم عن سالم بن عبد الله أنه قال : ياأهل العراق : ماأسألكم ، وأركبكم للكبيرة . سمعت أبى عبد الله بن عمر يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن الفتنة تجىء من هاهنا ـ وأومأ بيده نحو المشرق ـ من حيث يطلع قرنا الشيطان ، وأنتم بعضكم يضرب رقاب بعض ، و إنما قتل موسى الذى قتل من

آل فرعون خطأ فقال الله عزوجل: « وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا » .

ثم ذكر أنه أجاب دعاءه وغفر له فقال :

( فغفر له ) أى فعفا عن ذنبه ولم يعاقبه عليه .

و بعدئذ ذكر ماهو كالعلة لما قبله فقال :

(إنه هو الغفور الرحيم) أى إنه تعالى هو الستار لذنوب من أناب إليه ، المتفضل عليه بالعفو عنها ، الرحيم له أن يعاقبه بعد أن أخلص تو بته ، ورجع عن حَوْبته .

ثم ذكر أنه شكر ربه على هذه النعمة التى أنعم بها عليه فقال :

( قال رب بما أنعمت علىّ فلن أكون ظهيرا للمجرمين ) أى قال رب اعصمنى بحق ما أنعمت علىّ بعفوك عن قتل هذه النفس لأمتنعنّ عن مثل هذا الفعل ، ولن أكون معينا للمشركين فأصحبهم وأُكْثِر سوادهم ، وقد كان عليه السلام يصحب فرعون و يركب بركو به كالولد مع الوالد ، ومن ثم كانوا يسمونه ابن فرعون .

وقد يكون المراد لأمتنعن عن مظاهرة من تئول مظاهرته إلى الجُرْم والإثم كمظاهرة الإسرائيلى التى أدت إلى القتل الذى لم يؤمر به .

ونحو الآية قوله : « وَلاَ تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا » .

ثم ذكر حاله بعد قتل القبطى فى المدينة فقال :

( فأصبح فى المدينة خائفا يترقب فإذا الذى استنصره بالأمس يستصرخه قال له موسى إنك لغوى مبين ) أى فصار موسى فى تلك المدينة التى قتل فيها القبطى خائفا من جنايته التى جناها بقتله النفس التى قتلها ، وصار يتحسس الأخبار و يسأل عما يتحدث به الناس من أمره وأمر القبطى وماهم بالغوه به ، وداخلته الهواجس خيفة أن يقتلوه به ، و إذا الإسرائيلى الذى استنصره بالأمس على المصرى يطلب منه الغوث والعون على مصرى آخر ، فقال له موسى: إنك لذو غواية وضلال لاشك فيه ، وقدتبينت ذلك بقتالك أمس رجلا واليوم آخر ، ثم دنا منهما .

(فلما أن أراد أن يبطش بالذى هو عدو لهما قال ياموسى: أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفسا بالأمس) أى فلما أراد موسى أن يأخذ الفرعونى عدوهما بالشدة والعنف قال له منكرا: أتريد أن تفعل معى كما فعلت بالأمس وتقتلنى كما قتلت من قتلت؟ وكان قد عرف ذلك من حديث المصريين عنه.

ثم زاد الإنكار توكيدا فقال:

(إن تريد إلا أن تكون جبارا فى الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين) أى ما تريد إلا أن تكون قاهرا عاليا فى الأرض تضرب وتقتل دون أن تنظر فى العواقب، ولا تريد أن تكون ممن يعمل فيها بما فيه صلاح أهلها ودفع تخاصمهم بالحسنى.

---

وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَامُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ (٢٠) فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢١) وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ (٢٢) وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (٢٣) فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (٢٤) فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢٥) قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ

مَن اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِىُّ الْأَمِينُ (٢٦) قَالَ إِنِّى أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَىَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَن تَأْجُرَنِى ثَمَانِىَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِى إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٢٧) قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَىَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (٢٨) .

## تفسير المفردات

أقصى المدينة : أى أبعدها مكانا ، يسعى : أى يسرع ، الملأ : أشراف الدولة ووجوهها ، يأتمرون بك : أى يتشاورون فى أمرك ، قال الأزهرى ائتمر القومُ وتآمروا إذا أمر بعضهم بعضا كما قال : « وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ » وقال النمر بن تولب :

أرى الناس قد أحدثوا شيمةً		وفى كل حادثة يُؤْتَمَرْ

يترقب : أى يلتفت يَمْنة ويَسْرة ، توجه إلى الشيء : صرف وجهه إليه ، تلقاء مدين : أى جهتها ، ورد : أى وصل ، والمراد بماء مدين : البئر التى كانوا يستقون منها ، أمة : أى جماعة ، تذودان : أى تطردان غنمهما عن الماء خوفا من السقاة الأقوياء ، قال الشاعر :

لقد سَلَبَتْ عصاك بنو تميم		فما تدرى بأىّ عصاً تذودُ ؟

ما خطبكما : أى ما شأنكما ولم لا تردان مع هؤلاء ؟ قال رؤبة يا عجبا ما خَطْبُه وخَطْبِى ؟ يصدر الرعاء : أى يصرفون مواشيهم عن الماء ، والرعاء : واحدهم راع ، تولى : أى انصرف ، والظل : ظل شجرة كانت هناك ، والخير يكون بمعنى الطعام كما فى الآية وبمعنى المال كما قال : « إِنْ تَرَكَ خَيْرًا » وبمعنى القوة كما قال : « أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ » وبمعنى العبادة كقوله : « وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ » فقير: أى

محتاج ، والاستحياء : شدة الحياء ، ليجزيك : أى ليثيبك ،القصص :الحديث المقصوص أى المخبر به ، أنكحك : أزوجك ، و يقال أجرته : أى كنت له أجيرا كما تقول أبوته أى كنت له أبا ، والحجج : واحدها حجة بكسر الحاء وهى السنة ، قال زهير ابن أبى سلمى :

لمن الديار بقِنّة الحِجْر أقْوَيْنَ من حِجج ومن دهر

أشق عليك : أى أدخل عليك مشقة ، الأجلين : أى الأطول أو الأقرب ، فلاعدوان : أى فلا حرج ، وكيل : أى شهيد .

## المعنى الجملى

اعلم أنه بعد أن انتشر فى المدينة حديث موسى عليه السلام مع القبطى رفعه أعوان فرعون و بطانته إليه ، فأتمر هو ومستشاروه وأجمعوا أمرهم على قتله ، وكان من آل فرعون رجل مؤمن يكتم إيمانه ، فأسرع إليه يخبره الخبر و ينصحه بالهرب ، فانتصح بنصحه وسافر إلى أرض مدين إلى الجانب الشرقى من البلاد المصرية وكان من أمره مع قوم شعيب ما قصه الله علينا فى هذه الآيات ، إلى أن رجع إلى مصر وقد أوتى النبوة وهو قافل فى طريقه .

## الإيضاح

( وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى قال ياموسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إنى لك من الناصحين ) أى وجاء رجل مؤمن من آل فرعون ، يخفى إيمانه عن فرعون وآله ، لأسباب هو بها عليم ، يسرع للحاق بموسى إشفاقا وخوفا عليه أن يصيبه مكروه من فرعون وآله وقال : ياموسى : إن الملك و بطانته وأشراف دولته يدبرون لك المكايد ، و ينصبون لك الحبائل ، يريدون أن يقتلوك ، فالبدارَ البدارَ والهربَ

الهربَ قبل أن يقبضوا عليك ويُنْفِذوا مادبّروه ويقتلوك ، فاخرج من المدينة مسرعا وإنى لك لناصح أمين .

فانتصح بنصحه وتقبل قوله .

( فخرج منها خائفا يترقب ) أى فخرج من مدينة فرعون خائفا يترقب لحوق الطالبين ، ويتلفت يمينا ويسارا وينظر أيتبعه أحد ؟ .

ثم لجأ إلى الله تعالى علما منه أن لاملجأ إلا إليه .

( قال رب نجنى من القوم الظالمين ) أى قال : رب نجنى من هؤلاء الذين من دأبهم الظلم والعسف ووضع الأمور فى غير مواضعها ، فيقتلون من لايستحق القتل ومن لايُجْرِم إلى أحد ، فاستجاب الله دعاءه ، ووفقه إلى سلوك الطريق الأعظم نحو مدين ، روى أن فرعون لما بعث فى طلبه قال : ( اركبوا بُنَيَّات الطريق ) فانبثوا فيما بين الطريق الأعظم يمينا وشمالا ففاتهم ونجا من بغيهم .

ثم أخبر عما ناجى به موسى ربه وهو سائر إلى مدين فقال :

( ولما توجه تلقاء مدين قال عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل ) أى ولما اتجه نحو مدين ماضيا إليها شاخصا عن مدينة فرعون ، قال : رب اهدنى إلى سواء السبيل ، وأرشِدْنى إلى الطريق القويم ، ونجنى من هؤلاء الظلمة ؛ وقد قال هذا توكلا على الله ، وثقة بحسن توفيقه ، وقد كان لايعرف الطريق ، فعنّ له ثلاث طرائق فسار فى الوسطى وأخذ طالبوه فى الآخرَيْن ، وقالوا : المُرِيب لايسلك أعظم الطرق ، بل يأخذ بُنَيَّاتها ( أضيقها غير المشهور منها ) وقد روى أنه بقى ثمانى ليال وهو حاف لايطعَم إلا ورق الشجر ، إذ ليس معه زاد ولا دابة يركبها .

ثم ذكر سبحانه ماجرى له حين وصوله إلى مدين من الأحداث فقال :

( ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان قال ما خطبكما ؟ قالتا لانسقى حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير ) أى ولما وصل إلى مدين ورد ماءها وقد كان لها بئر يرِدُه رِعاء الشاء فوجد جماعة منهم

يسقون نعمهم ومواشيهم ، ووجد فى مكان أسفل من مكانهم امرأتين تكُفّان غنمهما أن ترد مع غنم أولئك الرعاء لئلا يؤذوها ، فلما رآهما موسى كذلك رقّ لهما ورحمهما ، قال ما خبركما ، لم لاتردان الماء مع هؤلاء القوم ؟ فأجابتاه ، قالتا : لانسقى غنمنا إلا إذا فرغ هؤلاء من السقى ،وأبونا شيخ كبير لايستطيع السقى بنفسه ، فنحن نلجأ إلى ما ترى ، تشرب مواشينا فضل الماء .

ثم ذكر ما فعله بعد أن سمع هذا القصص فقال :

( فسقى لهما ثم تولى إلى الظل فقال رب إنى لما أنزلت إلى من خير فقير ) أى فسقى لهما غنمهما ، ثم انصرف إلى ظل شجرة ليقَيل ويستريح ، وناجى ربه قائلا: إنى لمحتاج إلى شىء تنزله إلىّ من خزائن جودك وكرمك .

روى عن ابن عباس أنه قال : لقد قال موسى ذلك وهو أكرم خلق الله عليه ، ولقد افتقر إلى شِقّ تمرة ولصِق بطنه بظهره من شدة الجوع .

فجاءه الفرج بعد الشدة وأجاب الله طلبه .

(فجاءته إحداهما تمشى على استحياء قالت إن أبى يدعوك ليجزيك أجر ماسقيت لنا) أى فجاءته إحدى المرأتين تمشى وهى حيية قد سترت وجهها بثوبها قائلة : إن أبى يدعوك ليكافئك على ما صنعت من الإحسان ، وأسديت إلينا من المعروف بسقى غنمنا ، قال عمرو بن ميمون : ولم تكن سَلْفعا من النساء ( جريئة على الرجال ) خرّاجة ولاّجة .

وقد أسندت الدعوة إلى أبيها وعلّلتها بالجزاء حتى لايتوهم من كلامها شىء من الريبة ، كما أن فى كلامها دلالة على كمال العقل والحياء والعفة كما لايخفى .

وقد اختلف فى الأب من هو ؟ فقيل هو شعيب عليه السلام وهو بعيد كل البعد ، لأنّ شعيبا كان قبل موسى بزمن طويل بدليل قوله تعالى لقومه : « وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنكُمْ بِبَعِيدٍ » وقد كان هلاك قوم لوط فى عصر الخليل عليه السلام كما نص على ذلك الكتاب الكريم ، وكان بين إبراهيم وموسى مايزيد على أربعمائة سنة ، وفى كتب اليهود أن اسمه يثرو ؛ وفى التوراة فى الفصل الثانى من السفر الثانى مانصه :

ولما سمع بهذا الخبر ( خبر قتل القبطى ) طلب أن يقتل موسى فهرب من بين يديه وذهب إلى مدين وجلس على بئر ماء ، وكان لكاهن مدين سبع بنات فجاءت وأدلت الدلاء وملأت الأحواض لسقى غنم أبيهن ، فلما جاء الرعاة طردوهن ، فقام موسى فأغاثهن وسقى غنمهن ، فلما جئن إلى رعوائيل أبيهن قال : مابالكن أسرعتن المجىء اليوم ؟ الخ .

وفى الفصل الثالث : وكان موسى يرعى غنم يثرو حميه كاهن مدين .

ولما قدمت هذه المرأة إلى موسى أجابها تبركا بالشيخ لا طمعا فى الأجر

(فلما جاءه وقص عليه القصص قال لاتخف نجوت من القوم الظالمين) أى فلما جاء موسى هذا الشيخ وحدثه حديثه مع فرعون وآله فى كفرهم وطغيانهم وإذلالهم للعباد وتآمرهم على قتله وهو به منهم بعد الذى عمله ـ قال له : لاتخف من حولهم وطَوْلهم ، إنك قد نجوت من سطوة هؤلاء الظلمة ، إذ لاسلطان لهم علينا ، ولسنا فى دائرة ملكهم .

ولما أمنه وطمأنه على نفسه دار الحديث وكان ذا شجون .

( قالت إحداهما ياأبت استأجره ، إن خير من استأجرت القوى الأمين ) أى قالت واحدة من بناته : استأجر موسى ليرعى عليك ما شيتك ، فإن خير من تستأجره للرعى القوىُّ على حفظ الماشية والقيام عليها فى إصلاحها وصلاحها ، الأمينُ : الذى لاتخاف خيانته فيما تأتمنه عليه منها .

ولا يخفى أن مقالها من جوامع الكلم والحكمة البالغة ، لأنه متى اجتمعت هاتان الصفتان : الأمانة والكفاية فى القائم بأداء أمر من الأمور تكلّل عمله بالظفر وكفِل له أسباب النجح .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه : أفرس الناس ثلاثة : بنت شعيب ، وصاحب يوسف فى قوله « عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا » وأبو بكر فى عمر .

ولما أعلمت البنت الشيخ بذلك .

( قال إنى أريد أن أنكحك إحدى ابنتىّ هاتين على أن تأجرنى ثمانى حجج فإن أتممت عشرا فمن عندك ، وما أريد أن أشق عليك ستجدنى إن شاء الله من الصالحين ) أى قال أبو المرأتين اللتين سقى لهما موسى : إنى أريد أن أزوجك إحدى ابنتىّ الحاضرتين أمامك ، فانظر من يقع اختيارك عليها منهما ، على أن تكون أجيرا لى ثمانى سنوات ترعى لى فيها غنمى ، فإن أتممت الثمانى السنين التى شرطتها عليك فجعلتها عشرا فإحسان من عندك ، وما أحب أن أشاقك بمناقشة أو مراعاة أوقات ولا إتمام عشر ولا غير ذلك ، وإنك ستجدنى إن شاء الله ممن تحسن صحبتهم ويوفون بما تريد من خير لك ولنا .

وفى هذا دليل على مشروعية عرض ولىّ المرأة لها على الرجل ، فقد عرض عمر ابن الخطاب ابنته حفصة على أبى بكر وعثمان ، وعرضت الموهوبة نفسها على النبى صلى الله عليه وسلم ، قال ابن عمر «لما تأيمت حفصة قال عمر لعثمان : إن شئتَ أنكحتك حفصة بنت عمر» الحديث أخرجه البخارى .

فأجابه موسى :

( قال ذلك بينى وبينك ) أى قال ما شرطت علىّ فلك ، وما شرطت من تزوج إحداهما فلى والأمر على ذلك لا يخرج كلانا عنه ، لا أنا عما شرطتَ علىّ ، ولا أنت عما شرطت على نفسك .

ثم فسر هذا بقوله :

( أيما الأجلين قضيت فلا عدوان علىّ ) أى أىّ المدتين قضيتُ ، الثمانى الحجج أو العشر وفرغت منها فوفيتُكها برعى غنمك وماشيتك فليس لك أن تطالبنى بأكثر منها .

روى «أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل : أي الأجلين قضى موسى؟ قال : أوفاهما وأبرهما » رواه الخطيب فى تاريخه .

ثم جعل الله شهيدا على صدق ما يقول كل منهما فقال :

( والله على ما نقول وكيل ) أى والله شهيد على ما أوجب كل منهما على نفسه لصاحبه .

---

فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٢٩) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَامُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٣٠) وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَامُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ (٣١) اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٣٢) .

## تفسير المفردات

قضى الأجل: أى أتم المدة المضروبة بينهما ، آنس: أى أبصر إبصارا بينا لا شبهة فيه ، جذوة : أى عود غليظ فى رأسه نار ، تصطلون : أى تستدفئون ، والبقعة : القطعة من الأرض على غير هيئة التى بجانبها ، والجانّ : الحية الصغيرة التى توجد فى كثير من الدور ولا تؤذى ، ولم يعقب : أى ولم يرجع ، اسلك يدك : أى أدخلها ، والجيب : الفتحة فى القميص ونحوه من حيث يُخْرَج الرأس ، سوء : أى عيب ، والرهب : المخافة .

## المعنى الجملى

بعد أن قضى موسى أتم الأجلين وأوفاهما عزم على الرحيل إلى مصر لزيارة ذوى قرابته ، ومما جرأه على ذلك طول مدة الجناية وظنه أنه قد نُسِى أمرُه وكأنه أصبح فى خبر كان ، فلما سار بأهله أبصر من جانب الطور نارا فطلب منهم المكث ، ليحضر لهم جذوة من هذه النار ، فناداه ربه ، وآتاه من البرهانات على نبوته ما قصه علينا فى كتابه .

## الإيضاح

( فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور نارا قال لأهله امكثوا إنى آنست نارا لعلى آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون ) أى فلما وفّى موسى الأجل الذى اتفق عليه مع حميه تحمل بأهله وما كان معه من الغنم التى وهبها له صهره وسلك بهم الطريق فى ليلة مَطرة وظلمة باردة ونزل منزلا فجعل كلما أورى زنده لايضىء شيئا ، فعجب لذلك ، وبينا هو كذلك رأى نارا تضىء عن بعد فقال لأهله انتظروا قليلا ، إنى أبصرت نارا لعلى آتيكم منها بخبر الطريق وكانوا قد ضلوا عنه ، أو آتيكم بقطعة من الحطب فيها نار لتستدفئوا بها من البرد وكان الوقت شتاء .

( فلما أتاها نودى من شاطىء الوادى الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة أن ياموسى إنى أنا الله رب العالمين ) أى فلما جاء إلى النار التى أبصرها من جانب الطور ناداه ربُّه من جانب الوادى الأيمن : أى عن يمين موسى فى البقعة المباركة من ناحية الشجرة : ياموسى إنى أنا الله ربك ورب العالمين جميعا .

وقد خلق الله فيه علما يقينيا بأن المتكلم هو الله تعالى ، وأن ذلك الكلام كلامه ، وقد جُعِلت الشجرة مباركة ، لأنه تعالى كلم موسى هناك وبعثه نبيا .

ثم أمره الله أن يلقى عصاه لديه آية على نبوته فقال :

( وأن ألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جانّ ولى مدبرا ولم يعقب ) أى ونودى بأن ألق عصاك فألقاها فصارت حية تسعى ، فلما رآها تتحرك وتضطرب كأنها جان من الحيات ، لسرعة عَدْوِها وخفة حركتها ـ ولّى هاربا منها ولم يرجع .

ثم نودى بما يهدئ رَوْعه :

( ياموسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين ) أى ياموسى أقبل إلىّ ولا تخف مما تهرب منه ، فإنك آمن من أن ينالك سوء ، إنما هى عصاك أردنا أن نريك فيها آية كبرى ، لتكون عونك لدى الطاغية الجبار فرعون ملك مصر .

ثم أراه آية أخرى زيادة فى طمأنينته ، وأمره بقوله :

(أسلك يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غيرسوء) أى أدخل يدك فى جيب قميصك تخرج ولها شعاع يضىء من غير عيب ولا برص .

ولما اعترى موسى الخوف من العصا تارة ، ومن الدهشة بشعاع يده مرة أخرى ، أمره ربه أن يضع يده على صدره ليزول مابه من الخوف فقال :

( واضمم إليك جناحك من الرهب ) أى وضع يدك على صدرك يذهب مابك من خوف ، كما يشاهد من حال الطائر ، إذا خاف نشر جناحيه ، وإذا أمن واطمأن ضمهما إليه ، وكان موسى يرتعد خوفا إما من آل فرعون وإما من الثعبان .

قال ابن عباس : كل خائف إذا وضع يده على صدره زال خوفه .

ثم ذكر فذلكة لما تقدم فقال :

( فذانك برهانان من ربك إلى فرعون وملئه ) أى فما تقدم من جعل العصا حية تسعى وخروج اليد بيضاء من غير سوء بعد وضع اليد فى الجيب ـ دليلان واضحان على قدرة ربك ، وصحة نبوة من جريا على يديه ، أرسلناهما إلى فرعون وقومه .

ثم ذكر العلة له فى إظهار الآيات لهم بقوله :

( إنهم كانوا قوما فاسقين ) أى إنهم كانوا قوما خارجين عن طاعة الله ، مخالفين

لأمره ، منكرين لكل دين جاء به الرسل ، فكانوا جديرين بأن نرسلك إليهم بهاتين المعجزتين الباهرتين .

قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (٣٣) وَأَخِى هَارُونَ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِى رِدْءًا يُصَدِّقُنِى إِنِّى أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (٣٤) قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ (٣٥) فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِى آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ (٣٦) وَقَالَ مُوسَى رَبِّى أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٣٧) .

## تفسير المفردات

الردء : العون ، يقال ردأته على عدوه : أى أعنته عليه ، قال الشاعر :

ألم تر أن أصرمَ كان ردئى وخيرَ الناس فى قلٍّ ومال

يصدقنى : أى يوضح ما قلته ، ويقيم عليه الأدلة ، ويجادل المشركين ، والعضد : مابين المرفق إلى الكتف ، والمراد بشد العضد : التقوية والإعانة . قال طَرَفة :

بنى لُبَيْنَى لستُمُ بيد إلا يداً ليست لها عَضُدُ

والسلطان: التسلط والغلبة ، مفترى : أى مختلق ، عاقبة الدار : أى العاقبة المحمودة فى الدار الدنيا التى تفضى إلى الجنة .

## المعنى الجملى

اعلم أنه لما قال سبحانه لموسى فذانك برهانان من ربك علم أنه سيذهب بهذين البرهانين إلى فرعون وقومه ـ وحينئذ طلب منه أن يؤتيه ما يقوّى به قلبه ويزيل

خوفه من فرعون ، لأنه إنما خرج من ديار مصر - فرارا منه وهربا من سطوته ، فيرسل معه أخاه هرون وزيرا فأجابه إلى ماطلب ، وأرسله هو وهرون إلى فرعون وملئه ومعهما المعجزات الباهرة ، والأدلة الساطعة ، فلما عاينوا ذلك وأيقنوا صدقه لجئوا إلى العناد والمكابرة فقالوا ماهذا إلا سحر مفترى ، ومارأينا أحدا من آبائنا على هذا الدين ، فقال لهم موسى : ربى أعلم بالمهتدى منا ومنكم ، وسيفصل بينى وبينكم ، ويجعل النصر والتأييد للصالحين من عباده .

## الإيضاح

( قال رب إنى قتلت منهم نفسا فأخاف أن يقتلون . وأخى هرون هو أفصح منى لسانا فأرسله معى ردءا يصدقنى إنى أخاف أن يكذبون ) أى قال يارب إنى قتلت من قوم فرعون نفسا ، فأخاف إن أتيتهم ولم أبِنْ عن نفسى بحجة أن يقتلونى ، لأن مافى لسانى من عقدة يحول بينى وبين ماأريد من الكلام ، وأخى هرون هو أفصح منى لسانا ، وأحسن بيانا ، فأرسله معى عونا يلخّص بلسانه الفصيح وجوه الدلائل ، ويجيب عن الشبهات ، ويجادل هؤلاء الجاحدين المعاندين ، وإنى أخاف أن يكذبونى ولسانى لايطاوعنى حين المحاجة .

فأجابه سبحانه إلى ماطلب .

( قال سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطانا فلا يصلون إليكما ) أى سنقويك ونعينك بأخيك ، ونجعل لكما تسلطا عظيما وغلبة على عدوكما ، فلا يصلون إليكما بوسيلة من وسائل الغَلَب .

( بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون ) أى أنتما ومن تبعكما الغالبون بحججنا وسلطاننا الذى نجعله لكما .

وفى هذا دليل على أن فرعون لم يصل إلى السحرة بشىء مما هددهم به ، لأنهم من أكبر الأتباع الباذلين أنفسهم فى سبيل الله .

ثم أبان ماصدر من فرعون عقب مجىء موسى إليه فقال :

( فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات قالوا ماهذا إلا سحر مفترى وماسمعنا بهذا فى آبائنا الأولين ) أى فحين جاء موسى بالحجج البالغة الدالة على صدق رسالته ـ فرعونَ وملأَه ، قالوا ماهذا إلا سحر افتريته من عندك ، وانتحلته كذبا وبهتانا ، وماسمعنا بهذا الذى تدعونا إليه من عبادة إله واحد فى أسلافنا وآبائنا الذين مضوا من قبلنا .

وهذا تحكيم لعادة التقليد التى أضلّت كثيرا من الناس، على أنهم قد كذبوا وافتَرَوْا، فإنهم سمعوا بذلك فى عهد يوسف عليه السلام ( وما بالعهد من قِدَم ) فقد قال لهم الذى آمن : « ياقَوْمِ إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ـ إلى أن قال ـ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ » .

ولما كذبوه كفرا وعنادا وهم الكاذبون رد عليهم بما أشار إليه بقوله :

( وقال موسى ربى أعلم بمن جاء بالهدى من عنده ومن تكون له عاقبة الدار ) أى وقال موسى مجيبا فرعون وملأَه : ربى أعلم بالحق منا يافرعون من المبطل ، ومن الذى جاء بالحق الذى يوصّل إلى سبيل الرشاد ، ومن الذى له العقبى المحمودة فى الدار الآخرة ؟ .

وفى هذا الأسلوب من أدب الخطاب فى الحجاج والمناظرة مالا يخفى ، فهو لم يؤكد أن خصمه فى ضلال كما لم ينسُبْه إلى نفسه بل ردده بينهما وهو يعلم أنه لأيهما ، وعلى هذا النحو جاء الخطاب من النبى صلى الله عليه وسلم للمشركين بقوله : « وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِى ضَلَالٍ مُبِينٍ » .

ثم علل هذا بأن سنة الله قد جرت بأن المخذول هو الكاذب فقال :

( إنه لا يفلح الظالمون ) أى إنه لاينجح الكافرون ولا يدركون طَلِبَتَهم ، وفى هذا إيماء إلى أنهم لايظفرون بالفوز والنجاة ، بل يحصلون على ضد ذلك ، وهذا غاية الزجر والتهديد لكفهم عن العناد .

وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَاأَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَاهَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٣٨) وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ (٣٩) فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (٤٠) وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ (٤١) وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ (٤٢) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٤٣) .

## تفسير المفردات

هامان : وزير فرعون ، صرحا : أى قصرا عاليا ، أطلع : أى أصعد وأرتقى ، فنبذناهم : أى طرحناهم ، أئمة : واحدهم إمام وهو من يقتدى به فى الدين أو فى الدنيا ، يدعون إلى النار : أى إلى ما يوجبها من الكفر والمعاصى ، لعنة : أى طردا من الرحمة ، من المقبوحين : أى المخزيين ، يقال قَبَحَه الله : أى نحاه من كل خير ، وقَبَحْتُ وجها وقبّحت بمعنى ، قال الشاعر :

ألا قَبَحَ الله البراجِمَ كُلَّها		وقبّح يَرْبوعا وقبّح دَارِمَا

الكتاب : هو التوراة ، القرون الأولى : هم قوم نوح وهود وصالح ، بصائر : واحدها بصيرة ، وهى نور القلب الذى يميز بين الحق والباطل .

## المعنى الجملي

بعد أن رغّب موسى فرعون وقومه فى التوحيد والنظر فى الكون تارة ، ورهّبهم من عذاب الله وشديد نكاله تارة أخرى ـ أجابه فرعون بتلك المقالة التى تدل على الجهل المطبق ، ونقصان العقل ، وأنه بلغ غاية لاحدّ لها فى الإنكار وأنه لامطمع فى إيمانه ، لعتوّه وطغيانه واستكباره فى الأرض حتى قال ما قال ، ومن ثم كانت عاقبته فى الدنيا الهلاك بالغرق هو وجنوده واللعن من الله والناس ، وفى الآخرة الطرد من رحمة الله .

ثم أخبر سبحانه أنه آتى موسى التوراة ، وجعلها نورا للناس يهتدون بها ، وتكون لهم تذكرة من عقاب الله ، وشديد عذابه .

## الايضاح

( وقال فرعون يأيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى ) أى وقال فرعون يأيها القوم ما علمت لكم فى أى زمن إلها غيرى كما يدّعى موسى ، والأمر محتمل أن يكون ، وسأحقق ذلك لكم ، وهذا كلام ظاهره الإنصاف ، ليتوصل بذلك إلى قبولهم ما يقول لهم بعد ذلك فى شأن الإله وتسليمهم إياه ، اعتمادا على ما رأوا من عظيم نَصَفَته فى القول .

أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كلمتان قالهما فرعون ( ما علمت لكم من إله غيرى ) وقوله : « أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى » كان بينهما أربعون عاما ، فأخذه الله نكال الآخرة والأولى » .

وخلاصة مقاله — لاعلم لى برب غيرى فتعبدوه ، وتصدقوا قول موسى فيما جاءكم به ، من أن لكم وله ربا غيرى ، ومعبودا سواى .

ونحو الآية قوله : « فَحَشَرَ فَنَادَى . فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى . فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى » وقوله « لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ »

قال الرازى : ليس مراده من ادعاء الألوهية أنه خالق السموات والأرض والبحار والجبال وخالق الناس ، فإن العلم بامتناع ذلك واضح لكل ذى عقل ، بل مراده بذلك وجوب عبادته ، فهو ينفى وجود الإله ويقول : لاتكليف على الناس إلا أن يطيعوا مليكهم وينقادوا لأمره اه بتصرف .

ثم خاطب وزيره آمرا له على سبيل التهكم أمام موسى ، ليشكك قومه فى صدق مقالته .

( فأوقد لى ياهامان على الطين فاجعل لى صرحا لعلى أطلع إلى إله موسى ) أى فاصنع لى آجرًّا واجعل لى منه قصرا شامخا وبناء عاليا أصعد وأرتقى إلى إله موسى الذى يعبده فى السماء ، ويدعى أنه يؤيده وينصره وهو الذى أرسله إلينا .

وبمعنى الآية قوله : « وَقَالَ فِرْعَوْنُ يا هَامَانُ ابْنِ لِى صَرْحًا لَعَلِّى أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ أَسْبَابَ السَّمٰوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلٰهِ مُوسَى وَإِنِّى لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا » .

ثم زاد قومه شكا فى صدقه بقوله :

( وإنى لأظنه من الكاذبين ) أى وإنى لأظنه كاذبا فيما يدّعى ، من أن له معبودا فى السماء ينصره ويؤيده ، وأنه هو الذى أرسله .

ثم ذكر سبحانه ماهو كالسبب فى العناد والجحود فقال :

( واستكبر هو وجنوده فى الأرض بغير الحق وظنوا أنهم إلينا لايرجعون ) أى ورأى هو وجنوده كل من سواهم فى أرض مصر حقيرا ، عتوًّا منهم على ربهم ، وحسبوا أنهم بعد مماتهم لايبعثون ، ولا يثابون ولا يعاقبون ، ومن ثم ركبوا أهواءهم ، ولم يعلموا أن الله لهم بالمرصاد ، وأنه مجازيهم على خبيث أعمالهم ، وسيىء أقوالهم .

ثم أخبر بما نالهم من عقاب الدنيا بعد أن توعدهم بعقاب الآخرة فقال :

( فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليمّ ) أى فجمعنا فرعون وجنوده من القبط فألقيناهم جميعا فى البحر .

وفى هذا مالا يخفى من الدلالة على عظم شأن الخالق وكبريائه وسلطانه ، وشديد احتقاره لفرعون وقومه ، واستقلاله لهم وإن كانوا عددا كبيرا ، وجما غفيرا ، فما مثلهم إلا مثل حصيات صغار قذفها الرامى من يده فى البحر .

ثم أمر رسوله صلى الله عليه وسلم وقومه بالنظر والاعتبار والتأمل فى العواقب ، ليعلموا أن هذه سنة الله فى كل مكذب برسله فقال :

( فانظر كيف كان عاقبة الظالمين ) أى فانظر أيها المعتبر بالآيات ، كيف كان أمر هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم ، وكفروا بربهم ، وردوا على رسوله نصيحته ـ ألم نهلكهم ونورّث ديارهم وأموالهم أولياءنا ونخوّلهم ما كان لهم من جنات وعيون ، وكنوز ومقام كبير ، بعد أن كانوا مستضعفين : تُقتّل أبناؤهم وتستحيا نساؤهم ، وإنّا بك وبمن آمن بك فاعلون ، فمخوّلوك وإياهم ديارَ من كذبك وردّ عليك ماأتيتهم به من الحق ، وأموالهم بعد أن تستأصلوهم قتلا بالسيف ـ سنة الله فى الذين خلوا من قبل .

ثم ذكر مايوجب سوء عاقبتهم وعذابهم فى النار فقال :

( وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ) أى وجعلنا فرعون وقومه أئمة يقتدى بهم أهل العتو والكفر بالله ، فهم يحثون على فعل الشرور والمعاصى ، وتدسية النفوس بالفسوق والآثام التى تلقى بفاعلها فى النار .

وما كفاهم أن كانوا ضالين كافرين بالله ورسوله ، بل دأبوا على إضلال سواهم وتحسين العصيان لهم ، وبذا قد ارتكبوا جريمتين ، فباءوا بجزاءين : جزاء الضلال وجزاء الإضلال ، وقد جاء فى الحديث : « من سنّ سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة ، ومن سنّ سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة » .

ثم ذكر أنه لا نصير لهم ولا شفيع فى ذلك اليوم فقال :

( ويوم القيامة لا ينصرون ) أى ويوم القيامة لايجدون نصيرا يدفع عنهم عذاب

الله إذا حاق بهم ، وقد كانوا فى الدنيا يتناصرون ، فكان لهم مطمع فى النصرة يومئذ بحسب مايعرفون .

ثم ذكر ماهو كالفذلكة لما تقدم ، وبين سوء حالهم فى الدارين فقال :

( وأتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين ) أى وألزمنا فرعون وقومه فى هذه الدنيا خزيا وغضبا منا عليهم ومن ثم قضينا عليهم بالهلاك والبوار وسوء الأحدوثة ، ونحن مُتْبِعُوهم لعنة أخرى يوم القيامة ، فمخزوهم الخزى الدائم ومهينوهم الهوان اللازم الذى لافكاك عنه .

ثم بين سبحانه الحاجة التى دعت إلى إرسال موسى ليكون كالتوطئة لبيان الحاجة الداعية إلى إنزال القرآن الكريم على رسوله صلى الله عليه وسلم فقال :

( ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ماأهلكنا القرون الأولى بصائر للناس وهدى ورحمة لعلهم يتذكرون ) أى ولقد أنزلنا على موسى التوراة وفصلنا فيها الأحكام التى فيها سعادة البشر فى دنياهم وآخرتهم من بعد ماأهلكنا الأمم التى من قبلهم كقوم نوح وهود وصالح ، ودَرَسَتْ معالم الشرائع وطُمِست آثارها واختلت نظم العالم ، وفشا بينهم الشر ، ورُفِع الخير . فاحتاج الناس إلى تشريع جديد يصلح مافسد من عقائدهم وأفعالهم ، بتقرير أصول فى ذلك التشريع تبقى على وجه الدهر ، وترتيب فروع تتبدل بتبدل العصور واختلاف أحوال الناس ، وفيها التذكير بأحوال الأمم الخالية ، ليكون فى ذلك عبرة للناس ، ونور لقلوبهم ، تُبْصر به الحقائق ، وتميز الحق من الباطل ، بعد أن كانوا فى عماية عن الفهم والإدراك ، وتهديهم إلى مايوصلهم إلى القرب من ربهم ، ونيل رضوانه ومغفرته ورحمته ، ليتذكروا نعم الله عليهم فيشكروه عليها ، ولا يكفروا بها .

قال أبو سعيد الُخدْرى : قال النبى صلى الله عليه وسلم : « ماأهلك الله قوما ولا قرنا ولا أمة ولا أهل قرية بعذاب من السماء ولا من الأرض منذ أنزل التوراة

على موسى غير القرية التي مُسِخت قردة ، ألم تر إلى قوله تعالى : « وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى » .

---

وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٤٤) وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٤٥) وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٤٦) وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧) .

## تفسير المفردات

الغربي : هو الجبل الغربي الذي وقع فيه الميقات وأعطى الله فيه ألواح التوراة لموسى ، قضينا : أي عهدنا إليه وكلفناه أمرنا ونهينا ، الأمر : أي أمر الرسالة ، الشاهدين: أي الحاضرين ،فتطاول عليهم العمر : أي بُعد الأمد ، ونحوه « فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ » ثاويا : أي مقيما . قال العجّاج :

* فبات حيث يدخل الثَّوِيُّ * أي الضيف المقيم ، أهل مدين : أي قوم شعيب عليه السلام ، مصيبة : أي عذاب الدنيا والآخرة ، ولولا الثانية بمعنى هلا وتفيد تمنى حصول ما بعدها والحث عليه .

## المعنى الجملي

بعد أن أبان سبحانه فيما سلف أنه أرسل موسى بعد أن أهلك القرون الأولى ، ودَرَسَت الشرائع ، واحتيج إلى نبي يرشد الناس إلى ما فيه صلاحهم في معاشهم ومعادهم

أردف ذلك بيان الحاجة إلى إرسال رسوله محمد صلى الله عليه وسلم لمثل تلك الدواعى التى دعت إلى إرسال موسى عليه السلام ، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، ولأن رحمته اقتضت ألا يعذب أحدا إلا إذا أرسل رسولا ، ويتضمن ذلك كون القرآن وحيا من عند الله ، لأن مافصل فيه من الأحوال لايتسنى إلا بالمشاهدة أو التعلم ممن شاهدها ، وقد انتفى كلاهما فتبين أنه بوحى من علام الغيوب .

# الإيضاح

( وما كنت بجانب الغربى إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين ) أى وما كنت حاضرا بجانب الجبل الغربى الذى وقع فيه الميقات وأعطى الله فيه ألواح التوراة لموسى حين عهدنا إليه أمر النبوة ، وما كنت من جملة السبعين الذين اختيروا لسماع تفاصيل ذلك الأمر الذى أوحينا به إلى موسى حتى تخبر به كله على الوجه الذى أتيناك به فى هذه الأساليب المعجزة .

وخلاصة ذلك — إن إخبارك بالغيوب الماضية التى لم تشهدها وقد قصصتها كأنك سامع راء لها وأنت أمى لاتقرأ ولا تكتب ، وقد نشأت بين قوم أميين لا يعرفون شيئا من ذلك ـ لهو من أعظم البراهين على نبوتك ، وإن إخبارك بذلك إنما هو بوحى من الله كما قال : « أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى » .

( ولكنا أنشأنا قرونا فتطاول عليهم العمر ) أى ولكنا أنشأنا من عهد موسى إلى عهدك قرونا كثيرة فتطاول عليهم العمر إلى أن وجد القرن الذى أنت فيه فدرست العلوم فوجب إرسالك إليهم ، فأرسلناك وعرّفناك أحوال الأنبياء ، وأحوال موسى ، وأرسلناك بما فيه سعادة البشر .

والخلاصة — إنك ما كنت شاهدا موسى وماجرى له ولكنا أوحيناه إليك ، وفى هذا تنبيه إلى المعجزة كأنه قال : إن فى إخبارك عن هذه الأشياء من غير حضور ولا مشاهدة ولا تعلّم من أهله ـ لدلالة ظاهرة على نبوتك .

ثم ذكر ماهو كالدليل على ذلك فقال :

(١) ( وما كنت ثاويا فى أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ) أى وما كنت مقيما بين أهل مدين تتلقف القصة ممن شاهدها ، وتقرؤها عليهم بطريق التعلم منهم كما يقرأ المتعلم على معلمه ، فتفهَّمَ أخبار موسى بهذا الطريق ونحوه .

( ولكنا كنا مرسلين ) لك موحين إليك تلك الآيات ونظائرها ، ولولا ذلك ماعلمتها وماأخبرتهم بها .

(٢) ( وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ) أى وما كنت بجانب الطور ليلة المناجاة وتكليم الله موسى حتى تحدِّثَ أخبارها ، وتفصل أحوالها ، حديث الخبير العليم ببواطن أمورها وظواهرها .

( ولكن رحمة من ربك لتنذر قوما ماأتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون ) أى ولكن أرسلناك بالقرآن الناطق بتلك الأخبار وبغيرها مما فيه صلاح البشر وسعادتهم فى معاشهم ومعادهم ، لتنذر قوما لم يأتهم قبلك نذير ، وتحذرهم بأس الله وشديد عقابه على إشراكهم به وعبادتهم الأوثان والأنداد ، لعلهم يرجعون عن غيهم ، ويتذكرون عظيم خطئهم ، وكبير جُرْمهم ، فينيبوا إلى ربهم ، ويقروا بوحدانيته ، ويفردوه بالعبادة دون سواه من الآلهة .

ثم ذكر الحكمة فى إرسال الرسول صلى الله عليه وسلم إليهم ، وأن فى ذلك قطعا لمعذرتهم ، حتى إذا جاءهم بأسنا لم يجدوا حجة فقال :

( ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم فيقولوا : ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين ) أى ولولا أن يقول هؤلاء الذين أرسلناك إليهم حين يَحُلّ بهم بأسنا ويأتيهم عذابنا على كفرهم بربهم واجترامهم للمعاصى قبل أن نرسلك إليهم : ربنا هلاّ أرسلت إلينا رسولا قبل أن يَحُلّ بنا سخطك وتنزل بنا

كما هو سنتنا فى أمثالهم كما جاء فى الآية الكريمة : «لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ» .

والخلاصة — إنا أزحنا العذر ، وأكملنا البيان ، فبعثناك أيها الرسول إليهم ، وقد حكمنا بأنا لا نعاقب عبدا إلا بعد إكمال البيان والحجة و بعثة الرسل .

---

فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ (٤٨) قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤٩) فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللهِ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥٠) وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٥١) .

## تفسير المفردات

الحق : أى الأمر الحق وهو القرآن ، سحران : أى ما أوتيه موسى وما أوتيه محمد ، تظاهرا : أى تعاونا وتناصرا ، فإن لم يستجيبوا لك : أى فإن لم يفعلوا ما كلفتهم به ، والتوصيل : ضم قطع الحبل بعضها إلى بعض قال شاعرهم :

فقل لبنى مروان ما بالُ ذِمَّتِى بحبل ضعيفٍ ما يزال يُوَصَّل

والمراد به هنا إنزال القرآن منجّما مفرقا يتصل بعضه ببعض .

## المعنى الجملى

بعد أن بين فيما سلف أنه إنما أرسل رسوله قطعا لمعذرتهم حتى لا يقولوا حين نزول العذاب بهم : هلا أرسلت إلينا رسولا فنتبعه — أردفه بيان أنه حين مجىء الرسول و إنزال

القرآن عليه جحدوا به ، وكذبوا رسالته ، ولم يعتدوا بكتابه ، وطلبوا مجىء معجزات كمعجزات موسى ، من مجىء التوراة جملة ، وقلب العصا ، وإخراج اليد بيضاء من غير سوء ، وقد كفر المعاندون من قَبْلهم بما جاء به موسى من المعجزات وقالوا : ماهى إلا سحر مفترى وماهى إلا أساطير الأولين وإن موسى ومحمدا ساحران تعاونا على الخداع والتضليل ، وإنا لـكافرون بكل منهما .

ثم أمر رسوله أن يقول لهم : إن استطعتم أن تأتوا بكتاب خير من كتابيهما موصل إلى الحق هاد إلى سبيل الرشد فافعلوا ، فإن لم تستطيعوا ذلك فأنتم متبعون للهوى سالكون سبيل الضلال ، ولا أضل ممن يسلك هذه السبيل .

ثم ذكر أنه ما أرسل الكتاب منجما على هذا النهج إلا ليكون فيه عبرة وذكرى لهم بين آن وآخر لعلهم يرتدعون عن غيهم ، ويثوبون إلى رشدهم .

## الإيضاح

(فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا أوتى مثل ماأوتى موسى) أى فلما جاء محمد صلى الله عليه وسلم هؤلاء القوم الذين لم يأتهم نذير من قبله ــ بالكتاب الكريم قالوا تمرداً وعناداً وتمادياً فى الغى والضلال : هلا أوتى مثل ماأوتى موسى من المعجزات كقلب العصا حية واليد البيضاء وتظليل الغمام إلى نحو أولئك .

ثم ذكر أن هذه شِنْشِنة المعاندين فى كل زمان ، لايريدون بما يقولون إظهار الحق ، بل يقصدون التمادى والإنكار ، ألا ترى أن من أُرْسِل إليهم موسى قالوا مثل هذه المقالة كما أشار إلى ذلك بقوله :

(أولم يكفروا بما أوتى موسى من قبل ؟) أى إن المعاندين الذين مذهبهم كمذهبكم وهم الكفار الذين كانوا فى زمن موسى كفروا بما جاء به موسى ، فأنتم متَّبعون نهجهم ، وسالكون سبيلهم .

ثم بين طريق كفرهم به فقال :

(قالوا سحران تظاهرا وقالوا إنا بكل كافرون) أى قالوا إن موسى ومحمدا ساحران

تعاونا على الدَّجْل والتضليل ، وخداع السُّذّج من الجماهير ، ولم يرسلهما ربهما لهداية البشر كما زعما ، وإنا لكافرون بكل منهما ، ولا نؤمن بما جاءا به .

ثم أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يتحدى قومه بأن يأتوا بكتاب أهدى للبشر، وأصلح لحالهم فى المعاش والمعاد من التوراة والقرآن فقال :

( قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه إن كنتم صادقين ) أى ائتونى بكتاب من عند الله أصلح لهداية البشر من التوراة والقرآن ، فإن جئتم به فإنى لأتركهما وأتبع ما تجيئون به ، إن كنتم صادقين فيما تقولون ، جادِّين فيما تدّعون .

ثم توعدهم إذا هم نكصوا على أعقابهم ، ولم يلبّوا طلبه ، ولم يأتوا بالكتاب فقال :

( فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ) أى فإن لم يفعلوا ما كلفتهم به فاعلم أنهم سادرون فى غُلَوَائهم ، متبعون لأهوائهم ، راكبون لرءوسهم ، حائدون عما يقتضيه الدليل والبرهان .

ثم بين عاقبة من يتبع الهوى فقال :

( ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ؟ ) أى ومن أضل عن طريق الرشاد وسبيل السداد ، ممن سار متبعا الهوى بغير بيان من الله وعهد منه بما ينزله على رسله بوحى منه .

وفى هذا من التشنيع عليهم ، وتقبيح فعلهم ما لا يخفى على كل ذى لب .

ثم بين سنته تعالى فى خلقه فقال :

( إن الله لا يهدى القوم الظالمين ) أى إن الله لا يوفّق لإصابة الحق واتباع سبيل الرشد ، من خالفوا أمره ، وتركوا طاعته ، وكذبوا رسله ، وبدّلوا عهده ، واتبعوا هوى أنفسهم ، إيثاراً منهم لطاعة الشيطان على طاعة الرحمن .

ولما أثبت نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بين الحكمة فى إنزال القرآن منجّما فقال :

( ولقد وصلنا لهم القول لعلهم يتذكرون ) أى ولقد نزلنا عليهم القرآن متواصلا

بعضه إثر بعض على ما تقتضيه الحكمة ، وترشد إليه المصلحة ، وهى أن يكون أقرب إلى التذكير والتنبيه ، فهم فى كل يوم يطلعون فيه على حكمة جديدة وفائدة زائدة ، فيكون ذلك أدعى إلى إيمانهم ، ورسوخه فى نفوسهم ، وامتلاء قلوبهم نوراً به .

---

الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ (٥٢) وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ (٥٣) أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٥٤) وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ (٥٤) .

## تفسير المفردات

مسلمين : أى منقادين خاضعين لله ، يدرءون أى يدفعون ، واللغو : ما حقه أن يُلْغَى ويترك من العبث وسخف القول ، سلام عليكم : أى سلام لكم مما أنتم فيه ، لا نبتغى الجاهلين : أى لا نريد أن نكون من أهل السفه والجهل ، فنجازيكم على باطلكم بباطل مثله .

## المعنى الجملى

بعد أن أثبت أن القرآن وحى من عند الله ، وأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ــ أكد هذا بأن أثبت أن أهل الكتاب آمنوا به حين رأوا الأدلة تتظاهر على صدقه ، وموافقته لما فى كتبهم من وصف ، فأجْدِر بمن لا كتاب لهم من قبله أن يؤمنوا به .

قال سعيد بن جُبَيْر : نزلت هذه الآية فى سبعين من القسيسين بعثهم النجاشى

إلى النبي صلى الله عليه وسلم فلما قدموا عليه قرأ عليهم ( يس والقرآن الحكيم ) حتى ختمها فجعلوا يبكون وأسلموا .

## الايضاح

( الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون ) أى الذين آمنوا بالتوراة والإنجيل من أهل الكتاب ، ثم أدركوا محمدا صلى الله عليه وسلم آمنوا بالقرآن ، لأنهم قد وجدوا فى كتبهم البشرى به ، وانطباق الأوصاف عليه .

ونحو الآية قوله : « وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلهِ » ، وقوله : « الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ » .

( وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين ) أى وإذا تلى هذا القرآن عليهم قالوا صدّقنا بأنه نزل من عند ربنا حقا ، وقد كنا مصدّقين به قبل نزوله ، لأنا وجدنا فى كتبنا نعت محمد ، ونعت كتابه .

وفى هذا إيماء إلى أن إيمانهم به متقادم العهد ، فآباؤهم الأولون قرءوا فى الكتب الأوَل ذكره ، وأبناؤهم من بعدهم فعلوا كما فعلوا من قبل نزوله .

ثم بين جزاءهم على إيمانهم به بعد إيمانهم بما سبقه من الكتب بقوله :

( أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ) أى هم يؤتون ثواب عملهم مرتين : مرة على إيمانهم بكتابهم ، ومرة على إيمانهم بالقرآن ، بسبب صبرهم وثباتهم على الإيمانين فإنّ تجشم مثل هذه المشاقّ شديد على النفوس ، فقد يصيبهم من جرّاء ذلك أذى من قومهم أو من المشركين فى اتباعهم محمدا صلى الله عليه وسلم .

ونحو الآية قوله تعالى فى شأنهم « يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ » وفى الحديث الصحيح عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين : رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه ثم آمن بى ، وعبد

مملوك أدّى حق الله وحق مواليه ، ورجل كانت له أمة فأدّبها فأحسن تأديبها ثم أعتقها فتزوجها » وروى أبو أمامة قال : إنى لتحتَ راحلة رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الفتح فقال قولا حسنا جميلا وقال فيما قال : « من أسلم من أهل الكتابين فله أجره مرتين وله مالنا وعليه ما علينا » .

ثم ذكر من أوصافهم ما يؤهّلهم للزلفى والقرب من ربهم فقال :

(١) ( ويدرءون بالحسنة السيئة ) أى وهم يدفعون ماسمعوا من الأذى والشتم بالصفح والعفو عنه .

( ومما رزقناهم ينفقون ) أى وينفقون مما أعطاهم الله من فضله من المال الحلال ، النفقات الواجبة لأهلهم وذوى قرباهم ، ويؤدون الزكاة المفروضة عليهم ، ويساعدون البائسين وذوى الخصاصة المعوزين .

(٣) ( وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لانبتغى الجاهلين ) أى وإذا سمعوا مالاينفع فى دين ولا دنيا ، من السب والشتائم وتكذيب الرسول أعرضوا عن قائليه ولم يخالطوهم ، وإذا سفِه عليهم سفيه ، وكلّمهم بما لاينبغى رده من القول لم يقابلوه بمثله ، إذ لايصدر منهم إلا طيب الكلام ، وقالوا لنا أعمالنا لاتثابون على شىء منها ولا تعاقبون ، ولكم أعمالكم لانطالب بشىء منها ، فنحن لانشغل أنفسنا بالرد عليكم ، سلام عليكم سلام متاركة وتوديع ، فإنا لانريد طريق الجاهلين .

ونحو الآية قوله تعالى : « وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا » .

روى محمد بن إسحٰق «أنه قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بمكة عشرون رجلا أو يزيدون من نصارى الحبشة حين بلغهم خبره ، فوجدوه فى المسجد ، فجلسوا إليه وكلموه وسألوه ، ورجال من قريش فى أنديتهم حول الكعبة ، فلما فرغوا من مساءلته عما أرادوا دعاهم إلى الله وتلا عليهم القرآن ، فلما سمعوه فاضت أعينهم من الدمع ، ثم استجابوا لله وآمنوا به وصدّقوه ، وعرفوا منه ما كان يوصف لهم فى كتابهم من أمره ،

فلما قاموا عنه اعترضهم أبو جهل بن هشام فى نفر من قريش فقالوا لهم : خيّبكم الله من ركب ، بعثكم مَنْ وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم لتأتوهم بخبر الرجل ، فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه فيما قال ، مارأينا ركبا أحمق منكم ، فقالوا لهم : سلام عليكم، لانجاهلكم ، لنا مانحن عليه ، ولكم ماأنتم عليه لم نأل أنفسنا خيرا .

---

إِنَّكَ لَاتَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (٥٦) وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٥٧) .

## تفسير المفردات

الهداية : تارة يراد بها الدعوة والإرشاد إلى طريق الخير وهى التى أثبتها الله لرسوله فى قوله « وَإِنَّكَ لَتَهْتَدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » وتارة يراد بها هداية التوفيق وشرح الصدر بقذف نور يحيا به القلب كما جاء فى قوله : « أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا » وهى بهذا المعنى نُفِيَتْ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذه الآية ، يجبى إليه : أى يجمع إليه ، يقال جبى الماء فى الحوض : أى جمعه ، والجابية : الحوض العظيم ، والخطف : الانتزاع بسرعة ويراد به هنا الإخراج من البلاد .

## المعنى الجملى

بعد أن أبان فيما سلف أن أهل الكتاب من اليهود والنصارى آمنوا به ، وجاءوا إليه زَرافات ووُحدانا من كل فج عميق ، وجابوا الفيافى وقطعوا البحار للإيمان به ،

بعد أن سمعوا أخباره ، وترامت لهم فضائله وشمائله ، وقد كان فى هذا مَقْنَعٌ لقومه أن يؤمنوا به وأن تحدثه نفسه الشريفة بالطمع فى إيمانهم ، ودخول الهدى فى قلوبهم والانتفاع بما آتاه الله من العرفان ، فتكون لهم به السعادة فى الدنيا والآخرة ـ أردف ذلك الآية الأولى تسلية له صلى الله عليه وسلم إذ لم ينجع فى قومه الذين يحبهم ويحرص عليهم أشد الحرص ـ إنذاره وإبلاغه ، فيقبلوا ماجاء به ، بل أصرّوا على ماهم عليه ، وقالوا لولا أوتى مثل ماأوتى موسىَ ، فكانوا على عكس قوم هم أجانب عنه آمنوا بما جاء به ، وقالوا إنه الحق من ربنا .

وقد استفاضت الأخبار بأن الآية نزلت فى أبى طالب ، فقد أخرج عبد بن حُميد ومسلم والترمذى والبيهقى فى الدلائل عن أبى هريرة قال : « لما حضرت أبا طالب الوفاة أتاه النبى صلى الله عليه وسلم وقال ياعماه : قل لاإله إلا الله أشهد لك بها عند الله يوم القيامة ، فقال : لولا أن تعيِّرنى قريش ، يقولون ماحمله على ذلك إلا جزعه من الموت لأقررت بها عينك ، فأنزل الله ( إنك لاتهدى من أحببت ) » الآية .

ونزل فى الحُرث بن عثمان بن نوفل بن عبد مناف حين أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : نحن نعلم أنك على الحق ، ولكنا نخاف إن اتبعناك وخالفنا العرب ونحن أَكَلَةَ رأس ( يريد : إنا قليلو العدد ) أن يتخطفونا ـ قوله تعالى : ( وقالوا إن نتبع الهدى ) الآية .

## الايضاح

( إنك لاتهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء ) أى إنك لاتستطيع هدى من أحببت من قومك أو من غيرهم هدى موصلا إلى البغية ، فتدخله فى دينك وإن بذلت كل مجهود ، وإنما عليك البلاغ ، والله يهدى من يشاء ، وله الحكمة البالغة ، والحجة الدامغة .

وبمعنى الآية قوله : « لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَـٰكِنَّ اللهَ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ » . وقوله : « وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ » .

( وهو أعلم بالمهتدين ) أى وهو أعلم بالمستعدِّين للهداية فيمنحونها ، ومنهم الذين ذكرت أوصافهم من أهل الكتاب، دون من هم من أهل الغواية كقومك وعشيرتك.

ثم أخبر سبحانه عن اعتذار بعض الكفار فى عدم اتباعهم للهدى فقال :

( وقالوا إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا ) أى وقالوا : نخشى إن اتبعنا ماجئتَ به من الهدى ، وخالفنا من حولنا من أحياء العرب المشركين أن يقصدونا بالأذى ، ويحاربونا ويُجلونا من ديارنا .

فرد الله عليهم مقالتهم وأبان لهم ضعف شبهتهم فقال :

( أو لم نمكن لهم حرما آمنا يجبَى إليه ثمرات كل شىء رزقا من لدنا ؟ ) أى إن ما اعتذرتم به لا يصلح أن يكون عذرا ، لأنا جعلناكم فى بلد أمين ، وحرم معظَّم منذ وجد ، فكيف يكون هذا الحرم آمنا لكم حال كفركم وشرككم ولا يكون أمنا لكم وقد أسلمتم واتبعتم الحق ؟ قال يحيى بن سلام : يقول : كنتم آمنين فى حرمى ، تأكلون رزقى ، وتعبدون غيرى ، أفتخافون إذ عبدتمونى وآمنتم بى ؟ وقد تفضل عليكم ربكم وأطعمكم من كل الثمرات التى تُجْلَب من فجاج الأرض والمتاجر والأمتعة من كل بلد ، رزقا منه لكم .

( ولكن أكثرهم لا يعلمون ) أى ولكن أكثرهم جهلة لا يفطُنون إلى ما فيه خيرهم وسعادتهم ومن ثم قالوا ماقالوا ، وقد كان من حقهم أن يعلموا أن تلك الأرزاق إنما وصلت إليهم من ربهم ، فهو الذى يُخشى ويُتَّقى ، لا سواه من المخلوقين .

---

وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلاَّ قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ (٥٨) وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِى أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى الْقُرَى إِلاَّ وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ (٥٩) .

## تفسير المفردات

بطرت : أي بغت وتجبرت ولم تحفظ حق الله ؛ وأمّها : أكبرها وأعظمها ، وهى قصبتها ( عاصمتها ) .

## المعنى الجملى

هذا هو الرد الثانى على شبهتهم ، فإنه بعد أن بين ماخص به أهل مكة من النعم أتبعه بما أنزله على الأمم الماضية الذين كانوا فى رغد من العيش ، فكذبوا الرسل ، فأزال عنهم تلك النعم ، وأحل بهم النقم .

وإجمال هذا ــ إن قولكم لانؤمن خوفا من زوال النعم ليس بحق ، بل الإصرار على عدم قبول الإيمان هو الذى يزيل هذه النعم .

ثم بين أن من سنته تعالى ألا يهلك قوما إلا إذا أرسل إليهم الرسل مبشرين ومنذرين .

## الإيضاح

( وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا ) أى وكثير من القرى أثرى أهلها وسعَوْا فى الأرض فسادا وبَطِروا تلك النعم ، فخرّب الله ديارهم ، وأصبحت خاوية لم يعمُر منها إلا أقلها ، وصار أكثرها خرابا يبابا .

ونحو الآية قوله : « وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ » .

( وكنا نحن الوارثين ) لهم ، إذ لم يخلفهم أحد يتصرف تصرفهم فى ديارهم وسائر مايتصرفون فيه .

والشىء إذا لم يبق له مالك معين قيل إنه ميراث الله ، لأنه هو الباقى بعد خلقه .

ونحو الآية قوله : « وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ » .

ثم أخبر سبحانه عن عدله وأنه لا يُهْلِك أحدا إلا بعد الإنذار وقيام الحجة بإرسال الرسل فقال :

( وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث فى أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا ) أى وما كانت سنته فى عباده أن يهلك القرى حتى يبعث فى كبراها رسولا يتلو عليهم الآيات الناطقة بالحق ، ويدعوهم إليه بالترغيب حينا ، والترهيب حينا آخر ، فيكون ذلك أدعى إلى إلزام الحجة وقطع المعذرة .

وإنما كان البعث فى أم القرى ، لأن فى أهلها فِطْنة وكياسة ، فهم أقبل للدعوة ، وأعرف بمواقع الحق ؛ إلى أن الرسول يبعث للأشراف كما يرسل إلى العامة ، وهم يسكنون المدائن وهى أمّ ماحولها .

ونحو الآية قوله : « وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً » .

ثم بين أنه لا يهلك القرى بعد إرسال الرسل إلا إذا ظلموا أنفسهم وكذبوا رسلهم فقال :

( وما كنا مهلكى القرى إلا وأهلها ظالمون ) أى ولا نهلك القرى التى نبعث فيها الرسل الذين يدعونهم إلى الحق ، ويرشدونهم إلى سبيل السَّداد إلا إذا ظلموا بتكذيب الرسول وكفروا بالآيات ، فلا نهلك قرية بإيمان ، ولكن نهلكها بظلمها واجترامها المعاصى وارتكابها الآثام ، وقوله : بظلم إشارة إلى أنه لو أهلكهم وهم مصلحون لكان ذلك ظلما منه ، تعالى ربنا عن ذلك علوا كبيراً .

---

وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٦٠) أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٦١) .

## تفسير المفردات

من المحضرين : أى الذين يُحْضرون للعذاب ، وقد اشتهر ذلك فى عرف القرآن كما قال : « لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ » وقال : « إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ » لأن فى ذلك إشعارا بالتكليف والإلزام ، ولا يليق ذلك بمجالس اللذات بل هو أشبه بمجالس المكاره والمضار .

## المعنى الجملى

هذا هو الرد الثالث على تلك الشبهة ، فإن خلاصة شبهتهم أنهم تركوا الدين لئلا تفوتهم منافع الدنيا، فرد الله عليهم بأن ذلك خُرْق رأىٍ وخَطَلٌ عظيم ، فإن ما عند الله خير مما فيها ، لكثرة منافعه وخلوصه من شوائب المضار، ومنافعُها مشوبة ، وهو أبقى مما فيها ، لأنه دائم لا ينقطع ، ومنافعها لا بقاء لها ، فمن الجهل الفاضح إذاً ترك منافع الآخرة لاستيفاء منافعها ، ولا سيما إذا قرنت تلك المنافع بعقاب الآخرة .

## الإيضاح

( وما أوتيتم من شىء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها ، وما عند الله خير وأبقى ) أى وما أُعْطِيتُمْ أيها الناس من شىء من الأموال والأولاد ، فإنما هو متاع تتمتعون به فى الحياة الدنيا ، وتتزينون به فيها ، وهو لا يغنى عنكم شيئا عند ربكم ، ولا يجديكم شَرْوَى نَقِيرٍ لديه ، وما عنده خير لأهل طاعته وولايته لدوامه و بقائه ، بخلاف ما عندكم فإنه ينفد و ينقطع بعد أمد قصير .

ونحو الآية قوله « مَا عِنْدَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِنْدَ اللهِ باقٍ » وقوله : « وَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ » وقوله : « بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحياةَ الدُّنْيا وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى » ، وفى الحديث : « والله ما الحياة الدنيا فى الآخرة إلا كما يغمس أحدكم إصبعه فى اليَمِّ، فلينظر ماذا يرجع إليه ؟ » .

( أفلا تعقلون ؟ ) أى أفلا عقول لكم أيها القوم تتدبرون بها ، فتعرفون الخير من الشر ، وتختارون لأنفسكم خير المنزلتين على شرها ، وتؤثرون الدائم الذى لانفاد له على الفانى الذى ينقطع ، ومن أجل هذا أثر عن الشافعى رحمه الله أنه قال : من أوصى بثلث ماله لأعقل الناس صُرِف ذلك الثلث للمشتغلين بطاعة الله تعالى ـ وكأنه رحمه الله أخذه من هذه الآية .

ثم أكد ترجيح ماعند الله على مافى الدنيا من زينة بقوله :

( أفمن وعدناه وعدا حسنا فهو لاقيه كمن متعناه متاع الحياة الدنيا ثم هو يوم القيامة من المحضرين ؟ ) أى أفمن وعدناه من خلقنا على طاعته إيانا بالجنة وجزيل نعيمها ، مما لاعين رأت ولا خطر على قلب بشر ، فآمن بما وعدناه وأطاعنا فاستحق أن ننجز له وعدنا فهو لاقيه حتما وصائر إليه ، كمن متعناه الحياة الدنيا ونسى العمل بما وعدنا به أهل الطاعة ، وآثر لذة عاجلة على لذة آجلة لاتنفد ، ثم هو يوم القيامة إذا ورد على الله كان من المحضرين لعذابه ؛ وأليم عقابه ؟ .

وهذه الآية تبين حال كل كافر مُتّع فى الدنيا بالعافية والغنى وله فى الآخرة النار ، وحال كل مؤمن صبر على بلاء الدنيا ثقة بوعد الله وله فى الآخرة الجنة .

وخلاصة ذلك ـ أفمن سمع كتاب الله فصدّق به ، وآمن بما وعده الله فيه ، كمن متعناه متاع الحياة الدنيا وقد كفر بالله وآياته ثم هو يوم القيامة من المحضرين لعذابه ـ الجواب الذى لاثانى له ـ إنهما لايستويان فى نظر العقل الرجيح ؟ ! .

وتلخيص المعنى : إنهم لما قالوا تركنا الدين للدنيا قيل لهم : لو لم يحصل عقب دنياكم مضرة العقاب لكان العقل يقضى بترجيح منافع الآخرة على منافع الدنيا ، فكيف و بعد هذه اللذة فيها يحصل العقاب الدائم ؟ .

وجاء الكلام بأسلوب الاستفهام ليكون أبلغ فى الاعتراف بالترجيح .

وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (٦٢) قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ (٦٣) وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ (٦٤) وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ (٦٥) فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ (٦٦) فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ (٦٧) .

## تفسير المفردات

حق : أى وجب وثبت ، والقول : أى مدلول القول ومقتضاه وهو قوله: «لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ» والغواية: الضلال، والفعل غوَى يغوِى كضرب يضرب ، فلم يستجيبوا لهم : أى فلم يجيبوا ، عميت : أى خفيت ، والأنباء : الحجج التى تنجيهم ، ولا يتساءلون ، أى لا يسأل بعضهم بعضا .

## المعنى الجملى

بعد أن ذكر أن التمتع بزينة الدنيا وزخرفها دون طاعة الله وعظيم شكره على نعمه ـ يكون وبالا على الكافر يوم القيامة حين يحضر للعذاب ـ أردف ذلك بيان مايحصل فى هذا اليوم من الإهانة والتقريع للمشركين حين يسألهم سؤالات يحارون فى الجواب عنها ، ويشتد عليهم الخطب حين لا يجدون مخلصا ومعذرة تبرر لهم ما كانوا يقترفون ، فيسألهم أوّلا عن الآلهة التى كانوا يعبدونها فى الدنيا من أصنام وأوثان ، هل ينصرونهم أو ينتصرون ؟ ثم يأمرهم بدعوتهم فلا يجدون منهم ردا ، ثم يسألهم عما أجابوا به الرسل حين دعوهم إلى الإيمان بربهم ، فتخفى عليهم الحجج التى

تنجيهم من العذاب الذى لامفر لهم منه ، ولا يستطيع بعضهم أن يسأل بعضا عما يلقّنه من حجة لهول الموقف واشتداد الخطب ، ثم ذكر بعدئذ حال المؤمنين بربهم الذين عملوا صالح الأعمال ، وبين أنهم يلقون الفوز والظفر بالمراد فضلا من ربهم ورحمة .

## الايضاح

( ويوم يناديهم فيقول أين شركائى الذين كنتم تزعمون ؟ ) أى واذكر أيها الرسول لقومك يوم ينادى رب العزة هؤلاء الذين يُضِلُّون الناس ويصدون عن سبيل الله فيقول لهم : أين شركائى من الملائكة والجن والكواكب والأصنام الذين كنتم تزعمون فى الدنيا أنهم لى شركاء - ليخلّصوكم من هذا الذى نزل بكم من العذاب .

وهذا السؤال للإهانة والتحقير ، لأنهم عرفوا بطلان ما كانوا يفعلون .

ونحو الآية قوله : « وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ ، لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ » .

ثم ذكر جواب هؤلاء الرؤساء الدعاة إلى الضلال فقال :

( قال الذين حق عليهم القول : ربنا هؤلاء الذين أغوينا أغويناهم كما غوينا ) أى قال رؤساء الضلال والدعاة إلى الكفر الذين حق عليهم غضب الله ، ولزمهم الوعيد بقوله : « لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ » فدخلوا النار : ربنا إن هؤلاء الأتباع الذين أضللناهم ، أغويناهم باختيارهم كما غوينا نحن كذلك ، ولم يكن منا لهم إلا الوسوسة والتسويل لا القسر والإلجاء - فهم كانوا مختارين حين أقدموا على تلك العقائد وهذه الأعمال .

وخلاصة ذلك — إن تبعة غيهم واقعة عليهم لا علينا ، إذ لم نلجئهم إلى ذلك ، بل كان منا مجرد الوسوسة فحسبُ ، فإن كان تسويلنا لهم داعيا إلى الكفر ، فقد كان فى مقابلته دعاء الله لهم إلى الإيمان ، بما وضع من الأدلة العقلية ، و بعث إليهم من الرسل، وأنزل إليهم من الكتب المشحونة بالوعد والوعيد والمواعظ والزواجر ، وناهيك بذلك صارفا عن الكفر داعيا إلى الإيمان .

ونحو ذلك قوله حكاية عن الشيطان « إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلاَّ أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ » وقوله لإبليس: «إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ » فقوله : إلا من اتبعك يدل على أن ذلك الاتباع من قِبَل أنفسهم ، لا من إلجاء الشيطان إلى ذلك .

ثم زاد الجملة الأولى توكيداً بقوله :

( تبرأنا إليك ) منهم ومما اختاروه من الكفر والمعاصى اتباعا لهوى أنفسهم ، فلا لوم علينا فى الحقيقة بسببهم .

ونحو الآية قوله : « إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ » .

ثم ذكر ماهو كالعلة لنفى الشبهة عنهم فقال :

( ما كانوا إيانا يعبدون ) أى هم ما كانوا يعبدوننا ، وإنما كانوا يعبدون الأوثان بما زينت لهم أهواؤهم .

ثم طُلِب إليهم دعاء الشركاء توبيخا لهم وتهكما بهم فقال :

( وقيل ادعوا شركاءكم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم ) أى وقيل للمشركين بالله الآلهةَ والأنداد فى الدنيا : ادعوا آلهتكم الذين زعمتم جهلا منكم شركتهم لله ليدفعوا العذاب عنكم ، فدعوهم لفرط الحيرة وغلبة الدهشة ، فلم يجيبوهم عجزاً منهم عن الإجابة .

والمقصد من طلب ذلك منهم فضيحتُهم على رءوس الأشهاد ، بدعاء من لا نفع له ، ولا فائدة منه .

ثم بين حالهم حينئذ وتمنيهم أن لو كانوا وُفِّقوا فى الدنيا إلى سلوك طريق الهدى والرشاد فقال :

( ورأوا العذاب لو أنهم كانوا يهتدون ) أى وأيقن الداعون والمدعوون أنهم صائرون إلى النار لامحالة ، وودّوا حين عاينوا العذاب لو أنهم كانوا من المهتدين المؤمنين فى الدنيا .

ونحو الآية قوله : « وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا » .

وبعد أن سُئلوا عن إشراكهم بالله توبيخا لهم ، سئلوا عن تكذيبهم للأنبياء كما أشار إلى ذلك بقوله :

( ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين ؟ ) أى ويوم ينادى المشركين ربهم وقد برز الناس فى صعيد واحد، منهم المطيع ومنهم العاصى ، وقد أخذ بأنفاسهم الزحام، وتراكبت الأقدام على الأقدام ، فيقول لهم : ماذا أجبتم المرسلين فيما أرسلناهم به إليكم من دعائكم إلى التوحيد والبراءة من الأوثان والأصنام ؟ .

ثم بين أنهم لايحارون جوابا ، ولا يجدون من الحجج ما يدافعون به عن أنفسهم فقال :

(فعميت عليهم الأنباء يومئذ) أى فخفيت عليهم الحجج ولم يجدوا معذرة يجيبون بها، فلم يكن لهم إلا السكوت جوابا .

ثم ذكر أنه تخفى عليهم كل طرق العلم التى كانت تجديهم فى الدنيا فقال :

( فهم لايتساءلون ) أى فلا يسأل بعضهم بعضا كما يتساءل الناس فى المشكلات لما اعتراهم من الدهشة وعظيم الهول ، ولتساويهم جميعا فى عمى الأنباء عليهم والعجز عن الجواب .

وإذا كان الأنبياء لهول ذلك اليوم يُتَعْتِعُون فى الجواب عن مثل ذلك السؤال ويفوضون الأمر إلى علم الله كما قال : « يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ ماذَا أُجِبْتُمْ ؟ قالُوا لاَعِلْمَ لَنَا إنَّكَ أَنْتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ » فما ظنك بهؤلاء الضلاّل ؟ .

وبعد أن ذكر حال المعذبين من الكفار وما يجرى عليهم من التوبيخ والإهانة أتبعه بذكر من يتوب منهم فى الدنيا ، ترغيبا فى التوبة وزجرا عن الثبات على الكفر فقال :

( فأما من تاب وآمن وعمل صالحا فعسى أن يكون من المفلحين ) أى فأما من تاب من المشركين ، وراجع الحق ، وأخلص لله بالألوهة ، وأفرد له العبادة ، وصدّق نبيّه ، وعمل بما أمر به فى كتابه على لسان نبيه ، فهو من الفائزين، الذين أدركوا طَلِبتهم وفازوا بجنات النعيم خالدين فيها أبدا .

وقد تقدم أن ذكرنا فى كثير من المواضع أن ( عسى ) يراد بها فى الكتاب الكريم الإعداد وتوقع حصول ما بعدها من الفوز والنجح لما طلبوا .

---

وَرَبُّكَ يَخْلُقُ ما يَشاءُ وَيَخْتارُ ما كانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحانَ اللهِ وَتَعالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٨) وَرَبُّكَ يَعْلَمُ ما تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَما يُعْلِنُونَ (٦٩) وَهُوَ اللهُ لا إِلٰهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِى الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٧٠) .

## تفسير المفردات

الخيرة والتخير : الاختيار باصطفاء بعض الأشياء وترك بعض ، سبحان الله : أى تنزيها لله أن ينازعه أحد فى الاختيار ، تكنّ : أى تخفى ، ويعلنون : أى يظهرون ، الحكم : القضاء النافذ فى كل شىء دون مشاركة لغيره فيه .

## المعنى الجملى

بعد أن وبخهم فيما سلف على اتخاذهم الشركاء ، وذكر أنه يسألهم عنهم يوم القيامة تهكما بهم وتقريعا لهم ـ أردف ذلك بتجهيلهم على اختيار ماأشركوه واصطفائهم إياه للعبادة ، وأبان لهم أن تمييز بعض المخلوقات عن بعض ، واصطفاءه على غيره من حق الله لامن حقكم أنتم ، والله لم يصطف شركاءكم الذين اصطفيتموهم للعبادة والشفاعة ، فما أنتم إلا جهال ضلال .

## الإيضاح

(وربك يخلق مايشاء ويختار) أى وربك يخلق مايشاء خلقه ، وهو وحده سبحانه دون غيره يصطفى مايريد أن يصطفيه ويختاره ، فيختار أقواما لأداء الرسالة وهداية الخلق وإصلاح مافسد من نظم العالم ، ويميز بعض مخلوقاته عن بعض ويفضّله بما شاء ، ويجعله مقدما عنده ، وليس لهم إلا اتباع مااصطفاه ، وهو لم يصطف شركاءهم الذين اختاروهم للعبادة والشفاعة ، فما هم إلا فى ضلال مبين ، صدوا عن عمل مايجب عليهم فعله طاعة لله ورسوله ، وتصدّوْا لما ليس من حقهم أن يفعلوه بحال .

ونحو الآية قوله : « وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللّٰهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ » وقال الشاعر :

العبد ذو ضجر ، والرب ذو قدر والدهر ذو دُوَل والرزق مقسومُ
والخير أجمع فيما اختار خالقنا وفى اختيار سواه اللوم والشّومُ

وروت عائشة عن أبى بكر رضى الله عنهما « أن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا أراد أمراً قال : اللهم خِرْ لى واختر لى » وروى أنس أن النبى صلى الله عليه وسلم قال له « ياأنس إذا هممْتَ بأمر فاستخِرْ ربك فيه سبع مرات ، ثم انظر إلى مايسبق إليه قلبك ، فإن الخير فيه » .

ويستحسن ألا يُقْدِم أحد على أمر من الأمور حتى يسأل الله الخِيَرة فيه، وذلك بأن يصلى ركعتين صلاة الاستخارة ، يقرأ فى الركعة الأولى بعد الفاتحة « قُلْ يَاأَيُّهَا الْكَافِرُونَ » وفى الركعة الثانية « قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ » .

وعن جابر بن عبد الله قال : « كان النبى صلى الله عليه وسلم يعلّمنا الاستخارة فى الأمور كلها ، كما يعلمنا السورة من القرآن ، يقول إذا همّ أحدكم بالأمر فليركع ركعتين غير الفريضة ، ثم ليقل : اللهم إنى أستخيرك بعلمك ، وأستقدرك بقدرتك ، وأسألك من فضلك العظيم ، فإنك تقدر ولا أقدر ، وتعلم ولا أعلم ، وأنت علام الغيوب ، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لى فى دينى ومعاشى وعاقبة أمرى، فاقدُرْه لى ويسّره لى ، ثم بارك لى فيه ، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لى فى دينى ودنياى ومعاشى وعاقبة أمرى ، فاصرفه عنى واصرفنى عنه ، واقدر لى الخير حيث كان ، ثم رضّنى به ، قال : ويسمى حاجته» .

ثم أكد هذا وقرره بقوله :

( ما كان لهم الخيرة ) أى ليس لهم أن يختاروا على الله شيئا ، وله الخيرة عليهم ، فله أن يرسل من يشاء رسولا بحسب مايعلمه من الحكمة والمصلحة دون أن يكون ذلك منوطا بمال أو جاه كما خُيِّل إلى بعض المشركين فقالوا « لَوْلاَ نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ » .

ثم نزه سبحانه نفسه أن ينازعه فى سلطانه أحد فقال :

( سبحان الله وتعالى عما يشركون ) أى تنزيها له وعلوا عن إشراك المشركين ، فليس لأحد أن ينازع اختياره أو يزاحمه فيه ، لعلمه باستعداد خلقه وصلاحيتهم للاصطفاء ، فإذا أراد النبى صلى الله عليه وسلم أن يهدى أحداً ممن يحب ، أو أراد أهل مكة أن يرسل الله رسولا من عظمائهم قال الله لهم : ليس لكم من الأمر شىء . فلا النبى صلى الله عليه وسلم بقادر على هدى عمه ، ولا أهل مكة يَصِلُون إلى أن تكون الرسالة فى عظمائهم .

ثم بين أن اختياره تعالى مبنى على العلم الصحيح لا اختيارهم فقال :

( وربك يعلم ماتكنّ صدورهم وما يعلنون ) أى إن اختياره من يختار منهم للإيمان به مبنى على علم منه بسرائر أمورهم وبواديها ، فيختار للخير أهله فيوفقهم له ، ويولّى الشر أهله ويخلّيهم وإياه .

ونحو الآية قوله : « سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ » .

ولما كان علمه بذلك جاء من كونه إلها واحداً فرداً صمداً ، وكان غيره لايعلم من علمه إلا ماعلّمه قال :

(وهو الله لا إله إلا هو) أى وهو المنفرد بالإلهية ، فلا معبود سواه ، ولا يحيط الواصفون بكنه عظمته ، وهو العليم بكل شىء ، القادر على كل شىء .

ثم ذكر بعض صفات كماله فقال :

( له الحمد فى الأولى والآخرة ) أى هو المحمود فى جميع مايفعل فى الدنيا والآخرة ، لأنه المعطى لجميع النعم عاجلا وآجلا .

( وله الحكم ) النافذ فى كل شىء ، فلا معقّب لحكمه ، وهو القاهر فوق عباده ، وهو الحكَم العدل اللطيف الخبير .

( وإليه ترجعون ) يوم القيامة فيجزى كل عامل جزاء عمله إن خيراً وإن شرا ، ولايخفى عليه منهم خافية .

---

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلٰهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنْ إِلٰهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٧٢) وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٣) .

## تفسير المفردات

أرأيتم : أى أخبرونى ، والسرمد : الدائم المتصل قال طرفة :

لعَمْرك ماأمرى علىّ بغُمّة نهارى ولا ليلى علىّ بسَرْمَد

تسكنون فيه : أى تستقرون فيه من متاعب الأعمال .

## المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أنه المستحق للحمد على ماأولاه من النعم ، وتفضل به من المنن ـ أردف هذا تفصيل مايجب أن يُحْمَد عليه منها ، ولا يقدر عليها سواه .

## الايضاح

( قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء ) أى قل أيها الرسول لهؤلاء المشركين بالله : أيها القوم أخبرونى إن جعل الله عليكم الليل دائماً لانهار له يتبعه إلى يوم القيامة ، أىّ معبود غير الله يأتيكم بضياء النهار فتستضيئون به ؟ .

وفى هذا الأسلوب من التبكيت والتقريع والإلزام مالا يخفى .

( أفلا تسمعون ؟ ) مايقال لكم سماع تدبر وتفكر فتتعظوا وتعلموا أن ربكم هو الذى يأتى بالليل و يزيل النهار إذا شاء ، وإذا أراد أتى بالنهار وأذهب الليل، ولايقدر على ذلك سواه .

( قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة ، من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه ؟ ) أى أخبرونى إن جعل الله عليكم النهار دائما لاليل معه أبداً إلى يوم القيامة ، أىّ المعبودات غير الله الذى له عبادة كل شىء يأتيكم بليل تستقرون فيه وتهدءون ؟ .

( أفلا تبصرون ؟ ) الشواهد المنصوبة الدالة على القدرة الكاملة ، فتعلموا بذلك أن العبادة لاتصلح إلا لمن أنعم عليكم بذلك دون غيره ، ومن له القدرة التى خالف بها بين الليل والنهار .

ثم بين أن المخالفة بينهما من فضله تعالى ورحمته فقال :

( ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ) أى ومن رحمته بكم أيها الناس جعل لكم الليل والنهار ، وخالف بينهما ، فجعل الليل ظلاما لتستقروا فيه راحة لأبدانكم من تعب التصرف نهارا فى شئونكم المختلفة ، وجعل النهار ضياء لتتصرفوا فيه بأبصاركم لمعايشكم وابتغاء رزقه الذى قسمه بينكم بفضله .

( ولعلكم تشكرون ) أى ولتستعدوا لشكره على إنعامه عليكم ، وتُخلِصوا له الحمد ، لأنه لم يشركه فى إنعامه عليكم شريك ، ومن ثم ينبغى ألا يكون له شريك يُحْمد .

والخلاصة : إن الليل والنهار نعمتان تتعاقبان على مرّ الزمان ، والمرء فى حاجة إليهما ، إذ لاغنى له عن الكدح فى الحياة لتحصيل قوته ، ولا يتسنى له ذلك على الوجه المرضى لولا ضوء النهار ، كما لايكمل له السعى على الرزق إلا بعد الراحة والسكون بالليل ، ولايقدر على شىء من ذلك إلا الله الواحد القهار .

وجاء تذييل الآيتين بقوله ( أفلا تسمعون ؟ ) ، ( أفلا تبصرون ؟ ) لبيان أنهم لما لم ينتفعوا بالسمع والبصر نُزِّلوا منزلة من لايسمع ولا يبصر .

---

وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (٧٤) وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٧٥) .

## تفسير المفردات

ونزعنا : أى أحضرنا من قولهم : نزع فلان بحجة كذا إذا أحضرها وأخرجها ، والشهيد : هو نبى الأمة يشهد عليها بما أجابته حين أرسل إليها ، وضل : أى غاب .

## المعنى الجملى

بعد أن وبخ المشركين أوّلا على فساد رأيهم فى اتخاذ الشركاء لله ، ثم ذكر التوحيد ودلائله ـ عاد إلى تقريعهم وتبكيتهم ثانيا ببيان أن إشراكهم لم يكن عن دليل صحيح ، بل كان عن محض الهوى كما يرشد إلى ذلك قوله ( قل هاتوا برهانكم )

## الإيضاح

( ويوم يناديهم فيقول أين شركائى الذين كنتم تزعمون ) أى ويوم ينادى ربك ـ أيها الرسول ـ هؤلاء المشركين ، فيقول لهم : أين شركائى الذين كنتم تزعمون فى الدنيا أنهم شركائى ، ليخلّصوكم مما أنتم فيه .

وهذا النداء للتوبيخ والتقريع على رءوس الأشهاد على عبادة غير الله ، للاشعار بأنه لاشىء أجلب لغضبه تعالى من الإشراك به ، كما أنه لاشىء أدخل فى مرضاته من توحيده عز وجل .

( ونزعنا من كل أمة شهيداً ) أى وأحضرنا من كل أمة شهيدها وهو نبيها الذى يشهد عليها بما أجابته أمته فيما آتاهم به عن الله برسالته .

ونحو الآية قوله « فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا » .

وهذا فى موقف من مواقف القيامة ، وفى موقف آخر يكون الشهداء هم الملائكة كما قال تعالى : « وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ » .

ثم بين مايطلب منهم بعد هذه الشهادة فقال :

( فقلنا هاتوا برهانكم ) على صحة ماادعيتموه من أن لله شركاء مع إعذار الرسل إليكم ، وإقامة الحجج عليكم ، فلم يَحِيروا جوابا ، وأيقنوا حينئذ بعذاب دائم ، ونار تتلظى ، لايصلاها إلا الأشقى الذى كذب وتولى .

وحينئذ يستبين لهم خطأ ما كانوا يفعلون كما قال :

( فعلموا أن الحق لله ) أى فعلموا حينئذ أن الحجة البالغة عليهم ، وأن خبره هو الصادق ، وأنه لايَشْرَكه فى الألوهية شىء سواه .

( وضل عنهم ما كانوا يفترون ) أى وغاب عنهم ما كانوا يتخرّصون به فى الدنيا ويكذبون به على ربهم من الأباطيل والأضاليل .

---

إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦) وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٧٧) قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ (٧٨) .

## تفسير المفردات

فبغى عليهم: أى تكبّر وتجبر ، والكنز : المال المدفون فى باطن الأرض ، والمراد

به هنا المال المدّخر ، ومفاتحه: أى خزائنه واحدها مفتح (بفتح الميم) وتنوء : من ناء به الحمْل ينوء : إذا أثقله حتى أماله . قال ذو الرمة :

تنوء بأخراها فَلَأْيًا قيامُها وتمشى الهُوَيْنى عن قريب فتَبْهَرُ

والعصبة : الجماعة الكثيرة يتعصب بعضهم لبعض بلا تعيين عدد خاص ، والقوة : الشدة ، لاتفرح : أى لاتبطر وتتمسك بالدنيا ولذاتها حتى تتلهى عن الآخرة ، قال بَيْهَس العُذْرى :

ولستُ بِمِفْرَاح إذا الدهرُ سرَّنى ولا جازع من صَرْفه المتقلِّبِ

والدار الآخرة : أى ثواب الله بإنفاق المال فيما يوصل إلى مرضاته ، على علم عندى : أى على حسن تصرف فى المتاجر واكتساب الأموال .

## المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه حديث أهل الضلالة ومايلقونه من الإهانة والاحتقار يوم القيامة ، ومناداتهم على رءوس الأشهاد بما يفضحهم ويبين لهم سوء مغبتهم . أعقبه بقصص قارون ، ليبين عاقبة أهل البغى والجبروت فى الدنيا والآخرة ، فقد أهلك قارون بالخسف ، وزُلْزِلت به الأرض ، وهوت من تحته ، ثم أصبح مثلا يضرب للناس فى ظلمه وعتوّه ، ويستبين لهم به سوء عاقبة البغاة ، وما يكون لهم من النكال والوبال فى الدنيا والآخرة فيندمون على مافعلوا :

نَدِمَ البُغاةُ وَلاتَ ساعة مَنْدَم والبغْىُ مَرْتَعُ مُبتَغِيه وَخِيمُ

## الإيضاح

(إن قارون كان من قوم موسى) أى إنه كان من بنى إسرائيل ، لأنه ابن عم

موسى ، فموسى هو ابن عمران بن قاهَثَ بن لاوَى بن يعقوب عليه السلام ، وقارون ابن يصْهرُ بن قاهث الخ .

وكان يسمى المنوّر لحسن صورته ، وكان أحفظ بنى إسرائيل للتوراة ، وأقرأهم لها ، لـكنه نافق كما نافق السامرى وقال : إذا كانت النبوة لموسى ، والمذبح والقربان لهرون ، فما لى إذاً ؟ .

( فبغى عليهم ) أى تجاوز الحد فى احتقارهم · والقرابة كثيراً ماتدعو إلى البغى

ثم ذكر سبب بغيه وعتوه بقوله :

( وآتيناه من الـكنوز ماإن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة ) أى وأعطيناه المال المذخور الذى يثقل حمل مفاتيح خزائنه على العدد الـكثير من الأقوياء من الناس .

روى عن ابن عباس أن مفاتيح خزائنه كان يحملها أربعون رجلا من الأقوياء ، وكانت أربعمائة ألف يحمل كل رجل عشرة آلاف ، ولا شك أن مثل هذا التحديد يحتاج إلى سند قوى يعسر الوصول إليه ، ومثل هذا الأسلوب يدل على إرادة الـكثرة دون تحديد شىء معين .

وبعد أن ذكر بغيه ذكر وقته فقال :

( إذ قال له قومه لاتفرح ) أى إنه أظهر التفاخر والفرح بما أوتى حين قال له قومه من بنى إسرائيل : لاتُظْهِر الفرح والبطر بكثرة مالك ، فإن ذلك يجعلك تتكالب على جمع حطام الدنيا ، وتتلهى عن شئون الآخرة ، وفعل مايرضى ربك .

ثم علل النهى عن الفرح بكونه مانعا محبة الله فقال :

( إن الله لايحب الفرحين ) أى إنه تعالى لايكرم الفرحين بزخارف الدنيا ولا يقرّبهم من جواره ، بل يبغضهم ويبعدهم من حضرته .

وأثر عن بعضهم أنه قال : لايفرح بالدنيا إلا من رضى بها واطمأن إليها ، أما من يعلم أنه سيفارقها عن قريب فلا يفرح بها ، وما أحسن ماقال المتنبى :

أشدُّ الغم عندى فى سرورٍ تيقّن عنه صاحبه انتقالا

وأحسن منه وأوجز قوله سبحانه : « لِكَيْلاَ تَأْسَوْا عَلَى مافاتَكُمْ وَلاَ تفْرَحُوا بِما آتاكُمْ » .

ثم نصحوه بعدة نصائح فقالوا :

(١) ( وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ) أى واستعمل ماوهبك الله من هذا المال الجزيل ، والنعمة الطائلة فى طاعة ربك ، والتقرب إليه بأنواع القربات التى يحصل لك بها الثواب فى الدنيا والآخرة ، وفى الحديث : « اغتنم خمساً قبل خمس : شبابك قبل هَرَمك ، وصحتك قبل سقمك ، وغناك قبل فقرك ، وفراغك قبل شغلك ، وحياتك قبل موتك » .

(٢) (ولا تنس نصيبك من الدنيا ) أى ولا تترك حظك من لذات الدنيا فى مآكلها ، ومشاربها وملابسها ؛ فإن لربك عليك حقا ، ولنفسك عليك حقا ، ولأهلك عليك حقا ، وروى عن ابن عمر : « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً» وعن الحسن: « قدِّم الفضل وأمسِك مايُبَلِّغ » .

(٣) ( وأحسن كما أحسن الله إليك ) أى وأحسن إلى خلقه ، كما أحسن هو إليك فيما أنعم به عليك ، فأعِنْ خلقه بمالك وجاهك ، وطلاقة وجهك ، وحسن لقائهم ، والثناء عليهم فى غيبتهم .

(٤) ( ولا تبغ الفساد فى الأرض ) أى ولا تصرف همتك، بما أنت فيه إلى الفساد فى الأرض ، والإساءة إلى خلق الله .

ثم أتبعوا هذه المواعظ بعلتها فقالوا :

( إن الله لايحب المفسدين ) أى إن الله لايكرم المفسدين ، بل يهينهم ويبعدهم من حظيرة قربه ، ونيل مودته ورحمته .

ثم بين أنه مع كل هذه المواعظ أبى وزاد فى كفران النعمة فقال :

( قال إنما أوتيته على علم عندى ) أى قال قارون لمن وعظوه : إنما أوتيت هذه الكنوز لفضل علم عندى ، علمه الله منى ، فرضى بذلك عنى ، وفضّلنى بهذا المال عليكم .

وتلخيص ذلك : إنى إنما أعطيته لعلم الله أنى له أهل .

ونحو الآية قوله « وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ » .

فرد الله عليه مقاله بقوله :

( أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا ) أى أنسى ولم يعلم ، حين زعم أنه أوتى الكنوز لفضل علم عنده ، فاستحق بذلك أن يؤتى ماأوتى ؟ أن الله قد أهلك من قبله من الأمم ، من هم أشد منه بطشا ، وأكثر جمعا للأموال ؟ ولو كان الله يؤتى الأموال من يؤتيه لفضل فيه وخير عنده ورضاه عنه ، لم يهلك من أهلك من أرباب الأموال ، الذين كانوا أكثر منه مالا ، لأن من يرضى الله عنه ، فمحال أن يهلكه وهو عنه راض ، وإنما يهلك من كان عليه ساخطا ، ألم يشاهد فرعون وهو فى أبّهة مُلْكه ، وحقّق أمره يوم هُلْكه .

وفى هذا الأسلوب تعجيب من حاله ، وتوبيخ له على اغتراره بقوته وكثرة ماله ، مع علمه بذلك .

وبعد أن هدده سبحانه بذكر إهلاك من قبله من أضرابه في الدنيا - أردف ذلك تهديد المجرمين كافة بما هو أشد من عذاب الآخرة وهو عدم سؤالهم عن ذنوبهم، إذ أنه يؤذن بشدة الغضب عليهم ، والإيقاع بهم لامحالة ، فقال : « وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ » أى إنه تعالى حين إرادة عقابهم لايسألهم عن مقدار ذنوبهم

ولا عن كنهها ، لأنه عليم بها ، ولا يعاتبهم عليها ، كما قال تعالى : « وَما هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ » وقال : « وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ » .

ونحو الآية قوله « فَيَوْمَئِذٍ لاَ يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلاَ جَانٌّ » .

وهذا لا يمنع أنهم يسألون سؤال تقريع وإهانة ، كما جاء فى قوله : « فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ » .

---

فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٧٩) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ (٨٠) فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ (٨١) وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (٨٢) .

## تفسير المفردات

الحظ : البخت والنصيب ، العلم : هو علم الدين وما ينبغى أن يكون عليه المتقون ، ويل : أصلها الدعاء بالهلاك ، ثم استعملت فى الزجر عن ترك ما لا يرتضى ، وخسف المكان : أى غار فى الأرض ، وخسف الله به الأرض خسفا : غاب به فيها كما قال : « فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ » وفئة : أى جماعة من المنتصرين .

أى الممتنعين عن عذابه، يقال : نصره من عدوه فانتصر : أى منعه منه فامتنع ، وى : كلمة يراد بها التندم والتعجب مما حصل ، يقدر : أى يضيّق .

## المعنى الجملى

بعد أن ذكر فيما سلف بغى قارون وعتوه وجبروته ، وكثرة ما أوتيه من المال الذى تنوء به العصبة أولو القوة ـ أردف ذلك تفصيل بعض مظاهر بغيه وكبريائه، فذكر أنه خرج على قومه، وهو فى أبهى حُليِّة وحُلله ، والعدد العديد من أعوانه وحشمه، قصداً للتعالى على العشيرة ، وأبناء البلاد ، وفى ذلك كسرٌ للقلوب ، وإذلال للنفوس ، وتفريق للكلمة ، فلا تربطهم رابطة ، ولا تجمعهم جامعة ، فيذلون فى الدنيا بانقضاض الأعداء عليهم ، وتفريقهم شَذَرَ مَذَرَ ، وقد غرّت هذه المظاهر بعض الجهال الذين لاهمّ لهم إلا زخرف الحياة وزينتها ، فتمنَّوْا أن يكون لهم مثلها ، فرد عليهم من وفقهم الله لهدايته ، بأن ماعنده من النعيم لمن اتقى خير مما أوتى قارون ، ولا يناله إلا من صبر على الطاعات ، واجتنب المعاصى ، ثم أعقب ذلك بذكر ما آل إليه أمره من خسف الأرض به وبداره ، ولم يجد معينا ينصره ويدفع العذاب عنه ، وقد انقلب حال المتمنين المعجبين بحاله إلى متعجبين مما حل به ، قائلين: إن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ؛ لالفضل منزلته عنده وكرامته لديه كما بسط لقارون ويضيِّق على من يشاء ، لالهوانه عليه ولا لسخط عمله ، ولولا أن تفضل علينا فصرف عنا ما كنا نتمناه بالأمس لخسف بنا الأرض .

## الايضاح

(فخرج على قومه فى زينته) أى فخرج ذات يوم على قومه فى زينة عظيمة ، وتجمل باهر من مراكب وخدم وحشم ، مريدا بذلك التعالى على الناس ، وإظهار العظمة ، وذلك من الصفات البغيضة ، والافتخار الممقوت ، والخيلاء المذمومة لدى

عقلاء الناس من جرّاء أنها تقوّض كيان المجتمع ، وتفسد نظمه ، وتفرق شمل الأمة ، وتقسمها طبقات ، وفى ذلك تخاذلها ، وطمع العدو فى امتلاك ناصيتها .

وفى هذا تحذير لنا أيما تحذير ، فكثير ممن يظهرون النعم ، إنما يريدون التعالى والتفاخر ، وكم ممن يقيم الزينات ، أو يصنع الولائم لعُرْس، أو مأتم ، لايريد بذلك إلا إظهار ثرائه ، وسعة ماله بين عشيرته و بنى جَلدته ، فيكون قارون زمانه ، وتكون عاقبته الخسف لما أوتيه من مال ، ويُذْهِب الله ثراءه ، و يجعله عبرة لمن اعتبر .

فالكتاب الكريم ماقص علينا هذا القصص إلا ليرينا أن الكبرياء والتعالى ليس وبالهما فى الآخرة فحسب ، بل يحصل شؤمهما فى الدنيا قبل الآخرة ، كما حصل لكثير من المسلمين اليوم .

وقد رُوى عن مفسرى السلف فى زينة قارون مايجعلنا نقف أمامه موقف الحذر ، ويجعلنا نعتقد أن الإسرائيليات سَداه ولُحمته ، فمن ذلك ماروى عن قتادة قال : ذُكِر لنا أنه خرج هو وحشمه ، على أربعة آلاف دابة ، عليهم ثياب حمر منها ألف بغلة بيضاء ، وعلى دوابهم قطائف الأرْجُوان . وقال مقاتل : خرج على بغلة شهباء عليها سرج من ذهب ، ومعه أربعة آلاف فارس على الخيول ، وعليهم الثياب الأرجوانية ، ومعه ثلاثمائة جارية بيض ، عليهن الْحُلِىّ والثياب الحمر يركبن البغال الشُّهْب .

وحين رآه قومه على هذه الشاكلة انقسموا فرقتين :

(١) ( قال الذين يريدون الحياة الدنيا ياليت لنا مثل ماأوتى قارون إنه لذو حظ عظيم ) أى قال من كان همه الدنيا وزينتها : ياليت لنا من الأموال والمتاع مثل مالقارون منها ، حتى نَنْعَم عيشاً ، ونتمتع بزخارف الحياة ، كما يتمتع .

و إن مثل هذا التمنى ليشاهد كل يوم ، وفى كل بلد ، وفى كل قرية ، فترى الرجل والشاب ، والمرأة والفتاة ، يتمنى كل منهم أن يكون له مثل ماأوتى فلان

وفلانة من ثوب جميل ، أو دابة فارهة ، أو مزرعة يحصد غلتها ، أو قصر مشيد ، أو نحو ذلك .

ثم عللوا تمنيهم وأكدوه بقولهم :

( إنه لذو حظ عظيم ) أى إن الله قد تفضل عليه ، وآتاه من بسطة الرزق حظا عظيما ، ونصيباً كبيراً يغبط عليه .

والقائلون هذه المقالة : إما جماعة من المؤمنين قالوا ذلك جريا على الجبلة البشرية من الرغبة فى السعة واليسار ، وإما عصبة من الكفار والمنافقين تمنَّوْا مثل ماله ، ولم يتمنوا زوال نعمته ، ومثل هذا لاضرر فيه .

(٢) ( وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ) أى وقال الذين أوتوا العلم بما أعد الله لعباده فى الآخرة وصدّقوا به ردّا على أولئك المتمنين : تبًّا لكم وخُسرًا ، كيف تتغالَوْن فى طلب الدنيا ، ويسيل لعابكم عليها ، وما عند الله من ثواب فى الآخرة لمن صدق به ، وآمن برسله ، وعمل صالح الأعمال ، خير مما تتمنون ، فإن هذا باق ، وذاك فان ، وهذا خالص مما يشوبه وينغصه من الأكدار ، وذلك مشوب بالأحزان والمنغِّصات .

ثم بين من يعمل بهذه النصيحة فقال :

( ولا يلقاها إلا الصابرون ) أى ولا يتّبع هذه النصيحة ، ولا يعمل بها إلا من صبر على أداء الطاعات ، واجتنب المحرمات ، ورضى بقضاء الله فى كل ما قسم من المنافع والمضار ، وأنفق ماله فى كل مافيه سعادة لنفسه وللمجتمع ، وكان قدوة صالحة فى حفظ مجد أمته ، ورفع صيتها بين الأمم ، ببذل كل مافيه نفعها وقوتها ، وإعلاء شأنها ، وبذا ينال حسن الأحدوثة بين الناس ، ويلقى المثوبة من ربه .

ثم ذكر ما آل إليه بطره وأشره من وبال ونكال فقال :

( فخسفنا به وبداره الأرض ) أى فزُلْزِلَت به الأرض وابتلعته جزاء بطره وعتوّه

وفى هذا عبرة لمن اعتبر ، فيترك التعالى والتغالى فى الزينة ، لئلا يخسف الله به وبماله الأرض .

وقد غَفَل كثير من الناس عن المقصد من المال فأنفقوه قاصدين به الرياء والمباهاة ، فضاعت دورهم وأموالهم ، وأصبحت ملكا لغيرهم، وهذا هو الخسف العظيم ، وما خسف قارون بشىء إذا قيس بهذا ، فإن الخسف الآن خسف الأمم ، لا خسف الأفراد ، فكل بلد من بلاد الإسلام يدخله الغاصب يصبح أهله عبيدًا له وضحية مطامعه ، وخسف أمة أدهى من خسف فرد ، فليُخْسَفِ الفردُ ، ولتبق الأمة ، وهكذا دخلت البلاد تِباعا فى ملك الغاصب ، واحدة إثر أخرى ، ولم يبق منها إلا ما رحم الله ، وما ذاك إلا بجهلها لدينها ، وعدم اتباعها أحكامه ، وغفلتها عن مقاصده .

ثم بين أنه لم يجد له شفيعا ولا نصيرا يدفع عنه العذاب حينئذ فقال :

( فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين ) أى ما أغنى عنه ماله ، ولا خدمه ولا حشمه ، ولا دفعوا عنه نقمة الله ولا نكاله ، ولا استطاع أن ينتصر لنفسه .

وقصارى ذلك . إنه لا ناصر له من غيره ولا من نفسه ، فكيف يكون للأمة الغافلة عن أوامر دينها ، الجاهلة بمقاصد شريعتها فى إنفاق الأموال أن تجد مناصاً من خراب الديار ، وإضاعة المجد الطارف والتالد ، ولا بد أن تقع فريسة للغاصبين ، الذين يسومونها الخسف دون شفقة ولا رحمة ، وقد كان ذلك جزاءا وفاقا، لجهلها وسوء تصرفها وظلمها لأنفسها ، ولا يظلم ربك أحدا ، وهكذا حال من تصرّف فى ماله تصرف السفهاء، وركب رأسه ، وصار يبعثره يَمنة ويَسْرة ، فإنه سيندم ولات ساعة مندم .

وقد أبان الكتاب الكريم أن النصر للصابرين ، فهو أثر لازم للصبر على حفظ المال ، وحفظ الشهوات والعقول ، وكل الفضائل التى حث عليها الدين ، وسلك سبيلها السلف الصالح .

وقد حكى المفسرون فى أسباب الخسف أمورا كثيرة هى غاية فى الغرابة يبعد أن تصدقها العقول ، ومن ثم قال الرازى : إنها مضطربة متعارضة ، فالأولى طرحها والاكتفاء بما دل عليه نص القرآن ، وتفويض سائر التفاصيل إلى عالم الغيب اهـ .

ولما شاهد قوم قارون مانزل به من العذاب ، صار ذلك زاجراً لهم عن حب الدنيا ومخالفة موسى ، وداعياً إلى الرضا بقضاء الله وبما قسمه ، وإلى إظهار الطاعة والانقياد لأنبيائه ورسله ، كما أشار إلى ذلك بقوله :

( وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون وى كأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر ) أى فلما خسف الله بقارون الأرض ؛ أصبح قومه يقولون : إن كثرة المال والتمتع بزخارف الدنيا ، لاتدل على رضا الله عن صاحبه ؛ فالله يعطى ويمنع، ويوسع ويضيّق ، ويرفع ويخفض ، وله الحكمة التامة ، والحجة البالغة ، لامعقب لحكمه . وقد روى عن ابن مسعود مرفوعا « إن الله قسم بينكم أخلاقكم ، كما قسم بينكم أرزاقكم ، وإن الله يعطى المال من يحب ومن لايحب ، ولا يعطى الإيمان إلا من يُحِبّ » .

ولما لاح لهم من واقعة أمره أن الرزق بيد الله يصرّفه كيف يشاء ، أتبعوه بما يدل على أنهم اعتقدوا أن الله قادر على كل مايريد من رزق وغيره فقالوا :

( لولا أن منّ الله علينا لخسف بنا ) أى لولا لطف الله بنا لخسف بنا كما خسف به ، لأنا ودِدْنا أن نكون مثله . ثم زادوا ماسبق توكيداً بقولهم :

(وى كأنه لايفلح الكافرون ) لنعمه المكذبون برسله وبما وعدوا به من ثواب الآخرة ، كما كان شأن قارون .

---

تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (٨٣) مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا ، وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٨٤) .

## المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه قول أهل العلم بالدين : ثواب الله خير ـ أعقب ذلك بذكر محل هذا الجزاء ، وهو الدار الآخرة ؛ وجعله لعباده المؤمنين المتواضعين ، الذين لا يترفعون على الناس ، ولا يتجبرون عليهم ، ولا يفسدون فيهم ، بأخذ أموالهم بغير حق ، ثم بين بعدئذ مايحدث فى هذه الدار ؛ جزاء على الأعمال فى الدنيا ، فذكر أن جزاء الحسنة عشرة أضعافها إلى سبعمائة ضعف ؛ إلى مالا يحيط به إلا علام الغيوب ، فضلا من الله ورحمة ؛ وجزاء السيئة مثلها ، لطفا منه بعباده ، وشفقة عليهم .

## الإيضاح

( تلك الدر الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا ) أى تلك الدار التى سمعت خبرها ، و بلغك وصفها ـ نجعل نعيمها للذين لا يريدون تكبرا عن الحق و إعراضاً عنه ، ولا ظلم الناس ومعصية الله .

وثبت فى الصحيح أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إنه أوحى إلىّ أنْ تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ، ولا يبغى أحد على أحد » . وروى مسلم وأبو داود أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر ، فقال رجل : إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنة ، فقال : إن الله جميل يحب الجمال ، الكبر بطر الحق ، وغمط الناس » :

وروى أبو هريرة : « أنه جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، وكان جميلا ، فقال : يارسول الله إنى رجل حُبِّب إلىّ الجمال ؛ وأُعْطِيتُ منه ماترى ؛ حتى ماأحب أن يفوقنى أحد بشراك نعل ؛ أفمن ذلك ؟ قال : لا ؛ ولكن المتكبر من بطر الحق وغمط الناس » .

وعن عدى بن حاتم قال : « لما دخل على النبى صلى الله عليه وسلم ألقى إليه وسادة

وجلس على الأرض ؛ فقال : أشهد إنك لاتبغى علوا فى الأرض ولا فساداً فأسلم » . أخرجه ابن مردويه .

( والعاقبة للمتقين ) أى والعاقبة المحمودة ، وهى الجنة لمن اتقى عذاب الله بعمل الطاعات ، وترك المحرمات ، ولم يكن كفرعون فى الاستكبار على الله ، بعد امتثال أوامره ، والارتداع عن زواجره ، ولا كقارون فى إرادة الفساد فى الأرض .

ثم بين مايكون فى تلك الدار من جزاء على الأعمال فقال :

( من جاء بالحسنة فله خير منها ) أى من جاء الله يوم القيامة بحسنة فله خير منها، فهو يضاعفها له أضعافا مضاعفة تفضلا منه ورحمة .

( ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون ) أى ومن أتى بسيئة فلا يجزى عليها إلا مثلها، وهذا منه سبحانه رحمة وعدل .

ونحو الآية قوله : « وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ، هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » .

---

إِنَّ الَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ قُلْ رَبِّى أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَالٍ مُبِينٍ (٨٥) وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلاَّ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ (٨٦) وَلاَ يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٨٧) وَلاَ تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَٰهًا آخَرَ لاَ إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٨) .

## تفسير المفردات

فرض عليك : أى أوجب عليك ، ومعاد الرجل : بلده ، لأنه يتصرف فى البلاد ثم يعود إليه ، ظهيرا : أى معينا ، هالك : أى معدوم ، وجهه : أى ذاته ، الحكم : أى القضاء النافذ .

## المعنى الجملى

بعد أن ذكر قصص موسى وقومه مع قارون ، و بين بغى قارون واستطالته عليهم ثم هلاكه ، ونصرة أهل الحق عليه أردف هذا قصص محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه مع قومه ، و إيذائهم إياه ، و إخراجهم له من مسقط رأسه ، ثم إعزازه إياه بالإعادة إلى مكة ، وفتحه إياها منصوراً ظافرا .

## الايضاح

( إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد ) أى إن الذى أوجب عليك العمل بأحكام القرآن وفرائضه ـ لرادّك إلى محل عظيم القدر اعتدته وألفته ، وهو مكة ، والمراد بذلك عوده إليها يوم الفتح ، وقد كان للعود إليها شأن عظيم ، لاستيلاء رسول الله عليها عنوة ، وقهره أهلها ، و إظهار عز الإسلام ، و إذلال المشركين .

وهذا وعد من الله لرسوله صلى الله عليه وسلم وهو بمكة فى أذى وغلبة من أهلها أنه يهاجر منها و يعيده إليها ظاهرا ظافرا .

روى مقاتل «أنه عليه الصلاة والسلام خرج من الغار (حين الهجرة) وسار فى غير الطريق مخافة الطلب ، فلما أمن رجع إلى الطريق ، ونزل بالجُحفْة بين مكة والمدينة ، وعرف الطريق إلى مكة ، واشتاق إليها ، وذكر مولده ومولد أبيه ، فنزل جبريل عليه السلام وقال له : أتشتاق إلى بلدك ومولدك ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : نعم ، فقال جبريل : فإن الله يقول : ( إن الذى فرض عليك القرآن لرادّك إلى معاد » .

وهذه إحدى معجزاته صلى الله عليه وسلم لأنه أخبر عن الغيب ووقع كما أخبر .

ولما قال المشركون لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ( إنك لفى ضلال مبين ) نزل قوله تعالى :

( قل ربى أعلم من جاء بالهدى ومن هو فى ضلال مبين ) أى قل لمن خالفك وكذّبك من قومك المشركين ومن تبعهم : ربى أعلم بالمهتدى منى ومنكم ، وستعلمون من تكون له عاقبة الدار ، ومن تكون له الغلبة والنصرة فى الدنيا والآخرة .

ثم ذكّره سبحانه نعمه ، ونهاه عن معاونة المشركين ومظاهرتهم فقال :

( وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك ) أى وما كنت أيها الرسول ترجو أن ينزل عليك القرآن ، فتعلم أخبار الماضين من قبلك ، وماسيحدث من بعدك ومافيه من تشريع ، فيه سعادة البشر فى معاشهم ومعادهم ؛ وآداب هى منتهى ماتسمو إليه نفوسهم وتطمح إليها عقولهم ؛ ثم تتلو ذلك على قومك ، ولكن ربك رحمك فأنزله عليك .

ثم بين مايجب أن يعمله كفاء هذه النعم المتظاهرة فقال :

( فلا تكونن ظهيرا للكافرين ) أى فاحمد ربك على ماأنعم به عليك بإنزاله الكتاب إليك ؛ ولا تكونن عونا لمن كفروا به ؛ ولكن فارقهم ونابذهم .

ثم شدد عزمه وقواه بألا يأبه بمخالفتهم فقال :

( ولا يصدنك عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليك ) أى ولا تبال بهم ؛ ولا تهتم بمخالفتهم لك؛ وصدهم الناس عن طريقتك ، فإن الله معك ومؤيدك؛ ومظهر ماأرسلك به على سائر الأديان .

ثم أمره أن يصدع بالدعوة ؛ ولا يألو جهدا فى تبليغ الرسالة فقال :

( وادع إلى ربك ) أى و بلغ رسالة ربك إلى من أرسلك إليهم ؛ واعبده وحده لاشريك له .

( ولا تكونن من المشركين ) أى ولا تتركن الدعاء إلى ربك وتبليغ المشركين رسالتك ، فتكون ممن فَعَلَ فِعْلَ المشركين بمعصيته ومخالفة أمره .

ثم فسر هذا وبينه بقوله :

( ولا تدع مع الله إلها آخر ) أى ولا تعبد أيها الرسول مع الله الذى له عبادة كل شىء - معبودا آخر سواه .

ثم علل هذا بقوله :

( لا إله إلا هو ) أى لأنه لامعبود تصلح له العبادة إلا الله ، ونحو الآية قوله : « رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً » .

ثم بين صفاته فقال :

١ - ( كل شىء هالك إلا وجهه ) أى هو الدائم الباقى الحى القيوم الذى لايموت إذا ماتت الخلائق ، كما قال : « كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ . وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلاَلِ وَالإِكْرَامِ » وقد ثبت فى الصحيح عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أصدق كلمة قالها لبيد : « ألا كل شىء ما خلا الله باطل » .

٢ - ( له الحكم ) أى له الملك والتصرف والقضاء النافذ فى الخلق .

٣ - ( وإليه ترجعون ) يوم معادكم ، فيجزيكم بأعمالكم إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر .

وصل ربنا على محمد وآله .

## خلاصة ما تحويه السورة الكريمة من الأغراض

(١) استعلاء فرعون وإفساده فى الأرض .

(٢) استضعافه بنى إسرائيل وقتله أبناءهم واستبقاؤه نساءهم .

(٣) منته تعالى على بنى إسرائيل بإنقاذهم من بأس فرعون وجعلهم أئمة فى أمر الدين والدنيا ووراثتهم أرض الشام .

(٤) إغراق فرعون وجنوده .

(٥) إلقاء موسى فى اليمّ، والتقاط آل فرعون له ، ثم رده إلى أمه .

(٦) قتل موسى للقبطى ، ثم هربه إلى أرض مدين ، وتزوجه ببنت كاهنها ، وبقاؤه بها عشر سنين .

(٧) عودة موسى إلى مصر ، ومناجاته ربه .

(٨) معجزات موسى من العصا واليد البيضاء .

(٩) طلبه من ربه أن يرسل معه أخاه هٰرون ليكون له وزيرا وإجابته إلى ذلك .

(١٠) تبليغه رسالة ربه إلى فرعون ، وتكذيب فرعون له ، واستكباره فى الأرض بغير الحق .

(١١) إثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بإخباره عن قصص الماضين ، دون أن يكون حاضرا معهم ، ولا أن يتعلم ذلك من معلم .

(١٢) إنكار قريش لنبوته ، بعد أن جاءهم بالحق من ربهم ، وقولهم : إن ما جاء به سحر مفترى .

(١٣) إيمان أهل الكتاب بالقرآن وإعطاؤهم أجرهم مرتين .

(١٤) إثبات أن الهداية بيد الله ، لا بيد رسوله، فلا يمكنه أن يهدى من يحب .

(١٥) معاذير قريش فى عدم إيمانهم بالرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم دحضها .

(١٦) بيان أن الله لا يعذب أمة إلا إذا أرسل إليهم رسولا ، حتى لا يكون لهم حجة على الله .

(١٧) نداء المشركين على رءوس الأشهاد ، وأمرهم بإحضار شركائهم ونداؤهم ، ليسألهم عما أجابوا به الرسل ، فلم يستطيعوا لذلك ردا .

(١٨) بيان أن اختيار الرسل لله ، لا للمشركين ، فهو الذى يصطفى من يشاء لرسالته .

(١٩) التذكير بنعمته على عباده باختلاف الليل والنهار .

(٢٠) شهادة الأنبياء على أممهم .

(٢١) ذكر قارون و بغيه فى الأرض ، ثم خسف الأرض به .

(٢٢) بيان أن ثواب الآخرة لايكون إلا لمن لايريد العلو فى الأرض ولا الفساد فيها .

(٢٣) مضاعفة الله للحسنات ، وجزاء السيئة بمثلها .

(٢٤) الإنباء بالغيب عن نصر الله لرسوله ، وفتحه لمكة .

(٢٥) بيان أن كل مافى الوجود فهو هالك ، إلا الله تبارك وتعالى .

---

# سورة العنكبوت

هى مكية إلا من أولها إلى قوله : « وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ » فمدنية ، نزلت بعد سورة الروم ، آيها تسع وستون .

ووجه اتصالها بما قبلها من وجوه :

(١) إنه ذكر فى السورة السالفة استعلاء فرعون وجبروته ، وجعله أهلها شيعا ، وافتتح هذه السورة بذكر المؤمنين الذين فتنهم المشركون ، وعذبوهم على الإيمان ، دون ما عذب به فرعون بنى إسرائيل ؛ تسلية لهم بما وقع لمن قبلهم ، وحثا لهم على الصبر ، كما قال : « وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ » .

(٢) ذكر فى السورة السابقة نجاة موسى من فرعون وهربه منه ثم عوده إلى مصر رسولا نبيا ، ثم ظفره من بعد بغرق فرعون وقومه ونصره عليهم نصرا مؤزّرا ، وذكر هنا نجاة نوح عليه السلام وأصحاب السفينة وإغراق من كذبه من قومه .

(٣) نعى هناك على عبدة الأصنام والأوثان ، وذكر أنه يفضحهم يوم القيامة على رءوس الأشهاد ـ وهنا نعى عليهم أيضا وبيّن أنهم فى ضعفهم كضعف بيت العنكبوت .

(٤) هناك قص قصص قارون وفرعون ، وهنا ذكرهما أيضا ، وبين عاقبة أعمالها.

(٥) ذكر هناك فى الخاتمة الإشارة إلى هجرة النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله : « إِنَّ الَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ » ، وفى خاتمة هذه أشار إلى هجرة المؤمنين بقوله : « يا عِبَادِىَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِى وَاسِعَةٌ » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الم (١) أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (٣) أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٤) .

## تفسير المفردات

الفتنة : الامتحان والاختبار ، ليعلمن الله الذين صدقوا: أى ليظهرنّ صدقهم ، السبق : الفوت والمراد به الفوت عن المجازاة ، والسيئات : هى الشرك بالله والمعاصى التى يجترحونها ، ساء ما يحكمون : أى قبح حكمهم أنهم يهربون منا .

## المعنى الجملى

بعد أن قال فى أواخر السورة السالفة « وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ » وكان فى الدعاء إليه توقع الطعن والضرب فى الحرب ، لأن النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه كانوا مأمورين بالجهاد إن لم يؤمن المشركون ويستجيبوا للدعاء ، وذلك مما يشق على بعض المؤمنين ــ أردف ذلك تنبيههم إلى أن المؤمنين لايتبين إيمانهم الحق إلا إذا فُتِنُوا .

روى ابن جرير وابن المنذر أن ناسا ممن كانوا بمكة آمنوا فكتب إليهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من المدينة لما نزلت آية الهجرة لايقبل منكم إسلام حتى تهاجروا ، فخرجوا إلى المدينة فتبعهم المشركون فردُّوهم فنزلت فيهم هذه الآيات فكتبوا إليهم ، أنزلت فيكم آية كذا وكذا ؟ فقالوا : نخرج فإن اتبعنا أحد قاتلناه ، فخرجوا فاتبعهم المشركون فقاتلوهم ، فمنهم من قُتِل ومنهم من نجا ، فأنزل الله فيهم : « ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ » .

قال مقاتل : نزلت فى مِهْجَع مولى عمر بن الخطاب ، وكان أول قتيل من المسلمين يوم بدر ، رماه عامر بن الحضْرمى بسهم فقتله ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم يومئذ : « سيد الشهداء مِهجع ، وهو أول من يُدعى إلى باب الجنة من هذه الأمة » وجزع عليه أبواه وامرأته فنزلت « الٓمٓ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا » الآية .

## الإيضاح

( الٓمٓ ) تقدم أن قلنا إنه ينطق بالحروف المقطعة فى أوائل السور بأسمائها ساكنة فيقال : ( أَلِفْ . لاَمْ . مِيمْ ) .

والحكمة فى البداءة بها التنبيه وطلب إصغاء السامعين إلى مايلقى بعدها ، فإن الحكيم إذا خاطب من يكون مشغول البال قدَّم على المقصود شيئا غيره ليلفت المخاطب بسببه إليه ، فحينا يكون كلاما مفهوما كقول القائل اسمع أو ألق بالك إلىّ ، وحينا يكون فى معنى الكلام المفهوم كقولك ياعلى ، وحينا يكون صوتا غير مفهوم المعنى كمن يصفر خلف إنسان ليلتفت إليه .

فالنبى صلى الله عليه وسلم وإن كان يقظ الجنان فهو إنسان يشغله شأن عن شأن ، فحسن من الحكيم الخبير أن يقدِّم على المقصود حروفا هى كالمنبِّهات لا يُفْهَم منها معنى، لتكون أتم فى إفادة التنبيه ، لأنه إذا كان المقدم قولا مفهوما فربما ظن السامع أنه هو المقصود ولا كلام للمتكلم بعد ذلك ليصغى إليه ، أما إذا سمع صوتا لامعنى له جزم بأن هناك كلاما آخر سيرد بعد ، فيُقْبِلُ إليه تمام الإقبال ، ويُرْهِف السمع إلى ماسيأتى .

وقد ثبت بالاستقراء أن كل سورة فى أوائلها حروف التهجى بدئت بذكر الكتاب أو التنزيل أو القرآن نحو «الٓمٓ ذلك الكتاب ، الٓمٓصٓ كتاب أنزل إليك ، يٰسٓ والقرآن ، صٓ والقرآن ، قٓ والقرآن ، حمٓ تنزيل الكتاب » إلا ثلاث سور « كٓهيٰعٓصٓ، الٓمٓ أحسب الناس، الٓمٓ غلبت الروم » .

وقد حصل التنبيه فى القرآن بغير الحروف التى لايفهم معناها كقوله : « يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ » ، وقوله : « يَـٰأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ ؟ » ، من قبَل أن تقوى الله أمر عظيم ، ومثلها تحريم ماأحل الله .

وقد بدئت هذه السورة بالحروف وليس فيها البدء بالقرآن أو الـكتاب من قبَل أن فيها ذكر جميع التكاليف ، وهى شاقة على النفس ، فحسن البدء بحروف التنبيه للإيقاظ إلى ما يلقى بعدها :

( أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لايفتنون ) أى أظن الذين نجَوْا من أصحابك من أذى المشركين أن نتركهم بغير اختبار ولا امتحان بمجرد قولهم : آمنا بك وصدقناك فيما جئنا به من عند الله ، كلا لنمتحننّهم بشاقّ التكاليف كالهجرة ، والجهاد فى سبيل الله، ورفض الشهوات ، ووظائف الطاعات ، وأفانين المصايب فى الأنفس والأموال والثمرات ، ليمتاز المخلص من المنافق ، والراسخ فى الدين من المتزلزل فيه ، ونجازى كلا بحسب مراتب عمله .

ونحو الآية قوله : « أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ » .

والخلاصة : أيظن الناس أنهم يتركون بمجرد قولهم آمنا دون أن يُبْتَلَوْا بالفرائض البدنية والمالية كالهجرة من الأوطان والجهاد فى سبيل الله ودفع الزكاة للفقراء والمحتاجين وإغاثة البائسين والملهوفين .

ثم ذكر ماهو كالتسلية لهم بما نال مَنْ قبلهم بالمشاقّ فقال :

( ولقد فتنا الذين من قبلهم ) أى ولقد اختبرنا أتباع الأنبياء من الأمم السالفة وأصبناهم بضروب من البأساء والضراء فصبروا وعَضوا على دينهم بالنواجذ ، فابتلينا بنى إسرائيل بفرعون وقومه وأصابهم منه البلاء العظيم والجهد الشديد ، وابتلينا من آمن بعيسى بمن كذبه وتولى عنه — لاجرم ليصيبنَّ أتباعك أذى شديد وجهد عظيم ممن خالفهم وناصبهم العداء .

روى البخارى وأبو داود والنسائى عن خبّاب بن الأرتّ قال : « شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد لقينا من المشركين شدة ، فقلنا : ألا تستنصر لنا ؟ ألا تدعو لنا ؟ فقال : قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيُحفَر له فى الأرض فيجعل فيها ، ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ، ويُمشَط بأمشاط الحديد لحمُه وعظمه ؛ فما يصدّه ذلك عن دينه ، والله ليتمنّ هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ؛ لا يخاف إلا الله والذئبَ على غنمه ، ولكنكم تستعجلون » .

وعن أبى سعيد الخدْرى قال : «دخلت على النبى صلى الله عليه وسلم وهو يُوعَك، فوضعت يدى عليه ، فوجدت حره بين يدى فوق اللحاف ، فقلت : يارسول الله ماأشدها عليك ! قال إنا كذلك يضعّف لنا البلاء و يضعّف لنا الأجر، قلت: يارسول الله: أىّ الناس أشد بلاء ؟ قال الأنبياء ، قلت : ثم من ؟ قال : ثم الصالحون ، إنْ كان أحدهم ليُبْتلى بالفقر حتى مايجد إلا العباءة يجوبها ( يمزقها ) وإنْ كان أحدهم ليفرَح بالبلاء كما يفرح أحدكم بالرخاء » .

ونحو الآية قوله : « وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا » .

( فليعلمنّ الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ) أى وليُظْهِرنّ الله الصادقين منهم فى إيمانهم من الكاذبين بما يشبه الامتحان والاختبار ، وليجازينّ كلا بما يستحق

وخلاصة ماسلف : أيها الناس لاتظنوا أنى خلقتكم سدى ، بل خلقتكم لترْقَوْا إلى عالم أعظم من عالمكم وأرقى منه فى كل شئونه ، ولا يتم ذلك إلا بتكليفكم بعلم وعمل ، واختبارکم من آن إلى آخر بإنزال النوازل والمصايب ، فى الأنفس والأموال والثمرات ، والتخلى عن بعض الشهوات ، وفعل التكاليف من الزكاة والصيام والحج ونحوها . فحياتكم حياة جهاد وشقاء، شئتم أوأبيتم .

و بمقدار ما تصبرون على هذا الاختبار وتفوزون بالنجاح فيه يكون مقدار الجزاء والثواب ، وتلك سنة الله فيكم وفى الأمم من قبلكم ، وتاريخ الأديان ملىء بأخبار هذا البلاء وما لقيه المؤمنون من المكذبين بالرسل .

(أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا ؟ ) أى بل أيظن هؤلاء الذين يجترحون الإثم والفواحش أن يفوتونا ، فلا نقدر على مجازاتهم ، ولا نستطيع أن نجرى العدل فيهم ، وما قضت به سنتنا فى الظالمين بأخذهم أخذ عزيز مقتدر ؟ .

قال ابن عباس: يريد الوليد بن المغيرة وأبا جهل والأسود والعاص بن هشام وعتبة والوليد بن عتبة وعتبة بن أبى معيط وحنظلة بن أبى سفيان والعاص بن وائل .

( ساء ما يحكمون ) أى بئس حكما يحكمونه هذا الحكم ، وكيف يدور ذلك بخلدهم و إنا لم نخلق الخلق سدى ، بل ربيناهم وهذبناهم بضروب من التهذيب والعلم ، لعلهم يلمحون فى هذا العالم نور جمالى وجلالى .

---

مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٥) وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ ، إِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (٦) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (٧) .

## تفسير المفردات

يرجو : أى يطمع ، لقاء الله : أى نيل ثوابه وجزائه ، أجل الله : الوقت المضروب للقائه ، جاهد أى بذل جهده فى جهاد حرب أو نفس .

## المعنى الجملى

بعد أن ذكر فيما سلف أن العبد لا يُترك فى الدنيا سدى ، وأن من ترك ما كلف به عُذِّب — أردف ذلك بيان أن من يعترف بالآخرة ويعمل لها لا يضيِّع الله عمله ولا يخيِّب أمله ، ثم ذكر أن طلب ذلك من المكلف ليس لنفع يعود إلى الله تعالى فهو غنىّ عن الناس جميعا ، ثم أرشد إلى أن جزاء العمل الصالح تكفير السيئات ، ومضاعفة الحسنة إلى عشر أمثالها فضلا منه ورحمة .

## الإيضاح

( من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت وهو السميع العليم ) أى من كان يطمع فى ثواب الله يوم لقائه فليبادر إلى فعل ما ينفعه ، وعمل ما يوصله إلى مرضاته ، ويجتنب ما يبعد من سخطه ، فإن أجل الله الذى أجّله لبعث خلقه للجزاء لآت لا محالة ، والله هو السميع لأقوال عباده ، العليم بعقائدهم وأعمالهم ، ويجازى كلا بما هو أهل له ، وفى هذا تنبيه إلى تحقق حصول المرجوّ والمَخُوف وعدا ووعيدا .

ثم بين سبحانه أن التكليف بجهاد النفس وجهاد الحرب ليس لنفع يعود إليه ، بل لفائدة المكلف فقال :

( ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه ، إن الله لغنى عن العالمين ) أى ومن بذل جهده فى جهاد عدو أو حرب نفس فإنما يجاهد لنفع نفسه ، لأنه إنما يفعل ذلك ابتغاء الثواب من الله على جهاده ، وهربا من عقابه ، وليس بالله إلى فعله حاجة ، فهو غنى عن جميع خلقه ، له الملك وله الأمر يفعل ما يشاء .

ونحو الآية : « مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ » وقوله : « إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ » .

ثم بين بالتفصيل جزاء المطيع فقال :

( والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرنّ عنهم سيئاتهم ولنجزينهم أحسن

الذى كانوا يعملون ) أى والذين آمنوا بالله ورسوله وصح إيمانهم حين ابتلائهم ، فلم يرتدوا عنه بأذى المشركين لهم ، وعملوا صالح الأعمال ، فأدّوا فرائضه وقاموا بها حق القيام ، فواسَوُا البائس الملهوف ، وأغاثوا المظلوم ، وقدّموا لوطنهم ماهو شديد الحاجة إليه ، فرأبوا صدعه ، وسدّوا ثغره ، وكانوا للمؤمنين سندا ومعينا ، حتى يصيروا كالبنيان يشد بعضه بعضا — لنكفرنّ عنهم سيئاتهم التى فرطت منهم فى شركهم أو صدرت منهم لِمَاماً فى إيمانهم وندموا على ما اجترحوه منها ، ولنثيبنهم على صالح أعمالهم حين إسلامهم أحسن ما كانوا يعملون ، فنقبل القليل من الحسنات ، ونثيب على الواحدة منها عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، ونجزى على السيئة بمثلها ، أو نعفو عنها .

ونحو الآية قوله : « إنّ اللهَ لاَيَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيماً » .

---

وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٨) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى الصَّالِحِينَ (٩).

## المعنى الجملى

بعد أن ذكر أن العمل الصالح يكفر السيئات ويضاعف الحسنات ـ أعقب ذلك بذكر البر بالوالدين والحدَب عليهما، لأنهما سبب وجوده ، فلهما عليه الإحسان والطاعة. فالإحسان إلى الوالد بالإنفاق، و إلى الوالدة بالإشفاق، إلا إذا حرّضاه على الشرك وأمراه بالمتابعة على دينهما إذا كانا مشركين ، فإنه لايطيعهما فى ذلك ، ثم بين أن من يعمل الصالحات يدخله الله فى زمرة الأنبياء والأولياء ، ويؤتيه من الكرامة والدرجة الرفيعة والزلفى عنده مثل ما أوتى هؤلاء .

روى الترمذى « أن الآية نزلت فى سعد بن أبى وَقَّاص وأمه حَمْنَة بنت أبى سفيان لما أسلم وكان من السابقين الأولين وكان بارًّا بأمه ، قالت له : ما هذا الدين الذى أحدثت ؟ والله لا آكل ولا أشرب حتى ترجع إلى ما كنت عليه أو أموت فتتعيَّر بذلك أبد الدهر يقال : يا قاتل أمه ، ثم إنها مكثت يوما وليلة لم تأكل ولم تشرب ولم تستظل ، فأصبحت وقد جَهَدت ، ثم مكثت يوما آخر وليلة لم تأكل ولم تشرب ، فجاء سعد إليها وقال يا أماه لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفسا نفسا ما تركت دينى ، فكلى إن شئت ، وإن شئت فلا تأكلى ، فلما أيست منه أكلت وشربت ، فأنزل الله هذه الآية ، آمرا بالبر بالوالدين والإحسان إليهما ، وعدم طاعتهما فى الشرك به » .

## الإيضاح

( ووصينا الإنسان بوالديه حسنا ) أى وأمرناه بتعهدهما والبر بهما ، والإحسان إليهما ، كما قال فى آية أخرى : « وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا ، وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا » .

( وإن جاهداك لتشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما ) أى وإن حرضاك على أن تتابعهما على دينهما إذا كانا مشركين ، فإياك أن تفعل ذلك ، وجاء فى الحديث الصحيح « لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق » .

ومعنى قوله : ( ما ليس لك به علم ) أنه لا علم لك بإلهيته ، وإذا كان لا يجوز له أن يتّبع فيما لا يعلم صحته فأحرِ به ألا يتبع فيما يعلم بطلانه .

ثم توعد من يفعل ذلك بقوله :

( إلىّ مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون ) أى مرجعكم جميعا إلىّ يوم القيامة ،

من آمن منكم ومن كفر ، ومن بر والديه ، ومن عقّ ، ثم أجازيكم على أعمالكم ، المحسن بإحسانه ، والمسىء بما هو أهل له .

( والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنهم فى الصالحين ) أى والذين آمنوا بالله وصدّقوا رسوله وعملوا مايصلح نفوسهم ، ويزكّى أرواحهم ويطهرها ، لندخلنهم فى زمرة الصالحين ، ونجعلهم فى عدادهم فندخلهم الجنة معهم .

---

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ (١٠) وَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ (١١) .

## المعنى الجملى

الناس فى الدين أقسام ثلاثة : مؤمن حسن الاعتقاد والعمل ، وكافر مجاهر بالكفر والعناد ، ومذبذب بينهما ، يُظهِر الإيمان بلسانه ، ويبطن الكفر فى فؤاده ، وقد بين القسمين الأولين بقوله : ( فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ) و بين أحوالهما بقوله : ( أم حسب الذين يعملون السيئات ) إلى قوله : ( والذين آمنوا وعملوا الصالحات ) ثم أردف ذلك ذكر القسم الثالث بقوله : ( ومن الناس من يقول آمنا بالله ) الخ .

روى أن الآية نزلت فى عياش بن أبى ربيعة أسلم وهاجر ، ثم أوذى وضُرِب فارتدّ وقد كان عذبه أبو جهل والحارث ، وكانا أخويه لأمه ، ثم عاش بعد ذلك دهرا وحسن إسلامه .

# الايضاح

( ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أوذى فى الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ) أى ومن الناس فريق يقول : آمنا بالله وأقررنا بوحدانيته ، فإذا آذاه المشركون لأجل إيمانه ، جعل فتنة الناس فى الدنيا كعذاب الله فى الآخرة ، فارتد عن إيمانه ، ورجع إلى كفره ، وكان يمكنه أن يصبر على الأذى ، ويجعل قلبه مطمئنا بالإيمان ، ولكنه جعل فتنة الناس صارفة له عن الإيمان ، كما أن عذاب الله صارف للمؤمنين عن الكفر ، وعذاب الناس له دافع ، وعذاب الله ليس له دافع ، وعذاب الناس يترتب عليه ثواب عظيم ، وعذاب الله بعده العقاب الأليم ، والمشقة إذا كانت مستتبعة للراحة العظيمة تطيب النفس لها ولا تعدّها عذابا.

قال الزجاج : ينبغى للمؤمن أن يصبر على الأذى فى الله . أخرج أحمد والترمذى وابن ماجه وأبو ليلى عن أنس قال : قال صلى الله عليه وسلم : « لقد أوذيت فى الله ومايُؤْذَى أحد ، ولقد أُخِفْت فى الله ، ومايخاف أحد ، ولقد أتت علىّ ثالثة ، ومالى ولبلال طعام يأكله ذو كبد إلا ماوارى إبط بلال » .

وخلاصة ذلك : إن من الناس من يدّعون الإيمان بألسنتهم ، فإذا جاءتهم محنة وفتنة فى الدنيا اعتقدوا أن هذا من نقمة الله تعالى منهم ، فارتدّوا عن الإسلام ، ورجعوا إلى الكفر الذى كان متغلغلا فى حنايا ضلوعهم وشغاف قلوبهم .

ونحو الآية قوله : « وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ عَلَى حَرْفٍ ، فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ ، وَإِن أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ » .

( ولئن جاء نصر من ربك ليقولن إنا كنا معكم ) أى ولئن جاء نصر قريب من لدى ربك بالفتح والمغانم ليقولَنّ هؤلاء المنافقون : إنا كنا معكم إخوانا فى الدين ننصركم على أعدائكم ، وهم كاذبون فيما يدّعون .

ونحو الآية قوله : «الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ ، فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللهِ قَالُوا

أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ ؟ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ؟ » .

ثم توعدهم وذكر أنه عليم بما فى صدورهم ، لايخفى عليه شىء من أمرهم فقال :

( أوليس الله بأعلم بما فى صدور العالمين ؟ ) أى أوليس الله أعلم بما فى قلوب المنافقين وماتكنّه صدورهم ، وإن أظهروا لكم الموافقة على الإيمان ، فكيف يخادعون من لايخفى عليه خافية ، ولا يستتر عنه سر ؟ .

ثم ذكر أن هذه الفتنة إنما هى ابتلاء واختبار من الله ، ليستبين صادق الإيمان من المنافق ، الذى لايتجاوز الإيمان طرف لسانه ، ولا يعدوه إلى قلبه فقال :

( وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين ) أى وليختبرن الله عباده بالسراء والضراء ، ليميز صادق الإيمان من المنافق ، من يطيع الله فى كل حال فيصبر على اللأواء إذا مسته ، ويعدّها اختبارا له ، وأنه سيثاب عليها إذا هو فوّض الأمر فيها إليه ، ومن يعصيه إذا حزَبه الأمر ، واشتد به الخطب ، ولا يجد الصبر إلى قلبه سبيلا .

ونحو الآية قوله: «وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ » وقوله : « مَا كَانَ اللهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ » .

---

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٢) وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (١٣)

## تفسير المفردات

المراد بالحمل هنا : تبعة الذنوب ، والأثقال واحدها ثِقْل : وهو الحِمْل الذى يئود حامله ، والمراد به الذنب والإثم .

## المعنى الجملى

بعد أن ذكر فيما سلف قسر الكفار للمؤمنين على الكفر ، وإلزامهم إياه بالأذى والوعيد ـ أردف ذلك ذكر دعوتهم إياهم إليه بالرفق واللين حينا آخر بنحو قولهم لهم : لاعليكم بذلك من بأس ، إننا نحتمل تبعات ذنوبكم ، ثم ردّ مقالتهم ببيان كذبهم ، فإن أحدا لايحمل وزر أحد يوم القيامة ، ثم ذكر أن المضلين يتحملون تبعات ضلالهم وإضلالهم ، ويكون لهم العذاب على كلا الجُرْمين .

روى عن مجاهد : أن الآية نزلت فى كفار قريش قالوا لمن آمن منهم: لا نُبْعث نحن ولا أنتم فاتبعونا ، فإن كان عليكم إثم فعلينا .

## الإيضاح

(وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم) أى وقال الكافرون من قريش لمن آمن منهم واتبعوا الهدى : ارجعوا إلى ديننا الذين كنتم عليه ، واسلكوا طريقنا ، وإن كانت عليكم آثام فعلينا تبعتها وهى فى رقابنا ، كما يقول القائل : افعل هذا وخطيئتك فى رقبتى .

فردّ الله عليهم كذبهم بقوله :

( وما هم بحاملين من خطاياهم من شىء ) أى وإنهم لايحملون ذنوبهم يوم القيامة فإن أحدا لايحمل وزر أحد كما قال تعالى : « وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى » وقال « وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً . يُبَصَّرُونَهُمْ » .

ثم أكد ماسبق وقرره بقوله :

( إنهم لـكاذبون ) فيما قالوه إنهم يحملون عنهم الخطايا ، قال صاحب الـكشاف : وترى المتّسمين بالإسلام من يستنّ بأولئك فيقول لصاحبه إذا أراد أن يشجعه على ارتـكاب بعض العظائم : افعل هذا وإثمه فى عنقى ، وكم من مغرور بمثل هذا الضمان من ضعفة العامة وجهلتهم اه .

وبعد أن بين عدم منفعة كلامهم لمخاطبيهم ، بين مايستتبعه ذلك القول من المضرّة لأنفسهم فقال :

( وليحملنّ أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم ) أى وليحملن الدعاة إلى الـكفر والضلال يوم القيامة أوزار أنفسهم وأوزارا أخرى ، بما أضلّوا من الناس من غير أن ينقص من أوزار أولئك شيئا كما جاء فى الآية الأخرى « لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ » وفى الصحيح : « من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه إلى يوم القيامة من غير أن ينقُص من أجورهم شيئا ، ومن دعا إلى ضلال كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه إلى يوم القيامة من غير أن ينقص من آثامهم شيئا » .

ثم ذكر أنهم يوم القيامة يسألون على افترائهم على ربهم فقال :

( وَليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون ) أى وليسألن حينئذ سؤال توبيخ وتقريع عما كانوا يكذبونه فى الدنيا بوعد من أضلوهم بالأباطيل ، وقولهم لهم : ( اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم ) .

## قصص نوح عليه السلام

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ (١٤) فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ (١٥) .

## الايضاح

بعد أن ذكر افتتان المؤمنين بأذى الكفار ، وأرشد إلى أن من قبلهم من الأمم قد فُتِنوا ، أعقبه بتفصيل من فُتِنوا من الأنبياء : كنوح و إبراهيم وهود ولوط وشعيب . تسلية له صلى الله عليه وسلم ، فقد ابتُلُوا بما أصابهم من المكاره ، وصبروا عليها ، فليكن ذلك قدوة للمؤمنين .

وقد بدأ بذكر أبى الأنبياء نوح عليه السلام فذكر أنه مكث فى قومه ألف سنة يدعوهم إلى الله ليلا ونهارا سرا وجهرا، وما زادهم ذلك إلا فرارا من الحق ، وإعراضا عنه ، وتكذيباً له ، وما آمن معه إلا قليل منهم ، فأنزل الله عليهم الطوفان فأهلكهم وهم مستمرون فى الظلم ، لم يتأثروا بما سمعوا من نوح من الآيات ، ولم يرعَوُوا عماهم عليه من الكفر والمعاصى هذه المدة ، فأنجى الله نوحا ومن معه ممن ركب السفينة من أتباعه ، وكانت تلك السفينة عبرة وموعظة أمدا طويلا مدة بقائها على جبل الجودى ، ينظر إليها الناس ، وترشدهم إلى نعمته على خلقه بالنجاة من الطوفان ، كما قال : «إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ . لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ» وقد تقدم تفصيل هذا فى سورة هود .

وجاء النظم هكذا : إلا خمسين عاما ، ولم يقل : تسعمائة سنة وخمسين سنة ، لأن فى الاستثناء تحقيق العدد بخلاف الثانى فقد يطلق على مايقرب منه ، إلى أن ذكر الألف أفخم وأوصل إلى الغرض ، وجىء بالمميِّز أولا بالسنة ، ثم بالعام دفعاً للتكرار ، ولأن العرب تعبر عن الخصب بالعام ، وعن الجدب بالسنة ، ونوح لما استراح بقى فى زمن حسن .

## العبرة من هذا القصص

لايحزننك أيها الرسول ماتلقى من هؤلاء المشركين أنت وأصحابك من الأذى ، فانى وإن أمليت لهم وأطلت إملاءهم ، فإن مصيرهم إلى البوار ، ومصيرك ومصير

أصحابك إلى العلو والنصر ، كفعلنا بقوم نوح : إذ أغرقناهم بالطوفان ، وأنجينا نوحا وأتباعه من راكبي السفينة وجعلناها عبرة للعالمين .

وفى ذلك إيماء إلى أن نوحا قد لبث هذا الأمد الطويل يدعو قومه ، ولم يؤمن إلا القليل ، فصبَر وماضجِر ، فأنت أولى بالصبر ، لقلة مدة لبثك ، وكثرة عدد أمتك .

---

## قصص إبراهيم عليه السلام

وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١٦) إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١٧) وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ، وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (١٨) .

## الإيضاح

( وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ) أى واذكر لقومك قصص إبراهيم حين كَمُل عقله ، وقدَر على النظر والاستدلال ، وترقى من مرتبة الكمال إلى مرتبة إرشاد الخلق ، وتصدى للدعوة إلى طريق الحق ، فدعا قومه إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، والإخلاص له فى السر والعلن ، واتقاء سخطه بأداء فرائضه ، واجتناب معاصيه .

ثم بين لهم فائدة ذلك فقال :

(ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون) أى فذلك الذى آمركم به خير لكم مما أنتم عليه

إن كان لديكم ذرة من الإدراك والعلم ، تميزون بها الخير من الشر ، وتعلمون ماينفعكم فى مستأنف حياتكم الدنيوية والأخروية .

ثم أرشدهم إلى فضل مايدعوهم إليه ، وفساد ماهم عليه بقوله :

( إنما تعبدون من دون الله أوثانا وتخلقون إفكا ) أى ماتعبدون من دون الله إلا تماثيل هى مصنوعة بأيديكم ، وتكذِبون حين تسمّونها آلهة ، وتدّعون أنها تشفع لكم عند ربكم .

ثم زاد فى النعى عليهم والتهكم بهم ، و بيان أن ذلك لايجديهم نفعا فقال :

( إن الذين تعبدون من دون الله لايملكون لكم رزقا ) أى إن أوثانكم التى تعبدونها لاتقدر أن ترزقكم شيئا من الرزق الذى لاقِوام لكم بدونه ، فكيف تعبدونها ؟ .

ثم ذكر لهم من ينبغى أن يعبد فقال :

( فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له ) أى فالتمسوا الرزق عند الله لاعند أوثانكم تدركوا ماتطلبون ، واعبدوه وحده ، واشكروا له نعمه عليكم مستجلبين بذلك المزيد من فضله .

و بعد أن ذكر أنه هو الرازق فى الدنيا والمنعم على عباده ، بين أن المرجع إليه فى الآخرة ؛ فهو الذى يُطْلب رضاه ، والتقرب إليه ، والزلفى عنده ، فقال :

( إليه ترجعون ) أى واستعدوا للقائه تعالى بالعبادة والشكر له ، فإنكم إليه ترجعون ؛ فيسألكم عما أنتم عليه من عبادتكم غيره ، وأنتم عباده وخلقه ؛ وفى نعمه تتقلبون ، ومن رزقه تأكلون .

ولما فرغ من إرشادهم إلى الدين الحق ؛ حذّرهم من تركه ، وهددهم بما حل بمن قبلهم من المكذبين للرسل فقال :

( و إن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم ) أى و إن تصدقونى فقد فزتم بسعادة الدارين ، و إن تكذبونى فيما أخبرتكم به فلا تضرونى بتكذيبكم ، فقد كذب أمم

قبلكم رسلهم : كقوم إدريس ونوح وهود وصالح عليهم السلام ، فجرى الأمر على ماسنه الله فى الخلق من نجاة المصدّقين للرسل ، وهلاك العاصين لهم .

( وماعلى الرسول إلا البلاغ المبين ) أى وماضر ذلك الرسل شيئا ، بل هم قد ضروا أنفسهم ، فما على الرسول إلا التبليغ الذى لايبقى معه شك ، وماعليه أن يصدقه قومه ، وقد خرجت من عهدة التبليغ ، ولا علىّ بعد ذلك أصدقتم ، أم كذبتم ؟ .

---

أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ (١٩) قُلْ سِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (٢٠) يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ (٢١) وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِى الْأَرْضِ وَلَا فِى السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٢٢) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِى وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٣) .

## تفسير المفردات

النشأة : الخلق والإيجاد ، تقلبون : أى تُرَدُّون بعد موتكم ، بمعجزين : أى جاعلين الله عاجزا ، من ولىّ : أى قريب ، ولا نصير : أى معين .

## المعنى الجملى

بعد أن أقام الأدلة على الوحدانية ، ثم الرسالة بقوله : ( وما على الرسول إلا البلاغ المبين ) شرع يبين الأصل الثالث وهو البعث والنشور ، وقد قلنا فيما سلف : إن هذه الأصول الثلاثة لايكاد ينفصل بعضها من بعض فى الذكر الإلهى ، فأينما تجد أصلين منها تجد الثالث .

# الايضاح

(أولم يروا كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده إن ذلك على الله يسير) أرشد إبراهيم خليل الرحمن قومه إلى إثبات المعاد الذى ينكرونه ، بما يشاهدونه فى أنفسهم من خلقهم بعد أن لم يكونوا شيئا مذكورا ، ثم إعطائهم السمع والبصر والأفئدة ، وتصرفهم فى الحياة إلى حين ، ثم موتهم بعد ذلك ، والذى بدأ هذا قادر على أن يعيده ، بل هو أهون عليه كما قال فى آية أخرى : « وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ، وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ » .

وخلاصة هذا : أنتم قد علمتم ذلك فكيف تنكرون الإعادة وهى أهون عليه ؟

وبعد أن ساق هذا الدليل المشاهد فى الأنفس ، أرشد إلى الاعتبار بما فى الآفاق من الآيات المشاهدة فقال :

(قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ، ثم الله ينشئ النشأة الآخرة إن الله على كل شىء قدير) أى سيروا فى الأرض وشاهدوا السموات وما فيها من الكواكب النيرة . ثوابتها وسياراتها ، والأرض وما فيها من جبال ومهاد ، وبرارى وقفار ، وأشجار وثمار ، وأنهار وبحار ، فكل ذلك شاهد على حدوثها فى أنفسها وعلى جود صانعها الذى يقول للشىء كن فيكون .

أوليس من فعل هذا بقادر على أن ينشئه نشأة أخرى ، ويوجده مرة ثانية وهو القادر على كل شىء ؟ .

وشبيه بالآية قوله فى الآية الأخرى : « سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ » .

ولما أقام الدليل على الإعادة رتب عليها ما سيكون بعدها فقال :

(يعذب من يشاء ويرحم من يشاء) أى يعذب من يشاء منكم ومن غيركم فى الدنيا والآخرة بعدله فى حكمه بحسب سننه فى خلقه ، ويرحم من يشاء بفضله ورحمته ،

فهو الحاكم المتصرف الذى يفعل ما يشاء ويحكم بما يريد ، لامعقب لحكمه ، ولا يُسأل عما يفعل ، وهم يسألون .

( وإليه تقلبون ) أى وإليه تردّون بعد موتكم ؛ والمراد أنه إن تأخر ذلك عنكم فلا تظنوا أنه قد فات ، فإن إليه إيابكم ، وعليه حسابكم ، وعنده يدّخر ثوابكم وعقابكم.

( وما أنتم بمعجزين فى الأرض ولا فى السماء ) أى إنه تعالى لايعجزه أحد من أهل سمواته ولا أرضه ، بل هو القاهر فوق عباده ، فكل شىء فقير إليه ، فلو صعد إلى السِّماكَيْن ، أو هبط إلى موضع السموك فى الماء ما خرج من قبضته وما استطاع الهَرَب منه .

ولما بين أنه مقدور عليهم جميعا لايُفْلِتُون منه ، ذكر أنه لايستطيع أحد نصرهم فقال :

( وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير ) أى وما كان لكم أيها الناس ولى يلى أموركم ، ويحرسكم من أن يصيبكم بلاء أرضى أو سماوى ، ولا نصير يدفع عذاب الله عنكم إن قُدِّر لكم .

ولما قرر التوحيد والبعث هدد من خالفهما وتوعده فقال:

( والذين كفروا بآيات الله ولقائه أولئك يئسوا من رحمتى وأولئك لهم عذاب أليم ) أى والذين كفروا بالدلائل التى نصبها سبحانه فى الكون دالة على توحيده ، والدلائل التى أنزلها على رسله مرشدة إلى ذلك، وجحدوا لقاءه والورود إليه يوم تقوم الساعة، أولئك لا أمل لهم فى رحمته ، لأنهم لم يخافوا عقابه ، ولم يرجوا ثوابه ، ولهم عذاب مؤلم موجع فى الدنيا والآخرة .

ونحو الآية قوله : « إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ » .

فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٢٤) وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٢٥) .

## المعنى الجملى

بعد أن أقام لهم الحجج والبراهين على الوحدانية وإرسال الرسل والحشر والجزاء؛ أردف هذا ببيان أنهم جحدوا وعاندوا ودفعوا الحق بالباطل بعد أن ألزمهم الحجة، ولم يجدوا للدفاع سبيلا، وحينئذ عدلوا إلى استعمال القوة كما هو دأب المحجوج المغلوب على أمره، فقالوا لقومهم: «ابنوا له بنيانا فألقوه فى الجحيم»، فأنجاه الله من كيدهم، وجعلها عليه بردا وسلاما، فعاد إلى لومهم بعد أن أُخرِج من النار، وقال: إن تمسككم بما أنتم عليه لم يكن عن دليل وبرهان، بل عن تقليد وحفظ للمودة بينكم، فلا يريد أحدكم أن يفارقه صاحبه فى السيرة والطريقة ولكنكم يوم القيامة تتحاجون حين يزول عمى القلوب، وتستبين الأمور للّبيب الأريب، ويكفّر بعضكم بعضا؛ فيقول العابد: ماهذا معبودى، ويقول المعبود: ماهؤلاء بعبدتى، ويلعن بعضكم بعضا، فيقول هذا لذاك: أنت الذى أوقعتنى فى العذاب حيث عبدتنى، ويقول ذاك لهذا: أنت الذى أوقعتنى فيه حيث أضللتنى بعبادته، ويود كل منكم أن يبعد عن صاحبه، وأنّى لهما ذلك، وهما مجتمعان فى النار؟ وما لهما ناصر يخلّصهما منها كما خلصنى ربى من النار التى ألقيتمونى فيها .

# الايضاح

( فما كان جواب قومه إلا أن قالوا اقتلوه أو حرقوه فأنجاه الله من النار ) أى فلم يكن جوابهم إذ قال لهم : اعبدوا الله واتقوه . إلا أن قال بعضهم لبعض : اقتلوه أو أحرقوه بالنار ، فأضرموا النار وألقوه فيها ، فأنجاه الله منها ، ولم يسلطها عليه ، بل جعلها بردا وسلاما .

ثم ذكر مافى هذا من العبرة لمن اعتبر فقال :

( إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون ) أى إن فى إنجائنا لإبراهيم من النار ، وقد أُلقِىَ فيها وهى تستعر وتصييرها بردا وسلاما عليه ـ لأدلة وحججا لقوم يؤمنون بالله إذا عاينوا ورأوا مثل هذه الحجة .

ثم ذكر ماقاله إبراهيم لهم بعد إنجائه من النار :

( وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم فى الحياة الدنيا ) أى وقال لهم إبراهيم مؤنبا وموبخا على سوء صنيعهم بعبادة الأوثان : إنما اجتمعتم على عبادتها فى الدنيا للصداقة والألفة التى بين بعضكم و بعض ، فأنتم تتحابون على عبادتها، وتتوادون على خدمتها ، كما يتفق الناس على مذهب ، فيكون ذلك سبب ألفتهم ومودتهم ، لا لقيام الدليل عندكم على صحة عبادتها .

وقصارى ذلك : إن مودة بعضكم بعضا هى التى دعتكم إلى عبادتها ، إذ قد رأيتم بعض من تودون عبدوها ، فعبدتموها موافقة لهم لمودتكم إياهم ، كما يرى الإنسان من يوده يفعل شيئا ، فيفعله مودة له .

ثم ذكر أن حالهم فى الآخرة ستكون على نقيض هذا فقال :

( ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا ومأواكم النار وما لكم من ناصرين ) أى ثم تنعكس الحال يوم القيامة ، فتنقلب الصداقة والمودة بغضا

وشنآنا وتتجاحدون ما كان بينكم ، ويلعن بعضكم بعضا ، فيلعن الأتباع المتبوعين ، والمتبوعون الأتباع كما قال : «الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ» ثم مرجعكم إلى النار ، وما لكم من ناصر ينصركم ، ولا منقذ ينقذكم من عذاب الله .

---

فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٦) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (٢٧).

## تفسير المفردات

لوط : هو ابن أخى إبراهيم على ما قاله النسابون ــ مهاجر إلى ربى : أى إلى الجهة التى أمرنى بالهجرة إليها ، وإسحاق هو ابنه الأكبر ، ويعقوب : حفيده وابن إسحاق ، وأجر الدنيا : الرزق الواسع الهنى ، والمنزل الرحب ، والمورد العذب ، والزوجة الصالحة ، والثناء الجميل ، والذكر الحسن ، والصالح لغة : هو الباقى على ما ينبغى ، يقال : طعام بَعْدُ صالح أى هو باق على حال حسنة .

## المعنى الجملى

بعد أن ذكر إنجاء إبراهيم من النار ، وأن ذلك معجزة له لا يفقه قدرها إلا من كان ذكى الفؤاد ، قوى الفطنة ، يفهم الدلائل التى أودعها الله فى الكون ــ أردف هذا بيان أنه لم يصدّق بما رأى إلا لوط عليه السلام ، فقد آمن به ، واستقر الإيمان فى قلبه . ثم بين أن إبراهيم لما يئس من إيمان قومه هاجر إلى بلاد الشام ــ فراراً بدينه وقصدا إلى إرشاد الناس وهدايتهم ، ثم عدّد نعمه العاجلة عليه فى الدنيا بأن آتاه بنين وحفدة ، وجعل فيهم النبوة ، وأنزل عليهم الكتب ، وآتاه الذكر الحسن إلى يوم القيامة ، ونعمه الآجلة أنه مكتوب فى عداد الكملة فى الصلاح والتقوى .

# الايضاح

(فآمن له لوط وقال إنى مهاجر إلى ربى) أى فلما رأى لوط معجزة إبراهيم آمن به وقال إبراهيم : إنى جاعل بلاد الشام دار هجرتى؛ إذ أمرنى ربى بالتوجه إليها ، ويقال: إن مَهْجَره كان من كُوثَى من سواد الكوفة إلى أرض الشام ، فإنه لما بالغ فى الإرشاد ولم يهتد به أحد من قومه إلا لوط أصبح بقاؤه بينهم مفسدة ، لأنه إما اشتغال بما لا فائدة فيه وهو عبث ، وإما سكوت وهو دليل الرضا ، فلم تبق إلا الهجرة .

ذكر البيهقى عن قتادة قال : أول من هاجر من المسلمين إلى الله عز وجل بأهله عثمان بن عفان رضى الله عنه ، قال أنس بن مالك : خرج عثمان بن عفان ومعه رُقَيَّة بنت رسول الله إلى أرض الحبشة ، فأبطأ على رسول الله صلى الله عليه وسلم خبرهما ، فقدمت امرأة من قريش فقالت : يامحمد رأيت خَتَنَك ومعه امرأته ، قال على أىّ حال رأيتهما ؟ قالت : رأيته وقد حمل امرأته على حمار من هذه الدبابة (التى تدب فى الأرض ولا تسرع) وهو يسوقها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « صحبهما الله ، إن عثمان لأول من هاجر بأهله بعد لوط » .

ثم ذكر العلة فى الهجرة فقال :

(إنه هو العزيز الحكيم) أى إن ربى هو العزيز الذى لايَذِلّ من نصره ، بل يمنعه ممن أراده بسوء ، الحكيم فى تدبير شئون خلقه ، وتصريفه إياهم فيما صرّفهم فيه .

ثم ذكر سبحانه مامنّ به عليه من النعم فى الدنيا والآخرة كِفاء إخلاصه له فقال :

(١) — (ووهبنا له إسحاق ويعقوب) أى ورزقناه من لدنّا إسحاق ولداً ويعقوب من بعده حفيدا .

ونحو الآية قوله : « فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَما يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا » وقوله : « وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً »

وفى الصحيحين : « إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم » .

(٢) — (وجعلنا فى ذريته النبوة والكتاب) فلم يوجد نبى بعده إلا وهو من سلائله ، فجميع أنبياء بنى إسرائيل من أولاد يعقوب ، حتى كان آخرهم عيسى بن مريم.

(٣) — (وآتيناه أجره فى الدنيا) فبدل الله أحواله فى الدنيا بأضدادها ، فبدّل وحدته بكثرة الذرية ، وبدل قومه الضالين بقوم مهتدين ، وهم ذريته الذين جعل فيهم النبوة والكتاب ، وكان لامال له ولا جاه وهما غاية اللذة فى الدنيا ، فكثر ماله، وعظم جاهه، فصارت تقرن الصلاة عليه بالصلاة على سائر الأنبياء، وصار معروفا بأنه شيخ الأنبياء بعد أن كان خامل الذكر، حتى قال قائلهم: « سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ » وهذا لايقال إلا فى المجهول بين الناس ، إلى أنه تعالى اتخذه خليلا ، وجعله للناس إماما .

(٤) — (وإنه فى الآخرة لمن الصالحين) أى وإنه فى الآخرة لفى عداد الكملة فى الصلاح والتقوى ، المستحقين لتوفير الأجر ، وكثرة العطاء ، والفوز بالدرجات العُلَى من لدن رب العالمين .

وقصارى أمره — إنه سبحانه جمع له بين سعادة الدارين ، وآتاه الحسنى فى الحياتين .

---

## قصص لوط عليه السلام

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَاسَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ (٢٨) أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ

فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٩) قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ (٣٠)

## تفسير المفردات

الفاحشة : الفعلة القبيحة التى تَنْفِر منها النفوس الكريمة ، السبيل : الطريق، وكانوا يتعرضون للسابلة بالقتل وأخذ الأموال .

## المعنى الجملى

بعد أن قص علينا سبحانه قصص إبراهيم وما لاقاه من قومه من العتوّ والجبروت ، ثم نصره له نصرا مؤزرا ـ أعقبه بقصص لوط ، إذ كان معاصرا له وسبقه إلى الدعوة إلى الله ، وقد افتنّ قومه فى فعلة لم يسبقهم إليها أحد من العالمين ، ولأن الملائكة الذين أنزلوا بقرية سذوم العذابَ جاءوا ضيوفا لإبراهيم عليه السلام .

## الإيضاح

( ولوطا إذ قال لقومه إنكم لتأتون الفاحشة ماسبقكم بها من أحد من العالمين ) أى واذكر قصص لوط حين أرسلناه إلى أهل سذوم الذين سكن فيهم وصاهرهم وانقطع إليهم فصاروا قومه ، فأنكر عليهم سوء صنيعهم وقبيح أفعالهم التى اختُصُّوا بها ، ولم يسبقهم إليها أحد من قبلهم ، لفظاعتها ، ونفرة الطباع السليمة منها .

ثم فصل هذه الفاحشة وكرر الإنكار عليها فقال :

(١) ( أئنكم لتأتون الرجال ) إتيان الشهوة ، وتستمتعون بهم الاستمتاع بالنساء .

(٢) ( وتقطعون السبيل ) أي وتقفون فى الطرقات تتعرضون للمارّة تقتلونهم وتأخذون أموالهم .

(٣) ( وتأتون فى ناديكم المنكر ) أى وتفعلون من الأفعال والأقوال فى أنديتكم ومجتمعاتكم ما لايليق ، ويخجل منه أر باب الفطر السليمة ، والعقول الراجحة الحصيفة .

أخرج أحمد والترمذى والطبرانى والبيهقى عن أم هانئ بنت أبى طالب قالت : « سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قول الله تعالى ( وتأتون فى ناديكم المنكر ) فقال : كانوا يجلسون بالطريق فيخذفون ( يرمون بالحصى ) أبناء السبيل ، ويسخرون منهم » وفى رواية عن ابن عباس « هو الخذف بالحصى والرمى بالبنادق والفرقعة ومضغ العلك ( اللبان ) والسواك بين الناس وحل الإزار والسِّباب والفحش فى المزاح » .

ثم ذكر جوابهم عن نصحه لهم فقال :

( فما كان جواب قومه إلا أن قالوا ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين ) أى فما كان جوابهم إذ نهاهم عما يكرهه الله من إتيان الفواحش التى حرمها عليهم إلاقولهم: ائتنا بعذاب الله الذى تعدنا به إن كنت صادقا فيما تقول ، ومُنْجزا ما تعد ، وكان قد أوعدهم بالعذاب على ذلك .

وهذا الجواب صدر منهم فى أولى مواعظه ، فلما ألحف عليهم فى الإنكار والنهى قالوا « أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ » كما جاء فى سورة الأعراف وفى هذا إيماء إلى شديد كفرهم ، وعظيم عنادهم .

ولما يئس من هدى قومه واتباعهم نصحه طلب من الله نصره فقال :

( قال رب انصرنى على القوم المفسدين ) أى قال رب انصرنى على هؤلاء الذين ابتدعوا الفواحش ، وجعلوها سنة فيمن بعدهم ، وأصروا عليها ، وجعلوا وعيدنا لهم تهكما وسخرية، فأنزل عليهم رجزا من السماء بما كانوا يفسقون .

وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ (٣١) قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٣٢) وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٣٣) إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٣٤) وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٣٥) .

## تفسير المفردات

القرية : هى سذوم ، الغابرين : الباقين ، وهو لفظ مشترك فى الماضى والباقى ؛ يقال فيما غبر من الزمان : أى فيما مضى ، ويقال الفعل ماض ، وغابر : أى باق ، سىء بهم : أى جاءته المساءة والغم بسببهم مخافة أن يقصدهم قومه بسوء ، ضاق بهم ذرعا : أى عجز عن تدبير شئونهم ، يقال طال ذرعه وذراعه على الشىء إذا كان قادراً عليه ، ومثله رَحُب ذرعه ، وضده ضاق ذرعه ، لأن طويل الذراع ينال ما لا يناله قصيره ، والرجز : العذاب الذى يقلق المتعذب أى يزعجه من قولهم : ارتجز فلان وارتجس : أى اضطرب .

## المعنى الجملى

لما استنصر لوط عليه السلام بربه بقوله : ( رب انصرنى على القوم المفسدين ) استجاب دعاءه وبعث لنصرته ملائكة ، وأمرهم بإهلاك قومه ، وأرسلهم من قبل بالبشرى لإبراهيم فجاءوه وبشروه بذرية طيبة ثم قالوا له : إنا مهلكو أهل هذه القرية لتمادى أهلها فى الشر وإصرارهم على الكفر والمعاصى ، فأشفق إبراهيم على لوط وقال إن

فى القرية لوطا فقالوا إنا منجوه وأهله إلا امرأته ، ثم نزل عليهم من السماء عذابا بما اجترحوا من السيئات واجترموا من الذنوب والآثام ، ثم ندعهم عبرة للغابرين ، وآية بينة لقوم يعقلون .

# الإيضاح

( ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا إنا مهلكو أهل هذه القرية ) أى ولما جاءت رسل الله مبشرة بإسحاق ، ومن وراء إسحاق يعقوب — قالوا لإبراهيم إنا مهلكو قرية سَذوم قرية قوم لوط .

ثم ذكروا سبب ذلك فقالوا :

( إن أهلها كانوا ظالمين ) لأنفسهم بتماديهم فى فنون الفساد ، وأنواع المعاصى ، وتكذيبهم رسوله صلى الله عليه وسلم .

ولما قالت له الملائكة ذلك :

( قال إن فيها لوطا قالوا نحن أعلم بمن فيها ) أى قال إبراهيم إشفاقا على لوط ليعلم حاله : إن فى القرية لوطا وهو ليس من الظالمين لأنفسهم ، بل هو من رسل الله وأهل الإيمان به والطاعة له ، فقال الرسل نحن أعلم منك بمن فيها من الكافرين ، وبأن لوطا ليس منهم .

ثم زادوا ماسلف إيضاحا وطمأنوه بذكر مايسره من نجاته بقولهم .

( لننجينه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين ) أى لننجينه وأتباعه من الهلاك الذى هو نازل بأهل القرية إلا امرأته فإنها من الباقين فى العذاب لممالأتها إياهم على الكفر والبغى وفعل الخبائث .

ثم ذكر ما كان من أمر لوط حين مجىء الرسل ضيوفا لديه فقال :

( ولما أن جاءت رسلنا لوطا سىء بهم وضاق بهم ذرعا وقالوا لاتخف ولا تحزن ) أى ولما أن جاءت الملائكة من عند إبراهيم إلى لوط على صورة بشر حسان الوجوه

خاف عليهم من قومه ، وحصلت له مساءة وغم بسببهم ، مخافة أن يقصدهم أحد بسوء وهو عاجز عن مدافعة قومه ، وتدبير الحيلة لحمايتهم ودفع الأذى عنهم ، وحين رأوه على هذه الحال من القلق والاضطراب قالوا له : هَوِّنْ على نفسك ولا تخف علينا ، ولا تحزن بما نفعله بقومك ، فإنهم قد بلغوا فى الخبث مبلغا لامطمع فى رجوعهم عنه مهما نصحت وألحفت فى الإرشاد .

ثم ذكروا مايوجب زوال خوفه وحزنه ومايشيرون به إلى أنهم ملائكة فقالوا :

(إنا منجوك وأهلك إلا امرأتك كانت من الغابرين) أى إنا منجوك من العذاب الذى سينزل بقومك ، ومنجو أتباعك معك ، فلن يصيبكم مايصيبهم منه إلا امرأتك فإنها من الهالكين ، لمظاهرتها إياهم والميل إلى شد أزرهم والدفاع عنهم ، فقد كانت تدلهم على ضيوفه ، فيقصدونهم بالسوء ، فصارت شريكة لهم فى الجُرْم .

وبعد أن بشروه بالنجاة قالوا له :

( إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزا من السماء بما كانوا يفسقون) أى منزلون عليها عذابا من لدنا يرتجزون له (يضطربون) وتنخلع له قلوبهم ، لأن الفسق قد تغلغل فى أفئدتهم ، وصار هِجِّيراهم وديدنهم .

وأشهر الآراء أن زلزلة خسفت بهم الأرض ، وابتلعتهم فى باطنها وصار مكان قريتهم بحيرة ملحة ( البحر الميت).

وبعدئذ بين أن ماحل بهم عبرة لمن اعتبر وادّكر فقال :

( ولقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون ) أى ولقد أبقينا مما فعلنا بهم عبرة بينة ، وعظة زاجرة ، لقوم يستعملون عقولهم فى الاستبصار ، وجعلناها مثلا للآخرين .

ونحو الآية قوله: «وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ . وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ؟ » .

وتقدم أن قلنا آنفا عند ذكر هذه القصة ماأثبته الكشف الحديث فى هذا الموضع .

## قصة شعيب عليه السلام

وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الآخِرَ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٣٦) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٣٧) .

## تفسير المفردات

مدين : أبو القبيلة ، وارجوا اليوم الآخر : أى توقعوه وتوقعوا ما يحدث فيه من الأهوال ، ولا تعثوا : أى ولا تفسدوا ، والرجفة : الزلزلة الشديدة ، جاثمين : أى مقيمين، من جثم الطائر : إذا قعد ولصق بالأرض ، والمراد أنهم ماتوا .

## الايضاح

( وإلى مدين أخاهم شعيبا فقال ياقوم اعبدوا الله وارجوا اليوم الآخر ولا تعثوا فى الأرض مفسدين ) أى وأرسلنا إلى مدين شعيباً فقال لهم : ياقوم اعبدوا الله وحده، وأخلصوا له العبادة ، وارجوا بعبادتكم إياه جزاء اليوم الآخر وثوابه ، ولا تفسدوا فى الأرض ، ولا تبغوا على أهلها ، فتنقصوا المكيال والميزان ، وتقطعوا الطريق على الناس، بل توبوا إلى ربكم وأنيبوا إليه .

ثم ذكر ما أعقب هذا النصح فقال :

( فكذبوه فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين ) أى فكذبوه فيما جاءهم به من عند ربهم ، فأهلكهم بزلزلة عظيمة ارتجفت لها القلوب ، واضطربت الأفئدة ، فأصبحوا فى دارهم ميتين لاحَرَاكَ بهم .

وقد تقدمت هذه القصة مبسوطة فى السور : الأعراف، وهود، والشعراء .

## قصص هود وصالح عليهما السلام

وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ (٣٨) .

## الايضاح

أى وأهلكنا أيضا عادا قوم هود عليه السلام وكانوا يسكنون الأحقاف ، وهى قريبة من بلاد اليمن . وثمود قوم صالح ، وكانوا يسكنون الحِجْر قريبا من وادى القُرى مع ما كانوا عليه من العتوّ والتكبر ، وكانت العرب تعرف مساكنهم معرفة تامة وتمر عليهم كثيرا وترى ماحل بهم .

وما سبب ما جرى عليهم إلا أن زين لهم الشيطان أعمالهم من عبادة غير الله ، وصدهم عن الطريق السوى الذى يوصلهم إلى النجاة ، وقد كانوا متمكنين من النظر والاستبصار ، فلم يكن لهم عذر فى الغفلة وعدم التدبر فى العواقب .

## قصص موسى عليه السلام

وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِى الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ (٣٩) .

## تفسير المفردات

يقال سبق فلان طالبه : أى فاته ولم يدركه ، ولقد أدركهم أمره تعالى أىّ إدراك ، فتداركوا نحو الدمار والهلاك .

## الايضاح

أى وأهلكنا أيضا قارون صاحب الأموال الطائلة والكنوز الكثيرة ، وفرعون ملك الملوك فى عصره ومصره ووزيره هامان ، ولقد جاءهم موسى بآيات بينات تدل

على صدق رسالته ، فاستكبروا فى الأرض وأبوا أن يصدقوه وأن يؤمنوا به ، وما كانوا فائتين الله ولا هاربين من عقابه ، بل هو قادر عليهم وآخذهم أخذ عزيز مقتدر .

## عاقبة الأمم المكذبة لرسلها

فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٠) .

## تفسير المفردات

الحاصب : الريح العاصفة فيها حصباء : أى حجارة صغيرة .

## الإيضاح

( فكلا أخذنا بذنبه ) أى أهلك الله الأمم المكذبة بأربعة ألوان من العذاب :

(١) ( فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ) كقوم عاد إذ قالوا من أشد منا قوة ؟ فجاءتهم ريح صرصر عاتية باردة شديدة الهبوب تحمل الحصباء فألقتها عليهم .

(٢) (ومنهم من أخذته الصيحة ) كقوم ثمود حين قامت عليهم الحجة ولم يؤمنوا، بل استمروا فى طغيانهم وكفرهم وتهددوا نبى الله صالحا ومن آمن معه ، فجاءتهم صيحة أخمدت منهم الأصوات والحركات .

(٣) (ومنهم من خسفنا به الأرض ) كقارون الذى طغى وبغى ، وعصى الرب الأعلى ، ومشى فى الأرض مرحا، وتاه بنفسه عجبا. فخسف الله به وبداره الأرض.

(٤) ( ومنهم من أغرقنا ) كقوم نوح أغرقوا بالطوفان ، وفرعون وهامان وجنودهما أغرقوا فى صبيحة يوم واحد .

ثم بين أن هذه العقوبة جزاء ما اجترحوا من الآثام والذنوب ولم تكن ظلما لهم فقال :

( وما كان الله ليظلمهم ولـكن كانوا أنفسهم يظلمون ) أى ولم يكن الله ليهلـكهم بغير جُرْم اجترموه ، لأن ذلك ليس من سننه تعالى ، وهو لا يوافق منهج الحـكمة ، فلا يصدر عن الحـكيم ، ولـكنه أهلـكهم بذنوبهم ، وكفرهم بربهم ، وجحودهم نعمه عليهم ، وتقلبهم فى آلائه ، وعبادتهم غيره ، ومعصيتهم من أنعم عليهم .

---

مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْـكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْـكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٤١) إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَـكِيمُ (٤٢) وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ (٤٣) خَلَقَ اللهُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِى ذٰلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ (٤٤) اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْـكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْـكَرِ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ (٤٥) .

## المعنى الجملى

بعد أن أسلف ـ سبحانه ـ أنه أهلك من أشرك به بعاجل العقاب، وسيعذبه بشديد العذاب ، ولا ينفعه فى الدارين معبوده ، ولا يجديه ركوعه وسجوده ـ أردف هذا تمثيل حال من اتخذ معبودا دون الله بحال العنكبوت ، وقد اتخذت لها بيتا لا يريحها إذا هى أوت ، ولا يجيرها من حر أو برد إذا هى ثوت ، ثم زاد الإنكار توكيدا فذكر أن ما يدعونه ليس بشىء ، فـكيف يتسنى للعاقل أن يترك القادر الحـكيم ، ويشتغل بعبادة من ليس بشىء ؟ ثم أردف هذا ببيان فائدة ضرب الأمثال للناس ، وأنه لا يدرك مغزاها إلا ذوو الألباب ، الذين يفهمون خبىء الـكلام وظاهره ، وسره

وعلانيته ، ثم ذكر أنه لم يخلق السموات والأرض إلا لحكمة يعلمها المؤمنون ، ويدركها المستبصرون وهى ماأرشد إليها بقوله : «وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ » .

و بعد أن أمر سبحانه عباده بما تقدم بيانه وأظهر الحق ببرهانه ، ولم يهتد بذلك المشركون ، سلّى رسوله بأمره بتلاوة كتابه وعبادته تعالى طرفى النهار وزلفا من الليل ، وإرشاده إلى أن الله عليم بما يصنع عباده ، وسيجازيهم كفاء مايعملون من خير أو شر .

## الايضاح

( مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا ) أى مثل الذين اتخذوا الأصنام والأوثان من دون الله أولياء يرجون نصرهم ونفعهم لدى الشدائد؛ فى قبيح احتيالهم وسوء اختيارهم لأنفسهم ، كمثل العنكبوت فى ضعفها وقلة حيلتها ، اتخذت لنفسها بيتا يُكِنّها من حر و برد ودفع أذى ، فلم يغن عنها شيئا حين حاجتها إليه ، فكذلك هؤلاء المشركون لم يغن عنهم أولياؤهم الذين اتخذوهم من دون الله شيئا ، ولم يدفعوا عنهم ما أحله الله بهم من سوء العذاب بكفرهم به وعبادتهم سواه .

وخلاصة ذلك ـ إن بيت العنكبوت لايكِنّ ولا يمنع أذى الحر والبرد كما هو شأنها فيما ترون ، فكذلك المعبود ينبغى أن يكون منه الخلق والرزق ، وجر المنافع ، ودفع المضار ، وماعبده الكافرون لم يقدم شيئا من ذلك ، فكيف يصرّون على عبادتهم؟ .

ثم ذكر جهلهم وسوء تقديرهم لما صنعوا فقال :

( وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون ) أى لو كان هؤلاء الذين اتخذوا من دون الله أولياء ـ يعلمون أن أولياءهم لايجدونهم فتيلا ولا قطميرا ، كما لايجدى بيت العنكبوت عنها شيئا ـ مافعلوا ذلك ؛ لكنهم قد بلغ بهم الجهل وسوء

التقدير حدًّا لايستطيعون معه العلم بعواقب مايفعلون ، ومن ثم فهم يحسبون أنهم ينفعونهم ويقربونهم إلى الله زلفى .

وإجمال ماتقدم : مثل المشرك الذى يعبد الوثن إذا قيس بالموحِّد الذى يعبد الله ، كمثل العنكبوت اتخذت بيتا بالإضافة إلى رجل بنى بيتا بآجرٍّ وجصٍّ ، أو نحته من صخرة ، وكما أن أوهن البيوت إذا استقريتها بيتا بيتا بيت العنكبوت، فأضعف الأديان إذا سبَرْتَها دينا فدينا عبادة الأوثان .

ثم زاد الإنكار توكيدا وتثبيتا فقال :

( إنّ الله يعلم مايدعون من دونه من شىء ) أى إن الله يعلم حال ماتعبدون من دونه من الأوثان والأصنام والجن والإنس ، وأنها لاتنفعكم ولا تضركم إن أراد الله بكم سوءا ، وإن مثلها فى قلة غَنائها لكم ، كمثل بيت العنكبوت فى قلة غنائه لها .

وقد يكون المعنى : ليس الذين يدعون من دونه شيئا ، إذ هو لحقارته وقلة الاعتداد به لايسمى شيئا .

( وهو العزيز الحكيم ) أى والله هو العزيز فى انتقامه ممن كفر به ، وأشرك فى عبادته معه غيره ، فاتقوا ـ أيها المشركون به ـ عقابه بالإيمان به قبل نزوله بكم ، كما نزل بالأمم الذين قص الله قصصهم فى هذه السورة ، فإنه إن نزل بكم لم تغن عنكم أولياؤكم الذين اتخذتموهم من دونه شيئا ، وهو الحكيم فى تدبير خلقه ؛ فمهلكٌ من استوجب عمله الهلاك ، ومؤخر من رأى فيه الرجاء للصلاح والاستقامة .

ثم بين فائدة ضرب الأمثال فقال :

( وتلك الأمثال نضربها للناس ومايعقلها إلا العالمون ) أى وهذا المثل ونظائره من الأمثال التى اشتمل عليها الكتاب العزيز ؛ فضربها للناس تقريبا لما بَعُدَ من أفهامهم ، وإيضاحا لما أشكل عليهم أمره ، واستعصى عليهم حكمه ، ومايفهم مغزاها ومعرفة تأثيرها ، واستتباعها لكثير من الفوائد إلا الراسخون فى العلم ، المتدبرون فى عواقب الأمور .

روى عن جابر أن النبي صلى الله عليه وسلم تلا هذه الآية فقال « العالم من عقل عن الله تعالى فعمل بطاعته واجتنب سخطه » .

ولما قدم سبحانه أن لامعجز له سبحانه ، ولا ناصر لمن خذله ، أقام الدليل على ذلك بقوله :

(خلق الله السموات والأرض بالحق إن فى ذلك لآية للمؤمنين) أى خلق السموات والأرض لحكم وفوائد دينية ودنيوية ولم يخلقها عبثا ولهوا ، فبخلقها أمكن إيجاد كل ممكن تعلق به العلم ، واقتضت الإرادة إيجاده ، وأمكن معرفة الخالق الذى أوجدها وعبادته كفاء نعمه ، كما جاء فى الحديث القدسى حكاية عن الله عز وجل : « كنت كنزا مخفيا فأردت أن أعْرَف فخلقت الخلق فبى عرفونى » .

ولا يفهم هذه الأسرار إلا من آمنوا بالله وصدقوا رسوله ، لأنهم هم الذين يستدلون بالآثار على مؤثّرها كما أثر عن بعض العرب : « البعرة تدل على البعير ، وآثار الأقدام تدل على المسير » .

ثم خاطب رسوله مسليا له بقوله :

( اتل ماأوحى إليك من الكتاب ) أى أدم تلاوة الكتاب تقربا إلى الله بتلاوته ، وتذكرا لما فى تضاعيفه من الأسرار والفوائد وتذكيرا للناس ، وحملا لهم على العمل بما فيه من أحكام وآداب ومكارم أخلاق .

( وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ) أى وأدّ الصلاة على الوجه القيّم مريدا بذلك وجه الله ؛ والإنابة إليه مع الخشوع والخضوع له ؛ فإنها إن كانت كذلك نهتك عن الفحشاء والمنكر ؛ لماتحويه من صنوف العبادات من التكبير والتسبيح ، والوقوف بين يدى الله عز وجل ، والركوع والسجود بغاية الخضوع والتعظيم ، ففى أقوالها وأفعالها مايومئ إلى ترك الفحشاء والمنكر ، فكأنها تقول : كيف تعصى ربا هو أهل لما أتيت به ؟ وكيف يليق بك أن تفعل ذلك وتعصيه ؟ وأنت وقد أتيت بما أتيت به من أقوال وأفعال تدل على عظمة المعبود وكبريائه ، وإخباتك له ، وإنابتك

إليه ، وخضوعك لجبروته وقهره ؛ إذا عصيته وفعلت الفحشاء والمنكر تكون كالمناقض نفسه بين قوله وفعله .

( ولذكر الله أكبر ) أى ولذكر الله تعالى إياكم برحمته أكبر من ذكركم إياه بطاعته .

( والله يعلم ماتصنعون ) من خير أو شر وهو يجازيكم كِفاء أعمالكم إن خيرا فخير وإن شرا فشر كما جرت بذلك سنته فى خلقه ، وهو الحكيم الخبير .

ولا يخفى مافى ذلك من وعد ووعيد ؛ وحث على مراقبة الله فى السر والعلن « إِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى » .

ثم تفسير هذا الجزء من كلام ربنا القديم بمدينة حلوان من أرباض القاهرة حاضرة الديار المصرية فى اليوم الثامن والعشرين من شهر ربيع الثانى من سنة أربع وستين وثلثمائة وألف هجرية . والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله .

---

# فهرست

## أهم المباحث العامة التى فى هذا الجزء

| الصفحة | المبحث |
|---|---|
| ٣ | ما أجاب به قوم لوط لوطا بعد سماع نصائحه |
| ٥ | أمره عليه السلام بأن يحمد الله على نعمه |
| ٧ | توبيخ المشركين على عبادتهم للأصنام والأوثان |
| ١٠ | طلب الدليل على صحة عبادة الأصنام |
| ١١ | لا يعلم الغيب إلا الله |
| ١٢ | قالت عائشة : من زعم أن النبى صلى الله عليه وسلم يعلم ما يكون فى غد فقد أعظم الفرية على الله |
| ١٤ | مقالة المشركين بأن البعث ما هو إلا من أساطير الأولين |
| ١٦ | كل ما يحصل فى الوجود فهو فى اللوح المحفوظ |
| ١٧ | إعجاز القرآن من وجوه |
| ١٨ | صفة القرآن |
| ١٩ | تيئيس النبى صلى الله عليه وسلم من إيمان قومه |
| ٢٠ | إنك لا تستطيع أن تهدى العمى عن ضلالتهم |
| ٢١ | ذكر مقدمات يوم القيامة |
| ٢٢ | حال المكذبين عند مجىء الساعة |
| ٢٣ | ذكر الدليل على التوحيد والحشر |
| ٢٦ | أمر النبى صلى الله عليه وسلم أن يقول لقومه : إنما أمرت أن أعبد الله وحده |
| ٢٨ | أمر نبيه صلى الله عليه وسلم بترغيب قومه وترهيبهم |

| الصفحة | المبحث |
|---|---|
| ٣٢ | كان من سياسة فرعون إزكاء العداوة والبغضاء بين أفراد الشعب ( فرّق تسُدْ ) |
| ٣٤ | ما خص به الشعب الإسرائيلى من الكرامة |
| ٣٥ | للدول هرم كما تهرم الأفراد |
| ٣٦ | ما أوحى به إلى أمّ موسى |
| ٣٩ | قتل فرعون وجنوده لأولاد بنى إسرائيل خطأ عظيم |
| ٤٠ | ما قالته أمّ موسى لأخته |
| ٤٣ | ما أنعم الله به على موسى حين كبره |
| ٤٤ | ما حدث من موسى حين دخول مصر |
| ٤٨ | نصيحة المؤمن الذى يكتم إيمانه لموسى |
| ٤٩ | ما حصل لموسى حين وصوله إلى مدين من الأحداث |
| ٥٠ | ما قالته ابنة الكاهن لموسى بعد مشورة أبيها |
| ٥٢ | ما قاله الكاهن لموسى |
| ٥٣ | عودة موسى إلى مصر بعد إتمام الأجل |
| ٥٤ | خبر النار التى رآها موسى من جانب الطور |
| ٥٥ | ما أراد الله لموسى من الآيات |
| ٥٦ | طلب موسى من ربه أن يرسل معه أخاه هرون وزيرا وإجابة طلبه |
| ٥٨ | ادعاء فرعون أن موسى ساحر |
| ٥٩ | تهكم فرعون بإله موسى وطلبه من وزيره بناء صرح ليطلع عليه |
| ٦٠ | ما نال فرعون من عقاب فى الدنيا قبل الآخرة |
| ٦٣ | ما أوتى موسى من الآيات البينات |
| ٦٤ | الحاجة إلى رسالة محمد صلى الله عليه وسلم |
| ٦٥ | ذكر قصص موسى فى القرآن على هذا الوجه دليل على نبوته صلى الله عليه وسلم |

| الصفحة | المبحث |
|---|---|
| ٦٦ | إرسال الأنبياء قطع للحجة على الناس |
| ٦٨ | طلب المشركين من الرسول أن يأتى بمعجزات كمعجزات موسى وقد كفر المعاندون من قَبْلُ بها |
| ٦٩ | الحكمة فى إنزال القرآن منجما |
| ٧٠ | من آمن من أهل الكتاب يؤتى أجره مرتين |
| ٧١ | فى الحديث : ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين |
| ٧٢ | أوصاف المؤمنين من أهل الكتاب |
| ٧٤ | « إنك لاتهدى من أحببت » نزلت فى أبى طالب |
| ٧٥ | احتجاج المشركين على عدم إيمانهم |
| ٧٦ | عدم الإيمان موجب لهلاك القرى |
| ٧٧ | لايهلك الله قرية إلا إذا ظلم أهلها |
| ٧٨ | زينة الدنيا ظل زائل ، وما عند الله خير وأبقى |
| ٨٠ | يسأل المشركون يوم القيامة عن الأوثان الذين عبدوهم من دون الله |
| ٨١ | جواب الرؤساء الدعاة إلى الضلال |
| ٨٣ | يسأل المشركون عن تكذيبهم للأنبياء |
| ٨٤ | حال من تاب من الكفار يوم القيامة |
| ٨٥ | اصطفاء بعض المخلوقات بالرسالة من حق الله ، لامن حق البشر |
| ٨٦ | الاستخارة الشرعية |
| ٨٧ | بعض صفات كماله سبحانه |
| ٨٨ | تفصيل ما يجب أن يحمد عليه من النعم |
| ٨٩ | المخالفة بين الليل والنهار فضل من الله |
| ٩٠ | اتخاذ الشركاء لله لم يكن عن دليل ، بل كان عن محض الهوى |
| ٩٣ | قصص قارون فيه بيان عاقبة أهل البغى والجبروت |

| الصفحة | المبحث |
|---|---|
| ٩٣ | أسباب بغيه |
| ٩٤ | النصائح التى أسداها قومه له |
| ٩٥ | مقالة قارون لقومه ردّا عليهم |
| ٩٧ | مظاهر بغى قارون بتباهيه بماله وخدمه وحشمه وأعوانه |
| ٩٨ | حين رآه قومه على هذه الشاكلة انقسموا فرقتين |
| ٩٩ | ما آل إليه بطره من وبال ونكال |
| ١٠٠ | العبرة من ذكر قصص قارون للناس |
| ١٠٢ | الدار الآخرة وما فيها من ثواب أعده الله للمؤمنين المتواضعين الذين لايترفعون على الناس |
| ١٠٤ | قصص محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه مع قومه و إيذاؤهم لهم |
| ١٠٥ | أمره صلى الله عليه وسلم أن يصدع بالدعوة ويبلّغ الرسالة |
| ١٠٧ | خلاصة ما حوته سورة القصص من أغراض |
| ١٠٩ | وجه الاتصال بين القصص والعنكبوت |
| ١١٠ | لايتبين الإيمان الحق إلا بالامتحان |
| ١١١ | الحكمة فى بدء السور بالحروف المقطعة |
| ١١٢ | أتباع الأنبياء السابقين فتنوا كما فتن محمد صلى الله عليه وسلم وأتباعه |
| ١١٣ | إن الخلق لم يخلقوا سدى |
| ١١٤ | من يعمل للآخرة لايضيع عمله سدى |
| ١١٦ | البرّ بالوالدين والإحسان إليهما |
| ١١٧ | لاطاعة لمخلوق فى معصية الخالق |
| ١١٨ | الناس فى الدين أقسام ثلاثة |
| ١١٩ | من الناس من يقول آمنا بالله فإذا أوذى فى الله ارتد عن دينه |

الصفحة المبحث


١٢١ كان الكافرون يقولون للمؤمنين : اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطايا كم
١٢٢ قصص نوح عليه السلام
١٢٣ العبرة من قصص نوح عليه السلام
١٢٤ قصص إبراهيم عليه السلام
١٢٦ ما على الرسول إلا البلاغ المبين
١٢٦ إقامة الدليل على البعث والنشور
١٢٧ تهديد من ينكر البعث
١٢٩ بعد أن حاج إبراهيم قومه استعملوا معه القوة وقالوا: اقتلوه أو حرقوه
١٣٠ يوم القيامة يكفر بعض المشركين ببعض
١٣١ حين يئس إبراهيم من إيمان قومه هاجر إلى الشام
١٣٢ منة الله على إبراهيم فى الدنيا والآخرة
١٣٤ قصص لوط عليه السلام مع قومه
١٣٦ مجىء الملائكة لإبراهيم بالبشرى
١٣٧ ما كان من لوط حين مجىء الرسل
١٣٩ قصص شعيب عليه السلام مع قومه
١٤٠ قصص هود وصالح عليهما السلام
١٤٠ قصص موسى عليه السلام مع فرعون
١٤١ عاقبة الأمم المكذبة لرسلها
١٤٢ تمثيل حال من عبد غير الله بحال العنكبوت اتخذت بيتا
١٤٤ فوائد ضرب الأمثال
١٤٥ الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر

# تفسير المراغي

تأليف

صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير المرحوم

أحمد مصطفى المراغي

أستاذ الشريعة الإسلامية واللغة العربية
بكلية دار العلوم سابقا

---

الجزء الحادي والعشرون

---

دار إحياء التراث العربي
بيروت

# الجزء الحادي والعشرون

بسم الله الرحمن الرحيم

وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلٰهُنَا وَإِلٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٤٦) وَكَذَٰلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَٰؤُلاَءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الْكَافِرُونَ (٤٧) وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لاَرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ (٤٨) بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الظَّالِمُونَ (٤٩) .

## تفسير المفردات

الجدل : الحجاج والمناظرة ، مسلمون : أي خاضعون مطيعون ، والجحد : نفي ما في القلب ثبوته أو إثبات ما في القلب نفيه ؛ والمراد به هنا الإنكار عن علم ، والارتياب : الشك ، الظالمون : أي الذين ظلموا أنفسهم وجحدوا وجه الحق .

## المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه طريق إرشاد المشركين وجدالهم بالخشن من القول ، والمبالغة فى تسفيه آرائهم وتوهين شبههم بنحو قوله : « صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ » وقوله : « لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا » إلى أشباه ذلك - أردف هذا ذكر طريق إرشاد أهل الكتاب من اليهود والنصارى بأن يسلك معهم طريق الحجاج بالحسنى ، ولا يسفِّه آراءهم ، ولا ينسب إلى الضلال آباءهم .

ذاك أن المشركين جاءوا بالمنكر من القول ونسبوا إلى الله مالا ينبغى من الشريك والولد ، أماأهل الكتاب فقد اعترفوا بالله وأنبيائه ، لكنهم أنكروا نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وقالوا إن شريعتهم باقية على وجه الدهر لاتُنْسَخ بشريعة أخرى ، فينبغى إقناع مثل هؤلاء بالحسن من القول ، ولفت أنظارهم إلى الأدلة الباهرة الدالة على نبوته وصدق رسالته بما يكون لهم فيه مقنع ، وبما لو تأملوا فيه وصلوا إلى الصواب، وأدركوا الأمر على الوجه الحق، إلا من ظلموا منهم وعاندوا ولم يقبلوا النصح والإرشاد، فاستعملوا معهم الغلظة فى القول ، والأسلوب الجافّ فى الحديث ، لعلهم يثوبون إلى رشدهم ، ويتأملون فيما يقنعهم من الحجج والبراهين .

ثم أمر رسوله أن يقول لهم : آمنا بالذى أنزل إلينا من القرآن ، وأنزل إليكم من التوراة والإنجيل ، وإن إلهنا وإلهكم واحد ، ونحن مطيعون له .

ثم ذكر أن من أهل الكتاب من يؤمن بالقرآن ، كما أن من أهل مكة من يؤمن به ، ومايجحد به إلا من توغل فى الكفر ، وعدم حسن التأمل والفكر ، إذ لاريب فى صدق رسوله ، وأن كتابه منزل من عند ربه ، فإن رجلا أميا لايقرأ ولا يكتب ، ولم يتعلم العلم ، ولم يدارس إنسانا مدى حياته ، يأتى بهذه الحكم والأحكام، وجميل الآداب ، ومكارم الأخلاق ، مما لم يكن له مثيل فى محيط نشأ به ، ولا فى بلد كان يأويه - لمن أكبر الأدلة على أنه ليس من عند بشر ، بل أوتيه من لدن حكيم خبير .

# الإيضاح

( ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن إلا الذين ظلموا منهم ) أى ولا تجادلوا من أراد الاستبصار فى الدين من اليهود والنصارى إلا باللين والرفق ، وقابلوا الغضب بكظم الغيظ ، والشّغْب بالنصح ، والسَّوْرَة بالأناة .

ونحو الآية قوله : « ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ » وقوله : « ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ » وقوله لموسى وهرون حين بعثهما إلى فرعون « فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى » .

إلا من ظلموا منهم وحادوا عن وجه الحق ، وعَمُوا عن واضح الحجة ، وعاندو وكابروا ، ولم يُجْد فيهم الرفق ، فمثل هؤلاء لاينفع فيهم إلا الغلظة :

ووضعُ الندى فى موضع السيف بالعلا مُضِرٌّ كوضع السيف فى موضع الندى

قال سعيد بن جبير ومجاهد : المراد بالذين ظلموا منهم ـ الذين نصبوا القتال للمسلمين وآذَوْا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجدالهم بالسيف حتى يُسلموا أو يعطوا الجزية .

( وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون ) أى إذا حدّثكم أهل الكتاب عن كتبهم، وأخبروكم عنها بمايمكن أن يكونوا صادقين فيه وأن يكونوا كاذبين ، ولم تعلموا حالهم فى ذلك ـ فقولوا لهم : آمنا بالقرآن الذى أنزل إلينا والتوراة والإنجيل اللذين أنزلا إليكم ، ومعبودنا ومعبودكم واحد ونحن خاضعون له ، منقادون لأمره ونهيه والطاعة له .

روى البخارى والنسائى عن أبى هريرة قال : «كان أهل الكتاب يقرءون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لاتصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم ، وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم ،

و إلهنا و إلهكم واحد ونحن له مسلمون » وروى عبد الله بن مسعود أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لاتسألوا أهل الكتاب عن شىء ، فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا ، إما أن تكذبوا بحق، و إما أن تصدقوا بباطل » وفى البخارى عن حُمَيد بن عبد الرحمن سمع معاوية يحدِّث رهطا من قريش بالمدينة ، وذكر كعب الأحبار فقال : إن كان من أصدق هؤلاء المحدّثين الذين يحدثون عن أهل الكتاب ، و إن كنا مع ذلك لنبلو عليه الكذب .

ثم بين أنه لاعجب فى إنزال القرآن على الرسول فهو على مثال ماأنزل من الكتب من قبل فقال :

( وكذلك أنزلنا إليك الكتاب فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به ومن هؤلاء من يؤمن به ) أى كما أنزلنا الكتب على من قبلك أيها الرسول ــ أنزلنا إليك هذا الكتاب ، فالذين آتيناهم الكتب ممن تقدم عهدك من اليهود والنصارى يؤمنون به ، إذ كانوا مصدقين بنزوله بحسب ماعلموا عندهم من الكتاب ، ومن كفار قريش وغيرهم من يؤمن به .

( وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون ) أى وما يكذّب بآياتنا و يجحد حقها إلا من يستر الحق بالباطل ، ويغطِّى ضوء الشمس بالوصائل ، ويغمط حق النعمة عليه ، وينكر التوحيد عنادا واستكبارا .

ثم ذكر مايؤيد إنزاله و يزيل الشبهة فى افترائه فقال :

( وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون ) أى وما كنت من قبل إنزال الكتاب إليك تقدر أن تتلو كتابا ولا تخطه بيمينك : أى ليس من دأبك وعادتك ذلك ، إذ لو كنت ممن يقدر على التلاوة والخط أو ممن يعتادهما لارتاب المشركون وقالوا لعله التقط ذلك من كتب الأوائل ، ولما لم يكن أمرك هكذا لم يكن لارتيابهم وجه .

قال مجاهد : كان أهل الكتاب يجدون فى كتبهم أن محمدا صلى الله عليه وسلم لايخط ولا يقرأ فنزلت هذه الآية .

وخلاصة ما سلف — إنك قد لبثت فى قومك عمرا طويلا قبل أن تأتى بهذا القرآن، لاتقرأ ولا تكتب، وكل واحد من قومك يعرف أنك أمىّ لاتقرأ ولاتكتب، وهذه صفتك فى الكتب المتقدمة كما قال : « الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ » .

فلا وجه إذاً للشك فى أن هذا القرآن منزّل من عند الله وليس مفتعلا من صنع يدك تعلمته من الكتب المأثورة عمن قبلك كما حكى سبحانه عنهم من نحو قولهم : « وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً » .

ثم أكد ما سلف و بين أنه منزل من عند الله حقا فقال :

( بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم ) أى بل هذا القرآن آيات واضحات الدلالة على الحق ، يسّر الله حفظها وتفسيرها للعلماء كما قال : « وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ؟ » .

روى البخارى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: « مامن نبى إلا وقد أعطى ما آمن على مثله البشر ، وإنما كان الذى أوتيته وحيا أوحاه الله إلىّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا » .

( وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون ) أى وما يكذب آياتنا ويبخس حقها ويردها إلا المعتدون المكابرون الذين يعلمون الحق ويحيدون عنه .

ونحو الآية قوله : « إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ . وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ » .

وَقَالُوا لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (٥٠) أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥١) قُلْ كَفَى بِاللهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٥٢).

## المعنى الجملى

بعد أن ذكر الدليل على أن القرآن من عند الله وليس بمفترى من عند محمد صلى الله عليه وسلم ـ أردف هذا شبهة أخرى لهم ، وهى أنهم طلبوا من النبى صلى الله عليه وسلم أن يأتى لهم بمعجزة محسوسة كما أتى بذلك الأنبياء السابقون كناقة صالح وعصا موسى ، فأجابهم بأن أمر ذلك إلى الله لا إليه ، فلو علم أنكم تهتدون بها لأجابكم إلى ما طلبتم ، ثم بين سُخْف عقولهم وطلبهم الآيات الدالة على صدقه بعد أن جاءهم بالمعجزة الباقية على وجه الدهر وهى القرآن يتلى عليهم آناء الليل وأطراف النهار ، فيه خبر من قبلهم ونبأ من بعدهم وحكم ما بينهم ، وفيه بيان الحق ودَحْض الباطل ، وفيه ذكرى حلول العقاب بالمكذبين والعاصين.

ثم أبان أن الله شهيد على صدقه وهو العليم بما فى السموات والأرض ، ثم هدد الكافرين بأن كل من يكذب رسل الله بعد قيام الأدلة على صدقهم ، ويؤمن بالجبت والطاغوت فقد خسرت صفقته ، وسينال العقاب من ربه جزاء وفاقا على جحوده وإنكاره .

أخرج الدارمى وأبو داود عن يحيى بن جَعْدة قال : جاء ناس من المسلمين بكتب قد كتبوها فيها بعض ما سمعوه من اليهود ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم « كفى بقوم حُمقًا أو ضلالة أن يرغبوا عما جاء به نبيهم إليهم إلى ما جاء به غيره إلى غيرهم »

فنزلت « أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ » الآية . وأخرج البخارى عند تفسير الآية قوله صلى الله عليه وسلم « ليس منا من لم يتغَنَّ بالقرآن » أى يستغن به عن غيره . وعن عبد الله بن الحرث الأنصارى قال : دخل عمر بن الخطاب على النبى صلى الله عليه وسلم بكتاب فيه مواضع من التوراة فقال هذه أصبتها مع رجل من أهل الكتاب أعرضها عليك ، فتغير وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم تغيرا شديدا لم أر مثله قط ، فقال عبد الله بن الحارث لعمر : أما ترى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال عمر : رضينا بالله ربا ، وبالإسلام دينا ، وبمحمد نبيا ، فسُرِّى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : لو نزل موسى فاتبعتموه وتركتمونى لضللتم ، أنا حظكم من النبيين ، وأنتم حظى من الأمم » أخرجه عبد الرزاق .

## الايضاح

( وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه ) أى وقال كفار قريش تعنتا وعنادا : هلا أنزل على محمد آية من الآيات التى أنزل مثلها على رسل الله الماضين كناقة صالح وعصا موسى وأشباههما من المعجزات المحسوسة التى تُرى رأى العين ، فيكون ذلك أقبل لدى النفوس، وأدهش للعقول ، فتلجئ إلى التصديق بمن تظهر على يده المعجزة .

فأمره الله أن يجيبهم بقوله :

( قل إنما الآيات عند الله ) أى قل لهم : إنما أمر الآيات ونزول المعجزات إلى الله، ولو علم أنكم تهتدون لأجابكم إلى ماسألتم ، لأن ذلك سهل يسير عليه ، ولكنه يعلم أنكم إنما قصدتم بذلك التعنت والامتحان ، فهو لايجيبكم إلى ماطلبتم كما قال سبحانه « وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا » .

( وإنما أنا نذير مبين ) أى وليس من شأنى إلا الإنذار بما أوتيت من الآيات ، لاالإتيان بما اقترحتموه منها ، فعلىّ أن أبلغكم رسالة ربى وليس علىّ هداكم كما قال :

« وَمَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا » وقال . « لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَـكِنَّ اللهَ يَهْدِى مَنْ يَشَاء » .

ثم بين سبحانه سُخْفَهم وجهلهم ، إذ كيف يطلبون الآيات مع نزول القرآن عليهم فقال :

( أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الـكتاب يتلى عليهم ) أى أما كفاهم دليلا على صدقك إنزلنا الـكتاب عليك ، يتلونه ويتدارسونه ليل نهار ، وأنت رجل أمىّ لاتقرأ ولا تكتب ولم تخالط أحدا من أهل الـكتاب ، وقد جئتهم بأخبار مافى الصحف الأولى ، وبينت الصواب فيما اختلفوا فيه كما قال : « أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِى الصُّحُفِ الْأُولَى » .

ثم بين فضائل هذا الـكتاب ومزاياه فقال :

( إن فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون ) أى إن فى هذا الـكتاب الباقى على وجه الدهر ــ لرحمة لمن آمن به ، ببيان الحق وإزالة الباطل ، وتذكرة بعقاب الله الذى حل بالمـكذبين قبلـكم ، وبما سيحل بهم من النكال والوبال ، وبما سيكون لمن اتبع سنتهم وكذب بالآيات بعد وضوحها .

وبعد أن أقام الأدلة على صدق رسالته ، وبين أن المعاندين من أهل الـكتاب والمشركين لم يؤمنوا به ــ أمره أن يكل علم ذلك إلى الله وهو العليم بصدقه وكذبه فقال :

( قل كفى بالله بينى وبينكم شهيدا ) أى كفى الله عالما بما صدر منى من التبليغ والإنذار ، وبما صدر منكم من مقابلة ذلك بالتـكذيب والإنكار ، وهو المجازى كلاًّ بما يستحق ، وإنى لو كنت كاذبا عليه لانتقم منى كما قال : « وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ . لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ . ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ . فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ » بل إنى صادق فيما أخبرتكم به ، ومن ثَمَّ أيدنى بالمعجزات الواضحات ، والدلائل القاطعات .

ثم علل كفايته وأكدها بقوله :

( يعلم ما فى السموات والأرض ) أى هو العليم بكل ما فيهما ، ومن جملته شأنى وشأنكم ، فيعلم ما تنسبونه إلىّ من التقوّل عليه ، وبما أنسبه إليه من القرآن الذى يشهد لى به عجزكم عن الإتيان بمثله ، فهو حجتى الفالجة عليكم ، التى لم تستطيعوا لها ردا ولا دفعا .

ولما بين طريق الجدل مع كلٍّ من أهل الكتاب والمشركين ــ عاد إلى تهديد المشركين و بين مآل أمرهم ، فقال :

( والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون ) أى والذين يعبدون الأوثان والأصنام ويكفرون بالله ، مع تظاهر الأدلة التى فى الآفاق والأنفس على الإيمان به ، ويكفرون برسوله مع تعاضد البراهين على صدقه ، أولئك هم الأخسرون أعمالا ، المغبونون فى صفقتهم ، من حيث اشتروا الكفر بالإيمان ، فاستوجبوا العقاب حين الوقوف بين يدى الملك الديّان .

وخلاصة ذلك : إن الله سيجزيهم على ما صنعوا من تكذيبهم بالحق ، واتباعهم للباطل ، وتكذيبهم برسول الله ، مع قيام الأدلة على صدقه « نَارًا تَلَظَّى . لاَ يَصْلاَهَا إلاَّ الْأَشْقَى . الَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّى » .

---

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلاَ أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ (٥٣) يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (٥٤) يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٥٥) .

## المعنى الجملى

بعد أن أنذر المشركين بالعذاب ، وهدّدهم أعظم تهديد قالوا له تهكما واستهزاء : إن كان هذا حقا فأتنا به ، وهم يقطعون بعدم حصوله ، فأجابهم بأنه لايأتيكم بسؤالكم ولا يُعَجَّل باستعجالكم ، لأن الله أجَّله لحكمة ، ولولا ذلك الأجل المسمى ، الذى قتضته حكمته ، وارتضته رحمته ، لعجّله لكم ولأوقعه بكم ، وإنه ليأتينَّكم فجأة وأنتم لاتشعرون به ، ثم تعجب منهم فى طلبهم الاستعجال ، وهو سيحيط بهم فى جميع نواحيهم ، ويقال لهم على طريق الإهانة والتوبيخ : ذوقوا جزاء ما كنتم تعملون .

## الايضاح

( ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب ) أى ويستعجلك كفار قريش بنزول العذاب ، بنحو قولهم « مَتَى هَذَا الْوَعْدُ » وقولهم : « أَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ » ولولاأجل مسمى ضربه الله لعذابهم، لجاءهم حين استعجالهم إياه .

( وليأتينهم بغتة وهم لايشعرون ) أى وليأتينهم العذاب فجأة ، وهم لا يشعرون بمجيئه ، بل يكونون فى غفلة عنه ، واشتغال بما ينسيهموه .

ثم زاد فى التعجيب من جهلهم بقوله :

( يستعجلونك بالعذاب ) أى يطلبون منك إيقاع العذاب ناجزا فى غير ميقاته ، ويُلحفون فى ذلك ، ولو علموا ماهم صائرون إليه ، لتمنَّوْا أنهم لم يخلقوا ، فضلا عن أن يستعجلوا ، ولأعملوا جميع جهدهم فى الخلاص منه .

ثم بين السبب فى جهلهم وحمقهم ، فقال :

( وإن جهنم لمحيطة بالكافرين ) أى وإن جهنم ستحيط بالكافرين المستعجلين للعذاب يوم القيامة .

ثم ذكر كيف تحيط بهم ، فقال :

( يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون) أى يوم يجللهم العذاب ، ويكون من الأهوال والأحوال ، ما لا يفى به المقال ، ويقال لهم على سبيل التوبيخ والتقريع : ( ذوقوا ما كنتم تعملون ) .

ونحو الآية قوله : « لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ » وقوله « لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ » وقوله : « لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لاَ يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلاَ عَنْ ظُهُورِهِمْ » الآية ، وقوله : « يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ » وقوله : « يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا هَذِهِ النَّارُ الَّتِى كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ » .

---

يَاعِبَادِىَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِى وَاسِعَةٌ فَإِيَّاىَ فَاعْبُدُونِ (٥٦) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (٥٧) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (٥٨) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٥٩) وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لاَ تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦٠) .

## المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أحوال المشركين ، وأنذرهم بالخسران ، وجعلهم من أهل النار — اشتد عنادهم للمؤمنين وكثر أذاهم لهم ومنعوهم من العبادة ، فأمرهم الله بالهجرة إلى دار أخرى إن تعذرت عليهم العبادة فى ديارهم .

ولما كانت مفارقة الأوطان عزيزة على النفس كريهة لديها ، بين لهم أن المكروه واقع لامحالة إن لم يكن بالهجرة فهو حاصل بالموت ، فأولى بكم أن يكون ذلك فى سبيل الله لتنالوا جزاءه ومرجعكم إلى ربكم ، وحينئذ تنالون من النعيم المقيم ما لاعين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولاخطر على قلب بشر ، فهنالك الغرف التى تجرى من تحتها الأنهار ، ونعم هذا الأجر جزاء للعاملين الصابرين المتوكلين على ربهم ، الذين يعلمون أن الله قد تكفل بأرزاقهم ، كما تكفل بأرزاق جميع مخلوقاته ، وهو السميع لدعائهم ، العليم بحاجتهم .

روى أن الآية نزلت فى قوم تخلفوا عن الهجرة ، وقالوا : نخشى إن نحن هاجرنا من الجوع وضيق المعيشة .

## الإيضاح

( ياعبادى الذين آمنوا إن أرضى واسعة فإياى فاعبدون ) أى ياعبادى الذين وحّدونى وآمنوا بى وبرسولى محمد صلى الله عليه وسلم ، إنّ أرضى لم تضق عليكم فتقيموا منها بموضع لايحل لكم المقام فيه ، فإذا انتشرت فى موضع مّا معاصى الله ، ولم تقدروا على تغييرها ، فاهرُبوا منه إلى موضع آخر تتمكنون من القيام فيه بشعائر دينكم .

روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « البلاد بلاد الله ، والعباد عباد الله ، فحيثما أصبتَ خيراً فأقم » ومن ثم لما ضاق على المستضعفين مُقامهم بمكة خرجوا مهاجرين إلى أرض الحبشة ليأمنوا على دينهم هناك ، فوجدوا خير المنزلين لدى أصْحَمَةَ النجاشى ملك الحبشة ، فآواهم وأيدهم بنصره ، وأنزلهم ضيوفا مكرمين ببلاده ، ثم هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابة الباقون إلى المدينة .

والخلاصة : إن الله أمر المؤمنين بالهجرة إن لم يتسنّ لهم إقامة شعائر دينهم ، إلى أرض يستطيعون ذلك فيها .

ثم حث على إخلاص العبادة له والهجرة من الوطن ، فبين أن الدنيا ليست دار بقاء ، وأن وراءها دار الجزاء ، التى يؤتَى فيها كل عامل جزاء عمله فقال :

(كل نفس ذائقة الموت ثم إلينا ترجعون) أى أينما تكونوا يدرككم الموت ، فكونوا فى طاعة الله وافعلوا ما أمركم به ، فذلك خير لكم ، فإن الموت لا محالة آت ، ولله در القائل :

الموت فى كل حين يَنْشُدُ الكفنا ونحن فى غفلة عما يراد بنا
لا تركنَنّ إلى الدنيا وزهرتها وإن توشحت من أثوابها الحسنا
أين الأحبة والجيران ما فعلوا أين الذين همُ كانوا لها سكنا ؟
سقاهم الموت كأسا غير صافية صيّرتْهُمْ تحت أطباق الثرى رُهُنا

ثم إلى الله مرجعكم ، فمن كان مطيعا له جازاه خير الجزاء وآتاه أتم الثواب .

والخلاصة : لا يصعُبَنّ عليكم تركُ الأوطان ، مرضاة للرحمن ، بل هاجروا إلى أوفق البلاد وإن بعدت ، فإن مدى الدنيا قريب ، والموت لا محيص منه ، ثم إلى ربكم ترجعون ، فيوفيكم جزاء ما تعملون ، فقدموا له خير العمل تفوزوا بنعيم مقيم ، وجنة عرضها السموات والأرض .

ثم بيّن جزاء المؤمن بربه ، المهاجر بدينه ، فرارا من شَرَك المشركين ، فقال :

(والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوئنهم من الجنة غرفا تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها نعم أجر العاملين) أى والذين صدّقوا الله ورسوله فيما جاء به من عنده ، وعملوا بما أمرهم به ، فأطاعوه وانتهَوْا عما نهاهم عنه لننزلنهم من الجنة علالىّ وقصورا ، تجرى من تحت أشجارها الأنهار ، ماكثين فيها إلى غير نهاية ، جزاء لهم على ما عملوا ونعم الجزاء .

ثم بين صفات هؤلاء العاملين الذين استحقوا تلك الجنات بقوله :

(الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون) أى هؤلاء العاملون هم الذين صبروا على

أذى المشركين ، وشدائد الهجرة وغيرهما من الجهود والمشاقّ ، وتوكلوا على ربهم فيما يأتون ومايذرون ، كأرزاقهم وجهاد أعدائهم ، فلا ينكُلُون عنهم ، ولا يتراجعون ثقة منهم بأن الله مُعْلٍ كلمتهم ، وموهن كيد الكافرين ، وأنّ ماقسم لهم من الرزق لن يفوتهم .

ثم ذكر سبحانه أن مما يعين على التوكل عليه معرفة أنه الكافى أمر الرزق فى الوطن والغربة فقال :

(وكأين من دابة لاتحمل رزقها الله يرزقها وإياكم وهو السميع العليم) أى هاجروا أيها المؤمنون بالله ورسوله ، وجاهدوا أعداءه ، ولا تخافوا عيْلة ولا إقتارا ، فكم من دابة ذات حاجة إلى الغذاء والمطعم لاتطيق جمع قوتها ولا حمله ، فترفعه من يومها لغدها عجزا منها عن ذلك ، الله يرزقها وإياكم يوما بيوم وساعة فساعة ، وهو السميع لقولكم نخشى من فراق أوطاننا العَيْلة ، العليم بما فى أنفسكم ، وإليه يصير أمركم وأمر عدوكم من إذلال الله إياه ونصرتكم عليه ولا تخفى عليه خافية من أمور خلقه .

روى ابن عباس « أن النبى صلى الله عليه وسلم قال للمؤمنين بمكة حين آذاهم المشركون : اخرجوا إلى المدينة وهاجروا ، ولا تجاوروا الظلمة ، قالوا ليس لنا بها دار ولا عقار ، ولا من يطعمنا ، ولا من يسقينا ، فنزلت الآية » .

---

وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (٦١) اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ (٦٢) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلّٰهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (٦٣) .

## المعنى الجملى

لما بين الأمر للمشركين وذكر لهم سوء مغبة أعمالهم ـ خاطب المؤمنين بما فيه مدّكرلهم،وإرشاد للمشرك لو تأمله وفكر فيه ، ومَثَلُ هذا مثَلُ الوالدله ولدان:أحدهما رشيد والآخر مفسد ، فهو ينصح المفسد أوّلا ، فإن لم يسمع يُعْرِض عنه ، ويلفت إلى الرشيد قائلا : إن هذا لا يستحق أن يخاطب ، فاسمع أنت ولا تكن كهذا المفسد ، فيكون فى هذا نصيحة للمصلح ، وزجر للمفسد ، ودعوة له إلى سبيل الرشاد .

## الإيضاح

( ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله ) أى ولئن سألت هؤلاء المشركين بالله : من خلق السموات والأرض فسواهن ، وسخر الشمس والقمر يجريان دائبين لمصالح خلقه ؟ ليقولُنّ : الذى خلق ذلك وفعله هو الله

( فأنى يؤفكون ؟ ) أى فكيف يُصرفون عن توحيده ، و إخلاص العبادة له ، بعد إقرارهم بأنه خالق كل ذلك .

والخلاصة — إنهم يعترفون بأنه هو الخالق للسموات والأرض ، والمسخر للشمس والقمر، ثم هم مع ذلك يعبدون سواه ، ويتوكلون على غيره، فكما أنه الواحد فى ملكه، فليكن الواحد فى عبادته ، وكثيرا مايقرر القرآن توحيد الألوهية بعد الاعتراف بتوحيد الربوبية التى كانوا يدينون بها بنحو قولهم : لبَّيْك لاشريك لك، إلا شريكا هو لك، تملكه وما ملك .

ولما ذكر اعترافهم بالخلق ذكر حال الرزق ، من قِبَل أن كمال الخلق ببقائه ، ولا بقاء له إلا بالرزق فقال :

(الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده و يقدر له) أى إن الله يوسع رزقه على من يشاء من خلقه ، ويقتّر على من يشاء ، فالأرزاق وقسمتها بيده تعالى لا بيد أحد سواه ،

فلا يؤخرنكم عن الهجرة وجهاد عدوكم خوف العَيْلة والفقر ، فمن بيده تكوين الكائنات لا يعجز عن أرزاقها .

ونحو الآية قوله : « إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو القُوَّةِ الْمَتِينُ » .

ثم علل التفاوت فى الرزق بين عباده بعلمه بالمصلحة فى ذلك فقال :

( إن الله بكل شىء عليم ) أى إنه هو العليم بمصالحكم ، فيعلم من يصلحهم البسط ومن يفسدهم ، ويعطيهم بحسب ذلك إن شاء .

ثم ذكر اعترافهم بهذا بقوله :

( ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله ) أى ولئن سألتهم من ينزل من السحاب ماء فيحيى به الأرض القفر فتصير خضراء تهتز بعد أن لم تكن كذلك ــ لم يجدوا إلا سبيلا واحدة ، هى الاعتراف الذى لا محيص عنه بأنه الله ، فهو الموجد لسائر المخلوقات ، ومن عجب أنهم بعد ذلك يشركون به بعض مخلوقاته التى لا تقدر على شىء من ذلك .

ولما أثبت أنه الخالق بدءا وإعادة ــ نبَّه إلى عظمة صفاته التى يلزم من إثباتها صدق رسوله صلى الله عليه وسلم فقال :

( قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعقلون ) أى قل متعجبا من حالهم : الحمد لله على إظهار الحجة ، واعترافهم بأن النعم كلها منه تعالى ، ولكن أكثر المشركين لا يعقلون ما لهم فيه من النفع فى دينهم وما فيه الضر لهم ، فهم لجهلهم يحسبون أنهم لعبادتهم الآلهة دون الله ينالون بها الزلفى والقرب عنده .

والخلاصة ـــ إن أقوالهم تخالف أفعالهم ، فهم يقرون بوحدانية الله وعظيم قدرته وجلاله ، ثم هم يعبدون معه سواه مما هم معترفون بأنه خلقه .

---

وَمَا هَـٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٦٤) فَإِذَا رَكِبُوا فِى الْفُلْكِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ

لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ (٦٥) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٦٦) .

## تفسير المفردات

اللهو: الاستمتاع باللذات، واللعب : هو العبث وما لافائدة فيه، الحيوان: أى الحياة التامة التى لافناء بعدها .

## المعنى الجملى

لما ذكر فيما سلف أنهم يعترفون بأن الله هو الخالق وأنه هو الرازق ، وهم بعد ذلك يتركون عبادته ، ويعبدون من دونه الشركاء اغترارا بزخرف الدنيا وزينتها ــ أردف ذلك أن هذه الدنيا باطل وعبث زائل ، وإنما الحياة الحقة هى الحياة الآخرة التى لافناء بعدها ؛ فلو أوتوا شيئا من العلم ماآثروا تلك على هذه .

ثم أرشد إلى أنهم مع إشراكهم بربهم سواه فى الدعاء والعبادة ، إذا هم ابتلوا بالشدائد ، كما إذا ركبوا البحر وعَلَتهم الأمواج من كل جانب ، وخافوا الغرق نادَوا الله ، معترفين بوحدانيته ، وأنه لامنجّى سواه ، وليتهم استمروا على ذلك ، ولكن سُرْعان مايرجعون القهقرى ، ويعودون سيرتهم الأولى ، كما هو دأب من يعمل للخوف لا للعقيدة .

## الايضاح

( وماهذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب ) أى وماهذه الحياة الدنيا التى يتمتع بها هؤلاء المشركون إلا شىء يُتعلّل به ، ثم هو منقضٍ عما قريب ، لابقاء له ولا دوام ، ومن ثم قيل : الدنيا إن بقيَتْ لك لم تبقَ لها ، وأنشدوا :

تروح لنا الدنيا بغير الذى غدت وتحدُث من بعد الأمور أمورُ
وتجرى الليالى باجتماع وفرقةٍ وتطلع فيها أنجم وتغورُ

فمن ظن أن الدهر باق سروره    فذاك محال لايدوم سرور
عفا الله عمن صيّر الهمّ واحدا    وأيقن أن الدائرات تدور

( وإن الدار الآخرة لهى الحيوان ) أى وإن الدار الآخرة لهى دار الحياة الدائمة التى لا زوال لها ولا انقطاع .

( لوكانوا يعلمون ) أى لوكانوا يعلمون أن ذلك كذلك لما آثروا عليها الحياة الدنيا السريعة الزوال ، الوشيكة الاضمحلال .

ثم أخبر بأن تلك حال المشركين فى الرخاء ، فإذا ابتُلوا بالشدائد دعوا الله وحده ليخلصهم منها كما قال :

( فإذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين ) أى فإذا ركب هؤلاء المشركون فى السفينة وخافوا الغرق ، دعوا الله وحده ، وأفردوا له الطاعة ، ولم يستغيثوا بآلهتهم وأندادهم ، ليخلصوهم من تلك الشدة ، فهلا يكون هذا منهم دائما ؟

ثم بين سرعة رجوعهم وعودتهم إلى ما كانوا عليه وشيكا فقال :

( فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون ) أى فلما خلّصهم مما كانوا فيـه من الضيق ، ونجاهم من الهلاك ، ووصلوا إلى البر ، رجعوا القهقرى ، وعادوا سيرتهم الأولى ، وجعلوا مع الله الشركاء ، ودعوا الآلهة والأنداد .

ونحو الآية قوله « وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ ، فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا » .

روى محمد بن إسحاق فى السيرة عن عِكْرمة بن أبى جهل قال : « لما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة ذهبتُ فارًّا منها ، فلما ركبت البحر إلى الحبشة اضطربت بنا السفينة ، فقال أهلها : ياقوم أخلصوا لربكم الدعاء ، فإنه لامنجّى هاهنا إلا هو ، فقال عكرمة : لئن كان لاينجى فى البحر غيره فإنه لاينجى فى البر أيضا غيره ، اللهم لك علىّ عهد ، لئن خرجت لأذهبنّ فلأضعن يدى فى يد محمد فلأجدنّه رءوفا رحيما فـكان كذلك » .

وقال عكرمة : كان أهل الجاهلية إذا ركبوا فى البحر حملوا معهم الأصنام ، فإذا اشتد عليهم الريح ألقوها فيه وقالوا يارب يارب .

قال الرازى فى اللوامع : وهذا دليل على أن معرفة الرب فى فطرة كل إنسان ، وأنهم إن غفَلوا فى السراء فلا شك أنهم يلوذون إليه فى حال الضراء اهـ .

( ليكفروا بما آتيناهم وليتمتعوا ) أى يشركون لتكون عاقبة أمرهم الكفران بما آتيناهم من نعمة النجاة ، وليتمتعوا باجتماعهم على عبادة الأصنام وتوادّهم عليها .

ثم تهددهم وتوعدهم فقال :

( فسوف يعلمون ) عاقبة ذلك حين يعاقَبون يوم القيامة .

---

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللهِ يَكْفُرُونَ (٦٧) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ (٦٨) وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (٦٩) .

## المعنى الجملى

بعد أن ذكر أن المشركين حين يشتد بهم الخوف إذا ركبوا فى الفلك ونحوه لجئوا إلى الله وحده مخلصين له العبادة ـ ذكر هنا أنهم حين الأمن كما إذا كانوا فى حصنهم الحصين وهو مكة التى يأمن من دخلها من الشرور والأذى يكفرون به ويعبدون معه سواه ، وتلك حال من التناقض لايرضاها لنفسه عاقل ، فإن دعاءهم إياه حال الخوف مع الإخلاص ما كان إلا ليقينهم بأن نعمة النجاة منه لامن سواه ، فكيف يكفرون به حين الأمن ، وهم يوقنون بأن الأصنام حين الخوف لاتجديهم فتيلا ولا قطميرا ؟

# الإيضاح

(أولم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم ؟) أى أولم ير هؤلاء المشركون من قريش ما خصصناهم به من النعمة دون سائر عبادنا ، فأسكناهم بلداً حرّمنا على الناس أن يدخلوه لغارة أو حرب ، وآمنا من سكنه من القتل والسبى والناس من حولهم يُقْتَلون ويُسْبَوْن فى كل حين ، فيشكرونا على ذلك ، ويزدجروا عن كفرهم بنا وإشراكهم ما لا ينفعهم ولا يضرهم .

والخلاصة : إنه تعالى يمتنّ على قريش بما أحلهم من حرمه الذى جعله للناس سواء العاكف فيه والباد ، ومن دخله كان آمنا ، فهم فى أمن عظيم ، والأعراب حولهم نَهْبٌ مقسّمٌ ، يقتل بعضهم بعضا ، ويَسْبِى بعضهم بعضا ، ثم هم مع ذلك يكفرون به ، ويعبدون معه سواه .

ونحو الآية قوله : « لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ . إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ . فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ . الَّذِى أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ . وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ » .

ثم بين أن العقل كان يقضى بشكرهم على هذه النعمة ، لكنهم كفروا بها ، وما جنحوا إلى مرضاة ربهم ، فقال :

(أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون ؟) أى أفكان شكرهم على هذه النعمة العظيمة أن أشركوا به ، وعبدوا معه غيره من الأصنام والأنداد ، وبدلوا نعمة الله كفرا ، وأحلوا قومهم دار البوار ، فكفروا بنبى الله وعبده ورسوله .

والخلاصة : إنه كان من حق شكرهم له على هذه النعم إخلاص العبادة له ، وألا يشركوا به ، وأن يصدّقوا برسوله ، ويعظموه ويوقروه ، لكنهم كذبوه فقاتلوه وأخرجوه من بين أظهرهم ، ومن ثم سلبهم الله ما كان أنعم به عليهم ، يقتل من قتل منهم ببدر ، وأسر من أسر ، حتى قطع دابرهم يوم الفتح ، وأرغم آنافهم وأذل رقابهم .

ولما استنارت الحجة ، وظهر الدليل ، ولم يكن لهم فيه مقنع ، بين أنهم قوم ظلمة مفترون ، وضعوا الأمور فى غير مواضعها بكذبهم على الله ، فقال :

( ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بالحق لما جاءه ) أى ومن أظلم ممن كذبوا على الله ، بأن زعموا أن له شريكا ، وأنهم إذا فعلوا فاحشة قالوا : إن الله أمرنا بها ، والله لا يأمر بالفحشاء ، وكذبوا بالكتاب حين مجيئه ، دون أن يتأملوا فيه أو يتوقفوا، بل سارعوا إلى التكذيب أول ماسمعوه .

وفى هذا من تسفيه آرائهم ، وتقبيح طرائقهم مالا يخفى .

ثم بين سوء مغبة أعمالهم بطريق الاستفهام التقريرى ، وهو أبلغ فى إثبات المطلوب ، فقال :

( أليس فى جهنم مثوى للكافرين ؟ ) أى ألا يستوجب هؤلاء الكافرون من أهل مكة الثَّوَاء فى جهنم ، فقد افتروا على الله الكذب ، فكذبوا بالكتاب لما جاءهم بلا تريّث ولا تلبث ؟ .

والخلاصة : إن مثوى هؤلاء وأشباههم جهنم و بئس المصير .

و بعد أن بين عاقبة أولئك الكافرين ذكر عاقبة المؤمنين الذين اهتدَوْا بهدى الله وجاهدوا فى سبيله ، فقال :

( والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ) أى والذين قاتلوا هؤلاء المفترين على الله الكذب ، المكذبين لما جاءهم به رسوله ، مبتغين بقتالهم علوّ كلمتنا ، ونصرة ديننا ، لنزيدنهم هداية إلى سبل الخير، وتوفيقا لسلوكها كما قال: «وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ» وجاء فى الحديث: « من عمل بما عَلِم وَرَّثَهُ الله عِلْمَ ما لَمْ يَعْلَمْ» ، وقال عمر بن عبد العزيز : إنما قصّر بنا عن علم ماجَهِلنا تقصيرُنا فى العمل بما علمنا ، ولو عملنا ببعض ماعلمنا لاورِثْنا علماً لاتقوم به أبداننا . وقال أبو سليمان الدارانى : ليس الجهاد فى الآية قتال الكفار فقط ، بل هو نصر الدين ، والرد على المبطلين ، وقمع

الظالمين ، وعُظْمُه الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، ومنه مجاهدة النفوس فى طاعة الله، وهو الجهاد الأكبر .

ثم ذكر أن الله يعينهم بالنصرة والتوفيق .

( وإن الله لمع المحسنين ) أى وإن الله ذا الرحمة لمع من أحسن من خلقه ، فجاهد أهل الشرك مصدقا رسوله فيما جاء به من عند ربه بالمعونة والنصرة على من جاهد من أعدائه ، وبالمغفرة والثواب فى العقبى .

روى ابن أبى حاتم عن الشعبى قال : قال عيسى بن مريم عليه السلام : إنما الإحسان أن تحسن إلى من أساء إليك ، وليس الإحسان أن تحسن إلى من أحسن إليك .

وقد انتهى بهذا تفسير السورة الكريمة ، ولله الحمد أولا وآخراً .

---

## مشتملات هذه السورة الكريمة

(١) اختبار المؤمنين ليعلم صدقهم فى إيمانهم .

(٢) فى الجهاد فائدة للمجاهد ، والله غنىّ عن ذلك .

(٣) الحسنات يكفّرن السيئات .

(٤) الأمر بالإحسان إلى الوالدين و برهما مع عدم طاعتهما فى الإشراك بالله .

(٥) حال المنافق الذى يظهر الإيمان ولا يحتمل الأذى فى سبيل الله .

(٦) حال الكافرين الذين يضلون غيرهم ، و يقولون للمؤمنين : نحن نحمل خطاياكم إن كنتم ضالين .

(٧) قصص الأنبياء : كنوح و إبراهيم ولوط وشعيب وصالح وموسى وهرون ، و بيان ما آل إليه أمر الأنبياء من النصر ، وأمر أممهم من الهلاك بضروب مختلفة من العقاب .

(٨) حجاج المشركين بضرب الأمثال لهم مما فيه تقريعهم وتأنيبهم .

(٩) حجاج أهل الكتاب ، والنهى عن جدلهم بالفظاظة والغلظة .

(١٠) إثبات النبوة ببيان صدق معجزته صلى الله عليه وسلم .

(١١) ذكر بعض شبههم فى نبوته ، والرد على ذلك .

(١٢) استعجالهم بالعذاب تهكما .

(١٣) أمر المؤمنين بالفرار بدينهم من أرض يخافون فيها الفتنة .

(١٤) العاقبة الحسنى للذين يعملون الصالحات .

(١٥) اعترافهم بأن الخالق الرازق هو الله .

(١٦) بيان أن الدار الآخرة هى دار الحياة الحقة .

(١٧) امتنانه على قريش بسكناهم البيت الحرام ، ثم كفرانهم بهذه النعمة بإشراكهم به سواه .

# سورة الروم

هى مكية إلا قوله تعالى : « وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ » فمدنية وآيها ستون ، نزلت بعد سورة الانشقاق .

ومناسبتها ما قبلها من وجوه :

(١) إن السورة السابقة بدئت بالجهاد وختمت به ، فافتتحت بأن الناس لم يخلقوا فى الأرض ليناموا على مهاد الراحة ، بل خُلقوا ليجاهدوا حتى يلاقوا ربهم ، وأنهم يلاقون شتى المصاعب من الأهل والأمم التى يكونون فيها ، وهذه السورة قد بدئت بما يتضمن نصرة المؤمنين ودفع شماتة أعدائهم المشركين ، وهم يجاهدون فى الله ولوجهه فكأن هذه متممة لما قبلها من هذه الجهة .

(٢) إنّ ما فى هذه السورة من الحجج على التوحيد والنظر فى الآفاق والأنفس مفصل لما جاء منه مجملا فى السورة السالفة ، إذ قال فى السالفة : « فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ » الخ ، وهنا بيّن ذلك ، فقال : « أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ » الخ ، وقال : « اللهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ » .

---

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ (١) غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلّٰهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٥) وَعْدَ اللهِ لَا يُخْلِفُ اللهُ وَعْدَهُ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٦) يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ (٧) .

## تفسير المفردات

الروم : أمة عظيمة من ولد روم بن عيص بن إسحٰق بن إبراهيم ، كذا قال النسابون من العرب ، أدنى الأرض : أى أقربها من الروم ، والأقربية بالنظر إلى أهل مكة الذين يساق إليهم الحديث ، والبضع : مابين الثلاث إلى العشر ، وقال : المبرد مابين العقدين فى جميع الأعداد ، ظاهر الحياة الدنيا : هو مايشاهدونه من زخارفها ولذاتها الموافقة لشهواتهم التى تستدعى انهماكهم فيها وعكوفهم عليها .

## المعنى الجملى

روى أن فارس غَزَوُا الروم ، فوافَوْهم بأذْرِعات و بُصْرى من أرض الشام فغلبوا عليهم ، وبلغ ذلك النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه وهو بمكة ، فشق ذلك عليهم ، من قِبَل أن الفرس مجوس ، والروم أهل كتاب ، وفرح المشركون بمكة وشَمِتوا ، ولَقُوا أصحاب النبى وهم فرحون ، وقالوا: إنكم أهل كتاب ، والنصارى أهل كتاب ، وقد ظهر إخواننا من أهل فارس على إخوانكم من أهل الكتاب ، وإنكم إن قاتلتمونا لنظهرَنّ عليكم ، فأنزل الله هؤلاء الآيات ، فخرج أبو بكر رضى الله عنه إلى المشركين فقال : أفرحتم بظهور إخوانكم على إخواننا ؟ فلا تفرحوا ولا يَقَرَّنّ الله أعينكم ( لايسرَّنكم ) فو الله لتظهَرَنّ الروم على فارس كما أخبرنا بذلك نبينا صلى الله عليه وسلم فقام إليه أُبَىّ ابن خلف؛ فقال: كذبت، فقال: أنت أكذب ياعدو الله ، اجعل بيننا أجلا أنا حِبك عليه ( أراهنك ) على عشر قلائص منى ، وعشر قلائص منك ، فإن ظهرت الروم على فارس غرِمتَ ، وإن ظهرت فارس غرمتُ إلى ثلاث سنين ، فناحبه ، ثم جاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم فأخبره ، فقال عليه السلام : زايده فى الخطر وماده فى الأجل ، فخرج أبو بكر ، فلقى أبيا ، فقال : لعلك ندمت ، فقال : لا ، تعال أزايدك فى الخطر ، وأمادك فى الأجل فاجعلها مائة قلوص إلى تسع سنين ، قال : قد فعلت ، فلما أراد أبو بكر الهجرة طلب منه أبى كفيلا بالخطر إن غُلِب ، فكفل به ابنه

عبد الرحمن ، فلما أراد أبىّ الخروج إلى أحد طلبه عبد الرحمن بالكفيل فأعطاه كفيلا ، ومات أبىّ من جرح جرحه إياه النبي صلى الله عليه وسلم فى الموقعة وظهرت الروم على فارس لما دخلت السنة السابعة ، فأخذ أبو بكر الخطر من ورثة أبىّ وجاء به إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال النبي صلى الله عليه وسلم : تصدق به ( وقد كان هذا قبل تحريم القمار كما أخرجه ابن جرير وابن أبى حاتم والبيهقى ، لأن السورة مكيه وتحريم الخمر والميسر بالمدينة ) .

## الايضاح

( الم ) تقدم فى السورة قبلها مافيه الكفاية من الكلام فى أمثال هذه الحروف فى أوائل السور ، وقد بينا هناك أنه ينطق بأسمائها فيقال ( ألف . لام . ميم ) .

( غلبت الروم . فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون . فى بضع سنين ) أى غلبت فارس الروم فى أقرب أرض الروم بالنسبة إلى بلاد العرب ، إذ الوقعة كانت بين الأردن وفلسطين ، والروم من بعد غلب فارس إياهم سيغلبون فارس فى بضع سنين ، وقد تحقق ذلك فغلبوهم بعد سبع من الوقعة الأولى .

ولا شك أن وقوعه على نحو ماقال الكتاب الكريم يعد من أكبر الدلائل على إعجازه ، وأنه كلام الله العليم بكل شىء لا كلام البشر .

( لله الأمر من قبل ومن بعد ) أى لله الأمر من قبل غلب دولة الروم على فارس ومن بعدها ، فمن غلب فهو بأمر الله وقضائه وقدره كما قال : « وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ » فهو يقضى فى خلقه بما يشاء ويحكم بما يريد ، ويُظْهِر من شاء منهم على من أحب إظهاره عليه .

( ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ) أى ويوم تغلب الروم فارس يفرح المؤمنون بنصر الله وتغليبه من له كتاب على من لا كتاب له ، وغيظ من شمتوا من كفار مكة ، وأنه سيكون فألا حسنا لغلبة المؤمنين على الكافرين .

ثم أكد قوله «لله الأمر» بقوله :

( ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم ) أى ينصر من يشاء أن ينصره على عدوه ويُغَلِّبه عليه على مقتضى السنن التى وضعها فى الخليقة ، وهو المنتقم ممن يستحقون الانتقام بالنصر عليهم ، الرحيم بعباده ، فلا يعاجلهم بالانتقام على ذنوبهم كما قال : « وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَـكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى » .

( وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون ) أى وعد الله وعدا بظهور الروم على فارس ، والله لا يخلف ما وعد ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ذلك لجهلهم بشئونه تعالى وعدم تفكرهم فى النواميس والسنن التى وضعها فى الكون ، فإنه قد جعل من تلك السنن أن وعده لا يخلف إذ هو مبنى على مقدمات ووسائل هو يعلمها ، وقد رتب عليها تلك العِدَة التى وعدها ، وجعل قانون الغَلَب فى الأمم والأفراد مبنيا على الاستعداد النفسى والاستعداد الحربى ، فلا تغلب أمة أخرى إلا بما أعدت لها من وسائل الظفر بها ، وما كان لها من صفات تكفل لها هذا الظفر من أناة وصبر وتضحية بما تملك من عزيز لديها من مال ونفس .

وهكذا حكم الفرد فهو لا ينجح فى الحياة إلا إذا كان معه أسلحة يغالب بها عوامل الأيام حتى يغلبها بجِدِّه وكدّه ، فهذه الأمور وأمثالها تحتاج إلى دقة نظر لا يدركها إلا ذوو البصائر .

( يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا ) كتدبير معايشهم ، وإحسان مساكنهم ، وتنمية متاجرهم ، وتصرفهم فى مزارعهم ، على النحو الذى يجعلها تزدهر وتفى بحاجة المجتمع

(وهم عن الآخرة هم غافلون) أى وهم غافلون عن أن النفوس لها بقاء بعد الموت وأنها ستلبس ثوبا آخر فى حياة أخرى ، وستنال إذ ذاك جزاء ما قدمت من خير أو شر ، ولو لم تكن النفوس تتوقع هذه الحياة لكانت آلام الدنيا ومتاعبها لا تطاق ولا تجد النفوس

لاحتمالها سبيلا ، وهى ما قبلت تلك الآلام واحتملتها إلا لأنها توقن بسعادة أخرى وراء ما تقاسى من المتاعب فى هذه الحياة ، ولله در القائل :

ومن البلية أن ترى لك صاحبا فى صورة الرجل السميع المبصرِ
فطِنٌ بكل مصيبة فى ماله وإذا يُصاب بدينــه لم يَشْعُرِ

---

أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ (٨) أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٩) ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوءَى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ (١٠) .

## المعنى الجملى

لما أنكر المشركون الإله بإنكار وعده ، وأنكروا البعث كما قال وهم عن الآخرة هم غافلون ــ أردف هذا أن الأدلة متظاهرة فى الأنفس والآفات على وجوده وتفرده بخلقها ، وأنه لا إله غيره ولا رب سواه ، وأنها لم تخلق سدى ولا باطلا ، بل خلقت بالحق ، وأنها مؤجلة إلى أجل مسمى هو يوم القيامة ، ثم أمرهم بالسير فى أقطار الأرض ليعلموا حال المكذبين من الأمم قبلهم ، وقد كانوا أشد منهم بأسا وقوة ، فكذبوا رسلهم فأهلكهم الله وصاروا كأمس الدابر والمثل الغابر ، وما كان ذلك إلا بظلمهم وفساد أنفسهم لا بظلم الله لهم .

# الايضاح

أو لم يتفكروا فى أنفسهم ماخلق الله السموات والأرض ومابينهما إلا بالحق وأجل مسمى ؟ ) أى أو لم يتفكر هؤلاء المكذبون بالبعث من قومك فى خلق الله لهم ولم يكونوا شيئا ، ثم تصريفهم أحوالا وتارات حتى صاروا كاملى الخلق كاملى العقل فيعلموا أن الذى فعل ذلك قادر أن يعيدهم بعد فنائهم خلقا جديدا ، ثم يجازى المحسن منهم بإحسانه ، والمسىء منهم بإساءته ، لايظلم أحدا منهم فيعاقبه بدون جُرم صدر منه ، ولا يحرم أحدا منهم جزاء عمله ، لأنه العدل الذى لايجور ، فهو ماخلق السموات والأرض وما بينهما إلا بالعدل ، و إقامة الحق إلى أجل مؤقت مسمى ، فإذا حل الأجل أفنى ذلك كله ، و بدل الأرض غير الأرض ، و برزوا للحساب جميعا .

ثم ذكر أن كثيرا من الناس غَفَلوا عن الآخرة ومافيها من حساب وجزاء فقال :

( وإن كثيرا من الناس بلقاء ربهم لكافرون ) لأنهم لم يتفكروا فى أنفسهم ، ولو تفكروا فيها ودرسوا عجائبها لأيقنوا بلقاء ربهم، وأن معادهم إليه بعد فنائهم .

ثم نبههم إلى صدق رسله فيما جاءوا به عنه ، بما أيدهم به من المعجزات والدلائل الواضحة ، من إهلاك من جحد نبوتهم ، ونجاة من صدقهم فقال :

( أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها ، وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ) أى أو لم يسر هؤلاء المكذبون بالله ، الغافلون عن الآخرة ، فى البلاد التى يسلكونها تَجْرًا ، فينظروا إلى آثار الله فيمن كان قبلهم من الأمم المكذبة ، كيف كان عاقبة أمرهم فى تكذيبهم رسلهم ، وقد كانوا أشد منهم قوة ، وحرثوا الأرض وعمروها أكثر مما عمر هؤلاء ثم أهلكهم الله بكفرهم وتكذيبهم رسله ، وما كان الله بظالم لهم ، بعقابه إياهم على تكذيبهم رسله وجحودهم آياته ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون بمعصيتهم ربهم .

والخلاصة - إنه قد كان لكم فيمن قبلكم من الأمم مُعْتَبَر ومُزْدَجر ، فقد كانوا أكثر منكم أموالا وأولادا ، ومُكّنوا فى الدنيا تمكينا لم تبلغوا معشاره ، وعُمّروا فيها أعمارا طوالا واستغلوها أكثر من استغلالكم ، ولما جاءتهم الرسل بالبينات كذبوهم وفرحوا بما أوتوا فأخذوا بذنوبهم ولم تغن عنهم أموالهم شيئا ، ولم تحل بينهم وبين بأس الله .

ثم أكد ماسلف بقوله :

( ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوءى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون ) أى ثم كان العذاب عاقبتهم ، أما فى الدنيا فلهم البوار والهلاك ، وأما فى الآخرة فالنار لايخرجون منها ولا هم يُسْتَعْتَبون ، وماذاك إلا لأن كذبوا بحجج الله وآياته ، وهم أنبياؤه ورسله ، وسخروا منهم عنتا وكبرا .

---

اللهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١١) وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ (١٢) وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ (١٣) وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ (١٤) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ (١٥) وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ (١٦) .

## تفسير المفردات

يبلس المجرمون : أى يسكتون وتنقطع حجتهم ، الروضة : الأرض ذات النبات والماء ؛ ويقال أراض الوادى واستراض إذا كثر ماؤه ، وأرض القومَ : أرواهم بعض الرِّىّ ، يحبرون : يسرون ، يقال حبره يحبره (بالضم) حبرا وحبورا : إذا سره سرورا تهلل له

وجهه ، وظهر فيه أثره ، وفى المثل : امتلأت بيوتهم حبرة ، فهم ينتظرون العبْرة ، محضرون : أى مُدخَلون فيه لا يغيبون عنه .

## المعنى الجملى

بعد أن بين أن عاقبة المجرمين النار ، وكان ذلك يستلزم الإعادة والحشر لم يتركه دعوى بلا بينة ، بل أقام عليه الدليل بأن أبان أن من خلق الخلق بقدرته وإرادته لا يعجز عن رجعته ، ثم بين مايكون حين الرجوع من إفلاس المجرمين وتحقق يأسهم وحيرتهم ، إذ لا تنفعهم شركاؤهم ، بل هم يكفرون بهم ، ثم ذكر أن الناس حينئذ فريقان : فريق فى الجنة وفريق فى السعير ، فالأولون يمتعون بسرور وحبور ، والآخرون يَصْلَوْن النار دأبا لا يغيبون عنها أبدا .

## الايضاح

( الله يبدأ الخلق ثم يعيده ثم إليه ترجعون ) أى الله ينشىء جميع الخلق بقدرته ، وهو منفرد بإنشائه من غير شريك ولا ظهير ، ثم يعيده خلقا جديدا بعد إفنائه وإعدامه كما بدأه خلقا سويا ولم يك شيئا ، ثم إليه يردُّون فيحشرون لفصل القضاء بينهم ، فيجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى .

ثم بين ماسيحدث فى هذا اليوم من الأهوال للأشقياء ، والنعيم والحبور للسعداء ، فقال :

( ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون ) أى ويوم تجىء الساعة التى فيها يفصل الله بين خلقه بعد نشرهم من قبورهم وحشرهم إلى موقف الحساب ــ يسكت الذين أشركوا بالله واجترحوا فى الدنيا مساوى الأعمال ، إذ لا يجدون حجة يدفعون بها عن أنفسهم مايحل بهم من النكال والوبال .

ولما كان الساكت قد يغنيه غيره عن الكلام نفى ذلك بقوله :

( ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء ) أى ولم يكن لهؤلاء المجرمين من شركائهم الذين كانوا يتبعونهم على مادعوهم إليه من الضلالة ـ شفعاء يستنقذونهم من عذاب الله ، وإذ ذاك يستبين لهم جهلهم وخطؤهم إذ قالوا : هؤلاء شفعاؤنا عند الله .

ولما ذكر سبحانه حال الشفعاء معهم ذكر حالهم مع الشفعاء بقوله :

( وكانوا بشركائهم كافرين ) أى وجحدوا ولاية الشركاء وتبرءوا منهم كما جاء فى آية أخرى : « إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ . وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا » .

ثم بين بعدئذ أن الله يميز الخبيثين من الطيبين فقال :

( ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون ) أى ويوم تجىء الساعة التى يحشر فيها الخلق إلى الله يتفرق أهل الإيمان بالله وأهل الكفر به ؛ فأما أهل الإيمان به فيؤخذ بهم ذات اليمين إلى الجنة ، وأما أهل الكفر فيؤخذ بهم ذات الشمال إلى النار ، قال قتادة : فرقة والله لا اجتماع بعدها.

ثم بين كيف يكون كل من الفريقين فقال :

( فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم فى روضة يحبرون ) أى فأما الذين آمنوا بالله ورسوله وعملوا بما أمرهم الله به وانتهوا عما نهاهم عنه ، فهم فى رياض الجنات يمرحون ، وبألوان الزَّهَر والسندس الأخضر يتمتعون ، ويتلذذون بالسماع والعيش الطيب الهنى .

( وأما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة فأولئك فى العذاب محضرون ) أى وأما الذين جحدوا توحيد الله وكذبوا رسله وأنكروا البعث بعد الممات والنشور للدار الآخرة ، فأولئك فى عذاب الله محضرون لا يغيبون عنه أبدا .

فَسُبْحَانَ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ (١٧) وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ (١٨) يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ (١٩) .

## المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه حالى الفريقين المؤمنين الذين يعملون الصالحات ، والكافرين المكذبين بالآيات ، وما أعِدّ لكل منهما من الثواب والعقاب ـ أرشد إلى ما يفضى إلى الحال الأولى ويُنْجى من الثانية ، وهو تنزيه الله عز وجل عن كل ما لا يليق به ، وحمده ، والثناء عليه بما هو أهل له من صفات الجلال والكمال .

ولما كان الإنسان حين الإصباح يخرج من حال النوم التى هى أشبه بالموت منها إلى اليقظة ، وكأنها حياة بعد موت ـ أتبع ذلك بذكر الموت والحياة حقيقة .

## الايضاح

( فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون ) أى نزّهوا الله سبحانه فى وقت المساء حين إقبال الليل وظلامه ، وحين الصباح حين إسفار النهار بضيائه .

( وله الحمد فى السموات والأرض ) أى والله هو المحمود من جميع خلقه فى السموات من سكانها من الملائكة ، وفى الأرض من أهلها من أصناف خلقه فيها .

( وعشيا وحين تظهرون ) أى ونزهوه وقت العشى حين اشتداد الظلام ، ووقت الظهيرة حين اشتداد الضياء كما قال : « وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا . وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا » ، وقال : « وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى » .

وتخصيص هذه الأوقات من بين سائرها لما فيها من التبدل الظاهر فى أجزاء الزمن ، والانتقال من حال إلى أخرى على صورة واضحة ، كالانتقال من الضياء إلى الظلام

فى المساء ، ومن الظلام إلى النور فى الإصباح ، ومن ضياء تام وقت الظهيرة إلى اضمحلال لذلك الضياء وقت العشى ، وهكذا .

ثم بين صفات ذلك الإله المستحق للثناء والتقديس ، فقال :

(١) ( يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ) فهو القادر على خلق الأشياء المتقابلة بعضها من بعض ، فيخرج الإنسان والطائر من النطفة والبيضة ، كما يفعل ضد هذا ، فيخرج النطفة والبيضة من الإنسان والطائر ، وفى هذا دلالة على كمال قدرته ، وبديع صنعه ، وكون البيضة والنطفة كائن حى لا تعرفه العرب ولا تعترف به .

(٢) ( ويحيى الأرض بعد موتها ) أى ويحيى الأرض بالمطر ، فتخرج النبات الغض بعد أن كانت صعيداً جُرُزا .

ونحو الآية قوله : « وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ » وقوله : « وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ » .

(٣) ( وكذلك تخرجون ) أى وكما سهل حركة النائم الساكن بالانتباه ، وإنماء الأرض بإنباتها بعد موتها ـ يسهل عليه إحياء الميت وإخراجه من قبره لفصل القضاء .

---

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ (٢٠) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) .

## المعنى الجملى

بعد أن أمر سبحانه بتنزيهه عن الأسواء والنقائص التى لاتليق بجلاله وكماله ، ذكر أن الحمد له على خلقه جميع الموجودات ، وبين قدرته على الإماتة والإحياء بقوله : ( وكذلك تخرجون ) ، ذكر هنا أدلة باهرة ، وحججا ظاهرة على البعث والإعادة ، ومنها : خلقكم من التراب الذى لم يشَمّ رائحة الحياة ، ولا مناسبة بينه وبين ما أنتم عليه فى ذاتكم وصفاتكم ، ثم إبقاء نوعكم بالتوالد ، فإذا مات الأب قام ابنه مقامه ، لتبقى سلسلة الحياة متصلة بهذا النوع و بسائر الأنواع الأخرى بالازدواج والتوالد إلى الأجل الذى قدره الله لأمد هذه الحياة .

## الايضاح

( ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون ) أى ومن حججه الدالة على أنه القادر على مايشاء من إنشاء و إفناء ، و إيجاد وإعدام : أن خلقكم من تراب بتغذيتكم إما بلحوم الحيوان وألبانها وأسمانها ، و إما من النَّبات ؛ والحيوان غذاؤه النبات ، والنباتُ من التراب ، فإن النواة لاتصير شجرة إلا بالتراب الذى ينضم إليه أجزاء مائية تجعلها صالحا للتغذية ، ثم بعد إخراجكم منه إذا أنتم بشر تنتشرون فى الأرض . تتصرفون فيها فى أغراضكم المختلفة ، وأسفاركم البعيدة ، تكدحون وتجدّون لتحصيل أرزاقكم من فيض ربكم ، وواسع نعمه عليكم .

( ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة ) أى ومن آياته الدالة على البعث والإعادة : أن خلق لكم أزواجا من جنسكم لتأنسوا بها ، وجعل بينكم المودة والرحمة لتدوم الحياة المنزلية على أتم نظام .

ونحو الآية قوله : « هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا » .

( إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ) أى إن فيما سلف من خلقكم من تراب ، وخلق أزواجكم من أنفسكم ، وإبقاء المودة والرحمة ـ لعبرة لمن تأمل فى تضاعيف تلك الأفعال المبنية على الحكم والمصالح ، فهى لم تخلق عبثا ، بل خلقت لأغراض شتى ، تحتاج إلى الفكر حتى يصل إلى معرفتها ذوو الذكن والعقل الراجح .

---

وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ (٢٢) وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٢٣) .

## المعنى الجملى

بعد أن ذكر دلائل وجوده بما ذكره فى خلق الإنسان ـ أعقبه بذكر الدلائل فى الأكوان المشاهدة ، والعوالم المختلفة ، وفى اختلاف ألوان البشر ولغاتهم التى لاحصر لها ، مع كونهم من أب واحد وأصل واحد ، وفيما يشاهد من سباتهم العميق ليلا ، وحركتهم السريعة نهاراً ، فى السعى على الأرزاق ، والجدّ والكد فيها .

## الإيضاح

( ومن آياته خلق السموات والأرض ) أى ومن دلائل وجوده وآيات قدرته : خلقه السموات المزدانة بالكواكب ، والنجوم الثوابت والسيارة المرتفعة السموك الواسعة الأرجاء ، وخلق الأرض ذات الجبال والوديان ، والبحار والقفار ، والحيوان والأشجار .

( واختلاف ألسنتكم وألوانكم ) أى واختلاف لغاتكم اختلافا لاحدّ له ، فمن عربية إلى فرنسية ، إلى إنجليزية ، إلى هندية ، إلى صينية ، إلى نحو ذلك مما لا يعلم حصره إلا خالق اللغات ، واختلاف أنواعكم وأشكالكم اختلافا به أمكن التمييز بين الأشخاص فى الأصوات والألوان ، وهذا مما لاغنى عنه فى منازع الحياة ومختلف

أغراضها ، فكثيرا ماتميز الأشخاص بالأصوات ، وبذا نعرف الصديق من العدو ، فنتخذ مايلزم من العُدَّة لكل منهما ، كما نميزها بلغاتها ، فنعرف من أى الأجناس هى.

( إن فى ذلك لآيات للعالمين ) أى إن فيما ذكر لدلائل لائحة لأولى العلم الذين يفكرون فيما خلق الله ، فيعلمون أنه لم يخلق الخلق عبثا ، بل خلقه لحكمة بالغة فيها عبرة لمن تذكر .

( ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله ) أى ومن علامات قدرته نومكم بالليل واستقراركم فيه ، حتى لا تكون حركة ولا حس ، وسعيكم للأرزاق نهاراً بمزاولة أسباب المعاش ووسائله .

( إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون ) أى إن فى فعل الله ذلك لعبراً وأدلة لمن يسمعون مواعظه فيتعظون بها ، ويفهمون حججه عليهم ، على أن صانع ذلك لا يعجزه بعث العالم وإعادته .

---

وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٤) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ (٢٥) .

## المعنى الجملى

بعد أن ذكر مايعرض للأنفس من الأوصاف ـ ذكر مايعرض للأكوان والآفاق ونشاهده رأى العين القَيْنَة بعد القَيْنَة ، مما فيه العبرة لمن ادّكر ، ونظر فى العوالم نظرة متأمل مُعْتبر فى بدائع الأكوان ، ليُتوصَّل إلى معرفة مدبرها وخالقها الذى أحسن كل شىء خلقه ثم هدى .

## الايضاح

(ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا وينزل من السماء ماء فيحيى به الأرض بعد موتها) أى ومن آياته الدالة على عظيم قدرته أنه يريكم البرق ، فتخافون مما فيه من الصواعق ، وتطمعون فيما يجلبه من المطر الذى ينزل من السماء ، فيحيى الأرض الميتة التى لازرع فيها ولا شجر .

(إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون) أى إن فى ذلك الذى سلف ذكره لبرهانا قاطعا ، ودليلا ساطعا ، على البعث والنشور ، وقيام الساعة ، فإن أرضا هامدة لا نبات فيها ولا شجر يجيئها الماء فتهتز وتربو ، وتنبت من كل زوج بهيج : لهى المثال الواضح ، والدليل اللائح ، على قدرة من أحياها على إحياء العالم بعد موته ، حين يقوم الناس لرب العالمين .

(ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره) أى ومن الحجج الدالة على قدرته على مايشاء قيام السماء والأرض بلا عَمَد ، بل بإقامته وتدبيره ؛ فالأرض تجرى ، والسحاب يجرى حولها ، والهواء تبع لها ، وهى والقمر والسيارات يجرين حول الشمس ، والشمس ولواحقها يجرين حول كواكب أخرى ، لانعلم عنها إلا هـــذه الآثار العلمية الضئيلة .

وقصارى ذلك : إلى إمساك هذه العوالم ، وإقامتها وتدبيرها وإحكامها من الآيات التى ترشد إلى إله مدبر لها .

(ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون) أى ولا يزال الأمر هكذا حتى ينتهى أجل الدنيا ، ويختل نظام العالم ، فتبدل الأرض غير الأرض ، وتدك الجبال دكا ، وحينئذ تخرجون من قبوركم سراعا حينما يدعوكم الداعى .

ونحو الآية قوله : « يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً » وقوله : « فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ . فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ » وقوله : « إِنْ كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً . فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ » .

وَلَهُ مَنْ فِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ (٢٦) وَهُوَ الَّذِى يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٧) .

## المعنى الجملى

بعد أن أقام الأدلة على الوحدانية وهى الأصل الأول ، وعلى القدرة على الحشر ، وهى الأصل الثانى ـ أعقب ذلك بهاتين الآيتين وجعلهما كالنتيجة لما سلف .

## الإيضاح

( وله من فى السموات والأرض كلٌّ له قانتون ) أى إن من فى السموات والأرض من خلق الله مطيع له فيما أراد به ، من حياة أو موت ، من سعادة أو شقاء ، من حركة أو سكون ، إلى أشباه ذلك ، وإن عصاه بقوله أو فعله فيما يكسبه باختياره ، ويؤثره على غيره .

ثم كرر ذكر البعث والإعادة مرة أخرى لشدة إنكارهم له فقال :

( وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ) أى وهو الذى يبدأ الخلق من غير أصل له ، فينشئه بعد أن لم يكن شيئا ، ثم يفنيه بعد ذلك ، ثم يعيده كما بدأه ، وذلك أسهل عليه على حسب ما يدور فى عقول المخاطبين ، من أن من فعل شيئا مرة كانت الإعادة أسهل عليه .

والخلاصة : إن الإعادة أسهل على الله من البدء بالنظر لما يفعله البشر مما يقدرون عليه ، فإن إعادة شىء من مادته الأولى أهون عليهم من إيجاده ابتداء والمراد بذلك التقريب لعقول الجهلة المنكرين للبعث ، وإلا فكل الممكنات بالنظر إلى قدرته سواء .

وقصارى ذلك : إنه أهون عليه بالإضافة إلى أعمالكم ، و بالقياس إلى أقداركم .

روى عن أبى هريرة أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يقول الله تعالى « كذّبنى ابن آدم ولم يكن له ذلك ، وشتمنى ولم يكن له ذلك ، فأما تكذيبه إياى ، فقوله : لن يعيدنى كما بدأنى ، وليس أول الخلق بأهون علىّ من إعادته ، وأما شتمه إياى ، فقوله : اتخذ الله ولداً ، وأنا الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد » .

( وله المثل الأعلى فى السموات والأرض ) أى وله الوصف البديع فى السموات والأرض ، وهو أنه لا إله إلا هو ، ليس كمثله شىء ، تعالى عن الشبيه والنظير .

( وهو العزيز الحكيم ) أى وهو العزيز الذى لايغالَب ولا يُغلب ، الحكيم فى تدبير خلقه ، وتصريف شئونه فيما أراد ، وَفق الحكمة والسّداد .

---

ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلاً مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِيمَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٨) بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ اللهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٢٩) .

## تفسير المفردات

من أنفسكم : أى منتزعا من أحوال أنفسكم ، التى هى أقرب الأمور إليكم وأعرفها عندكم ، ملكت أيمانكم : أى مماليككم وعبيدكم ، فيما رزقناكم : أى من العقار والمنقول ، فأنتم فيه سواء : أى تتصرفون فيه كتصرفكم ، تخافونهم : أى تخافون أن يستبدوا بالتصرف فيه ، كخيفتكم أنفسكم : أى كما يخاف الأحرار بعضهم من

بعض، نفصل الآيات : أى نبينها بالتمثيل الكاشف للمعانى ، فمن يهدى من أضل الله؟: أى لا أحد يهديهم ، وما لهم من ناصرين : أى ليس لهم من قدرة الله مُنقِذ ولا مجير.

## المعنى الجملى

بعد أن بين القدرة على الإعادة بإقامة الأدلة عليها ، ثم ضرب لذلك مثلا ؛ أعقب ذلك بذكر المثل على الوحدانية بعد إقامة الدليل عليها .

## الإيضاح

( ضرب لكم مثلا من أنفسكم هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم ؟ ) أى بين الله تعالى إثبات وحدانيته بما يكشفها من ذلك المثل المنتزع من أحوال أنفسكم وأطوارها التى هى أقرب الأمور إليكم ، وبه يستبين مقدار ما أنتم فيه من الضلال بعبادة الأوثان والأصنام ، فتسرعون إلى الإقلاع عن عبادة من لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا .

هل أنتم أيها الأحرار تشركون معكم عبيدكم فى أموالكم ، فيساوونكم فى التصرف فيها ؟ لا ، لا يتصرفون فيها إلا بإذنكم خوفا من لائمة تلحقهم منكم ، كما يخاف بعضكم بعضا ، وإذا كنتم لا ترضون بذلك لأنفسكم وأنتم وهم عبيد الله ، فكيف ترضون لرب الأرباب أن تجعلوا عبيده شركاء له ؟ .

وهذا مثل ضربه الله للمشركين به ، العابدين معه غيره ، الجاعلين له شركاء ، وهم معترفون بأن شركاءه من الأصنام والأوثان عبيده وملكه ، إذ كانوا يقولون فى التلبية والدعاء ، حين أداء مناسك الحج : لبيك اللهم لبيك ، لا شريك لك ، إلا شريكا هو لك ، تملكه وما ملك .

وخلاصة المثل : إن أحدكم يأنف أن يساويه عبيده فى التصرف فى أمواله ، فكيف تجعلون لله الأنداد من خلقه ؟ .

(كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون) أى ومثل هذا التفصيل البديع بضرب الأمثال الكاشفة للمعانى، المقربة لها إلى العقول، إذ تنقل المعقول إلى المحسوس التى هى به ألصق، ولإدراكه أقرب - نفصل حججنا وآياتنا لقوم يستعملون عقولهم فى تدبر الأمثال، واستخراج مغازيها ومراميها للوصول إلى الأغراض التى لأجلها ضربت، ولمثلها استعملت، فيستبين الرشد من الغى، والحق من الباطل، ولأمرٍّما كثرت الأمثال فى جلاء الحقائق، وإيضاح ما أشكل منها على الناظرين.

ثم بين أن المشركين إنما عبدوا غيره، سفها من أنفسهم وجهلا، لا ببرهان قد لاح لهم فقال:

(بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم) أى ولكن الذين ظلموا أنفسهم فكفروا بالله، اتبعوا أهواءهم جهلا منهم لحق الله عليهم، فأشركوا الآلهة والأوثان فى عبادته، ولو قلّبوا وجوه الرأى، واستعملوا الفكر والتدبر لربما ردّهم ذلك إلى معرفة الحق، ووصلوا إلى سبيل الرشد، ولكن أنَّى لهم ذلك؟

(فمن يهدى من أضل الله؟) أى فمن يهدى مَنْ خلق الله فيه الضلال، وجعله كاسباله باختياره، لسوء استعداده وميله بالفطرة إليه، وعلم الله فيه ذلك؟

(ومالهم من ناصرين) أى وليس لهم ناصر ينقذهم من بأس الله وشديد انتقامه إذا حل بهم، لأنه ما شاء كان ومالم يشأ لم يكن.

---

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ (٣٠) مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَلاَ تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٣١) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٣٢).

## تفسير المفردات

أقم : من أقام العود وقوّمه إذا عدّله ؛ والمراد الإقبال على دين الإسلام والثبات عليه ، حنيفا : من الحنف وهو الميل ، فهو مائل من الضلالة إلى الاستقامة ، والفطرة : هى الحال التى خلق الله الناس عليها من القابلية للحق ، والتهيؤ لإدراكه ، وخلق الله : هو فطرته المذكورة أوّلا ، القيم : أى المستوى الذى لا عوج فيه ولا انحراف ، منيبين إليه : أى راجعين إليه بالتوبة وإخلاص العمل ، من قولهم : ناب نوبة ونوبا إذا رجع مرة بعد أخرى ، واتقوه : أى خافوه ، فرقوا دينهم : أى اختلفوا فيما يعبدونه على حسب اختلاف أهوائهم ، شيعا : أى فرقا تشايع كل فرقة إمامها الذى مهد لها دينها وقرره ووضع أصوله .

## المعنى الجملى

بعد أن عدد سبحانه البينات والأدلة على وحدانيته ، وأثبت الحشر وضرب لذلك المثل ، وسلى رسوله ووطن عزيمته على اليأس من إيمانهم ، لأن الله قد ختم على قلوبهم فلا مخلص لهم مما هم فيه ولا ينقذهم من ذلك لا هو ولا غيره فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ـ أعقب ذلك بأمره بالاهتمام بنفسه ، وعدم المبالاة بأمرهم ، وإقامة وجهه لهذا الدين غير ملتفت عنه يَمْنَةً ولا يَسْرَةً ، فهو فطرة الله التى خلق العقول معترفة بها .

## الإيضاح

( فأقم وجهك للدين حنيفا ) أى فسدّد وجهك نحو الوجه الذى وجّهك إليه ربك لطاعته ، وهو الدين القيم ، دين الفطرة ، ومِلْ عن الضلال إلى الهدى .

(فطرت الله التى فطر الناس عليها ) أى الزموا خلقة الله التى خلق الناس عليها ، فقد جعلهم بفطرتهم جانحين للتوحيد وموقنين به ، لكونه موافقا لما يهدى إليه

العقل ، ويرشد إليه صحيح النظر ، كما ورد فى الحديث الذى رواه البخارى ومسلم : «كل مولود يولد على الفطرة حتى يكون أبواه هما اللذان يهوّدانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تُنْتَج البهيمة جمعاء» (مستوية لم يذهب من بدنها شىء) «هل تحسون فيها من جدعاء» (مقطوعة الأذن أو الأنف) .

ثم علل وجوب الامتثال بقوله:

(لا تبديل لخلق الله) أى لا ينبغى أن تبدّل فطرة الله أو تغير ، وهذا خبر فى معنى النهى كأنه قيل : لا تبدّلوا دين الله بالشرك .

بيان هذا أن العقل الإنسانى كصحيفة بيضاء ، قابلة لنقش ما يراد أن يكتب فيها ، كالأرض تقبل كل ما يُغْرَس فيها ، فهى تُنْبِتُ حنظلا وفاكهة ، ودواء وسمًّا ، والنفس ترِدُ عليها الديانات والمعارف فتقبلها ، والخير أغلب عليها من الشر ، كما أن أغلب نبات الأرض يصلح للرعى ، والقليل منه سَمٌّ لا يُنْتَفَع به ، ولا تغير بالآراء الفاسدة إلا بمعلم يعلمها ذلك كالأبوين اليهوديين أو النصرانيين ، ولو تُرِكَ الطفل وشأنه لعرف أن الإله واحد ولم يسقْه عقله إلى غير ذلك ، فإن البهيمة لا تجدع إلا بمن يجدعها من الخارج ، هكذا صحيفة العقل لا تُغَيَّر إلا بمؤثِّر خارجى يُضِلُّها بعد علم .

(ذلك الدين القيم) أى ذلك الذى أمرتكم به من التوحيد هو الدين الحق الذى لا عوج فيه ولا انحراف .

(ولكن أكثر الناس لا يعلمون) ذلك لعدم تدبرهم فى البراهين الواضحة الدالة عليه ، ولو علموا ذلك حق العلم لاتبعوه ، وما صدوا الناس عن الاقتباس من نوره ، وما سدَلوا الحُجُب التى تحجب عنهم ضياءه .

(منيبين إليه واتقوه) أى فأقم وجهك أيها الرسول أنت ومن اتبعك ، حنفاء لله منيبين إليه ، وخافوه ، وراقبوا أن تفرطوا فى طاعته ، وترتكبوا معصيته .

(وأقيموا الصلاة) أى وداوموا على إقامتها ، فهى عمود الدين ، وهى التى تذكّر المؤمن ربه ، وتجعله يناجيه فى اليوم خمس مرات ، وتحول بينه وبين الفحشاء

والمنكر ، لأنها تعوّد النفس الخضوع والإخبات له ، ومراقبته فى السر والعلن ، كما جاء فى الحديث : « اعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

(ولا تكونوا من المشركين) به غيره ، بل أخلصوا له العبادة ولا تريدوا بها سواه، وحافظوا على امتثال أوامره ، واجتناب نواهيه .

ثم بين صفات هؤلاء المشركين بقوله :

( من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا ) أى من المشركين الذين بدلوا دين الفطرة وغيّروه ، وكانوا فى ذلك فرقا مختلفة كلها جانبت الحق ، وركنت إلى الباطل ، كاليهود والنصارى والمجوس وعبدة الأوثان،وسائر الأديان الباطلة.

والخلاصة : إن أهل الأديان قبلنا اختلفوا فيما بينهم على مذاهب ونحل باطلة ، كل منها تزعم أنها على شىء .

( كل حزب بما لديهم فرحون ) أى كل طائفة من هؤلاء الذين فارقوا دينهم الحق ، وأحدثوا من البدع ماأحدثوا ـ فرحون بماهم به مستمسكون ، ويحسبون أن الصواب لايعدوهم إلى غيرهم من النحل والمذاهب الأخرى .

---

وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ(٣٣)لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٤) أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ (٣٥) وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ(٣٦) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣٧) .

## المعنى الجملى

لما أرشد سبحانه إلى التوحيد، وأقام الأدلة عليه، وضرب له المثل؛ أعقبه بذكر حال للمشركين يُعْرَفون بها، وسيماء لاينكرونها، وهى أنهم حين الشدّة يتضرعون إلى ربهم، وينيبون إليه، فإذا خَلَصوا منها رجعوا إلى شِنْشِنتهم الأولى، وأشركوا به الأوثان والأصنام، فليضلوا ماشاءوا، فإن لهم يوما يرجعون فيه إلى ربهم، فيحاسبهم على مااجترحوا من السيئات، وليتهم اتبعوا ذلك عن دليل، حتى يكون لهم شبه العذر فيا يفعلون، بل هو الهوى المطاع، والرأى المتّبع، ثم ذكر حال طائفة من المشركين دون سابقيهم، وهم من تكون عبادتهم لله رهن إصابتهم من الدنيا، فإن آتاهم ربهم منها رضوا، وإذا مُنِعوا منها سخطوا وقَنِطوا، وقد كان عليهم أن يعلموا أن بسط النعمة وإقتارها بيده وحده، وقد جعل لذلك أسبابا متى سلكها فاعلها وصل إلى مايريد، وليس علينا إلا أن تطمئن نفوسنا إلى مايكون، فكله بقدر الله وقضائه، وعلينا أن نستسلم له، ونعمل ماطُلِب إلينا عمله من الأخذ فى الأسباب والجد فى العمل جهد الطاقة.

## الايضاح

(وإذا مس الناس ضرّ دعوا ربهم منيبين إليه) أى وإذا مس هؤلاء المشركين الذين يجعلون مع الله إلٰها آخر - ضُرٌّ فأصابهم جَدْب وقحط أخلصوا لربهم التوحيد، وأفردوه بالتضرع إليه واستغاثوا به منيبين إليه، تائبين إليه من شركهم وكفرهم.

(ثم إذا أذاقهم منه رحمة إذا فريق منهم بربهم يشركون) أى ثم إذا كشف ربهم عنهم ذلك الضر وفرجه عنهم، وأصابهم برخاء وخِصْب وسعة، إذا جماعة منهم يُشرِكون به فيعبدون معه الآلهة والأوثان.

والخلاصة: إنهم حين الضرر يدعون الله وحده لاشريك له، وإذا أسبغ عليهم

نعمه إذا فريق منهم يشركون به سواه ، و يعبدون معه غيره .

ثم أمرهم أمر تهديد كما يقول السيد لعبده متوعدا إذا رآه قد خالف أمره : اعصنى ما شئت ، قال :

( ليكفروا بما آتيناهم ) أى فليجحدوا نعمى عليهم و إحسانى إليهم كيف شاءوا، فإن لهم يوما نحاسبهم فيه ، يوم يؤخذون بالنواصى ، و يجرّون بالسلاسل والأغلال ، و يقال لهم : ذوقوا ما كنتم تعملون .

ومثله الأمر بعده وهو :

( فتمتعوا ) أى فتمتعوا بما آتيناكم من الرخاء ، وسعة النعمة فى الدنيا ، فما هى إلا أو يقات قصيرة تمضى كلمح البصر .

ثم هددهم أشد التهديد بقوله :

( فسوف تعلمون ) إذا وردتم علىّ ما يصيبكم من شديد عذابى ، وعظيم عقابى ، على كفركم بى فى الدنيا .

روى عن بعض السلف أنه قال : والله لو توعدنى حارس درب لخفت فيه ، فكيف والمتوعِّدُ هو الله الذى يقول للشىء كن فيكون ؟ .

ثم أنكر على المشركين ما اختلقوه من عبادة غيره بلا دليل ، فقال :

( أم أنزلنا عليهم سلطانا فهو يتكلم بما كانوا به يشركون ) أى أأنزلنا على هؤلاء الذين يشركون فى عبادتنا الآلهة والأوثان كتابا فيه تصديق لما يقولون ، و إرشاد إلى حقيقة ما يدّعون .

و إجمال القصد : إنه لم يُنزِّل بما يقولون كتابا ولا أرسل به رسولا ، و إنما هو شىء افتعلوه اتباعا لأهوائهم .

ثم ذكر طبيعة الإنسان وجِبِلّته إلا من عصمه الله فقال :

( وإذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها و إن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم

يقنطون ) أى إن الإنسان قد رُكِّبَ فى طبيعته الفرح والبطر حين تصيبه النعمة ، كما حكى الله عنه : « لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّى إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ » وإذا أصابته شدة بجهله بسنن الحياة ، وعصيانه أوامر الدين ، قنط من رحمة الله وأيس منها، فهو كما قيل:

كحمار السوء إن أعلفته رمح الناس وإن جاع نهق

« إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ » فإنهم راضون بما قسمه لهم ربهم من خير أو شر ، علما منهم أن الله حكيم ، لا يفعل إلا ما فيه خير للعبد ، وفى الحديث الصحيح : « عجبا للمؤمن لا يقضى الله له قضاء إلا كان خيرا له ، إن أصابته سراء شكر ، فكان خيرا له ، وإن أصابته ضراء صبر ، فكان خيرا له » .

ثم أنكر عليهم ما يلحقهم من اليأس والقنوط لدى الضراء ، فقال :

(أولم يروا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ؟) أى ألم يشاهدوا ويعلموا أن الأمرين من الله ، فما بالهم لم يشكروا فى السراء ، ويحتسبوا فى الضراء ، كما يفعل المؤمنون ، فإن من فطر هذا العالم لا يُنزل الشدة بعباده إلا لما لهم فيها من الخير كالتأديب والتذكير والامتحان ، فهو كما يربى عباده بالرحمة يربيهم بالتعذيب ؛ فلو أنهم شكروه حين السراء ، وتضرعوا إليه فى الضراء ، لكان خيرا لهم .

والخلاصة: إنه يجب عليهم أن ينيبوا إليه فى الرخاء والشدة ، ولا يعوقهم عن الإنابة إليه نعمة تُبْطِرهم ، ولا شدة تحدث فى قلوبهم اليأس ، بل يكونون فى السراء والضراء منيبين إليه .

( إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون ) أى إن فى ذلك البسط على من بُسِط له والقدْر على من قدِر عليه ـ لدلالة واضحة لمن صدّق بحجج الله إذا عاينها .

---

فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٣٨) وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَا فِى أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُوا عِنْدَ اللهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ

اللهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ (٣٩) اللهُ الَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَٰلِكُمْ مِنْ شَىْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٤٠) .

## تفسير المفردات

حقه : هو صلة الرحم والبرّ به ، والمسكين : هو المعدِم الذى لا مال له ، وابن السبيل : هو المسافر الذى احتاج إلى مال وعزَّ عليه إحضاره من بلده ، ووسائل المواصلات الحديثة الآن تدفع مثل هذه الحاجة ، ربا : أى زيادة ، والمراد بها الهدية التى يتوقع بها مزيد مكافأة ، فلا يربو عند الله : أى فلا يبارك فيه ، والمراد بالزكاة الصدقة ، المضعفون : أى الذين يضاعف الله لهم الثواب والجزاء .

## المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه أنه يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ـ أردف ذلك ببيان أنه يحبّ الإحسان على ذوى القربى وذوى الحاجات من المساكين وأبناء السبيل ، فإنه إذا بسط الرزق لم ينقصه الإنفاق ، وإذا قدَر لم يزده الإمساك :

إذا جادت الدنيا عليك فَجُدْ بها على الناس طرًّا إنها تتقلّبُ
فلا الجود يُفْنيها إذا هى أقبلت ولا البخل يُبْقيها إذا هى تذهبُ

## الإيضاح

( فآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ) أى أعط أيها الرسول ومن تبعك من المؤمنين : الأقاربَ الفقراء جزءا من مالك صلة للرحم ، وبرًّا بهم لأنهم أحق الناس بالشفقة ؛ ومن ثم حكى عن أبى حنيفة أنه استدل بهذه الآية على وجوب النفقة على كل ذى رحم محرم ذكرا كان أو أنثى إذا كان فقيراً عاجزا عن الكسب .

وكذا المسكين الذى لا مال له إذا وقع فى ورطة الحاجة ، فيجب على من عنده مقدرةٌ دفعُ حاجته ، وسدّ عوَزه .

ومثله المسافر البعيد عن ماله ، الذى لا يستطيع إحضار شىء منه لانقطاع السبل به فيجب مساعدته بما يدفع خصاصته ، حتى يصل إلى مأمنه ، وسرعة طرق المواصلات الآن تدفع هذه الضرورة .

( ذلك خير للذين يريدون وجه الله وأولئك هم المفلحون ) أى ذلك الإعطاء لمن تقدم ذكرهم ، من فعل الخير الذى يتقبّله الله ، ويرضى عن فاعليه ، ويعطيهم جزيل الثواب ، وأولئك قد ربحوا فى صفقتهم ، فأعْطَوْا ما يفنى ، وحَصَلوا على ما يبقى ، من النعيم المقيم ، والخير العميم .

وإنما كان هذا العمل خيرا ، لما فيه من تكافل الأسرة الخاصة ، وتعاونها فى السراء والضراء ، وتعاون الأسرة العامة ، وهى الأمة الإسلامية جمعاء ، كما جاء فى الحديث : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدّ بعضه بعضا » .

ولا يخفى ما لذلك من أثر فى تولد المحبة والمودة ، وفى التكاتف لدفع عوادى الأيام ، ومحن الزمان .

( وما آتيتم من ربا ليربو فى أموال الناس فلا يربو عند الله ) أى ومن أهدى هدية يريد أن تردّ بأكثر منها ، فلا ثواب له عند الله ، وقد حرم الله ذلك على رسوله صلى الله عليه وسلم على الخصوص ، كما قال تعالى : « وَلاَ تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ » أى ولا تعط العطاء تريد أكثر منه .

روى عن ابن عباس أنه قال : الربا ربوان : ربا لا يصح وهو ربا البيع ، وربا لا بأس به ، وهو هدية الرجل يريد فضلها وإضعافها ، ثم تلا هذه الآية .

وقال عكرمة : الربا ربوان : ربا حلال ، وربا حرام ؛ فأما الربا الحلال : فهو الذى يُهْدَى ، يَلتمس ماهو أفضل منه ؛ وعن الضحاك فى هذه الآية : هو الربا الحلال

الذى يُهْدَى ، ليثاب ماهو أفضل منه ، لا له ولا عليه ، ليس له أجر ؛ وليس عليه فيه إثم .

( وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون ) أى ومن أعطوا صدقة يبتغون بها وجه الله تعالى خالصا، فأولئك من الذين يضاعَف لهم الثواب والجزاء، كما قال تعالى : « مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ؟ » ، وجاء فى الصحيح أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « وما تصدّق أحد بعدْل تمرة من كسب طيب إلا أخذها الرحمن بيمينه فيربيها لصاحبها كما يربّى أحدكم فُلُوّه أو فصيله حتى تصير التمرة أعظم من أحد ( جبل ) » .

ولما بين أنه لازيادة إلا فيما يزيده ، ولا خير إلا فيما يختاره أكد ذلك بقوله :

( الله الذى خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم ) أى الله الذى لاتصح العبادة إلا له ، ولا ينبغى أن تكون لغيره ، هو الذى خلقكم ولم تكونوا شيئاً ، ثم رزقكم مابه تقوم شئونكم فى هذه الحياة ، ثم يقبض أرواحكم فى الدنيا ، ثم يحييكم يوم القيامة للبعث .

ثم وبخ هؤلاء المشركين الذين يعبدون الآلهة والأصنام التى لاتخلق ولا ترزق ولا تحيي ولا تميت بقوله :

( هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شىء ؟ ) أى هل من آلهتكم وأوثانكم الذين جعلتموهم شركاء لى فى العبادة من يخلق أو يرزق أو يُنْشِر الميت يوم القيامة ؟ .

وإجمال المعنى : إن شركاءكم لايفعلون شيئا من ذلك ، فكيف يُعبدون من دون الله ؟ .

ثم برأ سبحانه نفسه من هذه الفرية التى افتروها ، فقال :

( سبحانه وتعالى عما يشركون ) أى تنزه عن الشريك ، فهو الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد .

ظَهَرَ الْفَسَادُ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِى عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤١) قُلْ سِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ (٤٢) .

## تفسير المفردات

البر : الفيافى والقفار ، ومواضع القبائل ، والبحر : المدن ، والعرب تسمى الأمصار بحاراً لسعتها ؛ كما قال سعد بن عُبادة فى عبد الله بن أبىّ ابن سَلول : ولقد أجمع أهل هذه البُحَيرة ( المدينة ) ليتوّجوه .

وقال ابن عباس : البر ما كان من المدن والقرى على غير نهر ، والبحر ما كان على شط نهر .

## المعنى الجملى

بعد أن ذكر أن المشركين عبدوا مع الله سواه ، وأشركوا به غيره ، والشرك سبب الفساد ، كما يرشد إلى ذلك قوله : « لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللهُ لَفَسَدَتَا » - أعقب ذلك ببيان أن الناس قد انتهكوا حرمات الله ، واجترحوا المعاصى ، وفشا بينهم الظلم والطمع ، وأ كل القوى مال الضعيف ، فصب عليهم ربهم سوط عذابه ، فكثرت الحروب ، وافتنّ الناس فى أدوات التدمير والإهلاك ، فمن غائصات البحار تُهلِك السفن الماخرة فيها ، إلى طائرات قاذفات للحَمَم والموادّ المُحرِقة ، إلى مدافع تحصد الناس حصدا ، إلى دبابات سميكة الدروع تهدّ المدن هدا ؛ وما الحرب القائمة

الآن إلا مثال الوحشية الإنسانية ، والمجازر البشرية التى سلط الله فيها العالم بعضه على بعض ، فارتكب المظالم ، واجترح المآثم ، والإنسان فى كل عصر هو الإنسان .

وكما أهلك الله الكافرين قبلهم بكفرهم وظلمهم ، يهلك الناس بشؤم معاصيهم وفسادهم ، فليجعلوا من سبقهم مثلا لهم ، ليتذكروا عقاب الله وشديد عذابه للمكذبين .

## الإيضاح

( ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس ليذيقهم بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون ) أى ظهر الفساد فى العالم بالحروب والغارات ، والجيوش والطائرات ، والسفن الحربية والغواصات ، بما كسبت أيدى الناس من الظلم وكثرة المطامع ، وانتهاك الحرمات ، وعدم مراقبة الخلاق ، وطرح الأديان وراء ظهورهم ، ونسيان يوم الحساب ، وأُطلِقت النفوس من عقالها ، وعاثت فى الأرض فساداً ، إذ لارقيب من وازع نفسى ولا حسيب من دين يدفع عاديتها ، ويمنع أذاها ، فأذاقهم الله جزاء بعض ماعملوا من المعاصى والآثام ، لعلهم يرجعون عن غيهم ، ويثوبون إلى رشدهم ، ويتذكرون أن هناك يوما يحاسب الناس فيه على أعمالهم ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر ، فيخيِّم العدل على المجتمع البشرى ، ويشفق القوىّ على الضعيف ، ويكون الناس سواسية فى المرافق العامة ، وحاج المجتمع بقدر الطاقة البشرية .

وبعد أن بين أن ظهور الفساد كان نتيجة أفعالهم أرشدهم إلى أن من كان قبلهم وكانت أفعالهم كأفعالهم ، أصابهم بعذاب من عنده ، وصاروا مُثُلاً لمن بعدهم وعبرة لمن خلفهم ، قال :

( قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل ؟ ) أى قل أيها الرسول لهؤلاء المشركين من قومك : سيروا فى البلاد فانظروا إلى مساكن الذين كفروا بالله من قبلكم وكذبوا رسله ، كيف أهلكناهم بعذاب منا ، وجعلناهم عبرة لمن بعدهم ؟ .

ثم بين سبب ماحاق بهم من العذاب ، فقال :

(كان أكثرهم مشركين) فما حل بهم من العذاب كان جزاء وفاقا لكفرهم بآيات ربهم ، وتكذيبهم رسله .

---

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَ مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ (٤٣) مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ (٤٤) لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (٤٥) .

## تفسير المفردات

لامرد له : أى لايقدر أحد أن يردّه، يصّدّعون : أى يتصدعون ويتفرقون ، كما قال متمم بن نويرة من قصيدة يرثى بها أخاه مالكا :

وكنا كندمانَىْ جَذيمة حِقْبَةً من الدهر حتى قيل لن نتصدعا[1]

فأصبحنا كأنى ومالكا لطول اجتماع لم نبت ليلة معا

يمهدون : من مهد فراشه إذا وطّأه حتى لايصيبه ماينغّص عليه مرقده من بعض مايؤذيه ، وتمهيد الأمور تسويتها وإصلاحها ، وتمهيد العذر بسطه وقبوله ، لايحب الكافرين : أى إنه يبغضهم ، وسيعاقبهم على مافعلوا .

---

(١) وجذيمة : هوجذيمة الأبرش ،وكان ملكا فى الحيرة ،ونديماه مالك وعقيل،وبهما يضرب المثل فى طول المنادمة، فقد نادماه أربعين سنة ما أعادا عليه حديثا كان قالاه من قبل .

## المعنى الجملى

بعد أن نهى الكافر عن بقائه على حاله التى هو عليها خيفة أن يحل به سوء العذاب ـ أردف ذلك أمر رسوله ومن تبعه بالثبات على ماهم عليه ، بعبادتهم الواحد الأحد، قبل أن يأتى يوم الحساب ، الذى يتفرق فيه العباد ، فريق فى الجنة ، وفريق فى السعير، فمن كفر فعليه وبال كفره، ومن عمل صالحا فقد أعد لنفسه مهاداً يستريح عليه بما قدم من صالح العمل ، وسينال من فضل ربه وثوابه ورضاه عنه مالا يخطر له ببال ، ولايدور له فى حُسْبان .

والكافر سيلقى فى هذا اليوم العذاب والنكال ، لأن ربه يبغضه ويمقته جزاء ما دسَّى به نفسه من سيئ العمل .

## الإيضاح

(فأقم وجهك للدين القيم من قبل أن يأتى يوم لامردَّ له) أى فاسلك أيها الرسول الكريم الطريق الذى رسمه لك ربك بطاعته ، واتباع نهجه القويم ، الذى لاعوج فيه ولا أمْتَ ، من قبل أن يجىء ذلك اليوم الذى لاراد له ، وهو يوم الحساب الذى كتب الله مجيئه وقدّره ، وما قدِّر لابد أن يكون .

ثم ذكر حال الناس يومئذ ، فقال :

( يومئذ يصدعون ) أى يومئذ يتفرق الناس بحسب أعمالهم ، فريق فى الجنة يؤتى ثمرة عمله ، وفريق يُزْجَى إلى النار بما اجترح من الآثام ، وبما ران على قلبه مما كسبت يداه .

ثم بين أن ماناله كل منهما من الجزاء كان نتيجة حتمية لعمله فقال :

( من كفر فعليه كفره ومن عمل صالحا فلأنفسهم يمهدون ) أى من كفر بالله ، ودسَّى نفسه بما عمل من السيئات ، واجترح من الآثام ، فعليه وحده أوزار جحوده

وكفره بنعم ربه ، ومن عمل الصالحات ، وأطاع الله فيما به أمر ، وعنه نهى ، فقد أعدّ لنفسه العُدّة ، ووطأ لنفسه الفراش حتى لا يقضّ عليه مضجعه ، ويقع فى عذاب السعير .

ثم بين العلة فى تفرقهم ، فقال :

( ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات من فضله ) أى إنهم يتفرقون ليجازى المؤمنين بالحسنى من فضله ، فيكافئ الحسنة بعشر أمثالها ، إلى سبعمائة ضعف ، إلى ماشاء الله من المنح والعطايا .

وذكر جزاء الكافرين بما يدل عليه قوله :

( إنه لايحب الكافرين ) أى إنه يبغضهم ، وذلك يستدعى عقابهم ، ولا يخفى مافى ذلك من تهديد ووعيد .

---

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٤٦) .

## المعنى الجملى

لما ذكر سبحانه أن الفساد ظهر فى البر والبحر بسبب الشرك والمعاصى ، نبههم إلى دلائل وحدانيته بما يشاهدونه أمامهم من إرسال الرياح وبالأمطار ، فتحيا بها الأرض بعد موتها وجرى الفلك حاملة لما هم فى حاجة إليه ، مما فيه غذاؤهم ، وعليه مدار حياتهم .

## الإيضاح

( ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات وليذيقكم من رحمته ولتجرى الفلك بأمره ولتبتغوا من فضله ) أى ومن الأدلة على وحدانيته تعالى ، والحجج القائمة على أنه رب كل شىء ، أنه يرسل الرياح من حين إلى آخر مبشرات بالغيث الذى به تحيا

الأرض وينبت الثمر وَالزرع ، فتأكلون منه مالذ وطاب ، وتعيشون أنتم ودوابكم وأنعامكم فضلا من ربكم ، وتجرى السفن ماخرة للبحار ، حاملة للأقوات وأنواع الثمار، متنقلة من قطر إلى قطر ، فتأتى بما فى أقصى المعمور من الشرق إلى أقصاه فى الغرب ، والعكس بالعكس ، فلا تحتجنُ الثمرات والأقوات فى أماكنها ، وتكون وقفاً على قوم بأعيانهم .

( ولعلكم تشكرون ) أى وليعدّكم لشكره كفاء ما أسدى إليكم من نعمه الوفيرة ، وخيراته العميمة التى لاتحصى ، كما قال: « وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لاَتُحْصُوهَا » .

---

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧) .

## المعنى الجملى

لما ذكر سبحانه البراهين الساطعة الدالة على الوحدانية والبعث والنشور ، ولم يرعوِ بها المشركون ، بل لجوا فى طغيانهم يعمهون ، سلى رسوله صلى الله عليه وسلم ، فذكر له أنك لست أول من كُذِّبَ ، فكثير ممن قبلك جاءوا أقوامهم بالبينات ، فلم تغنهم الآيات والنذر ، فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر ، ونصرنا رسلنا ومن آمن بهم ، فلا تبتئس بما كانوا يعملون ، وَلَنَجْزِيَنّ عليك وعلى قومك سنننا ، ولننتقمنّ منهم ، ولننصرنّك عليهم ، فالعاقبة للمتقين .

## الإيضاح

( ولقد أرسلنا من قبلك رسلا إلى قومهم فجاءوهم بالبينات فانتقمنا من الذين أجرموا وكان حقا علينا نصر المؤمنين ) أى ولقد أرسلنا أيها الرسول رسلا من قبلك إلى أقوامهم

الـكافرين ، كما أرسلناك إلى قومك عابدى الأوثان من دون الله ، فجاءوهم بالحجج الواضحة على أنهم من عند الله ، فـكذبوهم كما كذبك قومك ، وردّوا عليهم ما جاءوهم به من عنده ، كما ردوا عليك ما جئتهم به ، فانتقمنا من الذين اجترحوا الآثام ، واكتسبوا السيئات من أقوامهم ، ونجينا الذين آمنوا بالله وصدقوا رسله ، ونحن فاعلو ذلك بمجرمى قومك ، وبمن آمن بك ، سـنة الله التى شرعها لعباده ، ولن تجد لسنة الله تبديلا .

وهذا إخبار من الله سبحانه بأن نصره لعباده المؤمنين حق عليه ، وهو لا يخلف الميعاد . أخرج الطبرانى وابن أبى حاتم وابن مردويه والترمذى عن أبى الدرداء قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « مامن مسلم يردّ عن عرض أخيه إلا كان حقا على الله أن يرد عنه نار جهنم يوم القيامة » ثم تلا : « وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ » :

ولا يخفى مافى هذا من الوعد والبشارة بالظفر على أعدائه ، والوعيد والنكال ، والخسران فى المآل ، لمن كذب به من قومه .

---

اللَّهُ الَّذِى يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِى السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٨) وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ (٤٩) فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٥٠) وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ (٥١) .

## تفسير المفردات

تثير : أى تحرك ، يبسط : أى ينشر ، فى السماء : أى فى سَمتها وجهتها، كسفا : أى قطعا ، والودق : المطر ، خلاله : واحدها خَلل ، وهو الفرجة بين الشيئين ، لمبلسين : أى لآيسين .

## المعنى الجملى

عود على بدء ، بعد أن سلى رسوله صلى الله عليه وسلم على ما يلاقيه من أذى قومه ببيان أنه ليس ببدع فى الرسل ، فكائن من رسول قبله قد كذِّب ، ثم دالت الدَّولة على المكذبين ، ونصر الله رسوله والمؤمنين ، أعاد الكرة مرة أخرى ، فأتبع البرهان بالبرهان لإثبات الوحدانية ، وإمكان البعث والنشور بما يشاهد من الأدلة فى الآفاق ، مرشدة إلى قدرته ، وعظيم رحمته ، ثم بما يُرى فى الأرض الموات من إحيائها بالمطر ، وهو دليل لائح يشاهدونه ، ولا يغيب عنهم الحين بعد الحين ، والفَيْنَة بعد الفَيْنَة ، أفليس فيه حجة لمن اعتبر ومقنع لمن ادّكر ؟ .

## الإيضاح

( الله الذى يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه فى السماء كيف يشاء ويجعله كسفاً فترى الودق يخرج من خلاله فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون ) أى الله الذى يرسل الرياح فتنشئ سحابا فينشره ويجمعه جهة السماء ، تارة سائراً ، وأخرى واقفا ، وحينا قطعا ، فترى المطر يخرج من وسطه ، فإذا أصاب به بعض عباده فرحوا به لحاجتهم إليه .

( وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين ) أى وقد كانوا من قبل أن ينزل عليهم قانطين يائسين من نزوله ، فلما جاءهم على فاقة وحاجة وقع منهم موقعا عظيما .

والخلاصة : إنهم كانوا محتاجين إليه قبل نزوله ، ومن قبل ذلك أيضا ، إذ هم ترقبوه فى إبّانه فتأخر ، ثم مضت فترة فترقبوه فيها فتأخر ، ثم جاء بغتة بعد اليأس والقنوط ، و بعد أن كانت أرضهم هامدة أصبحت وقد اهتزت وربَت وأنبتت من كل زوج بهيج .

( فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها ) أى فانظر أيها الرسول أثر الغيث الذى أنبت به ما أنبت من الزرع والأشجار والثمار ، وفيه الدليل الكافى على عظيم القدرة وواسع الرحمة .

و إذ قد ثبتت قدرته على إحياء الميت من الأرض بالغيث ثبتت قدرته على إحياء الأجسام بعد موتها وتفرقها وتمزقها إرْبًا إرْبًا ، ومن ثم قال :

( إن ذلك لمحيي الموتى ) أى إن ذلك الذى قدر على إحياء الأرض قادر على إحياء الاجسام حين البعث .

ثم أكد هذا بقوله :

(وهو على كل شىء قدير) فلا يعجزه شىء ، فإحياؤكم من قبوركم هيِّن عليه ، ونحو الآية قوله : « قالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ؟ قُلْ يُحْيِيهَا الذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ » .

ثم ذمهم على تزلزلهم وسوء اضطرابهم ، فإذا أصابهم الخيرفرحوا به ، و إن أصابهم السوء يئسوا وأبلَسُوا ، وانقطع رجاؤهم من الخير ، فقال :

( ولئن أرسلنا ريحا فرأوه مصفرًّا لظلوا من بعده يكفرون ) أى ولئن أرسلنا ريحا حارة أو باردة على الزرع الذى زرعوه ونما واستوى على سُوقه ، فرأوه قد اصفر بعد خضرته ونضرته — لظلُّوا من بعد ذلك الاستبشار والرجاء يجحدون نعم الله السابقة عليهم .

ولا يخفى مافى ذلك من المبالغة فى احتقارهم لتزلزلهم فى عقيدتهم ، إذ كان الواجب

عليهم أن يتوكلوا على الله فى كل حال ، ويلجئوا إليه بالاستغفار إذا احتبس عنهم المطر ، ولا ييأسوا من رَوْح الله ، ويبادروا إلى الشكر بالطاعة إذا أصابهم جل وعلا برحمته ، وأن يصبروا على بلائه إذا اعترى زرعهم آفة ولا يكفروا بنعمائه ، لكنهم قد عكسوا الأمر ، وأبَوْا ما يُجديهم ، وأتوا بما يؤذيهم .

---

فَإِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلاَ تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (٥٢) وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلاَلَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلاَّ مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ (٥٣) .

## المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه صنوف الأدلة ، ثم ضرب المُثُل على توحيده ووجوب إرسال الرسل مبشرين ومنذرين ، وصحة بعث الأجسام يوم القيامة ، ووعد وأوعد بما لم يبق بعده مستزاد لمستزيد ، ثم ما زادهم دعاء الرسول إلا إعراضا ، ولا تكرار النصح إلا إصراراً وعناداً — أردف هذا تسليته على ما يراه من التمادى فى الإعراض ، وكثرة العناد واللجاج ، فأبان أن هؤلاء كأنهم موتى ، فأنَّى لك أن تُسْمعهم ، وكأنهم صُمٌّ ، فكيف يسمعون دعاءك حتى يستجيبوا لك ؟ إنما الذى يستجيب من يؤمن بآيات الله ، فهو إذا سمع كتابه تدبره وفهمه ، فيخضع لك بطاعته ، ويتذلل لمواعظ كتابه .

## الإيضاح

( فإنك لاتسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين ) أى إنك لاتقدر أن تفهم هؤلاء المشركين الذين قد ختم الله على أسماعهم ، فسلبهم فهم ما يتلى عليهم من مواعظ تنزيله ؛ كما لاتقدر أن تفهم الموتى الذين سُلِبُوا أسماعهم بأن تجعل لهم

أسماعا ، ولا تقدر أن تهدى من تصامّوا عن فهم آيات كتابه فتجعلهم يسمعونها ويفهمونها كما لاتقدر أن تسمع الصم ـ الدعاء إذا ولّوا عنك مدبرين .

ثم بين أن الهداية والضلالة بيده لا بيد الرسول ، فقال :

( وماأنت بهادى العمى عن ضلالتهم ) أى ليس فى طوقك أن تهدى من أضله الله ، فتردّه عن ضلالته ، بل ذلك إليه وحده ، فإنه يهدى من يشاء ، ويضل من يشاء ، وليس ذلك لأحد سواه .

والخلاصة : إن هذا ليس من عملك ، ولا بعثت لأجله .

ثم أكد ماسلف بقوله :

( إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون ) أى لاتسمع السماع الذى ينتفع به سامعه فيتّبعه ، إلا من يؤمن بآياتنا ، لأنه هو الذى إذا سمع كتاب الله تدبره وفهمه ، وعمل بما فيه ، وانتهى إلى حدوده التى حدها ، فهو مستسلم خاضع له ، مطيع لأوامره ، تارك لنواهيه .

---

اللَّهُ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ (٥٤) .

## المعنى الجملى

بعد أن ذكر دلائل الآفاق على وحدانيته أردفها دلائل الأنفس ، فذكر خلق الأنفس ، فى أطوارها المختلفة من ضعف إلى قوة ، ثم انتكاسها وتغيير حالها من قوة إلى ضعف ، ثم إلى شيخوخة وهرَم . وبين أنه العليم بها فى مختلف أحوالها ، القدير على تغييرها واختلاف أشكالها .

# الإيضاح

( الله الذى خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة ) يقول سبحانه محتجا على المشركين المنكرين للبعث : إن الذى خلقكم من نطفة وماء مهين ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ، ثم جعل لكم قوة على التصرف من بعد ضعف الصغر والطفولة ، ثم أحدث لكم الضعف بالهرم والكبر ، بعد أن كنتم أقوياء فى شبابكم - قادر أن يعيدكم مرة أخرى بعد البلى ، و بعد أن تكونوا عظاما نخرة .

والخلاصة : إن تنقل الإنسان فى أطوار الخلق حالا بعد حال من ضعف إلى قوة، ثم من قوة إلى ضعف - دليل على قدرة الخالق الفعّال لما يشاء ، الذى لا يعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، ولا يعجزه أن يعيدكم كرّة أخرى .

( يخلق مايشاء وهو العليم القدير ) أى يخلق مايشاء من ضعف وقوة ، وشباب وشيب ؛ وهو العليم بتدبير خلقه ، القدير على مايشاء ، لا يمتنع عليه شىء أراده ، وهو كما يفعل هذا قادر على أن يميت خلقه ويحييهم إذا شاء :

---

وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَالَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ (٥٥) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَابِ اللهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَـكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ (٥٦) فَيَوْمَئِذٍ لاَ يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٥٧) .

## تفسير المفردات

الساعة الأولى : يوم القيامة ؛ سميت بذلك لأنها تقوم فى آخر ساعة من ساعات الدنيا ، مالبثوا : أى ماأقاموا بعد الموت ، غير ساعة : أى غير قطعة قليلة من الزمان ؛

يؤفكون : أى يصرفون عن الحق ، المعذرة : العذر ، يستعتبون : أى يطلب منهم إزالة عتب الله وغضبه عليهم بالتوبة والطاعة ، فقد حق عليهم العذاب ، يقال : استعتبنى فلان فأعتبته : أى استرضانى فأرضيته .

## المعنى الجملى

بعد أن ذكر فيما سلف بدء النشأة الأولى ، وذكر الإعادة والبعث ، وأقام عليه الأدلة فى شتى السور ؛ وضرب له الأمثال ـ أردف ذلك ذكر أحوال البعث وما يجرى فيه من الأفعال والأقوال من الأشقياء والسعداء ليكون فى ذلك عبرة لمن يذّكر .

## الإيضاح

( ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون مالبثوا غير ساعة ) أى ويوم تجئ ساعة البعث ، فيبعث الله الخلق من قبورهم ، يقسم المجرمون الذين كانوا يكفرون بالله فى الدنيا ، ويكتسبون فيها الآثام ، إنهم ماأقاموا فى قبورهم إلا قليلا من الزمان ، وهذا استقلال منهم لمدة لبثهم فى البرزخ على طولها ، وهم قد صُرِفوا فى الآخرة عن معرفة مدة مكثهم فى ذلك الحين .

( كذلك كانوا يؤفكون ) أى كذبوا فى قولهم مالبثنا غير ساعة ، كما كانوا فى الدنيا يحلفون على الكذب وهم يعلمون . والكلام مسوق للتعجب من اغترارهم بزينة الدنيا وزخرفها ، وتحقير مايتمتعون به من مباهجها ولذاتها ، كى يُقلعوا عن العناد ، ويرجعوا إلى سبل الرشاد ، وكأنه قيل : مثل ذلك الكذب العجيب كانوا يكذبون فى الدنيا اغتراراً بما هو قصير الأمد من اللذات ؛ وزخارف الحياة .

ثم ذكر توبيخ المؤمنين لهم وتهكمهم بهم :

( وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم فى كتاب الله إلى يوم البعث ) أى وقال

الذين أوتوا العلم بكتاب الله والإيمان بالله لأولئك المنكرين : لقد لبثتم من يوم مماتكم إلى يوم البعث فى قبوركم .

وفى هذا رد عليهم وعلى ماحلفوا عليه ، وإطلاع لهم على الحقيقة .

ثم وصلوا ذلك بتقريعهم على إنكار البعث بقولهم :

( فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لاتعلمون ) أى فهذا هو اليوم الذى أنكرتموه فى الدنيا ، وزعمتم أنه لن يكون لتفريطكم فى النظر وغفلتكم عن الأدلة المتظاهرة عليه .

ولما كانت الأدلة تترى على أن الدنيا دار عمل ، وأن الآخرة دار جزاء ، ذكر أن المعاذير لاتجدى فى هذا اليوم ، فلا يجابون إلى ماطلبوا من الرجوع إلى الدنيا ، لإصلاح مافسد من أعمالهم ، فقال :

(فيومئذ لاينفع الذين ظلموا معذرتهم ولا هم يستعتبون) أى ففى هذا اليوم لاتنفع هؤلاء المجرمين معاذيرهم عما فعلوا ، كقولهم : ماعلمنا أن هذا اليوم كائن ، ولا أنا نبعث فيه ، ولاهم يرجعون إلى الدنيا ليتوبوا ، لأن التوبة لاتقبل حينئذ فالوقت وقت جزاء لاوقت عمل ، وقد حقت عليهم كلمة ربهم « لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ »

والخلاصة : إنهم لايعاتبون على سيئاتهم ، بل يعاقبون عليها .

ونحو الآية قوله : « وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ » .

---

وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ (٥٨) كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٥٩) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ (٦٠) .

## المعنى الجملى

بعد أن ذكر من الأدلة على الوحدانية والبعث ماذكر ، وأعاد وكرر ، بشتى البراهين ، وبديع الأمثال ـ أردف ذلك أنه لم يبق بعد هذا زيادة لمستزيد ، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم قد أدى واجبه ، وأن من طلب شيئا بعد ذلك فهو معاند مكابر ، فإن من كذّب الدليل الواضح اللائح ، لايصعب عليه تكذيب غيره من الدلائل .

قد تُنكر العينُ ضوء الشمس من رمَدٍ ويُنكر الفمُ طعمَ الماء من سَقَمٍ

## الإيضاح

( ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل ) أى ولقد أوضحنا لهم الحق ، وضربنا لهم الأمثال الدالة على وحدانية الخالق الرازق ، وعلى البعث وصدق الرسول ، ليستبينوا الحق ويتبعوه ، لكنهم أعرضوا عن ذلك استكباراً وعنادا كما أشار إلى ذلك بقوله :

( ولئن جئتهم بآية ليقولن الذين كفروا إن أنتم إلا مبطلون ) أى والله لئن جئتهم بالآيات لايؤمنون بها ، بل يعتقدون أنها سحر مفترى ، وماهى إلا أساطير الأولين .

ونحو هذا قوله : « إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ » .

( كذلك يطبع الله على قلوب الذين لايعلمون ) أى كذلك يختم الله على قلوب الذين لايعلمون حقيقة ماتأتيهم به من العبرة والعظات ، والآيات البينات ، فلا يفقهون الأدلة ولايفهمون مايتلى عليهم من آى الكتاب لسوء استعدادهم ، ولما دسوا به أنفسهم من سوء القول والفعل ، فهم فى طغيانهم يعمهون .

ثم ختم السورة بأمر الرسول بالصبر على أذاهم ، وعدم الالتفات إلى عنادهم ، فقال:

( فاصبر إن وعد الله حق ) أى فاصبر أيها الرسول على ماينالك من أذى

المشركين ، وبلغهم رسالة ربك ، فإن وعده الذى وعدك من النصر عليهم والظفر بهم ، وتمكينك وتمكين أصحابك وأتباعك فى الأرض ـ حق لاشك فيه ، وليكونن لامحالة .

( ولا يستخفنك الذين لايوقنون ) أى ولا يحملنك الذين لايوقنون بالميعاد ولا يصدقون بالبعث بعد الممات ـ على الخفة والقلق ، فيثبطوك عن أمر الله والقيام بما كلفك به من تبليغ رسالته .

وفى هذا إرشاد لنبيه صلى الله عليه وسلم ، وتعليم له ، بأن يتلقى المكاره بصدر رحب ، وسعة حلم .

أخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر والحاكم والبيهقى أن رجلا من الخوارج نادى عليا وهو فى صلاة الفجر فقال : « وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ » فأجابه وهو فى الصلاة : « فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ » .

ولا عجب من صدور مثل هذا الجواب على البديهة من على كرم الله وجهه ، وهو مدينة العلم .

وصل ربنا على محمد وآله الكرام ، واجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه .

## خلاصة ما احتوت عليه السورة الكريمة من الموضوعات

(١) إثبات النبوة بالإخبار بالغيب .

(٢) البراهين الدالة على الوحدانية .

(٣) الاعتبار بما حدث للمكذبين من قبلهم .

(٤) الأدلة التى فى الآفاق شاهدة على وحدانية الله وعظيم قدرته .

(٥) الأدلة على صحة البعث .

(٦) ضرب الأمثال على أن الشركاء لا يجدونهم فتيلا ولا قطميرا يوم القيامة .

(٧) الأمر بعبادة الله وحده وهى الفطرة التى فطر الناس عليها .

(٨) النهى عن اتباع المشركين الذين فرقوا دينهم بحسب أهوائهم .

(٩) من طبيعة المشرك الإنابة إلى الله إذا مسه الضر، والإشراك به حين الرخاء.

(١٠) من دأب الناس الفرح بالنعمة والقنوط حين الشدة . إلا الذين آمنو وعملوا الصالحات .

(١١) الأمر بالتصدق على ذوى القربى والمساكين وابن السبيل .

(١٢) الدلائل التى وضعها سبحانه فى الأنفس شاهدة على وحدانيته .

(١٣) للخير والشر فائدة تعود إلى المرء يوم تجزى كل نفس بما كسبت .

(١٤) فى النظر فى آثار المكذبين عبرة لمن اعتبر .

(١٥) تسلية الرسول على عدم إيمان قومه بأنهم صم عمى لا يسمعون ولا يبصرون .

(١٦) بيان أن الكافرين يكذبون فى الآخرة كما كانوا يكذبون فى الدنيا .

(١٧) الإرشاد إلى أن الرسول قد بلغ الغاية فى الإعذار والإنذار ، وأن قومه قد بلغوا الغاية فى التكذيب والإنكار .

(١٨) أمره صلى الله عليه وسلم بإدامة التبليغ مهما لاقى من الأذى ، فإن العاقبة والنصر له ، والخذلان لمن كذب به .

# سورة لقمان

هى مكية إلا الآيات ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ فمدنية ، فإن النبى صلى الله عليه وسلم لما هاجر إلى المدينة قال له أحبار اليهود : بلغنا أنك تقول : « وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً » أعنيتنا أم قومك ؟ قال : كُلاًّ عَنَيْتُ ، فقالوا : إنك تعلم أننا أوتينا التوراة وفيها بيان كل شىء ، فقال عليه الصلاة والسلام ذلك فى علم الله قليل ، فأنزل الله هؤلاء الآيات .

وآيها أربع وثلاثون ، نزلت بعد الصافات .

وسبب نزولها أن قريشا سألت النبى صلى الله عليه وسلم عن قصة لقمان مع ابنه وعن برّه والديه ، فنزلت .

ومناسبتها لما قبلها من وجوه :

(١) إنه تعالى قال فى السورة السالفة : « وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ » وأشار إلى ذلك فى مفتتح هذه السورة :

(٢) إنه قال فى آخر ما قبلها : « وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ مُبْطِلُونَ » وقال فى هذه : « وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا » .

(٣) إنه قال فى السورة السابقة : «وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ » وقال هنا : « مَا خَلْقُكُمْ وَلاَ بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ » ، ففى كلتيهما إفادة سهولة البعث .

(٤) إنه ذكر هناك قوله : « وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ » ، وقال هنا : « وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ، فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ » فذكر فى كل من الآيتين قسما لم يذكره فى الآخر .

(٥) إنه ذكر فى السورة التى قبلها محاربة ملكين عظيمين لأجل الدنيا ، وذكر هنا قصة عبد مملوك زهد فيها ، وأوصى ابنه بالصبر والمسالمة ، وذلك يقتضى ترك المحاربة، وبين الأمرين التقابل وشاسع البون كما لا يخفى .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الم (١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (٢) هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ (٣) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥) .

## الايضاح

( الم ) تقدم تفسير هذا مرارا بإسهاب .

( تلك آيات الكتاب الحكيم ) أى هذه آيات الكتاب الحكيم بيانا وتفصيلا .

( هدى ورحمة للمحسنين . الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون ) أى هذه آيات الكتاب الهادى من الزيغ ، الشافى من الضلال ، لمن أحسنوا العمل ، واتبعوا الشريعة ، فأقاموا الصلاة على الوجه الأكمل ، الذى رسمه الدين فى أوقاتها ، وآتوا الزكاة المفروضة عليهم إلى مستحقيها ، وأيقنوا بالجزاء فى الدار الآخرة ، ورغبوا إلى الله فى ثواب ذلك ؛ لم يراءوا به ، ولا أرادوا به جزاء ولا شكوراً .

ولما كان المتصفون بهذه الخلال هم الغاية فى الهداية والفلاح قال :

( أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون ) أى إن هؤلاء الذين ذكرت أوصافهم على نور من ربهم ، وأولئك الذين رجوا ما أمّلوا من ثوابه يوم القيامة ، وقد تقدم مزيد إيضاح لهذا أول سورة البقرة .

---

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ، أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (٦) وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا .

وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِى أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٧) .

## تفسير المفردات

المراد بلهوالحديث : الجوارى المغنيات ، وكتب الأعاجم ، وقد اشتريت حقيقة . وقال ابن مسعود : لهو الحديث : الرجل يشترى جارية تغنيه ليلا ونهاراً ، وعن ابن عمر « أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فى لهو الحديث : إنما ذلك شراء الرجل اللعب والباطل » ، وسبيل الله : هو دينه ، والهزوُ : السخرية ، مهين : أى تلحقهم به الإهانة ، وقراً : أى صمما يمنعهم من السماع .

## المعنى الجملى

بعد أن بين حال السعداء الذين يهتدون بكتاب الله ، وينتفعون بسماعه ؛ وهم الذين قال الله فيهم : « اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ »ـ أردف ذلك ذكر حال الأشقياء الذين أعرضوا عن الانتفاع بسماع كلام الله ، وأقبلوا على استماع المزامير والغناء بالألحان وآلات الطرب .

روى عن ابن عباس أن الآية نزلت فى النضر بن الحارث اشترى قَيْنة ( مغنية ) وكان لايسمع بأحد يريد الإسلام ؛ إلا انطلق بها إليه ، فيقول : أطعميه واسقيه وغنيه ، ويقول : هذا خير مما يدعوك إليه محمد من الصلاة والصيام ، وأن تقاتل بين يديه .

وروى عن مقاتل أنه كان يخرج تاجراً إلى فارس ، فيشترى كتب الأعاجم فيرويها ويحدّث بها قريشاً ، ويقول لهم : إن محمداً يحدثكم حديث عاد وثمود ، وأنا أحدثكم

حديث رستم واسفِنْدِيار ، وأخبار الأكاسرة ، فيستملحون حديثه ويتركون سماع القرآن .

## الايضاح

( ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزواً ) أى ومن الناس فريق يتخذ ما يُتلهَّى به عن الحديث النافع للإنسان فى دينه، فيأتى بالخرافات والأساطير والمضاحيك وفضول الكلام ، كالنضر بن الحارث الذى كان يشترى الكتب ، ويحدّث بها الناس ، وربما اشترى الفتيات ، وأمرهن بمعاشرة من أسلم ، ليحملهم على ترك الإسلام ، ومامقصده من ذلك إلا الإضلال ، والصد عن دين الله وقراءة كتابه ، واتخاذه هزواً ولعبا .

وعن نافع قال « كنت أسير مع عبد الله بن عمر فى الطريق ، فسمع مِزْمارا ، فوضع أصبعيه فى أذنيه ، وعدل عن الطريق ، فلم يزل يقول : يانافع أتسمع ؟ قلت : لا ، فأخرج أصبعيه من أذنيه ، وقال : هكذا رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم صنع » . وعن ابن عوف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إنما نُهيت عن صوتين أحمقين فاجرين : صوت عند نغمة لهو ومزامير شيطان . وصوت عند مصيبةٍ خمش وجوه ، وشق جيوب ، ورنة شيطان » .

والخلاصة : إن سماع الغناء الذى يحرك النفوس ، ويبعثها على اللهو والمجون بكلام يشبب فيه بذكر النساء ، ووصف محاسنهن ، وذكر الخمور والمحرمات ، لاخلاف فى تحريمه ، أماماسلم من ذلك فيجوز القليل منه فى أوقات الفرح : كالعرس والعيد ، وحين التنشيط على الأعمال الشاقة ، كما كان فى حفر الخندق وحدوِ أَنْجَشَةَ ( عبد أسود كان يقود راحلة نساء النبى صلى الله عليه وسلم عام حجة الوداع ) فأما ماابتدعه الصوفية من الإدمان على سماع المغانى بالآلات المطربة من الشبابات والطار والمعازف والأوتار فحرام ، وأماطبل الحرب فلا حرج فيه ، لأنه يقيم النفوس ، ويُرْهب العدو ،

فقد ضُرب بين يدى النبى صلى الله عليه وسلم يوم دخل المدينة ، فهمَّ أبو بكر بالزجر ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « دعهن ياأبا بكر حتى تعلم اليهود أن ديننا فسيح » فكنّ يضربن و يقلن : نحن بنات النجار ، حبذا محمد من جار .

ولا بأس من استعمال الطبل والدف فى النكاح . وكذا الآلات المشهرة به والغناء بما يحسن من الكلام مما لا رفث فيه .

وسماع الغناء من المرأة التى ليست بمحْرَم لايجوز .

ثم بين عاقبة أمرهم ، فقال :

(أولئك لهم عذاب مهين) أى إنه كتب لهم العذاب والخزى يوم القيامة ، لأنهم لما أهانوا الحق باختيارهم الباطل - جوزوا بإهانتهم يوم الجزاء بعذاب يفضحهم و يخزيهم أمام الخلائق :

ثم أشار سبحانه إلى أن هذا داء قد استشرى فى نفسه ، فكلما تليت عليه آية ازداد إباء ونفورا ، فقال :

( و إذا تتلى عليه آياتنا ولّى مستكبرا كأن لم يسمعها كأن فى أذنيه وقرا ) أى و إذا تتلى آيات الكتاب الكريم على هذا الذى اشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله - يُعْرِض عن سماعها و يولّى مستكبرا ، كأن لم يسمعها ، كأن فى أذنيه ثقلا، فلا يصيخ لها ، ولا يأبه لتلقّفها وتأملها .

ونحو الآية قوله : « قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ فِى آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى » .

ولما تسبب عن ذلك استحقاقه لما يزيل كبره وعظمته قال :

( فبشره بعذاب أليم ) أى فبشر هذا المعْرِض وأوعده بالعذاب الذى يؤلمه و يقض مضجعه يوم القيامة .

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ (٨) خَالِدِينَ فِيهَا وَعْدَ اللهِ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٩).

## المعنى الجملى

بعد أن ذكر حال من أعرض عن الآيات وبيّن مآله ـ عطف على ذلك ذكر مآل مَن قَبِل تلك الآيات وأقبل على تلاوتها والانتفاع بها .

## الإيضاح

( إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات النعيم . خالدين فيها ) أى إن الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين ، وعملوا الأعمال الصالحة ، فأتوا بما أمرهم به ربهم فى كتابه على لسان رسله ، وانتهوا عما نهاهم عنه ـ لهم جنات ينعَمون فيها بأنواع اللذات والمسارّ من المآكل والمشارب ، والملابس والمراكب ، مما لم يخطر لأحدهم ببال ، وهم فيها مقيمون دائما لايظعنون ، ولا يبغون عنها حولا .

( وعد الله حقا ) أى ما أخبرنا به كائن لامحالة ، لأنه وعد الله الذى لايخلف وعده وهو الكريم المنّان على عباده .

( وهو العزيز الحكيم ) أى وهو الشديد فى انتقامه من أهل الشرك به ، الصادّين عن سبيله ، الحكيم فى تدبير خلقه ، فلا يفعل إلا ما فيه الحكمة والمصلحة لهم .

---

خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (١٠) هَذَا خَلْقُ اللهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (١١).

## تفسير المفردات

العمد : واحدها عماد ، وهو ما يُعْمَد به أى يسند به ، تقول : عَمَدتُ الحائطَ إذا دعمتَه ، رواسى : أى جبالا ثوابت ، تميد : أى تضطرب ، والبثّ : الإثارة والتفريق كما قال : « كالْفَرَاشِ المَبْثُوثِ » والمراد الإيجاد والإظهار : وزوج : أى صِنْف ، كريم : أى شريف كثير المنفعة .

## المعنى الجملى

بعد أن أبان فيما سلف كمال قدرته وعلمه وإتقان عمله ـــ أردف ذلك الاستشهاد لما سلف بخلق السموات والأرض وما بعده ، مع تقرير وحدانيته ، وإبطال أمر الشرك ، وتبكيت أهله .

## الإيضاح

( خلق السموات بغير عمد ترونها ) أى ومن الأدلة على قدرته البالغة ، وحكمته الظاهرة أنْ خلَق السموات السبع بغير عمد تستند إليه ، بل هى قائمة بقدرة الحكيم الفعال لما يشاء ، وقد تقدم تفصيل ذلك فى سورة الرعد .

( وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم ) أى وجعل على ظهر الأرض ثوابت الجبال ، لئلا تضطرب بكم ، وتميد بالمياه المحيطة بها ، الغامرة لأكثرها .

( وبث فيها من كل دابة ) أى وذرأ فيها من أصناف الحيوان ما لا يعلم عددها ومقادير أشكالها وألوانها إلا الذى فطرها .

( وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم ) أى وأنزلنا من السماء مطرا فكان ذلك سببا لإنبات كل صنف كريم من النبات ذى المنافع الكثيرة .

ثم بكتهم بأن هذه الأشياء العظيمة مما خلقه الله وأنشأه ، فأرونى ماذا خلقته آلهتكم حتى استوجبوا عندكم العبادة فقال :

( هذا خلق الله ) أى هذا الذى تشاهدونه من السموات والأرض وما فيهما من الخلق ـــ خلق الله وحده دون أن يكون له شريك فى ذلك .

( فأرونى ماذا خلق الذين من دونه ؟ ) أى فأخبرونى أيها المشركون الذين تعبدون هذه الأصنام والأوثان : أىّ شىء خلق الذين من دونه مما اتخذتموهم شركاء له سبحانه فى العبادة ، حتى استحقوا به العبودية ، كما استحق ذلك عليكم خالقكم وخالق هذه الأشياء التى عددتها لكم ؟ .

ثم انتقل من توبيخهم بما ذكر إلى تسجيل الضلال عليهم ، المستدعى للإعراض عنهم ، وعدم مخاطبتهم بالمعقول من القول لاستحالة أن يفهموا منه شيئا فيهتدوا إلى بطلان ماهم عليه ، فقال :

( بل الظالمون فى ضلال مبين ) أى بل المشركون بالله ، العابدون معه غيره ، فى جهل وعمى واضح لا اشتباه فيه لمن تأمله ونظر فيه ، فأنّى لهم أن يرغووا عن غىّ أو يهتدوا إلى رشد وحق ؟ .

---

وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ، وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (١٢) .

## تفسير المفردت

لقمان كان نجاراً أسود من سودان مصر ذا مشافر آتاه الله الحكمة ، ومنحه النبوة . والحكمة : العقل والفطنة ، وقد نسب إليه من المقالات الحكيمة شىء كثير ، كقوله لابنه : أى بُنَىّ إن الدنيا بحر عميق ، وقد غرق فيها ناس كثيرون ، فاجعل سفينتك فيها تقوى الله تعالى ، وحشوها الإيمان ، وشراعَها التوكل على الله ، لعلك تنجو ، ولا أراك ناجيا .

وقوله: من كان له من نفسه واعظ ، كان له من الله حافظ، ومن أنصف الناس من نفسه ، زاده الله بذلك عزا ، والذل فى طاعة الله ، أقرب من التعزز بالمعصية .

وقوله : يا بُنَىَّ لا تكن حلواً فتُبْتَلَع ، ولا مرًّا فتُلْفَظَ .

وقوله : يابنى إذا أردت أن تواخى رجلا فأغضِبْه قبل ذلك ، فإن أنصفك عند غضبه فآخه ، وإلا فاحذره .

والشكر : الثناء على الله تعالى ، وإصابة الحق ، وحب الخير للناس ، وتوجيه الأعضاء وجميع النعم لما خلقت له .

## المعنى الجملى

بعد أن بين فساد اعتقاد المشركين بإشراك من لا يخلق شيئا بمن خلق كل شىء ، ثم بين أن المشرك ظالم ضالّ — أعقب ذلك ببيان أن نعمه الظاهرة فى السموات والأرض ، والباطنة : من العلم والحكمة ترشد إلى وحدانيته ، وقد آتاها لبعض عباده كلقمان الذى فُطِر عليها دون نبىّ أرشده ، ولا رسول بُعِث إليه .

## الإيضاح

( ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله ) أى ولقد أعطى سبحانه لقمان الحكمة ، وهى شكره وحمده على ما آتاه من فضله بالثناء عليه بما هو أهل له ، وحب الخير للناس ، وتوجيه الأعضاء إلى ما خلقت له .

( ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه ) لأن الله يجزل له على شكره الثواب ، وينقذه من العذاب كما قال : « وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ » .

( ومن كفر فإن الله غنىّ حميد ) أى ومن كفر نعم الله عليه ، فإلى نفسه أساء ، لأن الله معاقبه على كفرانه إياها ، والله غنى عن شكره ، لأن شكره لا يزيد فى سلطانه ، وكفرانه لا ينقص من ملكه ، وهو المحمود على كل حال ، كفر العبد أو شكر .

---

وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣) وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ

وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (١٤) وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٥) يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (١٦) يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٧) وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (١٨) وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ (١٩).

## تفسير المفردات

العظة : تذكير بالخير يرقّ له القلب ، والوهن : الضعف ، والفصال : الفطام ، جاهداك : أى حرصا على متابعتك لهما فى الكفر ، أناب : أى رجع ، المثقال : ما يوزن به غيره ، ومثقال حبة الخردل مثل فى الصغر ، لطيف : أى يصل علمه إلى كل خفىّ ، خبير : أى عليم بكنه الأشياء وحقائقها ، من عزم الأمور : أى من الأمور المعزومة التى قطعها الله قطع إيجاب ، تصعير الخد : ميله وإبداء صفحة الوجه ، وهو من فعل المتكبرين ، قال أعرابى : وقد أقام الدهر صَعَرى بعد أن أقمت صعره ، وقال عمرو بن حُنَىّ التغلبى :

وكنا إذا الجبار صعّر خدّه أقمنا له من ميله فتقوّما

وفى الحديث : « يأتى على الناس زمان ليس فيهم إلا أصعر أو أبتر » والأصعر : المعرض بوجهه كبرا ، وفى الحديث « كل صعّار ملعون » أى كل ذى أبهة وكبر هو كذلك . مرحا : أى فرحا و بطراً ، والمختال : هو الذى يفعل الخيلاء وهى التبختر فى المشى كبراً ، والفخور : من الفخر وهو المباهاة بالمال والجاه ونحو ذلك ، اقصد : أى توسط ، اغضض : أى انقص منه وأقصر ، من قولهم : فلان يغُضّ من فلان إذا قصّر به ووضع منه وحط من قدره ، أنكر الأصوات : أى أقبحها وأصعبها على السمع من نكر ( بالضم ) نكارة ، أى صعب .

## المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه أن لقمان أوتى الحكمة ، فشكر ربه على نعمه المتظاهرة عليه وهو يرى آثارها فى الآفاق والأنفس آناء الليل وأطراف النهار - أردف ذلك ببيان أنه وعظ ابنه بذلك أيضا ، ثم استطرد فى أثناء هذه المواعظ إلى ذكر وصايا عامة وصّى بها سبحانه الأولاد فى معاملة الوالدين رعاية لحقوقهم ، وردّا لما أسدَوْه من جميل النعم إليهم ، وهم لا يستطيعون لأنفسهم ضرا ولا نفعا ، على ألا يتعدى ذلك إلى حقوقه تعالى، ثم رجع إلى ذكر بقية المواعظ التى يتعلق بعضها بحقوقه ، و بعضها يرجع إلى معاملة الناس بعضهم مع بعض .

## الإيضاح

( و إذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يابنىّ لاتشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم ) أى واذكر أيها الرسول الكريم موعظة لقمان لابنه ، وهو أشفق الناس عليه ، وأحبهم لديه حين أمره أن يعبد الله وحده ، ونهاه عن الشرك ، و بين له أنه ظلم عظيم ؛ أما كونه ظلما ، فلما فيه من وضع الشىء فى غير موضعه ، وأما أنه عظيم، فلما فيه من التسوية بين من لا نعمة إلا منه ، وهو سبحانه وتعالى ، ومن لا نعمة لها ، وهى الأصنام والأوثان .

روى البخارى عن ابن مسعود قال : لما نزل قوله تعالى : « الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ » شق ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقالوا : أيّنا لم يلبس إيمانه بظلم ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنه ليس بذلك . ألا تسمعون لقول لقمان : « يابنىّ لاتشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم » .

و بعد أن ذكر سبحانه ما أوصى به لقمان ابنه من شكر المنعم الأول الذى لم يَشْرَكه فى إيجاده أحد ، وذكر مافى الشرك من الشناعة أتبعه بوصيته الولد بالوالدين لكونهما السبب فى وجوده ، فقال :

( ووصينا الإنسان بوالديه ) أى وأمرناه ببرهما وطاعتهما ، والقيام بحقوقهما ، وكثيرا مايقرن القرآن بين طاعة الله و بر الوالدين كقوله : « وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا » .

ثم ذكر مِنّة الوالدة خاصة لما فيها من كبير المشقة ، فقال :

( حملته أمه وهنا على وهن ) أى حملته وهى فى ضعف يتزايد بازدياد ثقل الحمل إلى حين الطلق ، ثم مدة النفاس .

ثم أردفها ذكر منة أخرى ، وهى الشفقة عليه وحسن كفالته حين لايملك لنفسه شيئا ، فقال :

( وفصاله فى عامين ) أى وفطامه من الرضاع بعد وضعه فى عامين تقاسى فيهما الأم فى رضاعه وشئونه فى تلك الحِقْبة جمّ المصاعب والآلام التى لايقدر قدرها إلا العليم بها، ومن لاتخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء .

وقد وصى بالوالدين لكنه ذكر السبب فى جانب الأم فحسْبُ ، لأن المشقة التى تلحقها أعظم ، فقد حملته فى بطنها ثقيلا ، ثم وضعته ور بته ليلا ونهارا ، ومن ثم قال صلى الله عليه وسلم لمن سأله من أبرّ ؟ : أمك، ثم أمك، ثم أمك، ثم قال بعد ذلك : ثم أباك .

ثم فسر هذه الوصية بقوله :

( أن اشكر لى ولوالديك ) أى وعهدنا إليه أن اشكر لى على نعمى عليك ، ولوالديك ، لأنهما كانا السبب فى وجودك ، و إحسان تربيتك ، وملاقاتهما ما لاقيا من المشقة حتى استحكمت قواك .

ثم علل الأمر بشكره محذّراً إياه بقوله :

( إلىّ المصير) أى إلىّ الرجوع ، لا إلى غيرى ، فأجازيك على ما صدر منك مما يخالف أمرى ، وسائلك عما كان من شكرك لى على نعمى عليك ، وعلى ما كان من شكرك لوالديك و برّك بهما .

و بعد أن ذكر سبحانه وصيته بالوالدين وأكد حقهما ، ووجوب طاعتهما استثنى من ذلك حقوقه تعالى ، فإنه لا يجب طاعتهما فيما يغضبه ، فقال :

( وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما ) أى وإن ألحف عليك والداك فى الطلب ، وشدّدا النكير عليك ، بأن تشرك بى فى عبادتى غيرى مما لا تعلم أنه شريك لى ، فلا تطعهما فيما أمراك به ، و إن أدى الأمر إلى السيف فجاهدهما به .

روى أن هذه الآية نزلت فى سعد بن أبى وقاص قال : « لما أسلمتُ حلفت أمى لا تأكل طعاما ولا تشرب شرابا ، فناشدتها أول يوم فأبت وصبرت ، فلما كان اليوم الثانى ناشدتها فأبت ، فلما كان اليوم الثالث ناشدتها فأبت ، فقلت : والله لو كانت لك مائة نفس لخرجت قبل أن أودع دينى هذا ، فلما رأت ذلك وعرفتْ أنى لست فاعلا أكلت » .

( وصاحبهما فى الدنيا معروفا ) أى وصاحبهما فى أمور الدنيا صحبة يرتضيها الدين ، و يقتضيها الكرم والمروءة ، بإطعامهما وكسوتهما ، وعدم جفائهما وعيادتهما إذا مرضا ، ومواراتهما فى القبر إذا ماتا .

وقوله : ( فى الدنيا ) إشارة إلى تهوين أمر الصحبة ، لأنها فى أيام قلائل وشيكة الانقضاء ، فلا يصعب تحمل مشقتها .

ولما كان ذلك قد يجر إلى نوع وهن فى الدين ببعض محاباة فيه نفى ذلك بقوله :

( واتبع سبيل من أناب إلىّ ) أى واسلك سبيل من تاب من شركه ورجع إلى الإسلام ، واتبع محمداً صلى الله عليه وسلم .

والخلاصة : واتبع سبيلى بالتوحيد ، والإخلاص والطاعة ، لاسبيلهما .

( ثم إلىّ مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون ) أى ثم مصيركم إلىّ بعد مماتكم ، فأخبركم بما كنتم تعملون فى الدنيا من خير وشر ، ثم أجازيكم عليه ، المحسن منكم بإحسانه والمسىء بإساءته .

ثم عاد إلى ذكر بقية وصايا لقمان لابنه بعد أن نهى فى مطلعها عن الشرك وأكده بالاعتراض الذى ذكره بقوله :

( يابنىّ إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو فى السموات أو فى الأرض يأت بها الله ) أى يابنى إن الفعلة من الإساءة والإحسان إن تك وزن حبة من خردل فتكن فى أخفى مكان وأحرزه كجوف الصخرة أو فى أعلى مكان كالسموات أو فى أسفله كباطن الأرض ـ يحضرها الله يوم القيامة ، حين يضع الموازين القسط ، ويجازى عليها إن خيراً فخير ، وإن شرا فشر ، كما قال تعالى : « وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا » .

( إن الله لطيف خبير ) أى إن الله لطيف يصل علمه إلى كل خفى ، خبير : يعلم ظواهر الأمور وخوافيها .

( يابنىّ أقم الصلاة ) أى أدها كاملة على النحو المرضى ، لما فيها من رضا الرب بالإقبال عليه والإخبات له ، ولما فيها من النهى عن الفحشاء والمنكر ، وإذا تم ذلك صفت النفس وأنابت إلى بارئها فى السراء والضراء كما جاء فى الحديث : «أُعبد الله كأنك كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه ، فإنه يراك» .

وبعد أن أمره بتكميل نفسه توفية لحق الله عليه عطف على ذلك تكميله لغيره، فقال :

( وأمر بالمعروف ) أى وأمر غيرك بتهذيب نفسه قدر استطاعتك ، تزكية لها ، وسعياً إلى الفلاح ، كما قال : « قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا . وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا » .

( وانه عن المنكر ) أى وانه الناس عن معاصى الله ومحارمه التى توبق من اكتسبها ، وتلقى به فى عذاب السعير ، فى جهنم وبئس المصير .

( واصبر على ما أصابك ) من أذى الناس فى ذات الله إذا أنت أمرتهم بالمعروف أو نهيتهم عن المنكر .

وقد بدأ هذه الوصية بالصلاة ، وختمها بالصبر ، لأنهما عمادا الاستعانة إلى رضوان الله كما قال : « وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ » .

ثم ذكر علة ذلك ، فقال :

( إن ذلك من عزم الأمور ) أى إن ذلك الذى أوصيك به من الأمور التى جعلها الله محتومة على عباده لامحيص منها ، لما لها من جزيل الفوائد ، وعظيم المنافع ، فى الدنيا والآخرة ، كما دلت على ذلك تجارب الحياة ، وأرشدت إليه نصوص الدين .

وبعد أن أمره بأشياء حذره من أخرى ، فقال :

(١) ( ولا تصعّر خدك للناس ) أى ولا تُعْرِض بوجهك عمن تكلمه تكبراً واحتقاراً له ، بل أقبل عليه بوجهك كله متهللا مستبشراً من غير كبر ولا عتوّ .

ومن هذا ما رواه مالك عن ابن شهاب عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عيله وسلم قال : «لاتباغضوا ولا تدابروا ولا تحاسدوا ، وكونوا عباد الله إخوانا ، ولا يحل لمسلم أن يهجرُ أخاه فوق ثلاث » .

(٢) ( ولا تمش فى الأرض مرحا ) أى ولا تمش فى الأرض مختالا متبختراً ، لأن تلك مِشْية الجبارين المتكبرين الذين يبغون فى الأرض ، ويظلمون الناس ، بل امش هونا ، فإن ذلك يفضى إلى التواضع ، وبذا تصل إلى كل خير .

روى يحيى بن جابر الطائى عن غُضَيف بن الحارث قال : « جلست إلى عبد الله ابن عمرو بن العاصى ، فسمعته يقول : إن القبر يكلم العبد إذا وضع فيه ، فيقول : يابن آدم ما غرّك بى ؟ ألم تعلم أنى بيت الوحدة ؟ ألم تعلم أنى بيت الظلمة ؟ ألم تعلم أنى بيت الحق ؟ يابن آدم ماغرك بى ؟ لقد كنت تمشى حولى فدّادا ( ذا خيلاء وكبر ) » . وفى الحديث : « من جرّ ثوبه خيلاء لاينظر الله إليه يوم القيامة » .

ثم ذكر علة هذا النهى بقوله :

( إن الله لايحب كل مختال فخور ) أى إن الله لايحب المختال المعجَب بنفسه ، الفخور على غيره ، ونحو الآية مامر من قوله : « وَلاَ تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الجِبَالَ طُولاً » .

(٣) ( واقصد فى مشيك ) أى وامش مشيا مقتصدا ليس بالبطىء المتثبّط ، ولا بالسريع المفرِط ، بل امش هونا بلا تصنع ولا مراءاة للخلق ، بإظهار التواضع أو التكبر .

روى عن عائشة أنها نظرت إلى رجل كاد يموت تخافتاً ، فقالت : ما لهذا ؟ فقيل : إنه من القُرّاء ( الفقهاء العالمين بكتاب الله ) قالت : كان عمر سيّدَ القراء ، وكان إذا مشى أسرع ، وإذا قال أسمع ، وإذا ضرب أوجع .

ورأى عمر رجلا متماوتا ، فقال له : لا تُمِتْ علينا ديننا ، أماتك الله . ورأى رجلا مطأطئاً رأسه ، فقال له : « ارفع رأسك ، فإن الإسلام ليس بمريض » .

( واغضض من صوتك ) أى وانقص منه وأقصر ، ولا ترفع صوتك حيث لايكون إلى ذلك حاجة ، لأنه أوقر للمتكلم ، وأبسط لنفس السامع وفهمه .

ثم علل النهى وبيّنه بقوله :

( إن أنكر الأصوات لصوت الحمير ) أى إن أبشع الأصوات وأقبحها برفعها فوق

الحاجة بلا داع هو صوت الحمير ، .وغاية من يرفع صوته أنه يجعله شبيها بصوت الحمار فى علوه ورفعه ، وهو البغيض إلى الله .

وفى ذلك ما لا يخفى من الذم ، وتهجين رفع الصوت ، والترغيب عنه ، ومن جعل الرافع صوته كأنه حمار مبالغة فى التنفير من عمله ، وهذا أدب من الله لعباده بترك الصياح وجوه الناس تهاونا بهم ، أو بترك الصياح جملة .

وقد كانت العرب تفخر بجهارة الصوت ، فمن كان منهم أشد صوتا كان أعز ، ومن كان أخفض كان أذل ، قال شاعرهم :

جهير الكلام جهير العُطاس جهير الرواء جهير النّعَم
ويعدو على الأَيْنِ عدْوَ الظَّليم ويعلو الرجالَ بخُلْق عَمَم (١)

أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ، وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِى اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ (٢٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ (٢١) ؟

## المعنى الجملى

بعد أن أقام الأدلة على التوحيد ، وذكر أن لقمان فهمه بالحكمة دون أن يرسل إليه نبىّ — عاد إلى خطاب المشركين وتوبيخهم على إصرارهم على ماهم عليه من الشرك مع مشاهدتهم لدلائل التوحيد لائحةً للعيان ، يشاهدونها فى كل آن ، فى السموات والأرض ، وتسخيرهم لما فيها مما فيه مصالحهم فى المعاش والمعاد ، وإنعامه عليهم بالنعم المحسوسة والمعقولة ، المعروفة لهم وغير المعروفة ؛ ثم أبان أن كثيراً من الناس يجادلون

(١) الرواء بالضم : المنظر الحسن ، والنعم : الابل ، والأين : الإعياء . والخلق العمم : التام

فى توحيد الله وصفاته بدون دليل عقلى على ما يدّعون ، ولا رسول أرسل إليهم بما عنه يناضلون ، ولا كتاب أنزل إليهم يؤيد ما يعتقدون ، وإذا هم أُفْحِمُوا بالحجة والسلطان المبين ، لم يجدوا جوابا إلا تقليد الآباء والأجداد بنحو قولهم : « إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ » وما ذاك إلا من نزغات الشيطان ، والشيطان لايدعو إلا إلى الضلال الموصّل إلى النار ، وبئس القرار .

## الإيضاح

(ألم تروا أن الله سخر لكم مافى السموات ومافى الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ) أى ألم تروا أيها الناس أن الله الذى سخر لكم مافى السموات من شمس وقمر، ونجوم، تستضيئون بها ليلا ونهارا ، وتهتدون بها فى ظلمات البر والبحر ، وسحاب يُنزل لكم الأمطار لسقى الناس والحيوان والمزارع المختلفة ، ومافى الأرض من الدوابّ والأشجار ، والمياه والبحار ، والسفن والمعادن التى فى باطنها ، إلى نحو ذلك من المنافع التى جعلها لغذائكم وأقواتكم ، فتتمتعون ببعض ذلك ، وتنتفعون بجميع ذلك ، وأتمّ عليكم نعمه محسوسة وغير محسوسة .

والخلاصة : إنه تعالى نبّه خلقه إلى ما أنعم به عليهم فى الدنيا والآخرة ؛ بأن سخر لهم مافى السموات ومافى الأرض وأسبغ عليهم من النعم الظاهرة والباطنة ، فأرسل الرسل وأنزل الكتب وأزاح الشبه والعلل .

روى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لابن عباس وقد سأله عن هذه الآية : « الظاهرة : الإسلام وما حسن من خلُقك ، والباطنة : ما ستر عليك من سيئ عملك » وقيل : الظاهرة الصحة وكمال الخلق ، والباطنة : المعرفة والعقل ؛ وقيل : الظاهرة : ما يُرى بالأبصار من المال والجاه والجمال ، وتوفيق الطاعات ، والباطنة : ما يجده المرء فى نفسه من العلم بالله ، وحسن اليقين ، وما يُدْفع عن العبد من الآفات .

ثم ذكر أنه مع كل هذه الأدلة الظاهرة قد مارى بعض الناس دون برهان من عقل ولا مستند من نقل ، فقال :

( ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ) أى وهناك فريق من الناس يجادل فى توحيد الله وصفاته كالنضر بن الحارث وأبىّ بن خَلَف اللذين كانا يجادلان النبى صلى الله عليه وسلم فى ذلك بلا علم من عقل ، ولا مستند من حجة صحيحة ، ولا كتاب مأثور يؤيد صحة ما يدّعون .

ثم بين أنه لامطمع فى إيمان مثل هؤلاء ، لأنهم قد بلغوا الغاية فى الغباوة ، واستسلموا للتقليد ، وتركوا الدليل و إن كان لائحا ظاهراً ، فقال :

( و إذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا ) أى و إذا قيل لهؤلاء المجادلين الجاحدين لوحدانية الله: اتبعوا ما أنزل الله على رسوله من الشرائع ـ لم يجدوا ردا لذلك إلا قولهم : إنا نتبع ما وجدنا عليه آباءنا من دين ، فإنهم كانوا أهل حق ودين صحيح .

فو بخهم سبحانه على تلك المقالة التى هى من حبائل الشيطان ووساوسه فقال :

( أو لو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير ؟ ) أى أيتبعونهم على كل حال دون نظر إلى دليل ؟ فربما كان اعتقادهم مبنيا على الهوى وترّهات الأباطيل ، سدَاه ولُحمته ما زينه لهم الشيطان من وساوس ، لاتستند إلى حجة ولا برهان .

والخلاصة ـــ أما كان لهم أن يفكروا و يتدبروا حتى يعلموا الحق من الباطل ، والصواب من الخطأ ، فإن الرجال بالحق وليس الحق بالرجال ؟

وفى هذا ما لايخفى من تسفيه عقولهم وتسخيف آرائهم ، وأنهم بلغوا الدَّرْك الأسفل فى هدم العقل، وعدم الركون إلى الدليل مهما استبانت غايته ، واستقامت محجته.

وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَإِلَى اللهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (٢٢) وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٢٣) نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ (٢٤).

## تفسير المفردات

يسلم وجهه : أى يفوّض أمره ، محسن : أى مطيع لله فى أمره ونهيه ، والمراد بالعروة الوثقى ، أوثق العرى وأمتنها ، وهو مثل : وأصله أن من يرقى فى جبل شاهق أو يتدلى منه يستمسك بحبل متين مأمون الانقطاع ، نضطرهم : أى نلزمهم ، وغليظ : أى ثقيل ثقل الأجرام الغلاظ .

## المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه حال المشرك المجادل فى الله بغير علم - أردف ذلك ذكر حال المستسلم المفوّض أموره إلى الله ، و بيان عاقبته ومآله ، ثم سلى رسوله على مايلقاه من المشركين من العناد والكفران ، و بين له أنه قد بلّغ رسالات ربه وتلك وظيفة الرسل ، وعلى الله الحساب والجزاء ، فهو يجازيهم بما يستحقون من العذاب الغليظ فى جهنم و بئس المصير .

## الايضاح

(ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى) أى ومن يعبد الله وهو متذلل خاضع مع الإحسان فى العمل بفعل الطاعات ، وترك المعاصى والمنكرات ، فقد تعلق بأوثق الأسباب التى توصل إلى رضوان ربه ومحبته ، وحسن جزائه على ما قدم من عمل صالح .

ثم بين العلة فى أنه يلقى الجزاء الأوفى فقال :

( و إلى الله عاقبة الأمور ) أى إن المصير إلى الله لا إلى غيره ، فلا يكونن لأحد إذ ذاك أمر ولا نهى ، ولا عقاب ولا ثواب ، فيجازى المتوكل عليه أحسن الجزاء ، ويعاقب المسىء أنكل العذاب .

ثم سلى رسوله على ما يلقاه من أذى المشركين وعنادهم فقال :

( ومن كفر فلا يحزنك كفره ) أى لاتحزن على كفرهم بالله و بما جئت به ، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات ، فإن قدر الله نافذ فيهم .

ثم بين لرسوله أنه لايهملهم على أعمالهم بل هو مجازيهم عليها فقال :

( إلينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا ) أى إن مصيرهم يوم القيامة إلينا فنخبرهم بما عملوا فى الدنيا من خبيث الأعمال حتى لايكون هناك سبيل إلى الإنكار ثم نجازيهم على ذلك أشد الجزاء .

ثم بين أنه عادل فى الجزاء لسعة علمه وعظيم إحاطته بكل شىء فقال :

( إن الله عليم بذات الصدور ) أى إنه تعالى يجازيهم بكل ما عملوا ، إذ لاتخفى عليه خافية .

ثم بين أن ما يتمتعون به فى الدنيا عرض قليل وظل زائل لاينبغى لعاقل أن يقيم له وزنا بجانب العذاب الدائم فقال :

( نمتعهم قليلا ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ ) أى نمهلهم فى الدنيا زمنا قليلا يتمتعون فيه بزخارفها ثم نلجئهم على كره منهم إلى عذاب شاقّ على نفوسهم .

ونحو الآية قوله : « قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ . مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ » .

وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللّٰهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلّٰهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٢٥) لِلّٰهِ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللّٰهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٢٦).

## المعنى الجملى

بعد أن أقام الأدلة على وحدانيته تعالى بخلق السموات بلا عمد وبإسباغ نعمه الظاهرة والباطنة عليهم ـ أردف ذلك ببيان أن المشركين معترفون بذلك غيرجاحدين له، وهذا يستدعى أن يكون الحمد كله له وحده، ومن يستحق الحمد هوالذى يستحق العبادة فأمرهم عجب يعلمون المقدمات ثم ينكرون النتيجة التى تستتبعها، فيعبدون من لا يستحق عبادة، ولا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا من الأصنام والأوثان.

## الإيضاح

( ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله ) أى ولئن سألت أيها الرسول هؤلاء المشركين بالله من قومك : من خلق السموات والأرض ؟ ليقولن الله .

وفى هذا إيماء إلى أنه قدبلغ من الوضوح مبلغا لا يستطيعون معه الإنكار والجحود.

ولما استبان بذلك صدقه صلى الله عليه وسلم وكذبهم قال آمرا رسوله .

( قل الحمد لله ) على إلجائهم إلى الاعتراف بما يوجب بطلان ماهم عليه من إشراك غيره تعالى به فى العبادة التى لا يستحقها سوى الخالق المنعم على عباده .

ثم بين أنهم بلغوا الغاية فى الجهل فهم يعترفون بالشى ويعملون نقيضه فقال :

( بل أكثرهم لا يعلمون ) أى بل أكثر المشركين لا يعلمون من له الحمد، وأين موضع الشكر، فهم مع تكذيبك يعترفون بما يوجب تصديقك .

ولما أثبت لنفسه الإحاطة بأوصاف الكمال استدل على ذلك بقوله :

(لله مافى السموات والأرض ، إن الله هو الغنى الحميد) أى له سبحانه كل مافى السموات والأرض ملكا وخلقا وتصرفا وليس ذلك لأحد سواه ، فلا يستحق العبادة فيهما غيره ، وهو الغنى عن عبادة جميع خلقه ، لأنهم ملكه وهم المحتاجون إليه المحمود على نعمه التى أنعمها عليهم .

---

وَلَوْ أَنَّ مَافِى الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٧) مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٢٨) .

## المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أنه أجرى الحكمة على لسان لقمان ، ثم قفى على ذلك ببيان أنه أسبغ نعمه على عباده ظاهرة وباطنة ، وأن له مافى السموات وما فى الأرض ـ أردف ذلك ببيان أن تلك النعم وهذه المخلوقات لاحصر لها ، ولا يعلمها إلا خالقها كما قال : « وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا » .

ولما كانت تلك النعم لانهاية لها ، وربما ظن أنها مبعثرة لاقانون لها ، أوأنها لكثرتها يصعب عليه تدبيرها وتصريف شئونها كما يريد ـ دفع هذا بقوله : (ماخلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة) .

روى أنه لما نزل بمكة قوله تعالى : « وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ » الآية وهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة أتاه أحبار اليهود وقالوا بلغنا أنك تقول : « وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا » أتعنينا أم تعنى قومك ؟ قال : كلًّا عنيت : قالوا ألست تتلو فيما جاءك أنا أوتينا التوراة فيها علم كل شىء ، فقال صلى الله عليه وسلم هى فى علم الله قليل ، وقد أتاكم ما إن عملتم به انتفعتم ، قالوا كيف تزعم هذا وأنت

تقول : « وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا » فكيف يجتمع علم قليل وخير كثير ، فنزلت الآية : ( ولو أن مافى الأرض من شجرة أقلام ) الخ .

## الإيضاح

( ولو أن مافى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله ) أى ولو أن أفنان الأشجار وأغصانها بُريت أقلاما وجُعل البحرُ مدادا وأمدته سبعة أبحر والخلائق جميعا يكتبون بها كلمات الله الدالة على عظمته وجلاله لتكسرت الأقلام ونفد ماء البحر ولم تنفد كلمات الله :

ونحو الآية قوله « قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا » وإنما ذكرت السبعة الأبحر للدلالة على الكثرة ، لا لقصد هذا العدد بعينه ، فقد تقدم أن قلنا آنفا إن العرب تذكر السبعة والسبعين ، والسبعمائة ، وتريد بذلك الكثرة كما جاء فى الحديث « سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لاظل إلا ظله » وفى الآية : «مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ » .

وقصارى ذلك : إنه سبحانه أخبر أن عظمته وكبرياءه وجلاله وأسماءه الحسنى لا يحيط بها أحد ، ولا يصل البشر إلى معرفة كنهها وعدها كما ورد فى الحديث : « سبحانك لانحصى ثناء عليكَ أنت كما أثنيت على نفسك » .

( إن الله عزيز حكيم ) أى إن الله قد عز كل شىء وقهره ، فلا مانع لما أراد ، ولا معقّب لحكمه ، وهو الحكيم فى خلقه وأمره ، وأقواله وأفعاله ، وشرعه وجميع شئونه .

ثم أبان أن هذا الخلق الذى لاحصر له محيط به علما ، ولا يعجزه شىء فيه متى أراد ، فقال :

( ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة ) أى ما خَلْق جميع الناس ولا بعثهم

يوم المعاد بالنسبة إلى قدرته إلا كخلق نفس واحدة ، فالكل هين عليه كما قال : إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » وقال «وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ » ، وقال « فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ . فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ » .

( إن الله سميع بصير ) أى إن الله سميع لأقوال عباده ، بصير بأفعالهم .

---

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٩) ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٣٠) أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣١) وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ (٣٢) .

## تفسير المفردات

يولج : أى يُدْخِل ، والمراد أنه يضيف الليل إلى النهار ، والعكس بالعكس ، فيتفاوت بذلك حال أحدهما زيادة ونقصانا ، تجرى أى تسير سيرا سريعا ، بنعمة الله أى بما تحمله من الطعام والمتاع ونحوهما ، غشيهم : أى غطاهم ، والظلل : واحدها ظلة ، وهى كما قال الراغب : السحابة تُظِلُّ ، مقتصد : أى سالك للقصد أى للطريق المستقيم وهو التوحيد لا يعدل عنه إلى غيره ، وما يجحد : أى ما ينكر ، وختار : من الختْر ، وهو أشد الغدر ، قال عمرو بن معد يكرب :

فإنك لو رأيت أبا عُمير ... ملأت يديك من غَدْروخَتْر

وقال الأعشى :

بالأبلق الفرد من تَيْمَاء مَنْزِلُهُ حصنٌ حصينٌ وجارٌ غير ختّار

## المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أنه سخر للانسان مافى السموات ومافى الأرض ـ ذكر هنا بعض مافيهما بقوله يولج الليل فى النهار الخ ، و بعض مافى السموات بقوله وسخر الشمس والقمر ، و بعض مافى الأرض بقوله ألم تر أن الفلك تجرى فى البحر بنعمة الله ، ثم ذكر أن كل المشركين معترفون بتلك الآيات ، إلا أن البصير يدركها على الفور ، ومن فى بصيرته ضعف لا يدركها إلا إذا وقع فى شدة ، وأحدق به الخطر ، فهو إذ ذاك يعترف بأن كل شىء بإرادة الله .

## الايضاح

(ألم تر أن الله يولج الليل فى النهار و يولج النهار فى الليل) أى ألم تشاهد أيها الناظر بعينيك أن الله يزيد ما نقص من ساعات الليل فى ساعات النهار ، و يزيد ما نقص من ساعات النهار فى ساعات الليل .

والخلاصة : إنه يأخذ من الليل فى النهار ، فيقصر ذاك و يطول هذا ، وذاك فى مدة الصيف ، إذ يطول النهار إلى الغاية ، ثم يبتدئ النهار فى النقصان ، و يطول الليل إلى الغاية فى مدة الشتاء .

(وسخر الشمس والقمر) لمصالح خلقه ومنافعهم .

(كل يجرى إلى أجل مسمى) أى كل منهما يجرى بأمره إلى وقت معلوم ، وأجل محدد ، إذا بلغه كوّرت الشمس والقمر .

(وأن الله بما تعملون خبير) أى وأن الله بأعمالكم من خير وشر خبير بها لا تخفى عليه خافية من أمرها ، وهو مجازيكم بها .

ثم بين الحكمة فى إظهار آياته للناس ، فقال :

( ذلك بأن الله هو الحق وأن مايدعون من دونه الباطل ) أى إنما يُظْهِر آياته للناس ليستدلوا بها على أنه هو المستحق للعبادة ، وأن كل ماسواه هو الباطل الذى يضمحلّ و يفنى ، فهو الغنى عما سواه ، وكل شىء فقير إليه .

( وأن الله هو العلى الكبير ) أى وأنه تعالى المرتفع على كل شىء ، والمتسلط على كل شىء ، فكل شىء خاضع له ، وهو الحكم العدل اللطيف الخبير .

و بعد أن ذكر الآيات السماوية الدالة على وحدانيته أشار إلى آية أرضية ، فقال :

( ألم تر أن الفلك تجرى فى البحر بنعمة الله ليريكم من آياته ) أى ألم تشاهد أيها الرسول السفنَ وهى تسير فى البحر حاملة للأقوات والمتاع ، من بلد إلى آخر ، ومن قطر إلى قطر هو فى حاجة إليها لينتفع الناس بما على ظاهر الأرض مما ليس فى أيديهم .

وفى هذا دليل على عجيب قدرته التى ترشدكم إلى أنه الحق الذى أوجد ما ترون من الأحمال الثقيلة على وجه الماء الذى ترسب فيه الإبرة فما دونها .

ثم ذكر من يستفيد من النظر فى الآيات ، فقال :

( إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور ) أى إن فيما ذكر لدلائل واضحات لكل صبار فى الضراء ، شكور فى الرخاء . قال الشعبى : الصبر نصف الإيمان ، والشكر نصف الإيمان ، واليقين الإيمان كله ، ألم تر إلى قوله : « إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ » . وقوله : « وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ » . وقال عليه الصلاة والسلام : « الإيمان نصفان : نصف صبر ، ونصف شكر » .

ثم بين أن المشركين ينسَوْن الله فى السراء و يلجئون إليه حين الضراء ، فقال :

( و إذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين ) أى و إذا أحاطت بالمشركين الذين يدعون من دون الله الآلهة والأوثان ــ الأمواجُ العالية كالجبال ، وأحدق بهم الخطر من كل جانب حين يركبون السفن ــ فزعوا بالدعاء إلى الله مخلصين له الطاعة لايشركون به شيئا ، ولا يدعون معه أحدا سواه ، ولا يستغيثون بغيره .

(فلما نجاهم إلى البر فنهم مقتصد وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار كفور) أى فلما نجوا من الأهوال التى كانوا فيها ، وخلصوا إلى البر ، فنهم متوسط فى أقواله وأفعاله بين الخوف والرجاء ، موف بما عاهد عليه الله فى البحر ، ومنهم من غدر ونقض عهد الفطرة ، وكفر بأنعم الله عليه .

---

يَٰأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِى وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (٣٣) إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (٣٤) .

## تفسير المفردات

اتقوا ربكم : أى خافوا عقابه ، لايجزى : أى لايغنى ، والغرور : ما غرّ الإنسان من مال وجاه ، وشهوة وشيطان ، والساعة : يوم القيامة ، مافى الأرحام : أى مافى أرحام النساء من صفاته وأحواله كالذكورة والأنوثة ، والحياة والموت ، وغيرها من الأعراض .

## المعنى الجملى

بعد أن ذكر دلائل التوحيد على ضروب مختلفة ، وأشكال منوّعة ــ أمر بتقوى الله على سبيل الموعظة والتذكير بيوم عظيم ، يوم يحكم الله بين عباده ، يوم لاتنفع فيه قرابة، ولا تُجْدِى فيه صلة رحم ، فلو أراد والد أن يَفْدِى ابنه بنفسه لما قُبِل منه ذلك، وهكذا الابن مع أبيه ، فلا تلهينكم الدنيا عن الدار الآخرة ، ولا يغرنكم الشيطان

فيزينن لكم بوسواسه المعاصى والآثام . ثم ختم السورة بذكر ما استأثر الله بعلمه ، مما فى الكائنات ، وهى الخمس التى اشتملت عليها الآية الكريمة ، مما لم يؤت علمها ملك مقرّب، ولا نبى مرسل .

## الايضاح

( يأيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوما لايجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئا ) أى يأيها المشركون من قريش وغيرهم ، اتقوا الله وخافوا أن يحل بكم سخطه فى يوم لايغنى والد عن ولده ، ولا مولود هو مغنٍ عن والده شيئا ، لأن الأمور كلها بيد من لايغالَب ، ومن لاتنفع عنده الشفاعة والوسائل التى تنفع فى الدنيا ، بل لاتجدى عنده إلا وسيلة واحدة ، هى العمل الصالح الذى قدمه المرء فى حياته الأولى .

ثم أكد ماسلف بقوله :

( إن وعد الله حق ) أى اعلموا أن مجىء هذا اليوم حق ، لأن الله قد وعد به ، ولا خُلْفَ لوعده .

ثم حذرهم من شيئين ، فقال :

(١) ( فلاتغرنكم الحياة الدنيا ) أى فلا تخدعنّكم زينة هذه الحياة ولذاتها، فتميلوا إليها وتدَعوا الاستعداد لما فيه خلاصكم من عقاب الله فى ذلك اليوم .

(٢) ( ولا يغرنكم بالله الغرور ) أى ولا يغرنكم الشيطان ، فيحملنّكم على المعاصى بتزيينها لكم ، ثم إرجاء التوبة إلى ما بعد ذلك ، ثم هو ينسينكم ذلك اليوم ، فلا تتخذنّ له زادا ، ولا تعدّنّه معادا .

ثم ذكر سبحانه خمسة أشياء لايعلمها إلا هو ، فقال :

(١) ( إن الله عنده علم الساعة ) فلا يعلمها أحد سواه ؛ لاملَك مقرّب ، ولا نبى مرسل ، كما قال : « لاَيُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إلاَّ هُوَ » .

(٢) ( وينزل الغيث ) فى وقته المقدر له ، ومكانه المعين فى علمه تعالى ، والفلكيون وإن علموا الخسوف والكسوف ، ونزول الأمطار بالأدلة الحسابية ،

فليس ذلك غيبا ، بل بأمارات وأدلة تدخل فى مقدور الإنسان ، ولا سيما أن بعضها قد يكون أحيانا فى مرتبة الظن ، لافى مرتبة اليقين .

(٣) ( ويعلم ما فى الأرحام ) أذكر هو أم أنثى ، أتامّ الخلق أم ناقصه ، أو نحو ذلك من الأحوال العارضة له .

(٤) ( وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا ) من خير أو شر .

(٥) ( وما تدرى نفس بأىّ أرض تموت ) أى لايدرى أحد أين مضجعه من الأرض ؟ أفى بحر أم فى برّ ، أم فى سهل ، أم فى جبل .

( إن الله عليم خبير ) أى إن الله عليم بجميع الأشياء ، خبير ببواطنها كما هو خبير بظواهرها .

أخرج ابن المنذر عن عكرمة « أن رجلا يقال له : الوارث بن عمرو بن حارثة جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يامحمد متى قيام الساعة ، وقد أجدبت بلادنا ، فمتى تخصب؟ وقد تركت امرأتى حبلى فما تلد ؟ وقدعلمتُ ما كسبت اليوم فماذا أكسب غدا ؟ وقد علمتُ بأى أرض ولدت ، فبأى أرض أموت ، فنزلت الآية : إن الله عنده علم الساعة الخ » .

وروى البخارى ومسلم عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « مفاتيح الغيب خمس : إن الله عنده علم الساعة ، وينزل الغيث ، ويعلم مافى الأرحام وماتدرى نفس ماذا تكسب غدا، وما تدرى نفس بأى أرض تموت إن الله عليم خبير» .
وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه .

## مجمل ماحوته السورة الكريمة من الموضوعات

( ١ ) القرآن هداية ورحمة للمؤمنين .

( ٢ ) قصص من ضل عن سبيل الله بغير علم ، واتخذ آيات الله هزوا .

( ٣ ) وصف العالم العلوى ، والعالم السفلى ، وما فيهما من العجائب الدالة على وحدانية الله .

( ٤ ) قصص لقمان و إيتاؤه الحكمة ، وشكره لربه على ذلك ، ثم نصائحه لابنه .

( ٥ ) الأمر بطاعة الوالدين إلا فيما لا يرضى الخالق .

( ٦ ) النعى على المشركين فى ركونهم إلى التقليد إذا دعوا إلى النظر فى الكون وعبادة الخالق له .

( ٧ ) لا نجاة للإنسان إلا بالإخبات لله وعمل الصالحات .

( ٨ ) تسلية الرسول على عدم إيمان المشركين .

( ٩ ) تعجيب رسوله من المشركين بأنهم يقرون بأن الله هو الخالق لكل شىء ثم هم يعبدون معه غيره ممن هو مخلوق مثلهم .

(١٠) نعم الله ومخلوقاته لاحصر لها .

(١١) الأمر بالنظر إلى الكون وعجائبه لنسترشد بذلك إلى وحدانية الصانع لها.

(١٢) تحميق المشركين بأنهم فى الشدائد يدعون الله وحده، وفى الرخاء يشركون معه سواه .

(١٣) الأمر بالخوف من عقاب الله يوم لا يجزى والد عن ولده .

(١٤) مفاتيح الغيب الخمسة التى استأثر الله بعلمها .

(١٥) إحاطة علمه تعالى بجميع الكائنات ظاهرها و باطنها .

# سورة السجدة

هى مكية إلا من آية ١٦ إلى آية عشرين فمدنية .

وآيها ثلاثون ، نزلت بعد سورة ( المؤمنين ) .

ووجه اتصالها بما قبلها من وجوه :

(١) اشتمال كل منهما على دلائل الألوهية .

(٢) إنه ذكر فى السورة السالفة دلائل التوحيد ، وهو الأصل الأول ، ثم ذكر المعاد ، وهو الأصل الثانى ، وهنا ذكر الأصل الثالث ، وهو النبوة .

(٣) إن هذه السورة شرحت مفاتح الغيب التى ذكرت فى خاتمة ما قبلها ، فقوله : « ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ » شرح لقوله : « إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ » وقوله : « أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ » شرح لقوله : « وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ » وقوله : « الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ » . تفصيل لقوله : « وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ » وقوله : « يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ » إيضاح لقوله : « وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا » وقوله : « أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ الخ» شرح لقوله : « وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ » .

---

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الم (١) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ، بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣)

# الايضاح

( الم ) تقدم الكلام فى مثل هذا من قبل ، فى معناه ، وكيفية النطق به .

( تنزيل الكتاب لاريب فيه من رب العالمين ) أى إن هذا القرآن الذى أنزل على محمد لاشك أنه من عند الله ، وليس بشعر ، ولا سجع كاهن ، ولا هو مما تخرّصه محمد صلى الله عليه وسلم .

وفى هذا تكذيب لقولهم : « وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً » .

ثم فنّد تكذيبهم له ، وأكد أنه من لدن رب العالمين ، فقال :

( أم يقولون افتراه ، بل هو الحق من ربك لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يهتدون ) أى بل هو الحق والصدق من عند ربك أنزله إليك ، لتنذر قومك بأس الله وسطوته أن تحل بهم على كفرهم به ، وإنه لم يأتهم نذير من قبلك ، ليبين لهم سبيل الرشاد ، وأن محمدا لم يختلقه كما يزعمون .

وفى هذا ردّ لقولهم : « إِنْ هٰذَا إِلاَّ إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ » .

---

اللهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ، مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ ، أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (٤) يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (٥) ذَٰلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٦) الَّذِى أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ (٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (٨) ثُمَّ

سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ (٩) .

## المعنى الجملى

بعد أن أثبت سبحانه صحة الرسالة ــ بيّن ما يجب على الرسول من الدعاء إلى توحيد الله ، وإقامة الأدلة على ذلك .

## الإيضاح

( الله الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ) أى الله سبحانه هو الخالق للسموات والأرض وما بينهما فى ستة أطوار فى نظر الناظرين إليها ، وليس المراد اليوم المعروف ، لأنه قبل خلق السموات لم يكن ليل ولا نهار ، وقد تقدم تفصيل ذلك فى سورة الفرقان .

( ثم استوى على العرش ) تقدم بيان هذا فى سورة يونس وهود وطه .

( مالكم من دونه من ولى ولا شفيع ) أى ليس لكم أيها الناس من يلى أموركم ، وينصركم منه إن أراد بكم ضرا ، ولا يشفع لكم عنده إن هو عاقبكم على معصيتكم إياه .

والخلاصة : فإياه فاتخذوه وليّا ، وبه وبطاعته فاستعينوا على أموركم، فإنه يمنعكم ممن أرادكم بسوء ، ولا يقدر أحد على دفع السوء عنكم ، إذا هو أراد وقوعه بكم ، لأنه لا يقهره قاهر ، ولا يغلبه غالب .

ثم أمرهم بالتذكر والتدبر فى الأدلة ، فقال :

( أفلا تتذكرون ؟ ) أى أفلا تعتبرون وتتفكرون أيها العابدون غيره ، المتوكلون على من عداه ، تعالى الله وتقدس أن يكون له نظير أو شريك ، لا إله إلا هو ، ولا رب سواه .

( يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه ) تدبير الأمر : النظر فى دابره وعاقبته ليجىء محمود المغبَّة ، وتدبير الأمر من السماء إلى الأرض ، ثم عروجه إليه ، تمثيل لإظهار عظمته ، كما يُصْدِرُ الملك أوامره ، ثم يتلقى من أعوانه ما يدل على تنفيذها.

( فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون ) أى يدبر أمر الدنيا إلى أن تقوم الساعة ، ثم يصير الأمر كله إليه ، ليحكم فيه فى يوم مقداره ألف سنة مما كنا نعده فى هذه الحياة .

والمراد بالألف الزمن المتطاول ، وليس المقصد منه حقيقة العدد ، إذ هو عند العرب منتهى المراتب العددية ، وأقصى غاياتها ، وليس هناك مرتبة فوقه إلا ما يتفرع منه من أعداد مراتبها .

قال القرطبى : المعنى إن الله تعالى جعله فى صعوبته على الكفار كخمسين ألف سنة قاله ابن عباس ، والعرب تصف أيام المكروه بالطول ، وأيام السرور بالقصر ، قال شاعرهم :

ويوم كظلِّ الرمح قصّر طوله دمُ الزقِّ عنا واصطفاقُ المزاهر اهـ

( ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم . الذى أحسن كل شىء خلقه ) أى ذلك المدبر لهذه الأمور ، هو العالم بما يغيب عن أبصاركم ، مما تُكِنُّه الصدور وتخفيه النفوس ، وما لم يكن بعدُ مما هو كائن ، وبما شاهدته الأبصار وعاينته ، وهو الشديد فى انتقامه ممن كفر به ، وأشرك معه غيره ، وكذب رسله ، وهو الرحيم بمن تاب من ضلالته ، ورجع إلى الإيمان به وبرسوله ، وعمل صالحا ، وهو الذى أحسن خلق الأشياء وأحكمها .

ولما ذكر خلق السموات والأرض شرع يذكر خلق الإنسان ، فقال :

( وبدأ خلق الإنسان من طين ) أى وبدأ خلق آدم أبى البشر من الطين ، وقد يكون

المعنى إن الطين ماء وتراب مجتمعان ، والآدمى أصله منىّ ، والمنىّ من الغذاء والأغذية إما حيوانية ، وإما نباتية ، والحيوانية ترجع إلى النباتية ، والنبات وجوده بالماء والتراب وهو الطين.

( ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ) أى ثم جعل ذريته يتناسلون كذلك من نطفة تخرج من بين الصلب والترائب فى كل من الرجل والمرأة كما دل على ذلك علم الأجنة ، وسيأتى إيضاح هذا عند قوله تعالى : ( يخرج من بين الصلب والترائب )

( ثم سواه ونفخ فيه من روحه ) أى ثم عدّله بتكميل أعضائه فى الرحم ، وتصويره على أحسن صورة ، ونفخ فيه من روحه ، وجعلها تتعلق ببدنه ، فيبدأ يتحرك ، وتظهر فيه آثار الحياة ، ثم ينطق ويتكلم .

( وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ) أى وأنعم عليكم ، فأعطاكم السمع تسمعون به الأصوات ، والأبصار تبصرون بها المرئيات ، والأفئدة تميزون بها بين الخير والشر ، وبين الحق والباطل .

وجاء الترتيب هكذا : لما ثبت من أن الطفل بعد الولادة يسمع ولا يبصر مدى ثلاث أيام ، ثم يبتدئ يبصر ، ثم يبتدئ يدرك ويميز كما هو مشاهد .

ثم بين أن الإنسان قابل هذه النعم بالكفران إلا من رحم الله ، فقال :

( قليلا ما تشكرون ) أى وأنتم تشكرون ربكم قليلا من الشكر على هذه النعم التى أنعم بها عليكم باستعمالها فى طاعته وعمل ما يرضيه .

وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ؟ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ (١٠) قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (١١)

## المعنى الجملى

بعد أن ذكر الرسالة بقوله : « لِتُنْذِرَ قَوْمًا ما أتاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ » ، والوحدانية بقوله : « اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ » الخ . أردف ذلك ذكر البعث ، واستبعاد المشركين له ، ثم الرد عليهم .

# الإيضاح

( وقالوا أئذا ضللنا فى الأرض أئنا لفى خلق جديد ؟ ) أى وقال المشركون بالله المكذبون بالبعث : أئذا صارت لحومنا وعظامنا ترابا فى الأرض ؟ أنبعث خلقا جديدا؟.

وخلاصة مقالهم : عظيم الاستبعاد للإعادة ، بأنها كيف تُعقَل وقد تمزقت الجسوم، وتفرقت فى أجزاء الأرض ؟ .

وهم قد قاسوا قدرة الخالق الذى بدأهم أول مرة ، وأنشأهم من العدم بقدرة المخلوق العاجز – شتان بينهما – إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون .

ثم زاد فى النعى عليهم ، والإنكار لآرائهم بقوله :

( بل هم بلقاء ربهم كافرون ) أى مابهؤلاء المشركين جحود قدرة الله على مايشاء فحسْبُ ، بل هم تعدَّوا ذلك إلى الجحود بلقاء ربهم حذر عقابه ، وخوف مجازاته إياهم على معاصيهم .

ثم رد عليهم مقالتهم ، وشديد استنكارهم بقوله :

( قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم ثم إلى ربكم ترجعون ) أصل التوفى أخذ الشىء وافيا كاملا، أى قل لهؤلاء المشركين: إن ملك الموت الذى وُكِّل بقبض أرواحكم يستوفى العدد الذى كتب عليه الموت منكم حين انتهاء أجله ، ثم تردون إلى ربكم يوم القيامة أحياء كهيئتكم قبل وفاتكم ، فيجازى المحسن منكم بإحسانه ، والمسىء بإساءته ، وفى هذا إثبات للبعث مع تهديدهم وتخويفهم ، وإشارة إلى أن القادر على الإماتة قادر على الإحياء .

---

وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ، رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ (١٢) وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ

أَجْمَعِينَ (١٣) فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هٰذَا ، إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٤) .

## المعنى الجملى

بعد أن أثبت البعث والرجوع ـ بين حال المشركين حين معاينة العذاب ، ووقوفهم بين يدى الله أذلاء ناكسى رءوسهم من الحياء والخجل طالبى الرجوع إلى الدنيا لتحسين أعمالهم ، ثم بين أنه لاسبيل إلى العودة ، لأنهم لو ردوا لعادوا إلى مانهوا عنه ، وأنه قد ثبت فى قضائه ، وسبق فى وعيده أن جهنم تمتلىء من الجنة والناس ممن ساءت أعمالهم ، وقبحت أفعالهم ، فلا يصلحون لدخول الجنة ، ويقال لهم : ذوقوا عذاب النار جزاء ماعملتم فى الدنيا، وقد نسيتم لقاء ربكم ، فجازاكم ، بفعالكم ، وجعلكم كالمنسيين من رحمته .

## الإيضاح

( ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رءوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا ) أى ولو ترى أيها الرسول هؤلاء القائلين : أئذا ضللنا فى الأرض أئنا لفى خلق جديد ـ ناكسى رءوسهم عند ربهم حياء وخجلا منه ، لما سلف منهم من معاصيهم له فى الدنيا ، قائلين : ربنا أبصرنا الحشر ، وسمعنا قول الرسول وصدّقنا به ، فارجعنا إلى الدنيا نعمل صالح الأعمال ، وهذا منهم عود على أنفسهم بالملامة إذا دخلوا النار ، كما حكى عنهم سبحانه قولهم : « لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ ما كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ » .

ثم ادّعوا اطمئنان قلوبهم حينئذ ، وقدرتهم على فهم معانى الآيات ، والعمل بموجبها ، كما حكى الله عنهم بقوله :

( إنا موقنون ) أى إنا قد أيقنا الآن ما كنا به فى الدنيا جهالا من وحدانيتك ، وأنه لايصلح للعبادة سواك ، وأنك تحيي وتميت ، وتبعث من فى القبور بعد الممات والفناء ، وتفعل ماتشاء .

ونحو الآية قوله : « وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ ، فَقَالُوا يَالَيْتَنَا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا » الآية .

( ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ) أى ولو أردنا أن نلهم كل نفس ماتهتدى به إلى الإيمان والعمل الصالح لفعلنا ، ولكن تدبيرنا للخلق على نظم كاملة ، كفيلة بمصالحه، قضى أن نضع كل نفس فى المرتبة التى هى أهل لها بحسب استعدادها ، كما توضع فى الإنسان العين فى موضع لايصلح له الظفر والإصبع ، والمعدة فى موضع لايصلح له القلب ، وهذا هو المراد من قوله :

( ولكن حق القول منى لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ) أى ولكن سبق وعيدى بملء جهنم من الجنة والناس الذين هم أهل لها ، بحسب استعدادهم ، ولا يصلحون لدخول الجنة ؛ كما لايعيش البعوض والذباب ، إلا فى الأماكن القذرة ، ليُخَلِّص الجو من العفونات، ولو جعلا فى القصور النظيفة النقية ماعاشا فيها ، إذ لا يجدن فيها غذاء ولا منفعة لهما :

وهكذا هؤلاء إذا رأوا العالم المضىء المشرق ، والأنوار المتلألئة ، والحياة الطيبة فى الجنة لم يستطيعوا دخولها ، وعجزوا عن ذلك ، فما مثلهم إلا مثل السمك الذى لايعيش فى البر ، ومثل ذوات الأربع التى لاتعيش فى البحر .

ولما بين لهم أنه لارجوع إلى الدنيا أنبهم على ماعملوا من تدسية نفوسهم بفعل المعاصى ، وترك الطاعة له ، فقال :

( فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا ) أى فذوقوا العذاب بسبب تكذيبكم بهذا اليوم ، واستبعادكم وقوعه ، وعملكم عمل من لايظن أنه راجع إلى ربه فملاقيه .

ثم ذكر لهم جزاءهم على فعل المعاصى ، فقال :

( إنا نسيناكم ) أى إنا سنعاملكم معاملة الناسى ، لأنه تعالى لاينسى شيئا ، ولا يضل عنه شيء ، وهذا أسلوب فى الكلام يسمى أسلوب المشاكلة ، ونحوه : « فالْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا » وقوله : « تَعْلَمُ مَافِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ ما فِي نَفْسِكَ » وقوله : « وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا » .

( وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون ) أى وذوقوا عذابا تخلدون فيه إلى غير نهاية ، بسبب كفركم وتكذيبكم بآيات ربكم ، واجتراحكم للشرور والآثام .

---

إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ (١٥) تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (١٦) فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٧) .

## تفسير المفردات

ذكروا بها : أى وعظوا ، خروا : أى سقطوا ، سبحوا بحمد ربهم : أى نزهوه عما لايليق به ، تتجافى : أى ترتفع وتبتعد ، قال عبد الله بن رواحة :

وفينا رسول الله يتلو كتابه  إذا انشقَّ معروفٌ من الصبح ساطعُ
يبيت يجافى جنبه عن فراشه  إذا استثقلت بالمشركين المضاجعُ

والجنوب : واحدها جنب ، وهو الشق ، والمضاجع : واحدها مضجع ، وهو مكان النوم ، أخفى لهم: أى خبِّئ لهم ، من قرة أعين : أى من شىء نفيس تقرّ به أعينهم وتُسَرّ .

## المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه علامة أهل الكفر من طأطأة الرءوس خجلا وحياء مما صنعوا فى الدنيا ، وذكر ما يلاقونه من العذاب المهين يوم القيامة - عطف على ذلك ذكر علامة أهل الإيمان من تذللهم لربهم ، وتسبيحهم بحمده ، ومجافاة جنوبهم المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ، ثم أردفه ذكر ما يلاقونه من نعيم مقيم ، وقرة أعين جزاء لهم على جميل أعمالهم ، ومحاسن أقوالهم .

## الإيضاح

( إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذكروا بها خروا سجدا وسبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون ) أى ما يصدّق بحججنا وآيات كتابنا إلا الذين إذا وُعِظُوا بها خروا لله سجدا ، تذللا واستكانة لعظمته ، وإقرارا بعبوديته ، ونزهوه فى سجودهم عما لا يليق به ، مما يصفه به أهل الكفر من الصاحبة والولد والشريك ، يفعلون ذلك وهم لا يستكبرون عن طاعته ، كما يفعل أهل الفسق والفجور حين يسمعونها ، فإنهم يولون مستكبرين ، كأن لم يسمعوها .

ثم ذكر بقية محاسن أعمالهم بقوله :

( تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ومما رزقناهم ينفقون ) أى يتنحون عن مضاجعهم التى يضطجعون فيها لمنامهم ، فلا ينامون ، داعين ربهم خوفا من سخطه وعذابه ، وطمعا فى عفوه عنهم ، وتفضله عليهم برحمته ومغفرته ، ومما رزقناهم من المال ينفقون فى وجوه البر ، ويؤدون حقوقه التى أوجبها عليهم فيه ،

قال أنس بن مالك : « نزلت فينا معاشرَ الأنصار ، كنا نصلى المغرب ، فلا نرجع إلى رحالنا حتى نصلى العشاء مع النبى صلى الله عليه وسلم » .

وعن معاذ بن جبل عن النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله : « تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ » قال : هى قيام العبد أول الليل .

وروى الإمام أحمد عن ابن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « عجب ربنا من رجلين : رجل ثار من وِطائه ولحافه من بين حِبِّه وأهله إلى صلاته رغبة فيما عندي، وشفقة مما عندي؛ ورجل غزا في سبيل الله تعالى فانهزم ، فعلم ما عليه من الفِرار، وماله في الرجوع ، فرجع حتى أُهَريق دمه رغبة فيما عندي ، وشفقة مما عندي ، فيقول الله عز وجل للملائكة : انظروا إلى عبدي رجع رغبة فيما عندي ، ورهبة مما عندي حتى أهريق دمه » .

وأخرج ابن جرير والحاكم وابن مردويه عن مُعاذ بن جبل قال : « كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم في سفر ، فأصبحت يوما قريبا منه ، ونحن نسير ؛ فقلت : يانبي الله أخبرني عما يدخلني الجنة ، ويباعدني عن النار . قال : لقد سألت عن عظيم وإنه يسير على من يسَّره الله تعالى عليه ـ تعبد الله ولا تشرك به شيئا ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصوم رمضان، وتحج البيت ؛ ثم قال : ألا أدلك على أبواب الخير؟ الصوم جُنَّة ، والصدقة تطفئُ الخطيئة ، وصلاة الرجل في جوف الليل ، ثم قرأ : تتجافى جنوبهم عن المضاجع ـ حتى بلغ ـ جزاء بما كانوا يعملون ، ثم قال : ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذِرْوة سنامه ؟ فقلت : بلى يارسول الله ، فقال: رأس الأمر الإسلام ، وعموده الصلاة ، وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله، ثم قال:ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟ فقلت : بلى يانبي الله ، فأخذ بلسانه ، ثم قال : كُفَّ عليك هذا ، فقلت : يارسول الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به ؟ فقال : ثكلتكَ أمك يامُعاذ ، وهل يكُبُّ الناس في النار على مناخرهم إلا حصائدُ ألسنتهم » .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس أنه قال في الآية : « تتجافى جنوبهم لذكر الله ، كلما استيقظوا ذكروا الله عز وجل ، إما في الصلاة ، وإما في قيام أو قعود ، أو على جنوبهم ، لا يزالون يذكرون الله تعالى » .

وقال الحسن ومجاهد ومالك والأوزاعي وغيرهم : إن المراد بالتجافي القيام لصلاة النوافل بالليل .

و بعد أن ذكر حال المؤمنين المتواضعين ذكر جزاءهم بقوله :

( فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون ) أى فلا يعلم أحد عظيم ما أخفى لهم من النعيم واللذات التى لم يطلع على مثلها أحد جزاء وفاقا بما كانوا يعملون من صالح الأعمال ، أخفَوْا أعمالهم فأخفى الله ثوابهم .

روى الشيخان وغيرهما عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم : « يقول الله تعالى : أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، بَلْهَ ما أطلعتكم عليه ، اقرءوا إن شئتم : فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ » .

وأخرج الفِرْيابى وابن أبى شيبة وابن جرير والطبرانى والحاكم وصححه عن ابن مسعود قال : « إنه لمكتوب فى التوراة ، لقد أعدّ الله تعالى للذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع ما لم تر عين ، ولم تسمع أذن ، ولم يخطر على قلب بشر ، ولا يعلم ملَك مقرّب ، ولا نبى مرسل ، وإنه لفى القرآن : ( فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين ) » .

---

أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا؟ لَا يَسْتَوُونَ (١٨) أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٩) وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢٠) وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢١) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ (٢٢) .

## تفسير المفردات

أصل الفسق : الخروج ؛ من فسقتِ الثمرةُ إذا خرجت من قشرها ، ثم استعمل فى الخروج من الطاعة وأحكام الشرع مطلقا ، فهو أعم من الكفر ، وقد يخص به كما فى قوله : « وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ » والمأوى : المسكن ؛ وأصل النزل : ما يُعدّ للنازل من الطعام والشراب والصلة، ثم أطلق على كل عطاء ، والمراد به هنا الثواب والجزاء ، الأدنى : أى الأقرب ، والمراد به عذاب الدنيا ، فإنه أقرب من عذاب الآخرة وأقل منه ، وقد ابتلاهم الله بسنى جدب وقحط أهلكت الزرع والضرع ، والعذاب الأكبر : عذاب يوم القيامة .

## المعنى الجملى

لما بيّن حالى المجرمين والمؤمنين ـ عطف على ذلك سؤال العقلاء : هل يستوى الفريقان ؟ و بين أنهما لا يستويان ، ثم فصّل ذلك ببيان مآل كل منهما يوم القيامة .

## الإيضاح

( أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا ؟ لايستوون ) أى أفهذا الكافر المكذّب وعْد الله ووعيده ، المخالف أمره ونهيه ، كهذا المؤمن بالله المصدّق وعده ووعيده ، المطيع لأمره ونهيه ـ كلا ـ لا يستوون عند الله ولا يتعادل الكفار به و المؤمنون .

وخلاصة ذلك : أبعد ظهور ما بينهما من تفاوت بيِّن يُظن أن المؤمن الذى حكيت أوصافه كالكافر الذى ذكرت قبائح أعماله ؟ كلا ـ إن الفضل بينهما لا يخفى على ذى عينين .

ونحو الآية قوله : « أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ، سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ » وقوله : « أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ » وقوله : « لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ » الآية .

و بعد أن نفى استواءهما أتبعه بذكر حال كل منهما على سبيل التفصيل :

( أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى نزلا بما كانوا يعملون ) أى أما الذين صدّقوا الله ورسوله وعملوا صالح الأعمال ـ فلهم مساكن فيها البساتين والدور، والغرف العالية ، جزاء لهم على جليل أعمالهم ، وطيب أفعالهم التى كانوا يعملونها فى الدنيا .

( وأما الذين فسقوا فمأواهم النار ) أى وأما الذين كفروا بالله ، واجترموا الشرور والآثام ، فمساكنهم التى يأوون إليها فى الآخرة ، ويستريحون فيها هى النار ، و بئس القرار .

وفى هذا ضرب من التهكم بهم ، إذ جعلت النار ملجأ ومستراحا لهم يستريحون إليها ، فهو كقوله : « فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ » .

ثم بين حالهم فيها ونفورهم منها ، فقال :

( كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها ) أى كلما شارفوا الخروج منها ، وظنوا أنه قد تيسر لهم ذلك ، وهم بعدُ فى غمراتها أعيدوا فيها ، ودفعوا إلى قعرها .

روى أن لهب النار يضرب بهم فيرتفعون إلى أعلاها ، حتى إذا قربوا من أبوابها ، وأرادوا أن يخرجوا منها يضرب بهم اللهب فيهوُون إلى قعرها ـ وهكذا يُفْعل بهم أبدا .

قال الفُضَيْل بن عياض : والله إنّ الأيدى لموثقَة ، وإن اللهب ليرفعهم ، والملائكة تقمَعُهم .

ثم ذكر ما يقال لهم على سبيل التقريع والتوبيخ :

( وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذى كنتم به تكذبون ) أى ذوقوا عذابها الذى كنتم تكذبون فى الدنيا أن الله قد أعده لأهل الشرك به .

ثم بين أن عذاب الآخرة له مقدمات فى الدنيا ؛ لأن الذنب مستوجب لنتائجه عاجلا وآجلا ، فقال :

( ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون ) أى ولنبتلينهم بمصايب الدنيا وأسقامها وآفاتها من المجاعات والقتل، ونحو ذلك ، عظة لهم ليُقْلِعوا عن ذنوبهم قبل العذاب الأكبر، وهو عذاب يوم القيامة .

ثم ذكر حالَ من قابل آيات الله بالإعراض ، بعد بيان حال من قابلها بالسجود والتسبيح والتحميد ، فقال :

( ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها ؟ ) أى لا أظلم ممن ذكَّره الله بحججه ، وآى كتابه ورسله، ثم أعرض عن ذلك كله ، ولم يتعظ به ، بل تناساه ، كأنه لا يعرفه .

ثم بين جزاءه على ذلك ، فقال :

( إنا من المجرمين منتقمون ) أى إنا سننتقم أشد الانتقام من الذين اجترحوا السيئات ، واكتسبوا الآثام والمعاصى .

روى ابن جرير بسنده عن مُعاذ بن جبل قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ثلاث من فعلهن فقد أجرم : من عقد لواء فى غير حق ، أو عقّ والديه ، أو مشى مع ظالم ينصره ، يقول الله : ( إنا من المجرمين منتقمون ) » .

---

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ (٢٣) وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ (٢٤) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٢٥) .

## المعنى الجملى

لما ذكر سبحانه فى أول السورة الرسالة والتوحيد والبعث ـ عاد فى آخرها إلى ذكرها مرة أخرى ، فقال :

## الايضاح

( ولقد آتينا موسى الكتاب فلا تكن فى مرية من لقائه ) المرية : الشك ، أى إنا آتينا موسى التوراة مثل ما آتيناك القرآن ، وأنزلنا عليك الوحى مثل ما أنزلناه عليه ، فلا تكن فى شك من لقائك الكتاب ، فأنت لست ببدع من الرسل كما قال تعالى : « قُلْ ما كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ » .

وذكر موسى من بين سائر الرسل لقرب عهده من النبى صلى الله عليه وسلم ووجود من كان على دينه بينهم إلزاماً لهم ، ولم يذكر عيسى ، لأن اليهود ما كانوا يعترفون بنبوته ، والنصارى كانوا يقرون بنبوة موسى ، فذكر المجمع عليه .

وقد يكون ذكره لأن الآية جاءت تسلية لرسوله صلى الله عليه وسلم ، فإنه لما أتى بكل آية وذكّرهم بها ، وأعرض قومه عنها حزن حزنا شديدا ، فقيل له : تذكّرْ حال موسى ولا تحزن ، فإنه قد لقى مثل ما لقيت ، وأوذى كما أوذيت ، فإنّ من لم يؤمن به آذاه ، كفرعون وقومه ، ومن آمنوا به من بنى إسرائيل آذوْه أيضا بالمخالفة له كقولهم : « أرِنَا اللهَ جَهْرَةً » وقولهم : « اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلاَ » ، وغيره من الأنبياء لم يؤذه إلا من لم يؤمن به .

( وجعلناه هدى لبنى إسرائيل ) أى وجعلنا الكتاب الذى آتيناه مرشدا لبنى إسرائيل إلى طريق الهدى كما جعلناك مرشدا لأمتك .

ونحو الآية قوله : « وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلاَّ تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلاً » .

( وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون ) أى وجعلنا من بنى إسرائيل رؤساء فى الخير ، يهدون أتباعهم وأهل القبول منهم ، بإذننا لهم وتقويتنا إيام ، لأنهم صبروا على طاعتنا ، وعزفت أنفسهم عن لذات الدنيا وشهواتها ، وكانوا من أهل اليقين بحججنا وبما تبين لهم من الحق .

وفى ذلك إيماء إلى أن الكتاب الذى آتيناكه سيكون هداية للناس ، وسيكون من أتباعه أئمة يهدون مثل تلك الهداية .

( إن ربك هو يفصل بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ) أى إن ربك يقضى بين خلقه يوم القيامة فيما كانوا فيه فى الدنيا يختلفون من أمور الدين والثواب والعقاب ، فيُدْخِل الجنة أهل الحق ، ويدخل النار أهل الباطل .

أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ (٢٦) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ ، أَفَلَا يُبْصِرُونَ (٢٧).

## المعنى الجملى

بعد أن أعاد ذكر الرسالة فى قوله : « وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ » أعاد هنا ذكر التوحيد مع ذكر البرهان عليه بما يرونه من المشاهدات التى يبصرونها .

## الإيضاح

( أولم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون فى مساكنهم ؟ ) أى أو لم يبين لهم طريقَ الحق كثرةُ من أهلكنا من القرون الماضية الذين يمشون فى أرضهم ، ويشاهدون آثار هلاكهم كعاد وثمود وقوم لوط .

والخلاصة : أولم يرشد هؤلاء المكذبين بالرسل ما أهلك الله قبلهم من الأمم الماضية بتكذيبهم لرسلهم ، ومخالفتهم إياهم فيما جاءوهم به من سبل الحق ، فلم يُبق منهم باقية .

ونحو الآية قوله : « هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا » وقوله : « فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا » وقوله : « فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ » .

( إن فى ذلك لآيات ) أى إن فى خلاء مساكن القرون الذين أهلكناهم من أهلها لما كذبوا رسلنا وجحدوا بآياتنا ، وعبدوا غيرنا — لآياتٍ لهم وعظات يتعظون بها لو كانوا من أولى الحجا .

( أفلا يسمعون ؟ ) عظاتنا وتذكيرنا إياهم ، وتعريفهم مواضع حججنا ؛ سماع تدبر وتفكر ليعتبروا بها .

وبعد أن بين قدرته على الإهلاك — أرشد إلى قدرته على الإحياء ليبين أن النفع والضر بيده تعالى ، فقال :

( أولم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعا تأكل منه أنعامهم وأنفسهم ) الأرض الجرز : هى التى جرز نباتها وقطع ، إما لعدم الماء ، وإما لأنه رُعِى وأُكِل ، يقال : ناقة جروز إذا كانت تأكل كل شىء ، ورجل جروز أى أكول : أى ألم يشاهد هؤلاء المكذبون بالبعث بعد الموت ، والنشر بعد الفساد — أنا بقدرتنا نسوق الماء إلى الأرض اليابسة التى لا نبات فيها، فنخرج به زرعا أخضر تأكل منه ماشيتهم وتتغذى به أجسامهم ، فيعيشون به ؟ .

( أفلا يبصرون ؟ ) أى أفلا يرون ذلك بأعينهم ، فيعلموا أن القدرة التى بها فعلنا ذلك لا يتعذر عليها أن تحيي الأموات وتُنْشِرهم من قبورهم ، وتعيدهم بهيئاتهم التى كانوا عليها قبل موتهم ؟ .

وَيَقُولُونَ مَتَى هَٰذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٨) قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (٢٩) فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ (٣٠) .

## تفسير المفردات

الفتح : أى الفصل فى الخصومة بيننا و بينكم ، وينظرون: أى يمهلون و يؤخرون .

## المعنى الجملى

بعد أن أثبت الرسالة والتوحيد ـ عطف على ذلك ذكر الحشر ، وبذلك صار ترتيب آخر السورة متناسقا مع ترتيب أولها ، فقد ذكر الرسالة فى أولها بقوله (لتنذر قوما) وفى آخرها بقوله ( ولقد آتينا موسى الكتاب ) وذكر التوحيد فى أولها بقوله ( الذى خلق السموات والأرض ) وفى آخرها بقوله ( أولم يهد لهم ) وقوله ( أولم يروا أنا نسوق الماء ) وذكر الحشر فى أولها بقوله ( أئذا ضللنا فى الأرض ) وفى آخرها بقوله : ( و يقولون متى هذا الفتح ؟ ) .

## الإيضاح

( و يقولون متى هذا الفتح إن كنتم صادقين ؟ ) أى و يقول المشركون على طريق الاستهزاء والاستبعاد : متى تُنصر علينا أيها الرسول كما تزعم ، ومتى ينتقم الله منا ؟ وما نراك وأصحابك إلا مختفين خائفين أذلة ـ إن كنتم صادقين فى الذى تقولون من أنا معاقبون على تكذيبنا الرسول ، وعبادة الآلهة والأوثان ، وهم ولا شك لا يستعجلونه إلا لاستبعادهم حصوله و إنكارهم إياه ، وتكذيبهم له .

وقد أمر الله نبيه أن يجيبهم عن استبعادهم مو بخا لهم بقوله :

( قل يوم الفتح لاينفع الذين كفروا إيمانهم ولاهم ينظرون ) أى قل لهم : إذا حل بكم بأس الله وسخطه فى الدنيا وفى الآخرة لاينفعكم إيمانكم الذى تُحْدِثونه فى هذا اليوم ، ولا تؤخّرون للتوبة والمراجعة .

والخلاصة : لاتستعجلوه ولا تستهزئوا ، فكأنى بكم وقد حل ذلك اليوم وآمنتم فلم ينفعكم الإيمان ، واستنظرتم حلول العذاب ، فلم تُنْظَروا .

ثم ختم السورة بأمر رسوله بالإعراض عنهم ، وانتظار الفتح بينه وبينهم ، فقال :

( فأعرض عنهم وانتظر إنهم منتظرون ) أى فأعرض عن هؤلاء المشركين ، ولا تُبالِ بهم ، وبلّغ ما أنزل إليك من ربك ، وانتظر ما الله صانع بهم ، فإنه سينجزك ما وعد ، وسينصرك على من خالفك ، إنه لايخلف الميعاد ، وهم منتظرون يتربصون بكم الدوائر كما قال « أم يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ » .

وسترى عاقبة صبرك عليهم ، وعلى أداء رسالة ربك، بنصرك وتأييدك ، وسيجدون غِبّ ما ينتظرون فيك ، وفى أصحابك من وبيل عقاب الله لهم ، وحلول عذابه بهم .

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات .

---

## مجمل ما اشتملت عليه السورة الكريمة من الموضوعات

( ١ ) إثبات رسالة النبى صلى الله عليه وسلم و بيان أن مشركى العرب لم يأتهم رسول من قبله .

( ٢ ) إثبات وحدانية الله ، وأنه المتصرف فى الكون ، المدبر له على أتم نظام وأحكم وجه .

( ٣ ) إثبات البعث والنشور ، و بيان أنه يكون فى يوم كألف سنة مما تعدون .

( ٤ ) تفصيل خلق الإنسان فى النشأة الأولى ، و بيان الأطوار التى مرت به ، حتى صار بشراً سويا .

( ٥ ) وصف الذلة التى يكون عليها المجرمون يوم القيامة ، وطلبهم الرجوع إلى الدنيا لإصلاح أحوالهم ، ورفض ما طلبوا لعدم استعدادهم للخير والفلاح .

( ٦ ) تفصيل أحوال المؤمنين فى الدنيا ، وذكر ما أعده الله لهم من النعيم ، والثواب العظيم فى الآخرة .

( ٧ ) استعجال الكفار لمجئ يوم القيامة استبعادا منهم لحصوله .

# سورة الأحزاب

هى مدنية نزلت بعد آل عمران .

وآيها ثلاث وسبعون .

ووجه اتصالها بما قبلها تشابه مطلَع هذه وخاتمة السالفة ، فإن تلك خُتمت بأمر النبي صلى الله عليه وسلم بالإعراض عن الكافرين ، وانتظار عذابهم ، وهذه بدئت بأمره عليه الصلاة والسلام بالتقوى ، وعدم طاعة الكافرين والمنافقين واتباع ما أوحى إليه من ربه مع التوكل عليه .

---

بِسمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللهَ وَلاَ تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمنَافِقِينَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً (١) وَاتَّبِعْ مَايُوحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللهَ كَانَ بِمَاتَعْمَلُونَ خَبِيرًا (٢) وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً (٣) .

## تفسير المفردات

قال طَلْق بن حبيب : التقوى أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله ، وأن تترك معصية الله على نور من الله مخافة عذاب الله ، وتوكل على الله : أى فوِّض أمورك إليه ، الوكيل : الحافظ للأمور .

## المعنى الجملى

أخرج ابن جرير عن الضحاك عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : إن أهل مكة ، ومنهم الوليد بن المغيرة ، وشيبة بن ربيعة دعَوُا النبي صلى الله عليه وسلم أن

يرجع عن قوله : على أن يعطوه شطر أموالهم ، وخوّفه المنافقون واليهود بالمدينة إن لم يرجع قتلوه ، فنزلت الآيات .

## الإيضاح

( يأيها النبى اتق الله ) أى يأيها النبى خف الله بطاعته ، وأداء فرائضه ، وواجب حقوقه عليك ، وترك محارمه ، وانتهاك حدوده .

والخلاصة : يأيها المخبر عنا ، المأمون على وحينا ، اثبت على تقوى الله ، ودم عليها.

ولما وجّه إلى رسوله صلى الله عليه وسلم الأمر بتقوى الولىّ الودود ـ أتبعه بالنهى عن الالتفات نحو العدو الحسود ، فقال :

( ولا تطع الكافرين والمنافقين ) أى ولا تطع الكافرين الذين يقولون لك: اطرد عنا أتباعك من ضعفاء المؤمنين ، حتى نجالسك ، والمنافقين الذين يظهرون لك الإيمان والنصيحة ، وهم لا يألونك وأصحابك إلا خبالا ، فلا تقبل لهم رأيا ، ولا تستشرهم مستنصحا بهم ، فإنهم أعداؤك ، ويودون هلاكك ، وإطفاء نور دينك .

روى أنه لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة تابعه ناس من اليهود نفاقا وكان يُلين لهم جانبه ، ويظهرون له النصح خداعا ؛ فحذره الله منهم ، ونبهه إلى عداوتهم .

ثم علل ما تقدم بقوله :

(إن الله كان عليما حكيما) أى إن الله عليم بما تضمره نفوسهم ، وما الذى يقصدونه من إظهار النصيحة ، وبالذى تنطوى عليه جوانحهم ، حكيم فى تدبير أمرك ، وأمر أصحابك ، وسائر شئون خلقه ، فهو أحق أن تتبع أوامره وتطاع .

والخلاصة : إنه تعالى هو العليم بعواقب الأمور ، الحكيم فى أقواله وأفعاله ، وتدبير شئون خلقه .

ثم أكد وجوب الامتثال بأن الآمر لك هو مربّيك فى نعمه ، الغامر لك بإحسانه ، فهو الجدير أن يُتّبع أمره ، ويجتنب نهيه ، فقال :

( واتبع مايوحى إليك من ربك ) أى واعمل بما ينزله عليك ربك من وحيه ، وآى كتابه .

ثم علل ذلك بما يرغّبه فى اتباع الوحى ، وبما ينأى به عن طاعة الكافرين والمنافقين ، فقال :

( إن الله كان بما تعملون خبيرا ) أى إن الله خبير بما تعمل أنت وأصحابك ، لايخفى عليه شىء منه ، ثم يجازيكم على ذلك بما وعدكم به من الجزاء .

ثم أمر رسوله بتفويض أموره إليه وحده ، فقال :

( وتوكل على الله ) أى وفوض أمورك إليه وحده ، واعتمد عليه فى شئونك .

( وكفى بالله وكيلا ) أى وكفى به حافظا ، يوكل إليه جميع الشئون ، فلا تلتفت فى شىء من أمرك إلى غيره .

والخلاصة : حسبك الله ، فإنه إن أراد لك نفعا لم يدفعه عنك أحد ، وإن أراد ضرا لم يمنعه منك أحد .

---

مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ ، وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ، ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ (٤) ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ ، فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ ، وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٥) .

## تفسير المفردات

جعل : أى خلق ، ويقال : ظاهر الرجل من زوجته إذا قال لها : أنت علىّ كظهر أمى ، يريدون أنت محرمة علىّ كما تحرم الأم ، وكانوا فى الجاهلية يُجرون على المظاهَر منها حكم الأم ، والأدعياء : واحدهم دعىّ ، وهو الذى تدّعَى بنوته ، وقد كانت تُجْرَى عليه أحكام الابن فى الجاهلية وصدر الإسلام ، السبيل : أى طريق الحق ، أقسط : أى أعدل ، ومواليكم : أى أولياؤكم فيه .

## المعنى الجملى

بعد أن أمر سبحانه نبيه بتقواه ، والخوف منه ، وحذّره من طاعة الكفار والمنافقين ، والخوف منهم — ضرب لنا الأمثال ليبين أنه لايجتمع خوف من الله وخوف من سواه ، فذكر أنه ليس للإنسان قلبان حتى يطيع بأحدهما ويعصى بالآخر ، وإذا لم يكن للمرء إلا قلب واحد ، فمتى اتجه لأحد الشيئين صدّ عن الآخر ، فطاعة الله تصدّ عن طاعة سواه ، وأنه لاتجتمع الزوجية والأمومة فى امرأة ، والبنوة الحقيقية والتبنى فى إنسان .

روى الشيخان والترمذى والنسائى فى جماعة آخرين عن ابن عمر رضى الله عنهما « أن زيد بن حارثة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كنا ندعوه إلا زيد بن محمد حتى نزل القرآن : ( ادعوهم لآبائهم ) الآية ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : أنت زيد ابن حارثة بن شراحيل .

وكان من خبره أنه سُبِىَ من قبيلته كلب وهو صغير ، فاشتراه حكيم بن حزام لعمته خديجة ، فلما تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهبته له ، ثم طلبه أبوه وعمه ؛ فخُيّر بين أن يبقى مع رسول الله ، وأن يذهب مع أبيه ، فاختار البقاء مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأعتقه وتبناه ، وكانوا يقولون زيد بن محمد ؛ فلما تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم زينب، وكانت زوجا لزيد وطلقها؛ قال المنافقون: تزوج محمد امرأة ابنه ،

وهو ينهى عن ذلك ، فنزلت الآية لنفى أن يكون للمتبنَّى حكم الابن حقيقة فى جميع الأحكام التى تعطى للابن .

## الإيضاح

( ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه ) كان أهل مكة يقولون : إن مَعْمَرًا الفِهْرِىّ له قلبان لقوة حفظه ، وروى أنه كان يقول : إن لى قلبين أفهم بأحدهما أكثر مما يفهم محمد ، وكانت العرب تزعم أن كل أريب له قلبان ، فأكذب الله فى هذه الآية قوله وقولهم :

( وما جعل أزواجكم اللائى تظاهرون منهن أمهاتكم ) أى ولم يجعل الله لكم أيها الرجال نساءكم اللائى تقولون لهن : أنتنّ علينا كظهور أمهاتنا - أمهاتكم ، بل جعل ذلك من قِبَلكم كذبا وألزمكم عقوبة .

وقد كان الرجل فى الجاهلية متى قال هذه المقالة لامرأته صارت حراما عليه حرمة مؤبدة ، فجاء الإسلام ومنع هذا التأبيد ، وجعل الحرمة مؤقتة ، حتى يؤدى كفّارة ( غرامة ) لانتهاكه حرمة الدين ، إذ حرم ما أحل الله .

( وما جعل أدعياءكم أبناءكم ) أى ولم يجعل الله من ادعى أحدكم أنه ابنه ، وهو ابن غيره - ابنا له بدعواه فحسب .

وفى هذا إبطال لما كان فى الجاهلية وصدر الإسلام من أنه : إذا تبنى الرجل ابن غيره أجريت عليه أحكام الابن النسبى ، وقد تبنىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل البعثة زيد بن حارثة . والخطّابُ عامر بن ربيعة وأبو حذيفة سالما .

ثم أكد ما سبق بقوله :

( ذلكم قولكم بأفواهكم ) أى هذا الذى تقدم من قول الرجل لامرأته : أنت علىّ كظهر أمى ، ودعاء من ليس بابنه أنه ابنه إنما هو قولكم بأفواهكم ، لاحقيقة له ، فلا تصير الزوجة أمًّا ، ولا يثبت بهذا الدعاء دعوى النسب .

( والله يقول الحق وهو يهدى السبيل ) أى والله هو الصادق ، الذى يقول الحق وبقوله يثبت نسب من أثبت نسبه ، وبه تكون المرأة أمّا إذا حكم بذلك ، وهو يبين لعباده سبيل الحق ، ويهديهم إلى طريق الرشاد ، فدعوا قولكم ، وخذوا بقوله عز اسمه .

وخلاصة ما سلف :

(١) إنه لم ير فى حكمته أن يجعل للإنسان قلبين ، لأنه إما أن يفعل بأحدهما مثل ما يفعل بالآخر ، فأحدهما يكون نافلة غير محتاج إليه ، وإما أن يفعل بهذا غير ما يفعل بذاك ، وهذا يؤدى إلى التناقض فى أعمال الإنسان ، فيكون مريدا للشيء كارها له ، وظانا له موقنا به فى حال واحدة ، وهذا لن يكون .

(٢) إنه لم ير أن تكون المرأة أما لرجل وزوجا له ، لأن الأم مخدومة ، مخفوض لها الجناح ، والمرأة مستخدَمة فى المصالح الزوجية على وجوه شتى .

(٣) لم يشأ فى حكمته أن يكون الرجل الواحد دعيًّا لرجل وابنا له ، لأن البنوة نسب أصيل عريق ، والدعوة إلصاق عارض بالتسمية لاغير ، ولا يجتمع فى الشيء الواحد أن يكون أصيلا غير أصيل .

ولما ذكر أنه يقول الحق فصل هذا الحق بقوله :

( ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله ) أى انسبوا أدعياءكم الذين ألحقتم أنسابهم بكم ـ لآبائهم ، فقولوا : زيد بن حارثة ، ولا تقولوا زيد بن محمد ، فذلك أعدل فى حكم الله وأصوب من دعائكم إياهم لغير آبائهم .

( فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم فى الدين ومواليكم ) أى فإن أنتم أيها الناس لم تعرفوا آباء أدعيائكم من هم ؟ حتى تنسبوهم إليهم ، وتلحقوهم بهم ؛ فهم إخوانكم فى الدين إن كانوا قد دخلوا فى دينكم ومواليكم إن كانوا محرَّرين أى قولوا : هو مولى فلان ، ولهذا قيل لسالم بعد نزول الآية : مولى حذيفة ، وكان قد تبناه من قبل .

( وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ) أى ولا إثم عليكم فيما فعلتموه من ذلك مخطئين قبل النهى أو بعده نسيانا أو سبق لسان .

( ولكن ماتعمدت قلوبكم ) ولكن الجناح والإثم عليكم فيما فعلتموه عامدين .

وخلاصة ماسلف : إنه لا إثم عليكم إذا نسبتم الولد لغير أبيه خطأ غير مقصود ، كأن سهوتم أو سبق لسانكم بما تقولون ، ولكن الإثم عليكم إذا قلتم ذلك متعمدين.

أخرج ابن جرير وابن المنذر عن قتادة أنه قال فى الآية : « لو دعوت رجلا لغير أبيه ، وأنت ترى أنه أبوه لم يكن عليك بأس ، ولكن ماتعمدت وقصدت دعاءه لغير أبيه » .

( وكان الله غفورا رحيما ) أى وكان الله ستارا لذنب من ظاهر من زوجته ، وقال الزور والباطل من القول، وذنب من ادعى ولد غيره ابنا له إذا تابا ورجعا إلى أمر الله وانتهيا عن قيل الباطل بعد أن نهاهما ؛ رحيما بهما فلا يعاقبهما على ذلك بعد توبتهما .

---

النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ، وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا (٦)

## المعنى الجملى

بعد أن أبان سبحانه فيما سلف : أن الدعىّ ليس ابنا لمن تبناه ، فمحمد صلى الله عليه وسلم ليس أبا لزيد بن حارثة ، ثم أعقب ذلك بالإرشاد إلى أن المؤمن أخو المؤمن فى الدين ، فلا مانع أن يقول إنسان لآخر : أنت أخى فى الدين ـ أردف ذلك ببيان أن محمدا صلى الله عليه وسلم ليس أبا لواحد من أمته ، بل أبوته عامة ، وأزواجه أمهاتهم وأبوته أشرف من أبوة النسب ؛ لأن بها الحياة الحقيقية ، وهذه بها الحياة الفانية ، بل

هو أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، فإذا حضهم على الجهاد ونحوه ، فذلك لارتقائهم الروحى ، فإذاً كيف يستأذن الناس آباءهم وأمهاتهم حين أمرهم صلى الله عليه وسلم بغزوة تبوك ، وهو أشفق عليهم من الآباء ، بل من أنفسهم .

روى البخارى عن أبى هريرة قال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « مامن مؤمن إلا وأنا أولى الناس به فى الدنيا والآخرة ، اقرءوا إن شئتم ( النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم ) فأيّما مؤمن ترك مالا ، فلترثه عصبته من كانوا ، ومن ترك دينًا أو ضَياعا ( عيالا ) فليأتنى ، فأنا مولاه » .

وفى الصحيح أن عمر رضى الله عنه قال : « يارسول الله ، والله لأنت أحب إلىّ من كل شىء إلا من نفسى ، فقال صلى الله عليه وسلم : لاياعمر حتى أكون أحب إليك من نفسك ، فقال : يارسول الله ، والله لأنت أحب إلىّ من كل شىء ، حتى من نفسى ، فقال صلى الله عليه وسلم : الآن ياعمر » .

## الايضاح

( النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم ) أى النبى أشد ولاية ونصرة لهم من أنفسهم ، فإنه عليه الصلاة والسلام لايأمرهم إلا بما فيه خيرهم وصلاحهم ، ولا ينهاهم إلا عما يضرهم ويؤذيهم فى دنياهم وآخرتهم ، أما النفس فإنها أمارة بالسوء ، وقد تجهل بعض المصالح ، وتخفى عليها بعض المنافع .

ومما يلزم هذا أن يكون حكمه نافذا فيهم ، مقدّما على ما يختارونه لأنفسهم ، كما قال : « فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا » .

وخلاصة ذلك : إنه تعالى علم شفقة رسوله صلى الله عليه وسلم على أمته ، وشدة نصحه لهم ، فجعله أولى بهم من أنفسهم .

(وأزواجه أمهاتهم ) أى هن منزلات منزلة الأمهات فى الحرمة والاحترام ،

والتوقير والإكرام ، وفيما عدا ذلك هن كالأجنبيات ، فلا يحل النظر إليهن ، ولا إرثهن ولا نحو ذلك .

وكان التوارث فى بدء الإسلام بالحِلْف والمؤاخاة بين المسلمين ، فكان المهاجرى يرث الأنصارى دون قراباته وذوى رحمه للأخوّة التى آخى بينهما رسول الله صلى الله عليه وسلم حين الهجرة ، فقد آخى بين أبى بكر رضى الله عنه ، وخارجة بن زيد ، وآخى بين عمر وشخص آخر ، وآخى بين الزبير وكعب بن مالك ، فغيّر الله الحكم بقوله :

( وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين ) أى وأولو الأرحام بحق القرابة أولى بالميراث من المؤمنين بحق الدين ، وحق المهاجرين بحق الهجرة فيما كتبه الله وفرضه على عباده .

والخلاصة : إن هذه الآية أرجعت الأمور إلى نصابها ، وأبطلت حكما شرع لضرورة عارضة فى بدء الإسلام ، وهو الإرث بالتآخى فى الدين ، والتآخى حين الهجرة بين المهاجرين والأنصار حين كان المهاجرىّ يرث الأنصارىّ دون قرابته وذوى رحمه .

ثم استثنى من ذلك الوصية ، فقال :

( إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفا ) الأولياء هنا المؤمنون والمهاجرون والمعروف الوصية أى إلا أن توصوا لهؤلاء بوصية ، فهم أحق بها من القريب الوارث .

ثم بين أن هذا الحكم هو الأصل فى الإرث ، وهو الحكم الثابت فى كتابه الذى لا يغيّر ولا يبدل ، فقال :

( كان ذلك فى الكتاب مسطورا ) أى إن هذا الحكم ، وهو أن أولى الأرحام بعضهم أولى ببعض ـ حكم من الله مقدر مكتوب فى الكتاب الذى لا يبدل ولا يغير ، وإن كان قد شرع غيره فى وقت ما لمصلحة عارضة ، وحكمة بالغة ، وهو يعلم أنه سيغيره إلى ما هو جار فى قدره الأزلى ، وقضائه التشريعى .

وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى بْنِ مَرْيَمَ ، وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا (٧) لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا (٨) .

## المعنى الجملى

بعد أن أبان سبحانه فيما سلف أحكاما شرعها لعباده ، وكان فيها أشياء مما كان فى الجاهلية ، وأشياء مما كان فى الإسلام ، ثم أبطلت ونسخت ــ أتبع ذلك بذكر مافيه حث على التبليغ ، فذكر أخذ العهد على النبيين أن يبلّغوا رسالات ربهم ، ولا سيما أولو العزم منهم ، وهم الخمسة المذكورون فى الآية ، كما ذكر فى آية أخرى سؤال الله أنبياءه عن تصديق أقوامهم له ، ليكون فى ذلك تبكيت للمكذبين من الكفار، فقال : « يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ » .

## الإيضاح

( وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم ) أى واذكر أيها الرسول العهد والميثاق الذى أخذه الله على أولى العزم الخمسة وبقية الأنبياء لَيُقِيمُنَّ دينه ، ويبلغُنَّ رسالته ، ويتناصرُنَّ كما قال فى آية أخرى : « وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ ، قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي ؟ قَالُوا أَقْرَرْنَا . قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ » .

( وأخذنا منهم ميثاقا غليظا ) بسؤالهم عما فعلوا حين الإرسال كما قال : « وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ » .

وقد جرت العادة أن الملك إذا أرسل رسولا ، وأمره بشىء وقبله كان ذلك ميثاقا

عليه ، فإذا أعلمه بأنه سيسأله عما يقول ويفعل كان ذلك تغليظا للميثاق ، حتى لا يزيد ولا ينقص فى الرسالة .

ثم بين علة أخذ الميثاق على النبيين ، فقال :

( ليسأل الصادقين عن صدقهم ) أى وأخذنا من هؤلاء الأنبياء ميثاقهم كيما أسأل المرسلين عما أجابتهم به أممهم ، وما فعل أقوامهم فيما أبلغوهم عن ربهم من الرسالة .

( وأعدّ للكافرين عذابا أليما ) أى ليسأل الصادقين عن صدقهم ، وأعدّ لهم ثوابا عظيما ، ويسأل الكاذبين عن كذبهم ، وأعدّ لهم عذابا أليما .

---

## غزوة الأحزاب ـ وقعة الخندق

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٩) إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ ، وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا (١٠) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا (١١) وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا (١٢) وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا ، وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ ، إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا (١٣) وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا (١٤) وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللهِ

مَسْئُولًا (١٥) قُلْ لَنْ يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا
لَا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا (١٦) قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ
بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا
وَلَا نَصِيرًا (١٧) قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ ،
هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا (١٨) أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ
الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ
الْمَوْتِ ، فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ ، أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ
أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (١٩)
يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ
بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ ، يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا
إِلَّا قَلِيلًا (٢٠) لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ
يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا (٢١) وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ
الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ،
وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا (٢٢) مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا
اللَّهَ عَلَيْهِ ، فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا (٢٣)
لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ
إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (٢٤) وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا

خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا (٢٥) وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ، فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا (٢٦) وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا (٢٧)

## تفسير المفردات

المراد بالجنود هنا : الأحزاب ، وهم قريش يقودهم أبو سفيان ، وبنو أسد يقودهم طُلَيْحَة ، وغطفان يقودهم عُيَيْنة بن حصن ، وبنو عامر يقودهم عامر بن الطُّفَيْل ، وبنو سُلَيْم يقودهم أبو الأعور السُّلَمى ، وبنو النَّضير من اليهود ، ورؤساؤهم حُيَيّ ابن أخطب ، وأبناء أبي الحُقَيق ، وبنو قُرَيْظة من اليهود أيضا سيدهم كعب بن أسد ، وكان بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد فنبذه كعب بسعى حيّ ، وكان مجموع جيوش الأعداء عشرة آلاف أونحو ذلك ، والجنود التي لم تروها : هي الملائكة من فوقكم : أي من أعلى الوادى من جهة المشرق ، وكانوا بنى غطفان ، ومن أسفل منكم : أي من أسفل الوادى من قبل المغرب ، وكانوا قريشا ومن شايعهم ، وبنى كنانة وأهل تهامة ، زاغت الأبصار : أي انحرفت عن مستوى نظرها حيرة ودهشة ، وبلغت القلوب الحناجر : يراد به فزعت فزعا شديدا ، ابتلى المؤمنون : أي اختُبِروا وامتُحِنوا ، وزلزلوا زلزالا شديدا : أي اضطربوا اضطرابا شديدا من الفزع وكثرة العدوّ ، والذين في قلوبهم مرض : قوم كان المنافقون يستميلونهم بإدخال الشُّبَه عليهم لقرب عهدهم بالإسلام ، إلاغرورا : أي إلا وعد غرور لاحقيقه له ؛ يثرب : من أسماء المدينة ، لامقام لكم : أي لاينبغى لكم الإقامة هاهنا ، عورة : أي ذات عورة لأنها خالية من الرجال فيخاف عليها سرق السُّرّاق ، والأقطار : واحدها قُطْر وهو الناحية والجانب ، والفتنة:

الردة ومقاتلة المؤمنين ، آتوها : أى أعطَوْها ، وماتلبثوا بها : أى وماأقاموا بالمدينة ، يعصمكم : أى يمنعكم ، المعوّقين : أى المثبطين عن القتال مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هلم إلينا : أى أقبلوا إلينا ، والبأس : الشده ، والمراد به هنا الحرب والقتال ، أشحة : واحدهم شحيح أى بخيل بالنُّصْرَة والمنفعة ، تدور أعينهم : أى تدير أعينهم أحداقهم من شدة الخوف ، سلقوكم : أى آذوكم بالكلام ، بألسنة حداد : أى ألسنة دَرِبة سلِطَة تفعل فعل الحديد ، أشحة على الخير : أى بخلاء حريصين على مال الغنائم ، أحبط الله أعمالهم : أى أبطلها لإضمارهم الكفر ، لو أنهم بادون فى الأعراب : أى خارجون إلى العدو مقيمون بين أهله ، أسوة : أى قدوة ، والمراد به المقتدى به ، قضى نحبه : أى فرغ من نذره وَوفّى بعهده ، وصبر على الجهاد حتى استُشْهِد كحمزة ، ومُصْعَب بن عُمَيْر ، والغيظ : أشد الغضب ، وكفى الله المؤمنين القتال : أى وقاهم شره ، عزيزاً : أى غالبا مستوليا على كل شىء ، ظاهروهم : أى عاونوهم ، من أهل الكتاب : أى من بنى قريظة ، من صياصيهم : أى من حصونهم واحدها صِيصِيَة وهى كل مايمتنع به ؛ قال الشاعر :

فأصبحت الثيران صرْعَى وأصبحتْ نساء تميم يبتدِرْنَ الصياصيا

وقذف : أى ألقى ، والرعب : الخوف الشديد .

## المعنى الجملى

بعد أن أمر سبحانه عباده بتقواه ، وعدم الخوف من سواه ــ ذكر هنا تحقيق ماسلف فأبان أنه أنعم على عباده المؤمنين ، إذ صرف عنهم أعداءهم وهزمهم حين تألَّبُوا عليهم عام الخندق .

وتفصيل هذا على ماقاله أرباب السير : أن نفرا من اليهود قدموا على قريش فى شوال سنة خمس من الهجرة بمكة ، فدعَوْهم إلى حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا لهم : إن دينكم خير من دينه ، ثم جاءوا غطفان وقيسا وغَيْلان ، وحالفوا جميع هؤلاء أن يكونوا معهم عليه ، فخرجت هذه القبائل ومعها قادتها وزعماؤها .

ولما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بمسيرهم أمر المسلمين بحفر خندق حول المدينة بإشارة سلمان الفارسى ، وعمل فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون وأحكموه ؛ وكان رسول الله يرتجز بكلمات ابن رواحة ، ويقول :

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا

فأنزلنْ سكينة علينا وثبّت الأقدام إن لاقينا

وفى أثناء العمل برزت لهم صخرة بيضاء فى بطن الخندق فكسرت حديدهم وشَقّت عليهم ، فلما علم بها صلى الله عليه وسلم أخذ المِعْوَل من سلمان وضربها به ضربة صدعها و برَق منها برق أضاء ما بين لابتيها ( جانبى المدينة ) حتى كأنه مصباح فى جوف بيت مظلم ؛ فكبّر رسول الله صلى الله عليه وسلم تكبير فتح وكبر المسلمون وهكذا مرة ثانية وثالثة فكانت تضىء وكان التكبير ؛ ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ضربت ضربتى الأولى فبرق البرق الذى رأيتم فأضاء لى منها قصور الحِيرة ومدائن كسرى كأنها أنياب الكلاب ، وأخبرنى جبريل أن أمتى ظاهرة عليها ؛ ثم ضربت ضربتى الثانية ، فبرق البرق الذى رأيتم أضاء لى منها قصور قيصر من أرض الروم كأنها أنياب الكلاب ، فأخبرنى جبريل أن أمتى ظاهرة عليها ؛ ثم ضربت الثالثة فبرق البرق الذى قد رأيتم أضاء لى منها قصور صنعاء كأنها أنياب الكلاب ، فأخبرنى جبريل أن أمتى ظاهرة عليها ، فأبشروا ؛ فاستبشر المسلمون ، وقالوا : الحمد لله الذى صدقنا وعده ؛ فقال المنافقون : ألا تعجبون؟ يمنّيكم ويَعِدُكم الباطل ، ويخبركم أنه ينظر من يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى ، وأنها تفتح لكم وأنتم إنما تحفرون الخندق من الفرْق لا تستطيعون أن تبْرُزوا ، فنزل : ( وإذ يقول المنافقون ) الخ ، ونزل: ( قل اللهم مالك الملك ) الآية .

ولما اجتمع هؤلاء الأحزاب الذين حزّ بهم اليهود ، وأتَوْا إلى المدينة رأَوا الخندق حائلا بينهم و بينها ، فقالوا : والله هذه مكيدة ما كانت العرب تكيدها ، ووقعت

مصادمات بين القوم كرّا وفرّا، فمن المشركين من كان يقتحم الخندق فيُرْمَى بالحجارة ، ومنهم من كان يقتحمه بفرسه فيهْلِك .

ثم إن نُعَيْم بن مسعود بن عامر من غطفان أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعلمه أنه أسلم وأن قومه لم يعلموا بذلك ، فقال صلى الله عليه وسلم : إنما أنت فينا رجل واحد، فخذّل عنا إن استطعت ، فإن الحرب خُدَعة ، فأتى قُرَيْظة وقال لهم : لاتحاربوا مع قريش وغطفان إلا إذا أخذتم منهم رُهُنا من أشرافهم يكونون بأيديكم تقيّةً لكم على أن يقاتلوا معكم محمدا ، لأنهم رجعوا وسئموا حربه ، وإنكم وحدكم لاتقدرون عليه ، وذهب إلى قريش وإلى غطفان ، فقال لهم : إن اليهود يريدون أن يأخذوا منكم رُهُنا يدفعونها لمحمد ، فيضرب أعناقهم ، ويتحدون معه على قتالكم ، لأنهم ندموا على مافعلوا من نقض العهد وتابوا ، وهذا هو المَخْرَج الذى اتفقوا عليه .

وحينئذ تخاذل اليهود والعرب ، ودبّ بينهم دبيب الفشل . ومما زاد فى فشلهم أن بعث الله عليهم ريحا فى ليلة شاتية شديدة البرد ، فجعلت تَكْفِئُ قدورهم ، وتطرح آنيتهم .

وقد قام رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة يصلى على التّل الذى عليه مسجد الفتح ، ثم يلتفت ويقول : هل من رجل يقوم فينظر لنا مافعل القوم ؟ فعل ذلك ثلاث مرات ، فلم يقم رجل واحد ، من شدة الخوف ، وشدة الجوع ،وشدة البرد، فدعا حذيفة بن اليمان وقال : ألم تسمع كلامى منذ الليلة ؟ قال حذيفة : فقلت يارسول الله منعنى أن أجيبك الضُّر والقُرّ ، قال : انطلقْ حتى تدخل فى القوم، فتسمع كلامهم وتأتينى بخبرهم . اللهم احفظه من بين يديه ومن خلفه ، وعن يمينه وعن شماله ، حتى تردّه إلىّ ، انطلق ولا تُحْدِث شيئا حتى تأتينى ، فانطلق حذيفة بسلاحه ، ورفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده يقول : ياصريخ المكروبين ، ويامجيب المضطرين ، اكشف همّى وغمى وكربى ، فقد ترى حالى وحال أصحابى فنزل جبريل وقال : إن الله قد سمع دعوتك ، وكفاك هول عدوك ، فخر رسول الله صلى الله عليه وسلم على

ركبتيه ، وبسط يديه ، وأرخى عينيه ، وهو يقول : شكرا شكرا كما رحمتنى ورحمت أصحابى ، وذهب حذيفة إلى القوم ، فسمع أبا سفيان يقول : يامعشر قريش ، إنكم والله ماأصبحتم بدار مُقام ، لقد هلك الكُراع والُخفّ ، وأخلفتنا بنو قريظة ، وبلغنا عنهم الذى نكره ، ولقينا من هذه الريح ماترون ، فارتحلوا فإنى مرتحل ، فلما رجع أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فضحك حتى بدت أنيابه فى سواد الليل .

# الايضاح

( يأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها ) أى تذكروا أيها المؤمنون نعم الله التى أسبغها عليكم حين حوصرتم أيام الخندق ، وحين جاءتكم جنود الأحزاب من قريش وغطفان ، ويهود بنى النضير الذين كانوا أجلاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم من المدينة إلى خَيْبَر ، فأرسلنا عليهم ريحا باردة فى ليلة باردة أحْصَرَتْهم ، وسفت التراب فى وجوههم ، وأمر ملائكته ، فقلعت الأوتاد ، وقطعت الأطناب ، وأطفأت النيران ، وأكفأت القدور ، وماجت الخيل بعضها فى بعض ، وقُذِف الرعب فى قلوب الأعداء ، حتى قال طُلَيْحَة بن خويلد الأسدى : إن محمدا قد بدأكم بالسحر فالنجاء النجاء ، فانهزموا من غير قتال .

قال حذيفة بن اليمان وقد بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم ليأتى بخبر القوم : خرجت حتى إذا دنوت من عسكر القوم نظرت فى ضوء نار لهم توقد ، وإذا رجل أدهم ضخم (أبو سفيان) يقول : الرحيلَ الرحيلَ لامُقام لكم ، وإذا الرجل فى عسكرهم مايجاوز عسكرهم شبرا ، فوالله إنى لأسمع صوت الحجارة فى رحالهم وفُرُشهم ، والريح تضربهم ؛ ثم رجعت نحو النبى صلى الله عليه وسلم ؛ فلما صرت فى منتصف الطريق أو نحو ذلك إذا أنا بنحو عشرين فارسا معتمّين قالوا : أخبر صاحبك أن الله قد كفاك القوم .

والخلاصة : إنه تعالى يمتنّ على عباده المؤمنين بذكر النعم التى أنعم بها عليهم ، إذ صرف عنهم أعداءهم حين تألبوا عليهم وتحزبوا عام الخندق .

(وكان الله بما تعملون بصيرا) أى وكان الله عليما بجميع أعمالكم من حفركم للخندق ، وترتيب وسائل الحرب لإعلاء كلمته ، ومقاساتكم من الجهد والشدائد مالا حصر له ، بصيرا بها لايخفى عليه شىء منها ، وهو يجازيكم عليها « وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أحدًا » .

ثم زاد الأمر تفصيلا وبيانا ، فقال :

(إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم) أى حين جاءتكم الأحزاب من أعلى الوادى من جهة المشرق ، وكانوا من غطفان ، ومن تابعهم من أهل نجد ، ومن بنى قريظة والنضير من اليهود ، ومن أسفله من قبل المغرب ، وكانوا من قريش ، ومن شايعهم من الأحابيش ، وبنى كنانة وأهل تِهامة .

(وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا) أى وحين مالت الأبصار عن سَنَنها ، وانحرفت عن مستوى نظرها حَيْرة ودهشة ، وخاف الناس خوفا شديدا ، وفزعوا فزعا عظيما ، وظنوا مختلف الظنون ، فمنهم مؤمن مخلص يستنجز الله وعده فى إعلاء دينه ونصرة نبيه ، ويقول : هذا ماوعدنا الله ورسوله ، ومنهم منافق وفى قلبه مرض يظن أن محمدا وأصحابه سيُستأصَلُون ، ويستولى المشركون على المدينة ، وتعود الجاهلية سيرتها الأولى ، إلى نحو ذلك من ظنون لاحصر لها تجول فى قلوب المؤمنين والمنافقين ، على قدر مايكون القلب عامرا بالإخلاص مكتوبا له السعادة أو متشككا فى اعتقاده ليست له عزيمة صادقة .

ثم ذكر أن هذه الشدائد مَحَّصتِ المؤمنين ، وأظهرت المنافقين .

(هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا) أى حين ذاك اختبر الله المؤمنين ومحصهم أشد التمحيص ، فظهر المخلص من المنافق ، والراسخ الإيمان من المتزلزل ، واضطربوا اضطرابا شديدا من الفزع وكثرة العدو .

( وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ماوعدنا الله ورسوله إلا غرورا ) أى وحين قال المنافقون كمُعتِّب بن قُشَير ، والذين فى قلوبهم ضعف فى الإيمان لقرب عهدهم بالإسلام : ماوعدنا الله ورسوله من الظفر والنصر على العدو إلا وعدا باطلا يغرّنا به ويوقعنا فيما لاطاقة لنا به ، ويسلخنا عن دين آبائنا ، ويقول : إن هذا الدين سيظهر على الدين كله ، وإنه سيفتح لنا فارس والروم ، وهانحن أولاء قد حُصِرنا هاهنا حتى مايستطيع أحدنا أن يبرز لحاجته .

( وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لامقام لكم فارجعوا ) أى وحين قالت جماعة من المنافقين كعبد الله بن أبىّ وأصحابه : ياأهل المدينة ليس هذا المقام بمقام لكم فارجعوا إلى منازلكم ليكون ذلك أسلم لكم من القتل .

وقد يكون المعنى : لامقام لكم فى دين محمد فارجعوا إلى ما كنتم عليه من الشرك وأَسْلِموا محمدا إلى أعدائه.

( ويستأذن فريق منهم النبى يقولون إن بيوتنا عورة وماهى بعورة ) أى ويطلب جماعة منهم من النبى صلى الله عليه وسلم الرجوع إلى بيوتهم وتركهم للقتال ، وهم بنو حارثة ، معتذرين بمختلف المعاذير كقولهم : إن بيوتنا مما يلى العدو ذليلة الحيطان يُخاف عليها من السرّاق ، والحقيقة أنهم كاذبون فيما يقولون ، وهم مضمرون غير ذلك .

ثم بين السبب الحقيقى لهذه المقالة ، فقال :

(إن يريدون إلا فرارا) أى ومايريدون بالاستئذان إلا الفرار من القتال والهَرَب من عسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم وعدم مساعدة المؤمنين .

ثم بين وهن الدين وضعفه فى قلوبهم إذ ذاك ، وأنه معلق بخيط دقيق ينقطع بأدنى هزة ، فقال :

(ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لآتوها وماتلبثوا بها إلا يسيرا) أى ولو دخل عليهم الأحزاب من جوانب بيوتهم ، ثم طلبوا إليهم أن يرتدوا عن دينهم ويرجعوا إلى شركهم بربهم ــ لفعلوا ذلك مسرعين من شدة الهلع والجزع .

وفى هذا إيماء إلى أن الإيمان لاقرار له فى نفوسهم ، ولا أثر له فى قلوبهم ، فهو لايستطيع مقابلة الصعاب ، ولا مقاومة الشدائد ، فلا تعجب لاستئذانهم وطلبهم الهرب من ميدان القتال .

والخلاصة : إن شدة الخوف والهلع الذى تمكن فى قلوبهم مع خبث طويتهم ، وإضمارهم النفاق ـ تحملهم على الإشراك بالله والرجوع إلى دينهم عند أدنى صدمة تحصل لهم من العدو، فإيمانهم طِلاء ظاهرى لاأثر له فى نفوسهم بحال ، فلا عجب إذا هم تسللوا لواذا ، وبلغ الخوف من نفوسهم كل مبلغ .

ثم بين أن لهم سابقة عهد بالفرار وخوف اللقاء من الكماة ، فقال :

(ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لايولون الأدبار) أى ولقد كان هؤلاء المستأذنون وهم بنو حارثة قد هربوا يوم أُحد وفرّوا من لقاء عدوهم ، ثم تابوا وعاهدوا الله ألا يعودوا إلى مثلها وألا ينكثوا على أعقابهم حين قتالهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ثم بين ماللعهد من حرمة فقال :

(وكان عهد الله مسئولا) أى وعهد الله يُسْأَل عن الوفاء به يوم القيامة ويُجازَى عليه .

ثم أمر الله رسوله أن يقول لهم : إن فراركم لايؤخر آجالكم ، ولا يطيل أعماركم ، فقال :

(قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل) أى قل لهؤلاء المستأذنين الفارّين من قتال العدو ومنازلته فى الميدان : لن ينفعكم الهرب ولا يدفع عنكم ماأُبْرِم فى الأزل من موت أحدكم حتف أنفه ، أو قتله بسيف ونحوه فإن المقدّر كائن لامحالة والأجل إن حضر لم يتأخر بالفرار ، وكان علىّ يقول عند اللقاء : دَهَم الأمر ، وتوقَّد الجمر .

أىّ يومىّ من الموت أفرّ يومَ لايُقدر أم يوم قُدِرْ
يوم لايُقْدَر لا أرهَبُه ومن المقدور لايُنْجِى الحذَرْ

( وإذًا لاتمتَّعون إلا قليلا ) أى وإن نفعكم الفرار بأن دفع عنكم الموت فُتِّعتم لم يكن ذلك التمتع إلا قليلا ، فإن أيام الحياة وإن طالت قصيرة ، فعمر تأكله الدقائق قليل وإن كثر ، ولله درّ أحمد شوقى إذ يقول :

دقات قلب المرء قائلة له إن الحياة دقائق وثوانى

ولما كانوا ربما يقولون: بل ينفعنا لأنا طالما رأينا من هرب فسلم ، ومن ثبت فاصْطُلِم ــ أمره الله بالجواب عن هذا ، فقال :

( قل من ذا الذى يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءا أو أراد بكم رحمة ) أى قل لهم : لا أحد يستطيع أن يمنع عنكم شيرا من قتل أو بلاء قدره الله عليكم ، أو يؤتيكم خيرا إن لم يكن أراده لكم .

والخلاصة : هل احترزتم فى جميع أعمالكم عن سوء فنفعكم الاحتراز ، أو اجتهد غيركم فى منع الخير عنكم فتمّ له ما أراد ؟ .

وإجمال القول : إن النفع والضر بيده سبحانه ، وليس لغيره فى ذلك تصريف ولا تبديل .

ثم أكد هذا بقوله :

( ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا ) أى ولا يجد هؤلاء المنافقون وليا ينفعهم غير الله ، ولا نصيرا يدفع السوء عنهم .

وبعد أن أخبر سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم بمقالة المنافقين لأهل المدينة، وأمره بوعظهم ــ حذّرهم بدوام علمه بمن يخون الله ورسوله بقوله :

( قد يعلم الله المعوّقين منكم والقائلين لإخوانهم هلمّ إلينا ) أى إن ربك أيها الرسول ليعلم حق العلم من يثبّطون الناس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ويصدونهم

عنه ، وعن شهود الحرب معه نفاقا منهم وتخذيلا عن الإسلام ، ويعلم الذين يقولون لأصحابهم وخلطائهم من أهل المدينة : تعالَوْا إلى ما نحن فيه من الظلال والثمار ، ودَعُوا محمدا فلا تشهدوا معه مَشْهَدا ، فإنا نخاف عليكم الهلاك .

قال قتادة : كان المنافقون يقولون لإخوانهم من ساكنى المدينة من الأنصار : ما محمد وأصحابه إلا أكلَة رأس (يريدون أنهم قليلو العدد) ولو كانوا لحما لالتهمهم أبو سفيان وأصحابه ، فدعوه فإنه هالك .

( ولا يأتون البأس إلا قليلا ) أى ولا يأتون الحرب إلا زمنا قليلا ، فقد كانوا لا يأتون المعسكر إلا ليراهم المخلصون ، فإذا غفَلوا عنهم تسللوا لواذا وعادوا إلى بيوتهم .

ثم ذكر بعض معايبهم من البخل والخوف والفخْرِ الكاذب ، فقال :

(١) ( أشحة عليكم ) أى بخلاء عليكم بالنفقة والنصرة ، فهم لا يودون مساعدتكم لا بنفس ولا بمال .

(٢) ( فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت ) أى فإذا بدأ الخوف بكرّ الشجعان وفرّهم فى ميدان القتال — رأيتهم ينظرون إليك وقد دارت أعينهم فى رءوسهم فَرَقا وخوفا كدوران عين الذى قرب من الموت وغشيته أسبابه ، فإنه إذ ذاك يذهب لُبّه ، ويشْخَص بصره ، فلا يتحرك طرفه .

(٣) ( فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد ) أى فإذا كان الأمن تكلموا فصيح الكلام ، وفخروا بما لهم من المقامات المشهودة فى النجدة والشجاعة ، وهم فى ذلك كاذبون .

قال قتادة : أمَّا عند الغنيمة فأشح قوم وأسوؤه مقاسمة ، يقولون : أعطونا أعطونا قد شهدنا معكم ، وأما عند البأس فأجبن قوم وأخذله للحق اه .

ثم بين ما دعاهم إلى بسط ألسنتهم فيهم ، فقال :

( أشحة على الخير ) أى هم بخلاء حريصون على الغنائم إذا ظفر بها المؤمنون، لايريدون أن يفوتهم شىء مما وصل إلى أيديهم .

والخلاصة : إنهم حين البأس جبناء ، وحين الغنيمة أشحاء .

أفى السلم أعيارٌ جفاء وغلظةً			وفى الحرب أمثالُ النساء العَوَاتك

وبعد أن وصفهم بما وصفهم به من دنىء الصفات ــ بيّن ما دعاهم إليها ، وهو قلة ثقتهم بالله لعدم تمكن الوازع النفسى فى قلوبهم ، فقال :

(أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم) أى هؤلاء الذين بسطت أوصافهم لم يصدّقوا الله ورسوله ، ولم يخلصوا له العمل ، لأنهم أهل نفاق ، فأبطل الله أعمالهم ، وأذهب أجورها ، وجعلها هباء منثورا .

( وكان ذلك على الله يسيرا ) أى وكان ذلك الإحباط هيِّنا على الله لايبالى به ، إذ هم قوم فعلوا مايستوجبه ويستدعيه ، فاقتضت حكمته أن يعاملهم بما يقتضيه عدله ، وتدل عليه حكمته .

ثم أبان مقدار الجبن والهلع الذى لحق بهم ، فقال :

( يحسبون الأحزاب لم يذهبوا ) أى هم من شدة الهلع والخوف ، وعظيم الدهشة والحيرة ، لايزالون يظنون أن الأحزاب من غَطَفان وقريش لم يرحلوا ، وقد هزمهم الله ورحلوا ، وتفرقوا فى كل وادٍ .

وإجمال القول : إنهم لما لم يقاتلوا لجبنهم ، وضعف إيمانهم ، فكأنهم غائبون ، فظنوا أن الأحزاب لم يرحلوا ، وقد كانوا راحلين منهزمين لايلوون على شىء .

( وإن يأت الأحزاب يودوا لو أنهم بادون فى الأعراب يسألون عن أنبائكم ) أى وإن يأت الأحزاب ويعودوا مرة أخرى تمنَّوْا أن لو كانوا مقيمين فى البادية بعيدين عن المدينة ، حتى لاينالهم أذى ولامكروه ، ويكتفون بأن يسألوا عن أخباركم كل قادم من جانب المدينة ، وفى هذا كفاية لديهم لجبنهم ، وخَوَر عزائمهم .

( ولو كانوا فيكم ماقاتلوا إلا قليلا ) أى ولو كان هؤلاء المنافقون فيكم فى الكرة

السابقة ، ولم يرجعوا إلى المدينة ، وكان القتال قتال جِلاد وكرّ وفرّ ، وطعن وضرب ، ومحاربة بالسيوف ، ومبارزة فى الصفوف ـ ماقاتلوا إلا قتالا يسيرا رياء وخوفا من العار ، لاقتالا يحتسبون فيه الثواب من الله وحسن الأجر .

وبعد أن فصّل أحوالهم ، وشرح نذالتهم ، وعظيم جبنهم ـ عاتبهم أشد العتب ، وأبان لهم أنه قد كان لهم برسول الله مُعْتَبَر لو اعتبروا ، وأسوة حسنة لو أرادوا التأسى ، فقال :

( لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا ) أى إن المُثُل العالية ، والقدوة الحسنة ماثلة أمامكم لو شئتم ، فتحتذون الرسول فى أعماله ، وتسيرون على نَهْجه لو كنتم تبتغون ثواب الله ، وتخافون عقابه إذا أزفت الآزفة ، وعدِم النصير والمعين ، إلا العمل الصالح ، وكنتم تذكرون الله ذكرا كثيرا، فإن ذكره يؤدى إلى طاعته، ويحقق الائتساء برسوله .

وخلاصة ذلك: هلا اقتديتم بالرسول ، وتأسيتم بشمائله ؟ .

ولما ذكر سبحانه حال المنافقين ـ ذكر حال المؤمنين حين لقاء الأحزاب ، فقال :

( ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ماوعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله ومازادهم إلا إيمانا وتسليما ) أى ولما أبصر المؤمنون الصادقون المخلصون لله فى القول والعمل ـ الأحزاب الذين أدهشت رؤيتهم العقول ، وتبلبلت لها الأفكار ، واضطربت الأفئدة ـ قالوا : هذا ماوعدنا الله ورسوله من الابتلاء والاختبار الذى يعقبه النصر فى نحو قوله : « أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ ؟ أَلاَ إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ » وقوله : « أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ » وقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « سيشتد الأمر باجتماع الأحزاب عليكم ، والعاقبة لكم عليهم » وقوله : « إنهم سائرون إليكم تسعا أو عشرا » أى فى آخر تسع ليال أو عشر من حين الإخبار .

وصدق الله ورسوله فى النصرة والثواب ، كما صدق الله ورسوله فى البلاء والاختبار، ومازادهم ذلك إلا صبرا على البلاء ، وتسليما للقضاء ، وتصديقا بتحقيق ما كان الله ورسوله قد وعدهم .

ثم وصف سبحانه بعض الكملة من المؤمنين الذين صدقوا عند اللقاء ، واحتملوا البأساء والضراء ، فقال:

( من المؤمنين رجال صدقوا ماعاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر وما بدّلوا تبديلا ) أى ومن المؤمنين بالله ، المصدقين برسوله ، رجال أوْفُوا بما عاهدوا الله عليه من الصبر فى اللأواء وحين البأساء ، فاستُشْهِد بعض يوم بدر ، و بعض يوم أُحد ، و بعض فى غير هذه المواطن ، ومنهم من ينتظر قضاءه والفراغ منه كما قضى من مضى منهم على الوفاء لله بعهده ، وماغيّروه وما بدلوه .

أخرج الإمام أحمد ومسلم والترمذى والنسائى فى جماعة آخرين عن أنس قال : « غاب عمى أنس بن النضر عن بدر ، فشق عليه ، وقال : أول مشهد شهده رسول الله صلى الله عليه وسلم غبت عنه ، لئن أرانى الله تعالى مشهدا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما بعد لَيَرَيَنّ الله تعالى ما أصنع، فشهد يوم أُحد ، فاستقبله سعد بن مُعاذ رضى الله عنه، فقال: يا أبا عمرو إلى أين؟ قال: واها لريح الجنة أجدها دون أُحد ، فقاتل حتى قُتِل ، فوُجد فى جسده بضع وثمانون من ضربة وطعنة ورمية ، ونزلت هذه الآية: ( من المؤمنين رجال صدقوا ماعاهدوا الله عليه ) الخ .

وروى صاحب الكشاف أن رجالا من الصحابة نذروا أنهم إذا لَقُوا حربا مع رسول الله ثبتوا وقاتلوا حتى يستشهدوا ، وهم عثمان بن عفان ، وطلحة بن عبيد الله ، وسعيد بن زيد ، وحمزة ومُصْعب بن عُمَير، وجمع غيرهم .

ثم بيّن العلة فى هذا الابتلاء والتمحيص، فقال:

( ليجزى الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم )

أى إنه سبحانه إنما يختبر عباده بالخوف والزلزال ليميز الخبيث من الطيب ، ويظهر أمر كل منهما جليا واضحا كما قال : « وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ » وقال : « مَا كَانَ اللهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ » ثم يثيب أهل الصدق منهم بصدقهم بما عاهدوا الله عليه ، ووفائهم له به ، ويعذب المنافقين الناقضين لعهده ، المخالفين لأوامره ، إذا استمروا على نفاقهم حتى يلقوه ، فإن تابوا ونزعوا عن نفاقهم ، وعملوا صالح الأعمال غفر لهم ما أسلفوا من السيئات ، واجترحوا من الآثام والذنوب .

ولما كانت رحمته ورأفته بخلقه هى الغالبة قال :

( إن الله كان غفورا رحيما ) أى إنه تعالى من شأنه الستر على ذنوب التائبين والرحمة بهم ، فلا يعاقبهم بعد التوبة ، وفى هذا حثٌّ عليها فى كل حين، وبيان نفعها للتائبين .

ثم رجع يحكى بقية القصص وفصّل ذلك تتميما للنعمة التى أشار إليها إجمالا بقوله : « فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها » ووسط بينهما بإيضاح ما نزل بهم من الطامة التى تحير العقول والأفهام ، والداهية التى زلت فيها الأقدام ، وما صدر من الفريقين المؤمنين وأهل الكفر والنفاق من الأحوال والأقوال ، لإظهار عظمة النعمة ، وإبانة جليل خطرها ، ومجيئها حين اشتداد الحاجة إليها فقال :

(وردّ الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال) أى فأرسلنا ريحا وجنودا لم تروها ، ورددنا الذين كفروا بالله ورسوله من قريش وغطفان بغمّهم ، بفوت ما أمّلوا من الظفَر ، وخيبتهم فيما كانوا طمعوا فيه من الغلَبة والنصر على محمد وصحبه ، إذ لم يصيبوا مالاً ولا إسارا ، ولم يحتج المؤمنون إلى منازلتهم ومبارزتهم لإجلائهم عن بلادهم ، بل كفى الله المؤمنين القتال ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده . فلاشىء بعده .

روى الشيخان من حديث أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول «لا إله إلا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده ، فلا شىء بعده» .

ورويا أيضا عن عبد الله بن أوفى قال : « دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم على الأحزاب فقال : اللهم منزّلَ الكتاب، سريع الحساب ، اهزم الأحزاب ، اللهم اهزمهم وزلزلهم » .

وروى محمد بن إسحاق أنه لما انصرف أهل الخندق عن الخندق قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا ، ولكنكم تغزونهم » وقد تحقق هذا فلم تغزهم قريش بعد ذلك ، بل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يغزوهم حتى فتح الله تعالى مكة .

( وكان الله قويًّا عزيزا ) أى وكان الله عزيزا بحوله وقوته ، فردّهم خائبين لم ينالوا خيرا .

ولما قص أمر الأحزاب وذكر ما انتهى إليه أمرهم ذكر حال من عاونوهم من اليهود فقال :

( وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم ) أى وأنزل الله يهود بنى قريظة الذين عاونوا الأحزاب على رسول الله صلى الله عليه وسلم من حصونهم بعد أن نقضوا العهد بسفارة حُيىّ بن أخطب النضيرى ، إذ لم يزل بزعيمهم كعب بن أسد حتى نقض العهد وكان مما قاله له : جئتك بعزّ الدهر ، أتيتك بقريش وأحابيشها ، وغطفان وأتباعها ، ولا يزالون هاهنا حتى يستأصلوا محمدا وأصحابه ، فقال له كعب : بل والله جئتنى بذُلّ الدهر ، ويحك ياحيىّ إنك مشئوم ، فدعنا منك ، فلم يزل يفتل له فى الذورة والغارب (يخادعه) حتى أجابه ، واشترط له حيىّ إن ذهب الأحزاب ولم يكن من أمرهم شىء أن يدخل معهم فى الحصن فيكون أسوتهم .

ولما أيد الله المؤمنين وكبت أعداءهم وردهم خائبين ورجعوا إلى المدينة ووضع الناس

السلاح - أُوحِى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن انهض إلى بنى قريظة من فَوْرِك، فأمر الناس بالسير إليهم ، وكانوا على أميال من المدينة بعد صلاة الظهر وقال صلى الله عليه وسلم « لا يُصلينّ أحد منكم العصر إلا فى بنى قريظة » فسار الناس فأدركتهم الصلاة، فصلى بعض فى الطريق ، وقال آخرون : لا نصليها إلا فى بنى قريظة فلم يعنِّف واحدا من الفريقين .

( وقذف فى قلوبهم الرعب فريقا تقتلون وتأسرون فريقاً ) أى وألقى الرعب فى قلوبهم حين نازلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وحاصرهم خمسا وعشرين ليلة ، فنزلوا على حكم سعد بن مُعاذ سيد الأوس ؛ لأنهم كانوا حلفاءهم ، فأحضره رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له : إن هؤلاء نزلوا على حكمك فاحكم فيهم بما شئت ، فقال رضى الله عنه : وحكمى نافذ فيهم ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « نعم » فقال إنى أحكم أن تقتل مقاتِلتهم وتسْبى ذريتهم وأموالهم ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « لقد حكمتَ فيهم بحكم الله وحكم رسوله » ثم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأخاديد فَخُدّتْ فى الأرض وجىء بهم مكتوفى الأيدى فضُرِبت أعناقهم وكانوا ما بين سبعمائة وثمانمائة وسَبَى من لم ينبُت منهم مع النساء ، وسبى أموالهم .

والخلاصة - إنه قذف الرعب فى قلوبهم ، حتى أسلموا أنفسهم للقتل ، وأهليهم وأموالهم للأَسر .

( وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطئوها ) أى وأورثكم مزارعهم ونخيلهم ، ومنازلهم وأموالهم التى ادّخروها ، وماشيتهم من كل ثاغية وراغية ، وأرضاً لم تطئوها وهى الأرضون التى سيفتحها المسلمون حتى يوم القيامة ، قاله عِكْرِمة واختاره أبو حيان .

( وكان الله على كل شىء قديراً ) أى وكان الله قديراً على أن يورّثكم ذلك ، وعلى أن ينصركم عليهم ، إذ لا يتعذر عليه شىء أراده ، ولا يمتنع عليه فعل شىء شاءه .

يَأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (٢٨) وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا (٢٩) يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (٣٠) .

## تفسير المفردات

زينة الدنيا : زخرفها ونعيمها ، فتعالين : أى أقبلن باختياركن واخترن أحد الأمرين ، أمتعكن : أى أعطكن المتعة ، وهى قميص وغطاء للرأس ومِلْحَفة ـ مُلاءة ـ بحسب السعة والإقتار ، وأسرحكن :أى أطلقكن ، سراحا جميلا : أى طلاقا من غير ضرار ولا مخاصمة ولا مشاجرة ، بفاحشة : أى فعلة قبيحة كنشوز وسوء خلق واختيار الحياة الدنيا وزينتها على الله ورسوله ، مبينة : أى ظاهرة القبح من قولهم : بيّن كذا بمعنى ظهر وتبين ، ضعفين : أى ضعفى عذاب غيرهن أى مثليه ، يسيرا : أى هيّنًا لا يمنعه عنه كونهن نساء النبى ، بل هذا سبب له .

## المعنى الجملى

بعد أن نصر الله نبيه صلى الله عليه وسلم ، فردّ عنه الأحزاب ، وفتح عليه قريظة والنضير ، ظن أزواجه رضى الله عنهن أنه اختص بنفائس اليهود وذخائرهم فقعدن حوله وقلن يارسول الله : بنات كسرى وقيصر فى الحلى والحلل ، والإماء والخَوَل ـ الخدم والحشم ـ ونحن على ماتراه من الفاقة والضيق ، وآلمن قلبه الشريف بمطالبهن من توسعة الحال ومعاملتهن معاملة نساء الملوك وأبناء الدنيا من التمتع بزخرفها من المآكل والمشرب ونحو ذلك فأمره الله تعالى أن يتلو عليهن مانزل فى شأنهن :

روى أحمد عن جابر رضي الله عنه قال : « أقبل أبو بكر رضى الله عنه يستأذن على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والناس ببابه جلوس ، والنبي صلى الله عليه وسلم جالس فلم يؤ ، ثم أقبل عمر رضى الله عنه فاستأذن فلم يؤذن له ، ثم أذن لأبى بكر وعمر رضى الله عنهما فدخلا ، والنبى صلى الله عليه وسلم جالس وحوله نساؤه وهو ساكت ، فقال عمر لأكلمنّ النبى صلى الله عليه وسلم لعله يضحك ، قال : يارسول الله ! لو رأيت ابنة زيد ــ امرأة عمر ــ سألتنى النفقة آنفاً فوجأت عنقها ، فضحك النبى صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه وقال «هنّ حولى يسألننى النفقة» فقام أبو بكر إلى عائشة ليضربها ، وقام عمر إلى حفصة ، كلاهما يقول : تسألان النبى صلى الله عليه وسلم ماليس عنده ، فنهاهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلن : والله لانسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هذا المجلس ماليس عنده ، وأنزل الله عز وجل الخيار ، فبدأ بعائشة رضى الله عنها فقال لها إنى أذكر لكِ أمراً ماأحب أن تعجَلى فيه حتى تستأمرى أبويك ، قالت وما هو ؟ فتلا عليها : « يأيها النبى قل لأزواجك » الآية . قالت عائشة رضى الله عنها : أفيك أستأمر أبوىّ ؟ بل أختار الله تعالى ورسوله ، وأسألك ألا تذكر لامرأة من نسائك مااخترتُ ، فقال صلى الله عليه وسلم « إن الله تعالى لم يبعثنى معنفاً ولكن بعثنى مُعَلِّماً ميسراً ، لاتسألنى امرأة منهن عما اخترتِ إلا أخبرتها » رواه مسلم والنسائى .

ثم وعظهن بعد أن اخترن الله ورسوله والدار الآخرة وخصهن بأحكام يجدر بمثلهن أن يستمسكن بها لما لَهُنَّ من مركز ممتاز بين نساء المسلمين ، لأنهن أمهات المؤمنين ، وموضع التجلة والكرامة ، إلى أنهن فى بيت صاحب الدعوة الإسلامية ، ومنه انبعث نور الهدى والطهر والعفاف ، فأجدِرْ بهن أن يكنّ المُثُل العليا فى ذلك ، ويكنّ قدوة يأتسى بهن نساء المؤمنين جميعا ، ويالها منقبة أوتيت لمن دون سعى ولا إيجاف منهن ، بل هى منحة أكرمهن الله بها ، فله الحمد فى الآخرة والأولى .

## الايضاح

( يأيها النبى قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكنّ سراحا جميلا ) أى يأيها الرسول قل لأزواجك : اخترن لأنفسكن إحدى خلتين : أولاهما أن تكنّ ممن يحببن لذّات الدنيا ونعيمها والتمتع بزخرفها فليس لكنّ عندى مقام ، إذ ليس عندى شىء منها ، فأقبلن علىّ أعطكن ماأوجب الله على الرجال للنساء من المتعة عند فراقهم إياهن بالطلاق ، تطييباً لخاطرهن وتعويضا لهن عما لحقهن من ضرر بالطلاق ، وهى كسوة تختلف بحسب الغنى والفقر واليسار والإقتار كما قال تعالى : « وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ » ثم أسرحكن وأطلقن على ماأذن الله به وأدّب به عباده بقوله : « إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ » وكان عند رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ تسع نسوة : خمس من قريش : عائشة وحفصة وأمّ حَبيبة وسَوْدة وأم سلَمة رضى الله عنهن ؛ وأربع من غير القرشيات : زينب بنت جحش الأسدية ، وميمونة بنت الحٰرث الهلالية ، وصفِيّة بنت حيّ بن أخطب النضيرية ، وجُوَيْرِية بنت الحارث المصطلقية .

وحين نزلت هذه الآية عرض عليهن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك وبدأ بعائشة وكانت أحبّ أهله إليه فخيّرها وقرأ عليها القرآن فاختارت الله ورسوله والدار الآخرة ، ففرح رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم تابعها بقية نسائه .

ثم ذكر ثانية الخلتين فقال :

( وإن كنتنّ تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعدّ للمحسنات منكن أجرا عظيما ) أى وإن كنتن تردن رضا الله ورضا رسوله وثواب الدار الآخرة فأطعنهما فإن الله أعد للمحسنات منكن فى أعمالهن القولية والفعلية ثوابا عظيما تُستَحْقَر الدنيا وزينتها دونه ، كِفاء إحسانهن .

والخلاصة — أنتنّ بين أحد أمرين : أن تقمن مع الرسول وترضين بما قسم لكن وتطمن الله ، وأن يمتعكن ويفارقكن إن لم ترضين بذلك .

وبعد أن خيرهن واخترن الله ورسوله — أتبع ذلك بعظتهن وتهديدهن إذا هن فعلن مايسوء النبى صلى الله عليه وسلم وأوعدهن بمضاعفة العذاب فقال :

( يانساء النبى من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين وكان ذلك على الله يسيرا ) أى من يعص منكن الرسول صلى الله عليه وسلم ويطلب مايشق عليه ويضق به ذرعا ويغتم لأجله — يضاعف لها العذاب يوم القيامة ضعفين ، أى تعذب ضعفى عذاب غيرها ، لأن قبح المعصية منهن أشد ، ومن ثم كان ذم العقلاء للعالم العاصى أشد منه للجاهل العاصى ، وكان ذلك سهلا يسيرا على الله الذى لايحابى أحداً لأجل أحد ، إذ كونهن نساء رسوله ليس بمغن عنهن شيئا ، بل هو سبب لمضاعفة العذاب .

روى أن رجلا قال لزين العابدين رضى الله عنه : إنكم أهل بيت مغفور لكم ، فغضب وقال : نحن أحرى أن يجرى فينا ما أجرى الله فى أزواج النبى صلى الله عليه وسلم من أن نكون كما قلت ، إنا نرى لمحسننا ضعفين من الأجر ، ولمسيئنا ضعفين من العذاب وقرأ هذه الآية والتى بعدها .

وإلى هنا تم ما أردنا من تفسير هذا الجزء من كلام ربنا القديم ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله ، والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات .

وكان الفراغ من مسودّته صبيحة يوم الثلاثاء لسبع بقين من جمادى الآخرة من سنة أربع وستين وثلثمائة وألف من الهجرة النبوية بحلوان من أرباض القاهرة كورة الديار المصرية .

# فهرست

## أهم المباحث العامة التى فى هذا الجزء

الصفحة المبحث

٥ جدال المشركين بالغلظة ، وجدال أهل الكتاب بالحسنى إلا الذين جحدوا وجه الحق ولم يقبلوا النصح .
٥ فى الحديث « لاتصدّقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم » .
٦ الحكمة فى كون الرسول أميا .
٦ لايكذب بالقرآن إلا من يستر الحق بالباطل .
٧ فى الحديث « مامن نبى إلا وقد أعطى ما آمن على مثله البشر » .
٨ طلب المشركون من النبى صلى الله عليه وسلم أن يأتيهم بمعجزة محسوسة .
١٠ أمر الرسول صلى الله عليه وسلم أن يقول للمشركين كفى بالله بينى و بينكم شهيداً .
١٢ استعجال المشركين لنزول العذاب .
١٢ بيان جهلهم فى هذا الاستعجال .
١٣ الأمر بالهجرة عند خوف الفتنة فى الدين .
١٥ الموت فى كل حين ينشد الكفنا .
١٥ جزاء المؤمنين الصالحين الصابرين المتوكلين .
١٧ المشركون لاينكرون أن الله خالق السموات والأرض .
١٧ سعة الرزق وضيقه بحسب السنن التى وضعت فى الكون .
١٩ الدنيا لعب ولهو ، والحياة الحقة هى دار الآخرة .

| الصفحة | المبحث |
| --- | --- |
| ٢١ | كان المشركون إذا اشتدّ بهم الخوف دعوا الله ، و إذا أمنوا كفروا به . |
| ٢١ | معرفة الله فى فطرة كل إنسان . |
| ٢٢ | الامتنان على قريش بسكنى حرم الله . |
| ٢٣ | مثوى الكافرين جهنم و بئس القرار . |
| ٢٣ | الذين اهتدوا يزيدهم الله هدى . |
| ٢٤ | الإحسان أن تحسن إلى من أساء إليك . |
| ٢٥ | خلاصة ماتضمنته سورة العنكبوت . |
| ٢٦ | الصلة بين سورتى العنكبوت والروم . |
| ٢٧ | فرح المشركين بغلبة فارس للروم . |
| ٢٧ | الخطَر الذى قدّمه أبو بكر لمن ناحبه. |
| ٢٨ | الحروف المقطعة فى أوائل السور . |
| ٢٨ | غلبة الروم لفارس كما وعد الله ، وفرح المؤمنين بذلك . |
| ٢٩ | الكافرون غافلون عن الآخرة . |
| ٣٠ | الأدلة متظاهرة فى الأنفس والآفاق على وحدانية الله . |
| ٣ | يوم تقوم الساعة يتفرق الناس ، ففريق فى الجنة وفريق فى السعير |
| ٣٤ | مايوصل إلى الجنة و يبعد عن النار . |
| ٣٦ | صفات الإله المستحق للثناء والتقديس . |
| ٣٧ | الأدلة على البعث والإعادة فى خلق الإنسان . |
| ٣٩ | الأدلة فى الأكوان المشاهدة والعوالم المختلفة . |
| ٤٢ | فى الحديث « كذّبنى ابن آدم ولم يكن له ذلك » الخ . |
| ٤٣ | ضرب الأمثال على الوحدانية . |

| الصفحة | المبحث |
|---|---|
| ٤٥ | أمره صلى الله عليه وسلم بعدم المبالاة بأمر المشركين وبإقامة وجهه لهذا الدين القيم . |
| ٤٦ | العقل الإنسانى كصحيفة بيضاء قابلة لكل نقش . |
| ٤٧ | فى الحديث « اعبد الله كأنك تراه » الخ . |
| ٤٧ | اختلاف أهل الأديان فرقا وشيعا . |
| ٥١ | أمره صلى الله عليه وسلم بالإنفاق على ذوى القربى والفقراء والمساكين للتكافل بين الأسرة الخاصة والعامة . |
| ٥٤ | تهديد المشركين بالنظر إلى أن من كان قبلهم كانت عاقبتهم النكال والوبال . |
| ٥٨ | الأدلة على وجود الخالق ووحدانيته . |
| ٦٠ | البرهان على البعث والنشور . |
| ٦٥ | من الأدلة على وجود الخالق تنقل الإنسان فى أطوار مختلفة . |
| ٦٦ | يوم تقوم الساعة يقسم المجرمون مالبثوا غير ساعة . |
| ٦٧ | يوم القيامة لاينفع الظالمين معاذيرهم عما فعلوا . |
| ٦٨ | الرسول أدى واجبه ومن خالفه فهو معاند . |
| ٦٩ | أمره صلى الله عليه وسلم بتلقى المكاره بصدر رحب وسعة حلم |
| ٧٠ | خلاصة مااحتوت عليه سورة الروم من الموضوعات الكريمة . |
| ٧١ | المناسبة بين سورتى الروم ولقمان . |
| ٧٢ | القرآن هدى ورحمة للمحسنين : |
| ٧٣ | ما كان يفعله النضر بن الحارث عند سماع القرآن . |
| ٧٤ | آراء العلماء فى سماع الغناء : |

| الصفحة | المبحث |
|---|---|
| ٧٥ | جواز استعمال الطبل والدفّ فى إعلان النكاح . |
| ٧٧ | الاستدلال على وحدانية الله . |
| ٧٨ | حكمة لقمان . |
| ٧٩ | عظة لقمان لابنه . |
| ٨٢ | وصيته سبحانه بحسن معاملة الوالدين . |
| ٨٢ | تأكيد الوصية بالأم خاصة . |
| ٨٣ | حديث سعد بن أبى وقاص مع أمه . |
| ٨٤ | وصية لقمان لابنه بإقامة الصلاة . |
| ٨٥ | تحذيره لابنه من تصعير الخد مرحا . |
| ٨٦ | الأمر بغضّ الصوت . |
| ٨٩ | تقليد المشركين للآباء والأجداد . |
| ٩٠ | حال المستسلم المفوض أمره إلى الله . |
| ٩٢ | المشركون يقرون بأن خالق السموات والأرض هو الله . |
| ٩٤ | عظمة الله لايحيط بها أحد . |
| ٩٧ | الدلائل الأرضية على وحدانية الله سبحانه . |
| ٩٨ | الأمر بتقوى الله وخشيته خوفا من ذلك اليوم الذى لاينفع فيه مال ولا بنون |
| ٩٩ | التحذير من غرور الدنيا والشيطان . |
| ١٠٠ | خمس لايعلمهن إلا الله . |
| ١٠١ | مجمل سورة لقمان . |
| ١٠٢ | وجه اتصال السجدة بلقمان . |

الصفحة المبحث


١٠٤ الأيام الستة التى خلق الله فيها العالم .

١٠٥ ماذا يراد باليوم الذى هو كألف سنة ؟ .

١٠٥ أطوار خلق الإنسان .

١٠٦ استبعاد المشركين للبعث وأسباب ذلك .

١٠٨ حال المشركين حين معاينة العذاب .

١١٠ علامات أهل الإيمان .

١١٥ مآل المؤمن والكافر .

١١٦ انتقام الله من المجرمين.

١١٨ أدلة التوحيد .

١٢٠ استبعاد المشركين حصول النصر للنبى صلى الله عليه وسلم .

١٢٢ مجمل ما اشتملت عليه سورة السجدة .

١٢٣ سورة الأحزاب .

١٢٤ أمر النبى بتقوى الله ونهيه عن طاعة الكافرين والمنافقين .

١٢٥ أمر النبى بالتوكل عليه وتفويض الأمور إليه وحده .

١٢٦ لايجتمع خوف من الله وخوف من سواه .

١٢٧ لاتجتمع الزوجية والأمومة فى امرأة .

١٢٩ أبوة محمد صلى الله عليه وسلم للمؤمنين أشرف لهم من أبوّة النسب .

١٣٠ قال عمر : يارسول الله لأنت أحب إلىّ من كل شىء الخ .

١٣١ كان التوارث فى بدء الإسلام بالحلف والمؤاخاة بين المسلمين .

١٣٢ أخذ الميثاق على الرسل .

| الصفحة | المبحث |
| --- | --- |
| ١٣٣ | غزوة الأحزاب ـ وقعة الخندق . |
| ١٣٧ | سياسة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحسن تدبيره فى هذه الموقعة . |
| ١٤٠ | الشدائد تمحص المؤمن وتظهر نفاق المنافق . |
| ١٤١ | تحريض المنافقين للجند بالفرار من الموقعة . |
| ١٤٢ | لاينفع حذر من قدر . |
| ١٤٣ | النفع والضر بيد الله . |
| ١٤٤ | ذكر معايب المنافقين . |
| ١٤٥ | وصف المنافقين . |
| ١٤٦ | حال المؤمنين عند لقاء الأحزاب . |
| ١٤٧ | بعض الـكملة من المؤمنين الذين صدقوا عند اللقاء . |
| ١٤٨ | كفى الله المؤمنين القتال . |
| ١٤٩ | ذكر ما حل باليهود بعد الموقعة . |
| ١٥٠ | اليهود أسلموا أنفسهم للقتل ، وأهليهم وأموالهم للأسر . |
| ١٥١ | تخيير النبى صلى الله عليه وسلم لنسائه . |
| ١٥٢ | وعظ نساء النبى وتخصيصهن بأحكام يجدر بمثلهن أن يستمسكن بها . |

